

نهاية الأرب في فنون الأدب

تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري

المتوفى ٧٣٣ هـ

٢١ - ٢٢

تحقيق

الأستاذ عبد المجيد ترحيني

منشورات

محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

منشورات محمد علي بيضون



دار الكتب العلمية

الطبعة الأولى
٢٠٠٤ م - ١٤٢٤ هـ

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

رمل الظريف - شارع البحتري - بناية ملكارت
الإدارة العامة: عرمون - القبة - مبنى دار الكتب العلمية
هاتف وفاكس: ٨٠٤٨١٠/١١/١٢/١٣ (٥ ٩٦١+)
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beirut - Lebanon
Raml Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg. 1st Floor
Head office
Aramoun - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.O.Box: 11-9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban
Raml Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1er Étage
Administration général
Aramoun - Imm. Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
B.P: 11-9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-3883-9



http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ذكر أخبار المختار
ابن أبي عبيد بن مسعود الثقفي

كان المختارُ بنُ أبي عُبَيْد ممن بايع مُسلم بْنَ عَقيل لما بعثه الحُسَين بن عليّ رضي الله عنهما إلى الكوفة وأنزله في داره، ودعا إليه. فلما ظهر ابنُ عقيل كان المختارُ في قرية تدعى لقف[1]، فأتاه الخَبَرُ بظُهورِه، فأقبل في مَوالِيه إلى باب الفِيل بعد المغرب، وقد أجلس عُبَيْدُ الله بن زياد عَمْروَ بن حُريث بالمسجد ومعه رَايَةٌ، فبعث إلى المُخْتَار وأمَّنَه، فجاء إليه.

فلما كان من الغد ذكر عمارة بن عُقْبة أمْره لعُبَيْد الله، فأحضره، وقال له: أنت المُقْبِلُ في الجموع لِتَنْصُر ابْنَ عقيل! قال: لم أفعل، ولكني أقبلْتُ ونزلْتُ تحت رايةِ عَمْارة، فشهد له عَمْرو بذلك، فضرب ابنُ زياد وَجْهَ المختار بقَضِيبٍ فشَتَر[2] عَيْنَه وقال: لولا شهادتُه قتلْتُك. وحَبَسه إلى أن قُتِل الحُسَيْن فبعث المختارُ إلى عَبْد الله بن عمر بن الخطَّاب يسأله أن يَشْفَع له فيه، وكان زوج أُخته صفية بنتِ أبي عبيد، فكتب ابْنُ عمر إلى يزيد بن معاوية يشفع فيه، فأمر يزيدُ ابْنَ زيادٍ بإطلاقه، فأطلقه وأمره ألاَّ يُقيم غيرَ ثلاث.

فخرج المختارُ إلى الحجاز، واجتمع بعَبْد الله بن الزبير وأخبره خبرَ العراق، وقال له: ابسُط يدَك أُبايعْك، وأعْطِنا ما يُرضينا، وثِبْ على الحجاز، فإنَّ أهلَه معك؛ وكان ابنُ الزبير يَدْعُو لنفسه سرًّا، فكتم أمرَه عن المختار ففارقه إلى الطائف، وغاب

---

(١) لقف: بفتح أوله وسكون ثانيه. . : ماء آبار كثيرة عذب ليس عليها مزارع ولا نخل فيها لغلظ موضعها وخشونته، وهو بأعلى قوران واد من نايحة السوارقية على فرسخ. . (معجم البلدان لياقوت).

(٢) شتر عينه: شقها، أو قلب جفنها.

عنه سنَةً ثم سأل عنه ابن الزبير، فقيل له: إنه بالطائف، وإنه يَزْعم أنه صاحب الغَضَب ومُبيدُ الجبّارين، فقال ابْنُ الزبير: قاتله الله، لقد اتبعت كذابًا متكِّهنًا، إن يُهلِك الله الجبَّارين يكن المختار أوّلَهم.

فبينا هو في حديثه إذ دخل المختار، فطاف وصلَّى ركعتيْن، وجلس وأتاه معارِفُه يحدّثونه، ولم يأْتِ ابنَ الزبير، فوضع ابن الزبير عليه عباس بن سَهْل بن سَعْد، فأتاه، وسأله عن حاله، ثم قال له: مثلُك يغيبُ عن الَّذي قد اجتمع عليه الأشرافُ من قُريش والأنصار وثَقِيف؟ ولم تبق قبيلة إلا وقد أتاه زعيمُها، فبايعْ هذا الرجل.

فقال: إني أتيتُه في العام الماضي فكتم عني خَبَره، فلما استغنى عنِّي أحببْتُ أن أُرِيَه أنِّي مستَغْنٍ عنه، فقال له العباس: الْقَه الليلة وأنا معك، فأجابه إلى ذلك، وحضر عند ابْنِ الزُّبير بعد العَتَمة، فقال له المختار: أُبايعك على ألاَّ تُقْضَى الأُمورُ دوني، وعلى أن أكونَ أوَّل داخلٍ عليك، وإذا ظهرتَ استعنت بي عَلَى أفضل عَمَلِك.

فقال ابنُ الزبير: أُبايعك على كتابِ الله وسنَّة رسوله. فقال: وشرّ غلماني تبايعه على ذلك، والله لا أُبايعك أبدًا إلاَّ عَلَى ذلك، فبايعه وأقام عنده، وشهد معه قتالَ الحُصين[1]، وكان أشدّ الناسِ على أهل الشام، فلمَّا مات يزيد وأطاع أهلُ العراق عبْدَ الله بن الزبير، أقام المختار عنده خمسةَ أشهر، فلما رآه لا يستعمله جعل يسألُ مَنْ يقدم من الكوفة عَنْ حال الناس، فأخبره هانىء بن أبي حيّة الودَاعي باتفاق أهل الكوفة على طاعةِ ابن الزبير إلاَّ طائفة من الناس، لو كان لهم من يَجْمَعُهم على رَأْيهم أكل بهم الأرض إلى يوم ما.

فقال المختار، أنا أبو إسحاق أنا والله لهم، أنا أجمَعُهم على الحق، وأتَّقي بهم ركبان الباطل، وأقتل بهم كلَّ جبار عَنِيد.

ثم ركب دابته وسار نحو الكوفة فوصل إليها.

واختلفت الشيعةُ إليه، وبلغهُ خبر سليمان بن صُرَد وأنه على عَزْم المسيرِ، فقام في الشيعةِ فحمد الله، ثم قال: إن المهدي وابن الرضَا، يعني محمد ابن الحنفية، بعثني إليكم أيمنًا ووزيرًا ومنتخبًا وأميرًا، وأمرني بقِتَال المُلْحِدِين، والطلب بدَمِ أهل بَيْتِه.

(١) الحصين: هو الحصين بن نمير السكوني.

فبايعَه إسماعيلُ بن كثير وأخوه، وعُبَيْدة بن عَمْرو، وكانوا أوّل من أجابه، وبعث إلى الشّيعة وقد اجتمعوا عند ابن صُرَد، وقال لهم نحو ذلك، وقال: إن سليمانَ ليس له تجربة بالحَرْب ولا بالأُمور، إنَّما يريدُ أن يخرجَكم فيقتلَكم ويقتلَ نفسه، وأنا أعمل على مِثالٍ مُثّل لي، وأمْرٍ بُيِّن لي، فيه عزُّ وليّكم، وقَتْلُ عدوّكم، وشفاء صدوركم، فاسمعوا قولي، وأطيعوا أمري، ثم أبشِروا.

فما زال بهذا ونحوه حتى استمال طائفةً من الشيعة، فكانوا يختلفون إليه ويعظّمونه، وأكثرُ الشيعةِ مع ابن صُرَد، وهو أثقلُ خَلْقِ الله على المُختار.

فلما خرج سليمان بن صُرَد على ما قدمناه قال عمرَ بن سعد، وشَبث بنُ رِبْعي، ويزيد بن الحارث بنُ رُوَيم لعبد الله بن يزيد وإبراهيم بن محمد بن طَلْحة: إن المختارَ أشدُّ عليكم من سليمان، إن سليمان إنَّما خرج يريدُ قتالَ عَدُوِّكمَ، والمختارُ يريد أن يَثِب عليكم في مِصْركم، فأتوه، وأخذُوه بَغْتة، وحملوه إلى السجن، فكان يقول في السجن: أما ورَب البحار، والنخيل والأشجار، والمَهامِه، والقِفَار، والملائكة الأبرار، والمصطفين الأخيار، لأقتلنَّ كل جبَّار، بكل لَدْنٍ خَطَّار، ومُهَنّدٍ بَتَّار، وجُموع الأنصار، وليسوا بميل[1] أغمار، ولا بِعُزّلٍ أشرار، حتى إذا أقمتُ عَمُودَ الدِّين، ورأبْتُ شَعْب صَدْع المسلمين، وشفَيْتُ غليل صدور المؤمنين، وأدْرَكتُ بثأر النبيِّين، لم يكبر عليّ زوالُ الدنيا، ولم أحْفل بالموت إذا أتى.

وقيل في خروج المختار إلى الكوفة غير ما تقدّم، وهو أنه قال لعَبْد الله بن الزُّبير وهو عنده: إني لأعلم قومًا لو أنَّ لهم رَجُلاً له عِلمٌ بما يأتي ويذَر لاستخرج لك منهم جُنْدًا يُقاتل بهم أهلَ الشام. قال: من هؤلاء؟ قال: شيعة عليّ رَضي الله عنه بالكوفة، قال: فكن أنْت ذلك الرجل؛ فبعثه إلى الكوفة، فنزل ناحيةً منها يَبْكِي على الحُسَيْن ويذكر مصابه حتى ألفه الناسُ وأحبّوه، فنقلوه إلى وسط الكوفة، وأتاه منهم بَشَر كثير. والله أعلم.

ذكر وثوب المختار بالكوفة

كان وُثوب المُختارِ بالكوفة في رابع عشر شهر ربيع الأوّل سنة ست وستين، وكان سبَبُ ذلك أنّه لما قُتل سليمان بنُ صُرَد قَدِم مَنْ بقي مِنْ أصحابه إلى الكوفةِ، وكان المختارُ محبوسًا كما ذكَرْنَا، فكتب إليهم من السجن يُثْنِي عليهم، ويُمَنّيهم

(١) الميل: جمع أميل، وهو الكسل الذي لا يحسن الفروسية والركوب.

الظَّفَر، ويعرِّفُهم أن محمد بن علي بن أبي طالب المعروفَ بابْنِ الحنفية أمَرَه بطَلَبِ الثأر، فقرأ كتابَه رفاعةُ بنُ شدّاد والمثنَّى بن مُخَرِّبة العبدي، وسعْد بن حُذَيْفَة بن اليمان، ويزيد بن أنس، وأحمر بن شُمَيْط، وعبد الله بن شدّاد البَجلي، وعبد الله بن كامل.

فلمّا قَرؤوا كتابَه بعثوا إليه ابْنَ كامل يقولون: إنَّنا بحيث يسرّك، فإن شئت أن نأتيَك ونخرجَك من الحَبْس فَعلْنا، فقال: إني أخرج في أيَّامي هذه. وكان المختار قد أرسل إلى عبد الله بن عُمَر يقول: إني حُبِسْتُ مظلومًا، وطلب منه أن يشفع فيه إلى عبد الله بن يزيد وإبراهيم بن محمد بن طلحة.

فكتب ابْنُ عمرَ إليهما في أمره، فشفَّعاه فيه، وأخرجاه من السجن، وحلفاه أنَّه لا يبغيهما غائلة[1]، ولا يَخرج عليهما ما دام لهما سلطان، فإنْ فعلَ فعَلَيْه ألْف بدنة[2] ينحرُها عند الكعبة، ومماليكُه أحرار.

فلمّا خرج نزل بدَارِه، وقال لمَنْ يَثق به: قاتلهم الله، ما أحمَقَهم حين يرَوْن أني أفِي لهم، أمَّا حَلِفي بالله فإنني إذا حلَفْتُ على يمين فرأيتُ خيرًا منها أُكفِّر عَنْ يمين، وخُروجي عليه خير من كَفِّي عنهم، وأمّا هَدْيُ البُدْنِ، وعِتْقُ المماليك، فهو أهوَن عليَّ من بَصْقةٍ، ودِدْت أنِّي تَمَّ لي أمري ولا أملك بعده مملوكًا أبدًا.

ثم ٱختلفتْ إليه الشِّيعةُ، وٱتفقوا على الرِّضا به، ولم يَزَلْ أصحابُهُ يَكثُرون وأمرُه يَقْوَى، حتَّى عَزَل عبدُ الله بنُ الزبير عبدَ الله بن يزيد وإبراهيمَ بن محمد، واستعمل عبدَ الله بنَ مُطيع على عَملهما بالكوفة.

وقدم ٱبنُ مُطيع الكوفةَ لخمسٍ بَقِين من شهر رمضان سنة خمس وستِّين. ولمَّا قَدِمَ صعد المنبر، فخطب الناسَ وقال: أمّا بعد، فإن أميرَ المؤمنين بعثني على مِصْركم وثُغورِكم، وأمَرَني بجباية فيئكم[3] وألاَّ أحملَ فضْلةً عنكم إلا برضًا منكم، وأن أتْبع فيكم وصيّة عمرَ بن الخطّاب التي أوصى بها عند وفاته، وسيرةَ عثمان بن عفَّان رضي الله عنهما، فاتقوا الله وٱستقيموا، ولا تختلفوا علي، وخُذُوا على أيدي سُفَهَائكم، فإن لم تفعلوا فلُوموا أنفسَكم. فقام إليه السائب بن مالك الأشعري، فقال: أمّا حَمْل فيئنا بِرضانا فإنَّا نشهد ألاَّ نرضى أن تَحملَ عنّا فَضْلَةً وألاَّ تقسم إلاَّ فينا،

---

(١) الغائلة: الفساد والشر؛ أو الداهية.
(٢) البدنة: ناقة أو بقرة، تنحر بمكة قربانًا، وكانوا يسمنونها لذلك.
(٣) الفيء: الخراج؛ أو الغنيمة تنال بلا قتال.

وألاَّ يُسارَ فينا إلا بسيرة عليّ بن أبي طالب الَّتي سار بها في بلادِنا حتى هلك، ولا حاجة لنا في سيرَةِ عُثْمان بن عفان في فيئنا وَلا في أنفسنا، ولا في سيرة عمرَ في فيئنا، وإن كانت أهْوَنَ السّيرتَيْنِ علينا، وقد كان يفعلُ بالناس خَيْرًا.

فقال يزيد بن أنَس: صدق السائب وبَرّ، فقال ٱبْنُ مُطيع: نَسِير فيكم بكلّ سيرة أحبَبْتُم، ثمّ نزل.

وجاء إياس بن مُضَارب إلى ابْنِ مُطِيع فقال له: إن السائبَ بن مالك من رؤوس أصحاب المختار، فابعث إلى المختار، فإذا جاءكَ فٱحبسه حتّى يستقيم أمرُ الناس، فإنّ أمرَه قد ٱستجمع له، وكأنّه قد وثب بالمِصر.

فبعث ٱبنُ مُطيع إلى المختار زائدةَ بنَ قُدَامة وحُسَين بن عليّ البُرْسُميّ، فقالا له: أجِبِ الأميرَ، فعزم على الذهاب، فقرأ زائدة: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَۚ...﴾ [الأنفال: ٣٠] الآية. فألقَى المختارُ ثيابَه وقال: ألقُوا عليَّ قطيفةً[١] فإني وَعِكْت، إنّي لأجِد بَرْدًا شديدًا، ارجعا إلى الأمير فأعلِماه حالي، فعادا إليه فأعلَماه فتركه.

ووجَّهَ المختارُ إلى أصْحابه، فجمعهم حولَه في الدُّور، وأراد أن يثب في المحرّم؛ فجاء رجلٌ من أصحابه من شِبَام، وشِبَام: حيٌّ من همْدان، وكان شريفًا، وٱسمه عبْد الرحمٰن بن شُرَيح، فلَقِي سعِيد بن مُنْقِذ الثَّوْري، وسِعْر بن أبي سِعْر الحنفي، والأسود بن جَرَاد الكِنْدي، وقُدامة بن مالك الجُشميّ، فقال لهم: إنّ المختار يريد أن يخرج بنا، ولا نَدْرِي أرسله ابنُ الحنفيّة أم لا؟ فانهضوا بنا إلى محمد ابْنِ الحنفيَّة نُخْبره بما قدم به علينا المختار، فإن رخَّص لنا في اتِّباعه ٱتَّبعناه، وإن نَهَانَا عنه ٱجتنبناه، فوالله ما ينبغي أن يكونَ شيء من الدنيا آثَرَ[٢] عندنا مِنْ سَلاَمَةِ ديننا، فٱستصوبوا رأيَه، وخرجوا إلى ابن الحنفِيّة، فلمَّا قدموا عليه سألهم عن حالِ الناس، فأخبرُوه وأعلموه حالَ المختار، فقال: والله لودِدتُ أن اللّهَ انتصر لنا مِن عدوّنا بمَنْ شاء من خَلْقِه، فعادوا.

وكان مسيرُهم قد شقَّ على المختار، وخاف أن يعودوا بما يَخذُل الشِّيعة عنه، فلمَّا قدموا الكوفة دخلوا عليه، فقال: ما وراءكم؟ فقد فُتنتم وٱرتبْتُم، فقالوا: قد أُمِرْنا بنَصْرِك، فقال: اللّهُ أكبر، اللّهُ أكبر، اجمَعوا الشِّيعة، فجُمِع مَنْ كان قريبًا مِنه، فقال

(١) القطيفة: كساء له أهداب؛ أو دثار أو فراش ذو أهداب كأهداب الطنافس.

(٢) آثره: اختاره وفضله.

لهم: إنَّ نفرًا أحبُّوا أن يَعلموا مِصْداقَ ما جئتُ به، فرحلوا إلى إمام الهدى، فسألوه عما قدمتُ به عليكم، فنبّأهم أنّي وزيرُه وظَهيرُه ورسولُه، وأمرَكم بطاعتي واتّباعي فيما دعوتُكم إليه مِنْ قتال المحِلِّين، والطلب بدماء أهل بَيْتِ نبيِّكم.

فقام عبد الرحمٰن بن شُريح وأخبرهم بحالهم ومسيرهم، وأنّ ٱبْنَ الحنفيّة أمرهم بمظاهرته ومؤازرته، وقال لهم: ليبلِّغ الشاهدُ منكم الغائب، وٱستعدّوا وتأهَّبوا، وقام جماعة من أصحابه فقالوا نحوًا من كلامه.

فٱجتمعت له الشيعةُ، وكان من جملتهم الشَّعبي[1] وأبوه شَراحيل، فلمّا تهيَّأ أبُوه للخروج قال له بعضُ أصحابه: إن أشرافَ الكوفة مُجمِعون على قِتالك مع ابنِ مطيع، فإن أجابنا إبراهيمُ بنُ الأشْتَر رجَوْنَا القوّة على عدُوِّنا، فإنّه فتًى رئيس وابن رجل شريف، وله عشيرةٌ ذاتُ عِزٍّ وعَدَد. فقال ٱلمختار: فٱلقوه وادعوه، فخرجوا إليه ومعهم الشَّعبي، فأعلموه حالَهم، وسألوه مساعدَتَهم، فقال: عَلى أنْ تولّوني الأمر، فقالوا: أنتَ لذلك أهل، ولكن ليس إلى ذلك سَبِيل، هذا المختار قد جاءنا من قِبَل المَهْدِي، وهو المأمورُ بالقتال، وقد أُمِرنا بطاعته، فلم يُجبهم إبراهيم، فٱنصرَفوا عنه.

وأتوا المختار، فسكت ثلاثًا،ثم سار إلى إبراهيم في بِضْعَةَ عشر من أصحابه، والشعبيُّ وأبوه فيهم، فدخلوا عليه، فألقَى إليهم الوَسائد، فجلسوا عليها، وجلس المختارُ معه على فِراشه، فقال المختار له: هذا كتابُ المهديّ إليك، يسألُك أن تنصرَنا وتؤازِرَنا، فقرأه، فإذا هو: «من محمد المهدّي إلى إبراهيم بن مالك ٱلأشتر، سلامٌ عليك، فإني أحمد الله إليك الّذي لا إله إلاّ هو، أمَّا بعد، فإني قد بعثتُ إليكم وَزيري وأمِيني الذي ٱرتضَيْتُه لنفسي، وأمرْتُه بقتالِ عَدُوّي، والطلبِ بدماء أهْلِ بيتي، فٱنهض بنفسك وعشيرتك ومَنْ أطاعك، فإنك إنْ نَصرْتَني وأجبْتَ دعوتي كانت لك بذلك عندي فَضِيلة، ولك أعِنَّةُ الخيل، وكلُّ جيش غازٍ، وكلُّ مِصْر ومِنْبَر وثغر ظَهَرْتَ عليه فيما بين الكوفة وأقصى بلادِ الشام».

فلمّا فرغ من قراءته تأخّر عن صَدْرِ الفراش، وأجلس المختار عليه، وبايَعَه. وصار يختلِفُ إلى المختار كلَّ عشيّة يدبِّرون أُمورهم.

---

(١) الشعبي: هو أبو عمرو عامر بن شراحيل بن عبد ذي كبار، الشعبي، وهو من حمير وعداده في همدان؛ وهو كوفي تابعي جليل القدر وافر العلم، روي أن عمر رضي الله عنه مرّ به يومًا وهو يحدث بالمغازي فقال: شهدت القوم وهو أعلم بها مني. . . (وفيات الأعيان ٣: ١٢).

واْجتمع رأْيُهم على الخروج ليلةَ الخميس لأربع عشرةَ ليلةً من شهر ربيع الأوّل، فلمّا كان تلك اللّيلة، صلّى إبراهيمُ بن الأشتر بأصحابه المغْرِب، ثم خرج يُريدُ المختارَ، وعليه وعلى أصحابه السلاح، وكان إياسُ بنُ مُضارِب قد جاء إلى عَبْد الله بن مُطِيع وهو على شُرْطته، فقال: إن المختار خارجٌ عليك إحْدَى هاتَيْنِ اللَّيلتين، وقد بعثتُ بأبْنِي إلى الكُنَاسَة[1]، فلو بعثتَ في كلّ جَبَّانة[2] عظيمةٍ بالكوفة رجلاً من أصحابك في جماعةٍ من أهل الطاعة لَهَاب المختارُ وأصحابُه الخروجَ عليك، فبعث ابنُ مُطيع إلى كلّ جبّانة مَنْ يحفَظُها من أهل الطاعة، وأمَّر على كل طائفة أميرًا، وأوصى كلاً منهم ألاّ يؤْتَى مِنْ قِبَلِه، وقال: إذا سمعتَ صوتَ القومِ فوجِّهْ نحوَهم، وكان خروجُهم إلى الجَبَابين يوم الاثنين.

وخرج إبراهيم بن الأشْتَر ليلَة الثلاثاء يريد المختار، وقد بلغه أنَّ الجَبَابين قد مُلِئَتْ رجالاً، وأن إياس بن مُضَارب في الشُّرْطة قد أحاط بالسُّوق والقَصْر، فأخذ معه من أصحابِه نَحْوَ مائةِ دارع، وقد لَبِسُوا عليهم الأقْبِيَة، فقال له أصحابه: تجنب الطريقَ، فقال: والله لأمُرَنّ وسَط السُّوق بجَنْب القَصْر، ولأُرْعِبَنّ عدوّنا، ولأُرِيَنَّهم هَوَانَهم علينا، فسار على باب الفِيل، فلقيهم إيَاسٌ في الشُّرَط مُظْهرِين السّلاح، فقال: من أنتم؟ فقال: أنا إبراهيمُ بنُ الأشتر. فقال إياس: ما هذا الجَمْعُ الَّذي معك؟ وإلى أين تُريد؟ ولستُ بتاركِكَ حتى آتي بكَ الأمير، فقال إبراهيم: خلِّ سبيلَنا؛ قال: لا أفعل؛ وكان مع إياس رجُلٌ من هَمْدان يقال له أبو قَطَن، وكان يُكْرِمُه، وكان صَدِيقًا لأبن الأشتر، فقال له أبن الأشتر: اذنُ مني يا أبا قَطَن، فدنا منه وهو يَظُنّ أن إبراهيمَ يستشفِعُ به عند إياس، فلمَّا دَنَا منه أخذ رُمْحًا كان معه فطعنَ به إياسًا في نحره، فصرَعه، وأمر رجلاً مِنْ أصحابه فقطع رَأْسَه، وتفرّق أصحابُ إياس، ورجعوا إلى ابْنِ مطيع، فبعث مكانَه أبنَه راشد بن إياس على الشُّرط، وأقبل إبراهيم إلى المختار وقال له: إنّا اتَّعدْنا للخروج القابلة، وقد وقع أمْرٌ، لا بد من الخروج الليلة، وأخبرَه الخبر، ففرح المختار بقَتْل إياس وقال: هذا أوّل الفتح إن شاء الله.

---

(١) الكناسة: بالضم: هي محلة بالكوفة عندها واقع يوسف بن عمر الثقفي زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، عليه السلام...

(٢) الجبانة: بالفتح ثم التشديد؛ والجبان في الأصل الصحراء، وأهل الكوفة يسمون المقابر جبانة كما يسميها أهل البصرة المقبرة، وبالكوفة محال تسمى بهذا الاسم وتضاف إلى القبائل... (معجم البلدان).

ثم قال لسعيد بن مُنقذ: قم فأشْعِل النِّيران وارفعْها، وسِرْ أنْتَ يا عبْد الله بنَ شدّاد فَنَادِ: يا منصور، أمِتْ، وأنت يا سفيان بن ليلى، وأنت يا قُدامة بنَ مالك: نادِ يا لثَارات الحسين، ثم لَبِس سلاحه.

وكانت الحربُ بين أصحابه وبين الذين نَدَبَهم ابنُ مُطيع لحِفْظِ الجَبَابِين في تلك الليلة، فكان الظفَر لأصْحاب الْمُخْتَار، وخرج المختار في جماعةٍ من أصحابه حتى نزل في ظهر دَيْر هِنْد[1] في السبَخة[2]، وانضمّ إليه ممّن تابَعه ثلاثة آلاف وثمانمائة من اثني عشر ألفًا، واجتمعوا له قبل الفجر، فأصبح وقد فرغ من تعبئته، وصلَّى بأصحابه بغَلس.

وقد جَمَعَ ابْنُ مُطِيع أهلَ الطاعة إليه، فبعث شَبَث بن ربْعيّ في ثلاثة آلاف، وراشد بنَ إياس في أربعة آلاف من الشُّرَط، لقتال المختار ومَنْ معه، وأردفَهم بالعساكر، واقتتلوا؛ فكان الظفَرُ لأصحاب المختار، وكان الذي صَلِيَ الحربَ ودبر الأمرَ إبراهيمُ بنُ الأشتر. فلمّا رأى ابن مُطيع أمرَ المختار وأصحابَه قد قَوِيَ خرج بنفسه إليهم، فوقف بالكُناسةِ واستخلفَ شَبثَ بنَ ربْعي على القَصْر، فبرز إبراهيمُ بنُ الأشتر إلى ابن مُطيع في أصحابه وحَمَلَ عليه، فلم يلبث ابن مُطيع أن انهزم أصحابُه، يَركَبُ بعضُهم بعضًا على أفواه السِّكَك[3]، وابنُ الأشتر في آثارهم، حتى بلغ المسجدَ، وحصَر ابنَ مُطيع ومَنْ معه من أشراف الكوفة في القصر ثلاثًا، فقال شَبَث لابن مطيع: انظُر لنفسك ولِمَنْ معك؛ فقال: أشِيْرُوا عليّ؛ فقال شَبَث: الرأيُ أنْ تأخذَ لنفسك ولنا أمَانًا، وتخرج ولا تهلك نَفْسَك ومَنْ معك؛ فقال ابنُ مطيع: إني لأكرهُ أنْ آخذ منه أمانًا، والأمورُ لأمير المؤمنين مستقيمةٌ بالحجاز والبَصرة؛ قال: فتخرج ولا تُشعِر بكَ أحدًا، فتنزل بالكوفَةِ عند مَنْ تَثِق إليه حتى تلحق بصاحبك. فأقام حتى أمسى، وخرج وأتى دَار أبي موسى، وترك القَصْر، ففتح أصحابُه الباب، وقالوا: يا ابن الأشتر، آمِنون نحن؟ فقال: أنتم آمنون؛ فخرجوا، فبايَعوا المختار. ودخل المختار القصر فبات به، وأصبح أشرافُ الناسِ في المسجد وعلى باب القصر، وخرج المختارُ فصعِد المنبَر وخطب الناسَ، ثم نزل.

---

(١) دير هند الصغرى ودير هند الكبرى: كلاهما بالحيرة، الأول يقارب خطة بني عبد الله بن دارم بالكوفة، مما يلي الخندق في موضع نزه، وهو دير هند الصغرى بنت النعمان بن المنذر... والثاني ابنته أم عمرو بن هند، وهي هند بنت الحارث بن عمرو بن حجر آكل المرار الكندي... (معجم البلدان).

(٢) السبخة: موضع بالبصرة ينسب إليه أبو يعقوب فرقد بن يعقوب السبخي من زهاد البصرة...

(٣) السكك: جمع السكة، وهي الطريق المستوي؛ أو الزقاق.

ودخل أشرافُ الكوفةِ فبايعوه على كتابِ اللّهِ وسنَّة رسولِه ﷺ، والطلبِ بدماء أهلِ البيت وجهادِ المُحلِّين والدَّفعِ عن الضُّعفاء، وقتالِ مَن قاتَلَنا، وسلمِ من سالَمنا.

وكان ممن بايعه المنذرُ بن حسانَ الضَّبي وٱبنه حسان، فلما خرجا من عنده ٱستقبلهما سعِيد بن مُنقذ الثوري في جماعة من الشِّيعة، فقالوا: هذان وٱلله رؤوس الجبارِين، فقتلوهما، ونهاهم سعِيد عن قَتْلِهما إلاَّ بأمْرِ المختار، فلم ينتهوا.

فلما سمع المختارُ ذلك كرهه، وأقبل يُمنِّي الناس ويود الأشراف، ويُحسن السِّيرة، فبلغه أنَّ ٱبن مُطِيع في دارِ أبي موسى، فسكت، فلما أمسى بعث إليه بمائة ألفِ درهم، وقال: تجهزْ بهذه، فقد علمتُ مكانَك، وأنَّك لم يمنعْك من الخروج إلا عدمُ النَّفقة.

ووجد المختار في بيت المال بالكوفة تسعة آلاف ألف وخمسمائة ألف، فأعطى لكل رجل خمسمائة درهم، وأعطى لستة آلاف من أصحابه أتَوه بعدما أحاط بالقصر، لكل منهم مائتي درهم، وٱستقبل الناس بخير. وٱستعمل على شرطته عبد الله بنَ كامل الشَّاكِري، وعلى حرسِه كَيْسانَ.

والله أعلم بالصواب.

ذكر عمال المختار بن أبي عبيد

كانت أوَّل راية عقَدها المختارُ لعبْدِ الله بن الحارث أخي الأشتر على إرمينية، وبعث محمد بنَ عُمير بن عُطارد على أذْرَبِيجان، وبعث عبد الرحمٰن بن سعِيد بن قيس على المَوْصِل، وبعث إسحاق بن مسعود على المدائن، وأرض جُوخَى[١]، وبعث قدامةَ بنَ أبي عيسى بن ربيعة النَّصْري حليف ثقيف على بِهُقُباذ[٢] الأعلى، وبعث محمد بن كعب بن قَرَظة على بِهُقُباذ الأوسط، وبعث سعد بنَ حُذَيفة بن اليمان على حُلْوان، وأمره بقتال الأكراد، وإقامة الطُّرُق. وكان ٱبن الزبير قد ٱستعمل على المَوْصل محمد بنَ الأشعث بن قيس، فلما بعث المختار عبدَ الرحمٰن إليها، سار محمد عنها إلى تَكْريت، ينتظر ما يكون من الناس، ثم سار إلى المختار فبايعه، فلما

(١) جوخى: بالضم والقصر، وقد يفتح: اسم نهر على كورة واسعة في سواد بغداد، بالجانب الشرقي منه الراذنان، وهو بين خانقين وخوزستان... (معجم البلدان لياقوت).

(٢) بهقباذ: بالكسر ثم السكون، وضم القاف، وباء موحدة، وألف، وذال معجمة: اسم لثلاث كور ببغداد من أعمال سقي الفرات، منسوبة إلى قباذ بن فيروز والد أنوشروان بن قباذ العادل... (معجم البلدان).

فرغ من ذلك أقبل يجلس للناس ويقضِي بينهم، ثم قال: إن لي فيما أُحاول شغْلاً عن القَضاء، ثم أقام شريْحا يَقْضِي بين الناس، فتمارض، فجعل المختار مكانه عبد الله بن عُتْبة بنِ مسعود، ثم مرِض، فجعل مكانَه عبد الله بنَ مالك الطائي.

ذكر قتل المختار قتلة الحسين وخروج أهل الكوفة على المختار وقتالهم إياه ووقعة السبيع(١)

كان سببَ ذلك أن مرْوان بنَ الحكم لما ٱستتب له الأمر بعث عُبيد الله بنَ زياد إلى العراق، وقد ذكرْنا ما كان من أمره مع التوَّابين. ثم توفي مرْوان بن الحكَم وولّي ٱبنه عبد الملك، فأقرَّ ٱبْنَ زياد على ولايته، وأمره بالجدّ، فأقبل إلى الموْصل، فكتب عبد الرحمٰن بن سعِيد عاملُ المختار إليه يخبره بدخول ابن زياد أرضَ المَوْصِل، وأنَّه قد تنحّى له عنها إلى تَكْرِيت، فندبَ المختارُ زيد بن أنس الأسدي، فٱنتَخب ثلاثةَ آلاف، وسار بهم نحوَ الموصل، وكتب المختار إلى عبد الرحمٰن: أنْ خَلِّ بين يزيد وبين البلاد، فسار يزيد حتى بلغ أرضَ الموصل، فنزل بنَات تَلّى، وبلغ خبرُه ٱبنَ زياد، فقال: لأبعثنَّ إلى كلّ ألفٍ ألفين، فأرسل ربيعةَ بنَ المخارق الغنويَّ في ثلاثة آلاف، وعبْدَ الله بن جُمْلة الخَثْعمي في ثلاثة آلاف، فسار ربيعة قَبْل عبد الله بيوم، فنزلَ زيد بن أنس بنات تلّى فخرج، وقد ٱشتدّ به المرَض، وعَبَّأ أصحابه، وقال: إن هلكت فأميرُكم ورْقاء بن عازب الأسدي، فإنْ هلك فأميرُكم عبْدُ الله بن ضَمْرة العُذري، فإن هلك فأميرُكم سِعْر الحَنَفي. ثم نزل فوُضع على سرير، وقال: قاتِلوا عن أميركم إن شئتم أو فِرّوا عنه.

وٱقتتل الْقوْم، فٱنهزم أصحابُ ٱبن زياد، وقُتل ربيعة بن المخارق، قتله عبْدُ الله بن ورقَاء، فسار المنهزمون ساعةً، ولقيهم عبُد الله بن جُمْلة فردهم معه، فباتوا ليلتَهم ببنَات تلّى يتحارسون، فلمّا أصبحوا خرجوا إلى القتال فٱقتتلوا قتالاً شديدًا، وذلك في يوم الأضحى سنة ست وستِّين، فانهزم أهلُ الشام، ونزل ٱبن جملة في جماعة، فقاتل حتى قتِل، وحوَى أهْلُ الكوفة عسكرهم، وقتلوا فيهم قَتْلاً ذَريعًا، وأسرُوا ثلاثمائة، فأمر يزيدُ بقتلهم، وهو بآخر رمق، فقُتلوا، ثم مات آخِر النهار، فقال ورْقاء بن عازب

(١) السبيع: محلة السبيع، بفتح أوله وكسر ثانيه ثم ياء، وآخره عين مهملة... وقيل: السبيع هي المحلة التي كان يسكنها الحجاج بن يوسف، وهي المسماة بقبيلة السبيع رهط أبي إسحاق السبيعي... (معجم البلدان).

لأصحابه: إنه بلغني أنَّ عُبيد الله بنَ زياد قد أقبل إليكم في ثمانين ألفًا، وأشار عليهم بالرجوع إلى المختار، فصوَّبوا رأيَه، ورجعوا، فبلغ ذلك أهل الكوفة، فأرجفوا[١] بالمختار، وقالوا: إن يزيد قتِل ولم يَمُتْ، فندب إبراهيم بنَ الأشتر في سبعة آلاف، وقال له: سِرْ فإذا لقيت جيْشَ يزيد فأنت الأميرُ عليهم، فارددهم معك حتى تَلقَى ابن زياد فناجزْه[٢].

فسار إبراهيم لذلك، فاجتمع أشرافُ الكوفة على شَبَث بنِ رِبْعي وقالوا: والله، إن المختار تأمّر بغير رضًا منّا، وقد أدْنى موالينا، فحملَهم على الدوابّ، وأعطاهُم فَيْئَنا.

فقال: دعُوني حتَّى ألقاه، فذهب إليه فكلمه، فلم يدعْ شيئًا أنكَره إلاَّ ذكره له، والمختارُ يقول في كلّ خَصْلة: أنا أُرضيهم في هذه وآتي كل ما أحبوه، فلما ذكر له المَوالي ومشاركَتَهم في الفيء قال: إنْ أنا تَركْتُ لكم مواليكم وجعلتُ فيئكم لكم، أتقاتلون معي بني أُمية وابنَ الزبير وتعطوني على الوفاء عهد الله وميثاقَه وما أطمئن إليه من الأيمان. فقال شَبث: حتى أخرج إلى أصحابي فأذكر ذلك لهم.

فخرج إليهم ولم يعدْ إلى المختار، واجتمع رأيهُم على قتاله، فاجتمع شَبث، ومحمد بن الأشعث، وعبد الرحمٰن بن سعيد بنِ قيس، وشمر بن ذي الجوْشَن، ودخلوا على كَعْب بن أبِي كعب الخَثْعمي، فكلَّموه في ذلك، فأجابهم إليه فخرجوا مِنْ عنده، ودخلوا على عبد الرحمٰن بن مِخنَف الأزْدي، فدعوْه إلى ذلك، فقال: إن أطعْتُمونِي لم تخرجوا، فقالوا: لم؟ قال: إني أخاف أن تتفرقوا وتختلفوا ومع الرجل شُجْعانُكم وفُرْسانُكم مثل فلان وفلان، ثم معه عَبيدكم ومواليكم، وكلمةُ هؤلاء واحدةٌ، ومواليكم أشدُّ حنَقًا عليكم من عدوكم، فهم يقاتلونكم بشجاعة العربِ وعداوة العجَم، وإن انتظرتموه قليلاً كُفِيتموه بغيركم، ولا تجعلوا بأسكم بينكم؛ فقالوا: ننشدك الله ألاَّ تخالفنا وتفسد علينا رأينا، وما أجمعْنا عليه. فقال: إنَّما أنا رجُلٌ منكم، فإذا شئْتُم فاخرجوا؛ فوثَبوا بالمختار بعد مسِير ابنِ الأشتر، وخرج كلّ رئيس بجبَّانة، فأرسل المختارُ إلى ابنِ الأشتر يأمره بسُرْعةِ العوْد إليه، وبعث إليهم وهو يلاطفهم ويقول: إني صانعٌ ما أحببْتُم، وهو يريد بذلك مداهنَتَهم حتى يقدم

(١) أرجف القوم: خاضوا في الأخبار السيئة وذكر الفتن.

(٢) ناجزه الحرب ونحوها: نازله وقاتله.

إبراهيم ٱبن الأشتر، فوصل الرسولُ إليه وهو بسَاباط[١]، فرجع لوقته، وسار حتى أتى الكوفة ومعه أهل القوَّة من أصحابه، وٱجتمع أهل اليمن بجبانة السَّبِيع، فلما حضرت الصلاةُ كَرِه كلُّ رأْس من أهل اليمن أن يتقدمه صاحبُه، فقال ٱبنُ مِخْنف: هذا أوّل الاختلاف، قدموا الرضيَّ منكم سيّد القُرَّاء رفاعةَ بن شداد البجلي، فلم يزل يصلِّي بهم حتى كانت الوقعة.

ثم نزل المختار فعبَّأ أصحابه وأمر ٱبْنَ الأشتر فسار إلى مُضَر وعليهم شَبثُ بن ربعي، ومحمد بن عُمير، وهُمْ بالكُنَاسة، وسار المختار نحو أهل اليمن بجبَّانة السَّبِيع، فٱقتتلوا أشدَّ قتال، ثم كانت الغَلَبة للمختار وأصحابه، وانهزم أهلُ اليمن وأخذ من دُور الوادعِيين[٢] خمسمائة أسير، فأتى بهم إلى المختار، فعرضهم، فقتل منهم منْ شهد مقْتَل الحسين، فكانوا مائتين وثمانية وأربعين.

ونادى منادِي المختار: مَنْ أغلق بابه فهو آمِن إلاَّ مَنْ شَرك في دِمَاء آل محمد ﷺ، وكان عُمر بن الحجاج الزَّبِيدي ممن شهد قَتْل الحسين، فركب راحلتَه وأخذ طَرِيقَ الْوَاقِصَة[٣]، فعدم فقيل: أدركه أصحابُ ٱلمختار، وقد سقط من شدّة العطش، فذبحوه.

وبعثَ المختار غلامًا له يُدعى زِرْبيا في طلب شَمِر بن ذي الجوْشن، فأدركه فقتله شَمِر، وسار حتى نزل قريةً يقال لها الكَلْتانِيَّة[٤]، فأخذ منها عِلْجًا[٥]، فضربه، وقال: امْضِ بكتابي هذا إلى مُصْعب بن الزبير؛ فمضى العِلْجُ حتى دخل قريةً فيها أبو عمْرة صاحبُ المختار، فلقي ذلك العِلجُ عِلجًا آخر من تلك القرية، فشكا إليه ما لقي من شمر، فبينما هو يكلِّمه إذ مر رجلٌ من أصحاب أبي عمْرة ٱسمه عبد الرحمٰن بن أبي الكنود، فرأى الكتاب، وعُنْوانُه لمصعب من شمر، فسألوا العِلْج عنه، فأخبرهم

---

(١) ساباط: موضع بالمدائن معروف.. وقد سمي كذلك بساباط بن باطا كان ينزله فسمي به... والساباط عند العرب: سقيفة بين دارين من تحتها طريق نافذ، والجمع سوابيط وساباطات... (معجم البلدان لياقوت).

(٢) الوادعيين: جمع الوادعة، وهي بطن من حمدان.

(٣) الواقصة: بكسر القاف، والصاد مهملة: موضعان، أحدهما: منزل بطريق مكة بعد الفرعاء نحو مكة وقبل العقبة لبني شهاب من طيء ويقال لها واقصة الحزون وهي دون زبالة بمرحلتين... والواقصة: ماء لبني كعب..، وواقصة أيضًا: بأرض اليمامة.. قيل: هي ماء في طرف الكرمة وهي مدفع ذي مرخ... (معجم البلدان لياقوت).

(٤) الكلتانية: بفتح الكاف، وسكون اللام، والتاء المثناة من فوقها، وبعد الألف نون مكسورة، وياء مشددة...: وهو ما بين السوس والضيمرة أو نحو ذلك.. (معجم البلدان).

(٥) العلج: كل جاف شديد من الرجال. والمراد هنا غير العربي.

بمكانه، فإذا هو منهم على مسيرة ثلاثةِ فراسخَ، فساروا إليه وأدركوه، فهرب أصحابه، وأعجلَه القوم عن لُبْسِ سِلاَحه، فقام وقد أتزر ببرد[١]، وكان أبرص، فظهر بياضُ برصِه، فطانهم بالرُّمْح ثم ألقاه، وأخذ السيف فقاتَل به حتى قُتل، والَّذِي قتله عبدُ الرحمٰن بنُ أبي الكَنود، وألقَى جيْفَته للكلاب.

قال: وأقبل المختار إلى القصر من جبّانة السَّبِيع ومعه سُراقة[٢] بنُ مرداس البارقي أسيرًا، فناداه سُراقة: [من الرجز]

امننْ عـلـى الـيـوم يـا خـيـر مـعـدْ   وخـيـر مـن حـلّ بِـشـحْـرٍ والـجـنَـدْ[٣]

* وخـيـر مـن لَـبَّـى وحـيَّـى وسـجـدْ *

فأمر به إلى السجن، ثم أحضره من الغد، فأقبل وهو يقول: [من الوافر]

ألا أبـلـغْ أبـا إسْـحـاق أنَّـا   نَـزَنـا نـزوةً كـانَـتْ عـلـيـنـا
خـرجْـنَـا كـي نُـري الـضُّـعـفَـاء شيـئًـا   وكـان خـروجُـنـا بـطَـرًا وحـيْـنـا[٤]
لَـقِـيـنـا مـنـهـمُ ضَـرْبًـا طِـلـحْـفًـا   وطـعْـنًـا صـائـبًـا حـتـى أنـثـنَـيْـنـا[٥]
نُـصِـرْت عـلـى عـدوِّك كـلَّ يـوم   بـكـلِّ كـتـيـبـةٍ تَـنْـعـي حُـسـيـنـا
كـنَـصْـر مـحـمّـدٍ فـي يـومِ بَـدْرٍ   ويـومِ الـشِّـعْـب إذ وافـى حُـنَـيـنـا[٦]
فـأسـجِـحْ إذ مـلَـكْـت فـلـو مـلَـكْـنَـا   لـجُـرْنـا فـي الـحـكـومـة وأعـتـديـنـا[٧]
تَـقَـبَّـلْ تـوبـةً مـنِّـي فـإنـي   سـأشـكُـرُ إذ جـعـلْـتَ الـنـقـد ديْـنـا

فلمّا أنتهى إلى المختار قال: أصلح الله الأمير، أحْلفُ بالله الَّذي لا إلٰه إلاَّ هو لقد رأيتُ الملائكةَ تقاتِلُ معك على الخيولِ البُلْق[٨] بين السماء والأرض؛ فقال له المختار: اصعد على المنبر فأَعْلِم الناس، فصعِد، فأخبرهم بذلك، ثم نزل فخلا به فقال له: إني قد علمْتُ أنك لم تر شيئًا، وإنما أردت ما قد عرفتُ، فأذهب عني حيثُ شئتَ، لا تفسدْ عليّ أصحابي.

---

(١) البرد: كساء مخطط يلتحف به.
(٢) هو سراقة البارقي الشاعر ابن مرداس بن أسماء بن خالد بن عوف بن عمرو بن سعد بن ثعلبة بن كنانة بن بارق. هجاه جرير، وله حديث مع المختار. . . (الاشتقاق لابن دريد).
(٣) الشحر: صقع على ساحل بحر الهند من ناحية اليمن. . . . والجند: من المدن النجدية باليمن، من أرض السكاسك، بينها وبين صنعاء ثمانية وخمسون فرسخًا.
(٤) الحين: الهلاك.
(٥) طلحفًا: شديدًا وجيعًا.
(٦) حنين: موضع قريب من مكة.
(٧) أسجح: أحسن العفو وتكرم.
(٨) الأبلق: الذي فيه سواد وبياض جمع بلق.

فخرج إلى البصْرَة، فنزل عند مُصعب وقال: [من الوافر]

ألا أبلغْ أبا إسحاق أنّي رأيتُ الخيلَ بُلقًا مُصْمتاتِ
كفرتُ بوحْيِكم وجعلتُ نذْرًا عليَّ قتالَكمْ حتّى المماتِ
أُرى عينيَّ ما لمْ تُبصِراه كِلانَا عالِمٌ بالتُّرَّهاتِ(١)

وقُتل يومئذ عبد الرحمٰن بنُ سعيد بنِ قيس الهمْداني، وٱدّعى قتلَه سِعْر بن أبي سِعْر، وأبو الزُّبير الشِّباميّ، وشِبام مِنْ همْدان، وٱنجلت الوقعةُ عن سبعمائة وثمانين قتيلاً من قومه، وكانت الوقعة لستّ ليال بقِين من ذي الحجة سنةَ ست وستِّين.

وخرج أشرافُ الناسِ فلحِقوا بالبصْرة، وتجرد المختارُ لقَتْل قتَلَةِ الحسين، وقال: ما مِنْ دِينِنا أنْ نَترُكَ قتلةَ الحسين أحياءً، بئس ناصرُ آل محمد أنَا إذًا في الدنيا، أنا إذًا الكذَّاب كما سمَّوْني، وإني أستعين بالله تعالى عليهم، فسمُّوهم لي ثم تتبَّعوهم حتى تقتلوهم، فإنِّي لا يسوغ لي الطَّعام والشرابُ حتى أُطهِّرَ الأرض منهم، فدل على عبْد الله بن أُسيد الجُهنيّ، ومالك بن النُّسير البديّ، وحمل بن مالك المحاربي، فبعث المختار إليهم، فأحضرهم من القادسيّة، فلمّا رآهم قال: يا أعداء الله ورسوله، أين الحسينُ بنُ عليّ؟ أدُّوا إليّ الحسينَ. قتلتم ٱبنَ من أُمِرتم بالصّلاة عليهم. فقالوا: رحمك الله، بُعثنا كارهني، فٱمْنُنْ علينا وٱستَبْقِنا، فقال: هلاَّ مننْتم على ٱبْنِ بنتِ نبيكم وٱستبقَيْتموه وسقَيْتُموه؟ فأمر بمالك بنِ النُّسيْر البديّ فقطع يديه ورجليه وتركه يضْطرِب حتى مات، وقتل الآخرين، وأحضر زياد بن مالك الضُّبعيّ، وعمران بن خالد العنزِي، وعبد الرحمٰن بن أبي خُشْكارة البجليّ، وعبد الله بن قَيْس الخَوْلاني، فلما رآهم قال: يا قَتَلَة الصالحين، وقتلَة سيّدِ شبابِ أهْل الجنَّة، قد أقاد(٢) الله منكم اليوم، لقد جاءكم الورْس(٣)، بيوم نَحْس، وكانوا نَهَبُوا من الورْس الَّذِي كان مع الحُسيْن رضي الله عنه، ثم أمر بهم فَقُتِلوا.

وقَتل عبد الله وعبد الرحمٰن ٱبني صالح وعبد الله بن وُهيب الهمْداني، وأحضر عثمانَ بنَ خالد بن أسِيد الدُّهماني الجُهَني. وأسماء بشر بن سوْط القابضي، وكانا قد ٱشتركا في قتل عبد الرحمٰن بن عقِيل وفي سلَبِه، فضرب أعناقَهما وأُحرقا بالنار.

---

(١) الترهات: الأباطيل.
(٢) يقال: أقاد القاتل بالقتيل: قتله به قودًا.
(٣) الورس: نبت من الفصيلة القرنية ينبت في بلاد العرب والحبشة والهند، وثمرتها قرن مغطى عند نضجه بغدد حمراء، كما يوجد عليه زغب قليل؛ يستعمل لتلوين الملابس الحريرية، لاحتوائه على مادة حمراء، وعلى راتينج.

وأرسل إلى خَوليّ بن يزيد الأصْبحيّ وهو صاحب رأسِ الحسين فاْختبأ في مخرجِه، فدخل أصحابُ المختار يطلبونه، فخرجت اْمرأتُه، وهي العيُوف بنت مالك، وكانت تُعادِيه منذ جاءها برأسِ الحسين، فقالت: ما تريدون؟ فقالوا لها: أين زَوْجُكِ؟ قالت: لا أدري، وأشارت بيدها إلى المخرَج، فدخلوا، فوجدوه وعلى رأسه قَوْصرَّة[1]، فأخرجوه وقتلوه إلى جانب أهلِه، وحرقُوه بالنار.

وقُتل عمرُ بنُ سعد بن أبي وقَّاص، وكان الَّذي تولَّى قتلَه أبو عمْرة، وأحضر رأْسه عند المختار، وعنده اْبنه حفْصُ بنُ عمر، فقال له المختار: أتعرف هذا؟ قال: نعم، ولا خَيْرَ في العيش بعده، فأمر به فقُتل، وقال: هذا بحُسين، وهذا بعليّ بن حسين، ولا سواء، والله لو قتلْتُ به ثلاثةَ أرباع قريش ما وفَوا أُنمَلة من أنامله.

وأرسل المختارُ إلى حكيم بنِ طُفَيل الطائي ـ وكان أصاب سلَب العباس بنِ علي؛ ورمَى الحسينَ بسهم، وكان يقول: تعلَّق سهْمِي بسِرْباله وما ضَرّه، فأتاه أصحابُ المختار فأخذوه، وذهب أهلُه فتشفَّعوا بعدِيّ بن حاتم، فكلمهم عديٌّ فيه، فقالوا: ذلك إلى المختار، فمضى عديّ إلى المختار يشفَعُ فيه، وكان قد شفَّعه في نَفَر من قومه أصابهم يوم جبَّانَة السَّبِيع، فقالت الشِّيعة: إنا نخاف أن يشفِّعه فيه، فقتلوه رمْيًا بالسِّهام كما رمى الحُسيْن حتى صار كالقُنْفُذ، ودخل عَديُّ بن حاتم على المختار، فأجلسه معه، فشفَع فيه، وقال: إنه مكذوب عليه، قال: إذًا ندَعه لك، فدخل اْبْنُ كامل فأخبر المختار بقتْله.

وبعث المختارُ إلى مُرّةَ بن مُنْقِذ، وهو قاتِلُ علي بن الحسين، وكان شجاعًا، فأحاطوا بداره، فخرج إليهم على فرسه وبيده رمحُه، فطاعنَهم، فضُرب على يده، فهرب فنجا، ولحق بمُصْعب بن الزبير، وشلَّت يدُه بعد ذلك.

وبعث المختار إلى زيد بنِ رُقَاد الجَنْبي، وهو قاتِلُ عبْد الله بن مُسْلم بن عقيل، فخرج إليهم بالسيف، فقال اْبْنُ كامل: لا تطعنوه برمح، ولا تضربوه بسيف، ولكن اْرموه بالنَّبل والحجارة، ففعلوا ذلك به، فسقط، فأحرقوه حيًّا.

وطلب المختارُ سِنانَ بنَ أنَس الَّذي كان يدَّعي قَتْل الحُسَيْن، فهرب إلى البصْرة، فهدم داره.

وطلب عبْد الله بنَ عُقْبة الغَنَويّ فوجده قد هرب إلى الجزيرة، فهدم داره.

---

(١) القوصرة: وعاء للتمر.

وطلب رجلاً من خَثْعم اسمه عبْد الله بن عُرْوَة فهرب ولحق بمصعب، فهدم داره.

وطلب عمْرو بن صُبيْح الصُّدائي، وكان يقول: لقد طعنْت فيهم وجرحْت وما قتلْتُ، فأُحضر إلى المختار، فأمر به فطُعن بالرماح حتى مات.

وأرسل إلى محمد بن الأشعث وهو في قريةٍ له إلى جنْبِ القادسيّة[١]، فهرب إلى مُصْعب فهدم المختار داره، وبنى بِلَبنها وطِينها دار حُجْر بن عدي الكندي، وكان زياد قد هدمها.

وكان الذي هيّج المختار على قَتْل قَتَلة الحسين أنّ يزِيد بن شراحيل الأنصاري أتى محمد ابن الحنفية فسلّم عليه، وجرى الحديثُ إلى أن تَذاكَروا أمْرَ المختار، فقال ابن الحنفية: إنه يزعم أنه لنا شِيْعة، وقَتَلَةُ الحسين عنده على الكراسي يحدثونه، فلما عاد يزيد أخبر المختار بذلك، فقتل عُمر بن سَعْد، وبعث برأسه ورأس ابنِه إلى ابن الحنفية، وكتب إليه يُعلِمه أنه قتل من قَدَر عليه، وأنه في طَلَبِ الباقين ممّن حضر قَتْل الحسين، رضي الله عنه.

ذكر بيعة المثنى العبدي للمختار بالبصرة وإخراجه منها ولحاقه بالمختار بالكوفة

وفي سنة ستّ وستين دعا المثنّى بن مُخرِّبَة العبْدِيّ بالبصْرَة إلى بَيْعة المختار، وكان قد بايع المختار بعد مقتل سليمان بن صُرَد، فسيّره المختارُ إلى البَصْرَة يَدْعُو بها إليه، ففعل، فأجابه رجالٌ من قومه وغيرهم.

ثم أتى مدينة الرِّزْق[٢] فعَسكر عندها، فوجّه إليهم الحارثُ بنُ أبي ربيعة المعروف بالقُبَاع، وهو أمِيرُ البَصْرة، عبَّادَ بن حُصين، وهو على شرْطته، وقيس بنَ الهيْثَم في الشرط والمقاتلة، فخرجوا إلى السَّبَخة، ولزم الناسُ بيوتَهم، فلم يخرج أحد، وأقبل عبّاد فيمن معه فتواقف هو والمثنّى وأنشبوا القِتَال، فانهزم المثنّى، وأتى

---

(١) القادسية: . . . إن القادسية فيما بين الخندق والعتيق، وإنما عن يسار القادسية بحر أخضر في جوف لاح إلى الحيرة بين طريقين. . . والقادسية: قرية كبيرة من نواحي دجيل بين حربى وسامرا يعمل بها الزجاج، وقد نسب إليها قوم من الرواة. . . (معجم البلدان لياقوت).

(٢) الرزق: بكسر الراء وسكون الزاي؛ كذا ذكره ابن الفرات في تاريخ البصرة للساجي، وقال: مدينة الرزق إحدى مسالح العجم بالبصرة قبل أن يختطها المسلمون. . . (معجم الأدباء لياقوت).

قومَه عبد القيس، وكف عنْه عبَّاد، فأرسل القُبَاع عسكرًا إلى عبْد القَيْس ليأتوه بالمثنّى ومن معه، فلما رأى زيادُ بن عمرو العتَكي ذلك أقبل إلى القُبَاع فقال: لتردَّنَّ خيلَك عن إخواننا أو لنقاتلنَّهم، فأرسل القباعُ الأحنف بن قيس، وعمر بن عبد الرحمٰن المخزومي ليُصلحا بين الناس، فأصلح الأحنف الأمر على أن يخرج المثنّى وأصحابَه عنهم، فأجابوه إلى ذلك وأخرجوهم عنهم، فسار المثنّى إلى الكوفة في نَفَرٍ يسيرٍ من أصحابه.

ذكر مخادعة المختار ومكره بعبد الله بن الزبير وظهور ذلك له

قال: لمَّا أخرج المختارُ ابنَ مُطيع عامل ابن الزبير من الكوفة سار إلى البصْرةِ وكرِه أن يأتي ٱبن الزبير مهزومًا، فلما استجمع للمختار أمرُ الكوفة، أخذ يخادِعُ ٱبنَ الزبير، فكتب إليه: «قد عرفتَ مُنَاصَحتِي إياك، وجَهدي على أهْلِ عداوتك، وما كنتَ أعطيتَني إنْ أنا فعلتُ ذلك، فلما وفيتُ لك وقضيتُ الذي كان لك عليَّ خِسْتَ[١] بي ولم تَفِ بما عاهدْتَني عليه، فإن ترِد مُراجعتي ومناصحتي، فعلْتُ، والسلام».

وإنما قصد المختار بذلك أن يكفّ ٱبن الزبير عنه ليتم أمره، ولم تعلم الشيعة بذلك، فأراد ٱبن الزبير أنْ يَعْلَمَ حقيقةَ ذلك، فدعا عمر بنَ عبد الرحمٰن بن الحارث بن هشام المخزوميّ فولاَّه الكوفة، وقال: إنَّ المختارَ سامِعٌ مطيع، فتجهَّز عمرُ وسار نحو الكوفة، وأتى الخبر المُختار، فدعا زائدة بن قدامة وأعطاه سبعين ألف درهم وقال له: هذه ضِعْفُ ما أنفق عُمر في طريقه إلينا، وأمره أنْ يأْخذَ معه خمسمائة فارس، ويسير حتَّى يَلْقَاه بالطريق فيعطيَه النفقةَ ويأمره بالعوْد، فإنْ فعل وإلاَّ فيريه الخيْلَ، فأخذ زائدةُ المال والخيل وسار حتى لَقِي عُمر، فأعطاه المال، وأمره بالاَنصراف، فقال: إن أمير المؤمنين قد ولاني الكوفة، ولا بد من إتيانها، فدعا زائدة الخيل، وكان قد أكْمنَها؛ فلما رآها عمَر قد أقبلتْ أخذ المال وسار نحو البصْرة.

ثم إن عبْد الملك بن مروان بعث عبدَ الملك بن الحارث بن الحكم بن أبي العاص إلى وادي القرى[٢]، وكان المختار قد وادع ٱبنَ الزبير ليكف عنه ويتفرّغ لأهل

(١) خاس فلانًا: أعطاه أنقص مما وعده به. وخاس ثلاثًا: أذلّه.

(٢) وادي القرى: هو واد بين المدينة والشام من أعمال المدينة كثير القرى، والنسبة إليه واديّ، فتحها النبي ﷺ سنة سبع عنوة ثم صولحوا على الجزية. . . (معجم البلدان).

الشام، فكتب المختار لأبن الزبير: بلغني أن ابن مروان قد بعث إليك جيشًا، فإن أحببت أمددتك بمدد.

فكتب إليه ابن الزبير: «إن كنتَ على طاعتي فبايع لي الناس قِبلك، وعجِّل بإنفاذ الجيش ومُرْهم فليسيروا إلى منْ بوادِي القرى من جُنْد أبن مروان فليقاتِلوهم، والسلام».

فدعا المختار شرَحْبيل بن ورْس الهَمْداني، فسيّره في ثلاثة آلاف أكثَرُهم من الموالي، وليس فيهم إلاّ سبعمائة من العرب، وقال له: سرْ حتى تدخل المدينة، فإذا دخلْتَها فاكتب إليّ بذلك حتى يأْتيَك أمري، وهو يريد إذا دخل الجيشُ المدينة أن يبْعَثَ عليهم أميرًا لمحاصرة أبن الزبير بمكة، وخَشِي أبن الزبير أنَّ المختار إنما يكيده، فبعث من مكَّة إلى المدينة عباسَ بن سهل بن سَعْد في ألفين، وأمره أن يستَنْفِر العرب، وقال له: إن رأيت القومَ في طاعتي وإلاّ فكايِدْهُم حتى تهلِكهم. فأقبل عباس حتى لقي أبن ورْس بالرقيم[1] وقد عبَّأ أصحابَه، وأتى عباس وقد تقطع أصحابُه، فرأى أبْن ورْس على الماء في تَعْبِئته فدنَا وسلَّم عليهم، ثم قال لأبن ورْس سِرًّا: ألستم في طاعة ابن الزبير؟ قال: بلى. قال: فسِرْ بنا إلى عدوه الَّذي بوادِي القرى، فقال: إنما أُمِرْتُ أنْ آتِيَ المدينة وأكتب إلى صاحبي، فيأْمرني بأمره، فقال عباس: رأْيُك أفضل، وفَطِن لما يريد، وقال: أما أنا فسار إلى وادِي القرى، ونزل عباس أيضًا، وبعث إلى أبن ورْس بجزائِر[2] وغَنَم، وكانوا قد ماتوا جوعًا، فذبحوا واشتغلوا بها، واختلطوا على الماء، وجمع عبّاس مِنْ شجعان أصحابِه نحوَ ألف رجل، وأقبل إلى فسْطاط ابن وَرْس، فلما رآهم نادَى في أصحابه، فلم يجتمع إليه مائة رجل، حتى انتهى إليهم عباس، فأقتتلوا يَسِيرًا، فقتل ابْن وَرْس في سبعين من أهل الحفاظ.

ورفعَ عباس رايَةَ أمان، فأتَوها إلا نحو ثلاثمائة مع سليمان بنِ حِمْير الهمداني، وعبّاس بن جعْدة الجَدَلي، فظفِر عباس بن سهل منهم بنحو من مائتين فقتلهم، وأفلت الباقون فرجعوا ومات أكثرهم في الطريق.

---

(١) الرقيم: اسم القرية التي كان فيها أهل الكهف، وقيل: إنه اسم الجبل الذي فيه الكهف.. وروي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: ما أدري ما الرقيم أكتاب أم بنيان... (معجم البلدان لياقوت).

(٢) جزائر: جمع جزور، وهو ما يصلح لأي ذبح من الإبل... ويقال للبعير: هذه جزور سمينة.

وكتب المختار إلى ٱبن الحنفية: «إني أرسلْتُ إليك جيشًا ليُذلُّوا لكَ الأعداء، ويُحرزوا لك البلاد، فلمّا قاربوا طَيْبة[١] فعل بهم كذا وكذا، فإن رأيتَ أن أبعث إلى المدينة جيْشًا كثيفًا وتبعث إليهم منْ قِبلك رجُلاً فٱفعل».

فكتب إليه ٱبن الحنفية: «أمَّا بعد، فقد قرأت كتابَك، وعرفْت تعظيمك لحقّي، وما تؤْثره من سروري؛ وإن أحبَّ الأُمور كلِّها إليَّ ما أُطيعُ الله فيه، فأطع الله ما استطعت، وإني لو أردت القتال لوجدتُ الناس إليّ سراعًا، والأعوان لي كثيرة، ولكنِّي أعتز لهم وأصبر حتَّى يحكم الله لي وهو خير الحاكمين».

ذكر امتناع محمد ابن الحنفية
من مبايعة عبد الله بن الزبير وما كان من أمره
وإرسال المختار الجيش إلى مكة وخبر ابن الحنفية

قال: ثم إن عبد الله بن الزبير دعا محمد ابنَ الحنفيّة ومَنْ معه مِنْ أهل بيته، وسبعة عشر رجلاً من وجوه أهل الكوفة منهم أبو الطفَيْل عامر بن واثلة له صُحْبة، ليبايعوه فٱمتنعوا وقالوا: لا نبايعُ حتى تجتَمِعَ الأُمَّة، فأكثرَ الوقيعةَ في ٱبن الحنفية وذمَّه، فأغلظَ له عَبْدُ الله بن هانىء الكِنْدِي، وقال: لئن لم يضرك إلا تركنا بيعتك لا يضرك شيء، فلم يراجعه ٱبْن الزبير، فلما ٱستولى المختار على الكوفة وصارت الشِّيعة تدعو لابن الحنفية، ألح ابن الزبير عليه وعلى أصحابه في البَيعة حتَّى حبسهم بزمزم[٢]، وتوعّدهم بالقتل والإحراق إن لم يُبايعوا، وضرب لهم في ذلك أجَلاً.

فكتب ابن الحنفيَّة إلى المختار يعرفه الحال، ويطلب منه النجدة.

فقرأ المختار كتابه على أهل الكوفة، وقال: هذا مهْدِيكم وصريح[٣] أهل بيت نبيكم قد تُركوا محظورًا عليهم كما يُحْظر على الغنم ينتظرون القتلَ والتحريقَ في اللَّيل

---

(١) طيبة: بالفتح ثم السكون ثم الباء الموحدة: وهو اسم لمدينة رسول الله ﷺ، يقال لها طيبة وطابة من الطيب وهي الرائحة الحسنة لحسن رائحة تربتها فيما قيل... وقيل: لطهارة تربتها... وقيل أيضًا: لطيبها لساكنيها ولأمنهم ودعتهم فيها... (معجم البلدان لياقوت).

(٢) زمزم: بفتح أوله، وسكون ثانيه، وتكرير الميم والزاي: وهي البئر المباركة المشهورة، قيل: سميت زمزم لكثرة مائها... وقيل: سميت بضم هاجر أم إسماعيل، عليه السلام، لمائها حين انفجرت وزمّها إياه... وقيل: بل سميت زمزم لزمزمة جبرائيل عليه السلام، وكلامه عليها... (معجم البلدان).

(٣) الصريح: الخالص مما يشوبه.

والنهار، لستُ أبا إسحاق إنْ لم أنصُرْهم نَصْرًا مُؤَزَّرًا، وإن لم أُسرِّب الخيلَ في إثْر الخيل، كالسَّيْل يتْلوهُ السَّيْل، حتى يحُلّ بأبْنِ الكاهليّة الويْل، يريد عبد الله بنَ الزُّبير.

فبكى الناسُ وقالوا: سرِّحْنا إليه وعجِّل، فوجه أبا عبْد الله الجدَليَّ في سبعين من أهل القوة، ووجّه ظَبْيان بنَ عُمارة أخا بني تميم في أربعمائة، وبعث معه أربعمائة ألف درهم لأبْن الحنَفيّة، ووجّه أبا المعتمر في مائة، وهانيءَ بنَ قيس في مائة، وعُميْرَ بن طارق في أربعين، ويونسَ بنَ عمران في أربعين، فوصل أبو عبد الله الجَدلي إلى ذات عِرْق[1]، فأقام بها حتى أتاه عُمَير ويونس في ثمانين، فبلغوا مائةً وخمسين راكبًا، فسارُوا حتّى دخلوا المسجدَ الحرامَ وهم ينادُون: يا لثَارات الحسين، حتى أنْتهَوا إلى زَمْزَم، وقد أعد أبن الزبير الحَطَ ليحرّقهم، وكان قد بقي من الأجَلِ يومان، فكسَرُوا الباب ودخلوا على أبن الحنفية، فقالوا: خلِّ بيننا وبين عدو الله أبن الزبير، فقال: إني لا أستحلّ القتال في الحرَم. فقال أبن الزبير: واعجبًا لهذه الخَشَبِيَّة ينعون حُسينًا كأني أنا قَتَلْته، والله لو قدرتُ على قَتَلَتِه لقتلْتهم، وإنما سمّاهم أبن الزبير الخشبيَّة لأنّهم دخلوا مكّة وبأيديهم الخَشَب كراهةَ إشهار السيوف في الحَرم، وقال: أتحسبون أنّي أُخلّي سبيلَهم، دون أن نبايعَ ويبايعوا.

فقال الجَدَلي: وربِّ الرُّكْن والمقام لتخلِّينّ سبيلنا أو لنجالدنّك بأسيافنا جِلادًا يرتابُ منه المُبْطلون، فكفَّهم أبْن الحنفية وحذَّرهم الفتنة.

ثم قَدِم باقي الجُنْد ومعهم المال، فدخلوا المسجدَ الحرام فكبّروا، وقالوا: يا لثاراتِ الحسين، فخافهم أبن الزبير، وخرج أبن الحنفيَّة ومعهُ أربعة آلاف رجل إلى شِعْب عَلي، فعزُّوا وأمتنعوا، قسم فيهم المال، فلما قتِل المختار ضَعفوا واحتاجوا، ثم أستوسقت[2] البِلاَدُ لابْن الزبير بعد قَتْل المختار، فبعث إلى أبن الحنفيَّة أن أدخل في بيْعتي، وإلاَّ نابَذْتك.

وبلغ الخبَرُ عبدَ الملك بن مروان، فكتب إلى أبن الحنفيّة: إنه إن قَدم عليه أحسنَ إليه، وإنه ينزل أيَّ الشام أحبَّ حتَّى يسْتَقِيمَ أمرُ الناس.

---

(١) ذات عرق: مهل أهل العراق، وهو الحد بين نجد وتهامة، وقيل: عرق: جبل بطريق مكة ومنه ذات عرق. . . وقيل: العرق: هو الجبل المشرف على ذات عرق. . . (معجم البلدان).

(٢) استوسق الشيء: اجتمع والضم. واستوسق الأمر: انتظم.

فخرج ٱبْن الحنفية ومن معه إلى الشام، فلما وصل إلى مَدْين[1] بلَغَهُ غدْرُ عبدِ الملكِ بعَمْرو بن سعيد، فندم على إتيانه إلى الشام ونزل أيْلة[2]، وتحدث الناسُ بفضل ٱبن الحنفيَّة، وكَثْرةِ عِبادتِه وزهْدِه، فندم عبد الملك على إذْنِهِ له في القدوم إلى بلده، فكتب إليه: «إنه لا يكون في سلطاني مَنْ لا يبايعني».

فارْتَحل إلى مكَّةَ، ونزل شِعْبَ أبي طالب، فأرسل إليه ابْن الزبير يأْمره بالرحيل عنه، فسار إلى الطائف وٱلتحق به عَبْدُ الله بن عباس، ومات ٱبن عباس بالطائف، فصلى عليه ٱبن الحنفية، وكبّر عليه أربعًا، وأقام بالطائف حتى قدم الحَجّاج لِحِصَارِ ٱبن الزبير، فعاد إلى الشِّعب، فطلبه الحجاج ليبايعَ عبدَ الملك، فٱمتنع حتى يجتمِع الناس، ثم بايع بعد قَتْل ٱبن الزُّبير. هذا ما كان من أمره، فلنعد إلى أخبار المختار، والله أعلم.

ذكر مسير إبراهيم بن الأشتر لحرب عبيد الله بن زياد وقتل ابن زياد

وفي سنة ست وستِّين لثمانٍ بقين من ذي الحجة، سار إبراهيم بن الأشتر لقتَالِ عُبيد الله بنِ زياد، وذلك بعد فَراغه من وقعة السَّبِيع بيَوْمَين، وأخْرج المختارُ معه فرْسانَ أصحابِه ووجوههم وأهل البصائر منهم، وشيّعه ووصاه، وخرج معه لتَشْييعه أصحاب الكرسي[3] بكرسيهم، وهم يدْعُون الله له بالنصر، وسنذكر خبر الكرسيّ إن شاء الله تعالى.

قال: ولما انتهى إبراهيم إلى أصحاب الكرسيّ وهم عُكوف عليه، وقد رفَعُوا أيديَهم إلى السماء يدْعُونَ الله، فقال إبراهيم: اللهم لا تؤاخِذْنا بما فَعل السفهاء منّا، هذه سنَّة بني إسرائيل، وسار إبراهيم مُجدًا ليَلْقَى ٱبن زياد قبل أن يدخل أرضَ العراق، وكان ٱبنُ زياد قد سار في عسكر عظيم وملَك الموصل كما ذكرنا، فلما

(١) مدين: بفتح أوله وسكون ثانيه، وفتح الياء المثناة من تحت وآخره نون: على بحر القلزم محاذية لتبوك على نحو من ست مراحل وهي أكبر من تبوك وبها البئر التي استقى منها موسى عليه السلام... وقيل: مدين هي كفر مندة من أعمال طبرية وعندها أيضًا البئر والصخرة... (معجم البلدان).

(٢) *أيلة: مدينة على ساحل البحر مما يلي الشام...*

(٣) سوف يأتي الكلام على صفة الكرسي في الصفحة ٣٠.

انتهى إبراهيم إلى نهر ٱلخَازِر[١] من أرض المَوْصِل نزل بقرية باريثا، وأقبل عُبَيْدُ الله بن زياد حتى نزل قريبًا منهم على شاطىء خازِر، وأرسل عُمَيْر بن الحُبَاب السُّلميّ إلى ٱبن الأشتر أن الْقِنَى؛ وكانت قَيْسٌ كلُّها مضطغنة على بني مرْوانَ بسبب وقعة مرْج راهِط[٢]، وجند عبد الملك يومئذ كَلْب، وٱجتمع عُمير وٱبْنُ الأشتر فأخبره عُمَيْرٌ أنَّه على ميْسرة ابن زياد، وواعده أنه ينهزِمُ بالناس، وأشار عليه بمُنَاجزَة القوم، وعاد عُميرٌ إلى أصحابه، وعبّأ ٱبن الأشتر أصحابه، وصلّى بهم صلاةَ الفجر بغَلَس، ثم صفَّهم وسار بهم رُوَيْدًا حتى أشرف على تلّ عظيم مُشْرِف على القوم، فإذا هم لم يتحرك منم أحد، فتقدم ابْن الأشْتَر وهو يحرض أصحابَه على القتال، ويذكِّرهم بمقتل الحسين وسبْيِ أهل بيته، فلما تَدانى الصَّفَّانِ حمل الحُصين بن نمير بميمنة أهل الشام على ميسرة ٱبْنِ الأشتر، وعليها عليُّ بن مالك الجُشمي، فقتل ٱبن مالك، فأخذ الرايةَ ابنه قرة بن عليّ وقاتَل بها فقتل في رجال من أهل البأس، وانهزمت ميسرة إبراهيم، فأخذ الرايةَ عبدُ الله بن ورقاء بن جُنَادة السَّلوليّ، وردَّ المنهزمين، وقاتلوا، وحملتْ ميْمنَة إبراهيم وعليها سفيان بن يزيد الأزدي على ميسرة ٱبن زياد، وهم يظنُّون أن عُمَيْر بن الحُبَاب ينْهزِم لهم كما زعم، فقاتلهم أشدَّ قتال، وأنِفتْ نفسُه الهزيمةَ، فلمّا رأى إبراهيم ذلك قال لأصحابه: اقصدوا أهل السواد الأعظم، فوالله لئن هزَمْنَاه لنجعلن من تَرَوْن يمنةً ويَسْرة، فتقدم أصحابُه وقاتَلوا أشد قتال، وصدقَهم إبراهيمُ القِتَال، فٱنهزم أصحابُ ابن زياد، وبعد أن قُتل من الفريقين قتلَى كثيرةً.

وقيل: إن عُمَير بن الحُباب أول من ٱنهزم، وإنما كان قتاله أولاً تعذيرًا.

فلما ٱنهزموا قال إبراهيم بن الأشتر: إني قتلتُ رجُلاً تحت رايةٍ منفردةٍ على شط نهر خَازِر، فٱلتمِسوه فإني شَمِمتُ منه رائحةَ المسك، شرّقتْ يداه وغرّبتْ رِجْلاَه، فٱلتَمسوه، فإذا هو عُبَيْدُ الله بن زياد، فأخذ رأْسَه وحرّق جثّته.

وأقام إبراهيم بالموصل، وأنفذ رأْسَ عُبيد الله إلى المختار، ورؤوس القوّاد، وكانت هذه الوقعة في سنة سبع وستين.

(١) الخازر: نهر بين إربل والموصل.

(٢) مرج راهط: بنواحي دمشق، وهو أشهر المروج في الشعر فإذا قالوه مفردًا فإياه يعنون، ومرج راهط: موضع في الغوطة من دمشق في شرقيه بعد مرج عذراء إذا كنت في القصير طالبًا لثنية العقاب تلقاء حمص فهو عن يمينك. . . (معجم البلدان لياقوت).

وروى الترمذي[١] رحمه الله قال: لما جاءت الرؤُوس إلى المختار أُلْقِيتْ في القصر فجاءت حيّة دقيقة فتخللت الرؤوس حتى دخلَتْ فم عبيد الله وخرجتْ من مَنْخَره ودخلتْ في مَنْخَره وخرجتْ من فمه، فعلتْ ذلك مرارًا.

ذكر ولاية مصعب بن الزبير البصرة ومسيره إلى الكوفة وقتاله المختار وقتل المختار بن أبي عبيد

كانت ولايته البصرة وعزل الحارث بن أبي ربيعة الملقَّب بالقُباع عنها في أول سنة سبع وستِّين، قال: فقدِمها مُصْعب، وصَعِد المنبر فحمِد الله وأثنى عليه، ثم قال: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٤﴾ [القصص: ١ ـ ٤]، وأشار بيده نحو الشام، ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: ٥ ـ ٦]، وأشار نحو الحجاز، ﴿وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ۝٦﴾ [القصص: ٦]، وأشار نحو الشام، وقال: يا أهل البصرة، بلغني أنَّكم تلقِّبون أميرَكم، وقد لقَّبْت نفسي الجزَّار.

قال: ولما هرب أشرافُ الكوفةِ من المختار يوم وَقْعة السَّبِيع، أتى جماعةٌ منهم إلى مصعب، فكان منهم شَبَث بن رِبْعيّ، أتاه على بغْلَةٍ قد قطِع ذنبُها وَطَرفُ أذنِها، وَشقَّ قَباءه وهو ينادِي: واغَوْثاه! وأتاه أشرافُ الكوفة فدخلوا عليه وسألوه المسير إلى المختار ونصرتَهم، وقدم محمد بن الأشعث، واستحثَّه على المسير فأدناه وأكرمه، وكتب إلى المهلَّب بن أبي صُفْرة، وهو عامله على فارسَ يستَدْعِيه ليشهدَ معهم قتالَ المختار، فقدِم في جموع كثيرة وأموالٍ عظيمة، فبرز مُصْعَبُ بالجيوش، وأرسل عبد الرحمٰن بنَ مِخْنَف إلى الكوفة، وأمَره أن يُخرِج إليه مَنْ قَدَر عليه، وثبّط الناسَ عن المختار، ويدعوَهم إلى بيعة ابن الزبير سرًّا، فسار ودخل الكوفة مُسْتَتِرًا، وفعل ما أمره، وسار مصعب وقدم أمامه عبّاد بن الحُصَين الحبَطيّ التميميّ، وجعل عمر بن عُبَيد الله بن معمر على ميمنته، والمهلَّب على مَيْسَرته، ومالكَ بن مِسْمَع على بَكر،

---

(١) الترمذي: هو أبو جعفر محمد بن أحمد بن نصر، الترمذي الفقيه الشافعي، لم يكن للفقهاء الشافعية في وقته أرأى منه ولا أورع ولا أكثر تقللاً، وكان يسكن بغداد وحدّث بها عن يحيى بن بكير... ويوسف بن عدي... وغيرهما. كانت وفاته سنة ٢٩٥هـ... (وفيات الأعيان ٤:١٩٥).

ومالك بن المنذر على عَبْد القيس، والأحنفَ بنَ قيس على تميم، وزيادَ بن عمرو العَتَكيّ على الأزْدِ، وقيس بن الهيثم على أهل العالية، وبلغ الخبرُ ٱلمختار فقام في أصحابه فندبهم إلى الخروج مع أحمر بن شُمَيط، ودعا رؤُوسَ الأرباع الَّذين كانوا مع ٱبن الأشتر فبعثهم مع ٱبْنِ شميط، فسار وعلى مقدّمته ٱبن كامل الشاكريّ، فوصلوا إلى المذَار[1]، وأقبل مصعبٌ فعسْكَرَ بالقرْبِ منه، وعبّأ كلٌّ واحد منهما جُنْدَه، فتقدّم عباد بن الحُصَيْن إلى أحْمَر وأصحابه، وقال: إنَّا ندعوكم إلى كتابِ الله وسنَّة رسوله، وإلى بيْعَة أمير المؤمنين عبدِ الله بنِ الزبير، فقال الآخرون: إنَّا ندعوكم إلى كتابِ الله وسنَّة رسوله وإلَى بَيْعَة المختار، وأن نَجعلَ هذا الأمر شُورى في آل رسول الله ﷺ، فرجع عبّاد وأخبر مصعبًا، فقال: ارجع فٱحمل عليهم، فرجع وحمل على ٱبن شمَيط وأصحابِه، وحمل المهلَّب على ٱبن كامل حملةً بعد أُخرى، فهزمهم، وثبت ٱبْن كامل ساعةً في رجالٍ من هَمْدان، ثم ٱنصرف، وحمل الناسُ جميعًا على ٱبن شُمَيْط، فقَاتل حتى قتل، وانهزم أصحابُه، وبعث مصعبٌ عبّادًا على الخيل وقال له: أيما أسير أخذتَه فٱضرب عنقَه، وسرّح محمد بنَ الأشعث في خيل عظيمة من أهل الكوفة، وقال: دونكم ثأركم فكانوا حيث انهزموا أشدَّ على المنهزمين من أهل البصرة، فلم يدركوا منهزمًا إلاَّ قتلوه، فلم يَنْجُ من ذلك الجيش إلا طائفة من أصحاب الخيل.

ثم أقبل مصعب حتى قطع من تِلْقاء واسط، القصب، ولم تكن واسط[2] بُنيتْ بعدُ، فأخذ في كَسْكر[3]، ثم حمل الرجال أثقالَهم والضعفاء في السفن، فأخذوا في نهر خُرْشاذ، ثم خرجوا إلى نَهْر قوسَان، ثم خرجوا إلى نَهْر الفرات، وأتى المختار خبرُ الهزيمة والقَتْلى، فقال: ما مِنَ الموت بدٌّ، وما مِنْ مِيتة أموتها أحبّ إليّ مِنْ أن أمُوت مِثْلَ موتة ٱبن شُميْط.

ولما بلغه أنّ مُصْعبًا قد أقبل إليه في البرّ والبَحْر سار حتى نزل السَّيْلحِين[4]، ونظر إلى مُجْتَمع الأنهار، نهر الخريرة، ونهر السَّيْلَحِيْن، ونهر القادسِيّة، ونهر

---

(١) المذار: بالفتح وآخره راء: بلدة بين واسط البصرة (المراصد).

(٢) واسط: في عدة مواضع: واسط الحجاج: لأنها متوسطة بين البصرة والكوفة... قيل: للعرب سبعة أواسط: واسط نجد... وواسط الحجاز... وواسط الجزيرة... وواسط اليمامة... وواسط العراق... (معجم البلدان).

(٣) كسكر: بالفتح ثم السكون، وكاف أخرى، وراء، معناه عامل الزرع: كورة واسعة ينسب إليها الفراريج الكسكرية لأنها تكثر بها جدًا... وقصبتها اليوم واسط، القصبة التي بين الكوفة والبصرة... (معجم البلدان).

(٤) السيلحين: موضع بالحيرة.

يُوسف، فسَكَر[١] الفرات، فذهب ماؤُها في هذه الأنهار، وبقيت سُفن أهل البصرة في الطين، فخرجوا من السفن إلى ذلك السُّكْر فأصلَحوه، وقصدوا الكوفَة، وسار المختارُ فنزل حَرَوْراء، وحال بينهم وبين الكوفة بعد أن حصّن القَصْرَ والمسجد، وأقبل مصعبٌ وجعل على ميمنته المهلّب، وعلى ميسرته عمرَ بن عبيد الله، وعلى الخيل عبّاد بن الحُصَيْن، وجعل المختار على ميمنته سُليم بن يزيد الكنديّ، وعلى ميسرته سعيد بن مُنْقذ الهمْداني، وعلى الخيل عمر بن عبْد الله النَّهْديّ، وعلى الرجال مالك بن عبْد الله النَّهْدي، وأقبل محمد بن الأشعث فيمن كان قد هَرَب من أهل الكوفة، فنزل بين مصعب والمختار، فلمّا رأى المختار ذلك بعث إلى كلّ خَمْسٍ من أهلِ البصرة رَجُلاً من أصحابه، وتَدانَى الناسُ، فحملَ سعيد بن منقذ على بَكْر وعَبْد القيس وهم في مَيْمَنةِ مصعب، فاْقتتلوا قتالاً شديدًا، بعث المختار إلى عَبْدِ الله بنِ جَعْدَة بن هُبيرة المخزومي، فحمل على منْ بإزائه وهم أَهْلُ العالية، فكشَفَهم فانتهوا إلى مصعب فجثا مصعب على ركبتيه ونزل الناس عنده فقاتلوا ساعة وتحاجزوا ثم حمل المهلب على من بإزائه فكشفهم واشتدَّ القتال، فقتل ابْن الأشعث وذلك عند المساء، وقاتل المختارُ على فم سكّة شَبثٍ عامّة ليلته، وقاتل معه رجالٌ من أهل البأْس، وقاتلتْ معه هَمْدان أشدَّ قتال، ثم تفرق الناس عن المختار، فقال له منْ معه: أيُّها الأمير، اذهب إلى القَصْر، فجاء حتَّى دخله، فقال له بعض أصحابه: ألم تكن وعَدْتَنا الظفَر، وأنَّا سنَهزمهم؛ فقال: أما قرأتَ في كتاب الله: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ٣٩﴾ [الرعد: ٣٩].

قال: فلما أصبح مصعب أقبل يَسير فيمن معه نحو السَّبَخة، فمرّ بالمهلَّب، فقال المهلَّب، يا له فتحًا ما أهنَاه لو لم يُقتل محمدُ بن الأشعث، فقال: صدقتَ؛ ثم قال مصعب للمهلب: إن عُبَيْد الله بن عليّ بن أبي طالب قد قتل، فاْسترجع المهلَّب، فقال مُصْعب: إنَّما قَتَله مَنْ يزعم أنه شيعةٌ لأبيه، ثم نزل مُصْعَب السَّبَخَة فقطع عن المختار ومَنْ معه الماء والمِيرة[٢]، وقاتل المختار ومنْ مَعه قتالاً ضعيفًا، واجترأ الناسُ عليهم، فكانوا إذا خرجوا رماهم الناسُ من فوق البيوت، وصَبُّوا عليهم الماء القَذِر، وكان أكثر معاشهم من النساء تأْتي المرأة متخفِّية ومعها القليلُ من الطعام والشراب، ففطِن مصعب لذلك، فمنَع النساء، فاشتد على المختارِ وأصحابِه العطش،

(١) سكر النهر: سدّه وحبسه.

(٢) الميرة: الطعام يجمع للسفر ونحوه.

فكانوا يشربون ماء البئر بالعسل، ثم أمر مصعب أصحابه فاقتربوا من القصر، وٱشتدّ الحصار، فقال المختار لأصحابه: ويلَكم، إنَّ الحصار لا يزيدكم إلاَّ ضَعفًا، فانزلوا بنا نقاتلْ حتّى نقتل كِرَامًا إن نحن قتِلنَا، والله ما أنا يائس إن صدقتموهم أن ينصرَكم الله، فضَعُفوا ولم يفعلوا، فقال لهم: أما أنا فوالله لا أُعطِي بيدي ولا أحكِّمهم في نفسي، ثم تطيّب وتحنَّط وخرج من القصر في تسعة عشر رجُلاً منهم السائب بن مالك الأشعريّ، فتقدّم المختارُ فقاتل حتى قُتل، قتلَهُ رجلان أخَوان من بني حنيفة، وهما طَرَفة وطَرّاف ابنا عبد الله بن دَجاجة، فلما كان الغد من مقْتَله، دعا بجير بن عبد الله المُسْليّ منْ مَعَهُ بالقصر إلى ما دعاهم المختار، فأبوا عليه، وأمكَنوا أصحابَ مصعب من أنفسهم، ونزلوا على حُكْمه، فأُخرجوا مكتَّفين، فٱستعطفوه، فأراد أن يُطْلقهم، فقام عَبْدُ الرحمٰن بن محمد بنِ الأشعث فقال: أتخلِّي سبيلهم؟ اخْتَرْنا أو ٱخْتَرْهم. وقال محمد بن عبد الرحمٰن بن سعيد الهَمْدَاني مِثلَه، وقال أشرافُ الكوفَة مِثلهما، فأمر بقَتْلِهِمْ، فقالوا: يا ٱبْنَ الزُّبَيْر، لا تقتلْنا وٱجعلنا على مقدِّمتك إلى أهل الشام غَدًا، فما بكم عَنَّا غدًا غِنى؛ فإن قُتلنا لم نقتلْ حتى نضعفهم لكم، وإن ظفرْنا بهم كان ذلك لكم، فأبى عليهم وقتلَهم برأْي أهل الكوفة، وأمَر مصعب بكفّ المختار فقطِعتْ وسُمِّرت إلى جانب المسجد فبقيْت حتى قدم الحجاج فأمَر بِنَزْعها.

وكتب مصعب إلى إبراهيم بن الأشتر يدعوه إلى طاعتِه، ويقول: إن أطعتَني فلكَ الشام وأعِنَّة الخَيْلِ وما غلبت عليه من أرض المغرب ما دام لآلِ الزُّبَيْر سلطان.

وكتب عبدُ الملك بن مروان إلى ٱبن الأشتر أيضًا يَدْعُوه إلى طاعته ويقول: إنْ أنْتَ أجبتَني فلك العِرَاق.

فٱستشار إبراهيمُ أصحابَه في ذلك، فٱختلفوا، فقال: لو لم أكن أصبت ٱبنَ زياد وغيره من أشراف الشام لأجبْت عَبْدَ الملك، مع أني لا أختار على أهل مِصْري وعشيرتي غيرهم، فدخل في طاعة مُصْعب، وبلغ مصعبًا إقباله إليه، فبعث المهلَّب على عمله بالموصل والجزيرة وإرمينية وأذرَبيجان.

قال: ثم دعا مُصْعب بن الزبير أُمَّ ثابت بنت سَمُرة بن جُنْدب ٱمرأة المختار، وعَمْرة بنت النعمان بن بشير الأنصاري امرأته الأُخرى، وسألهما عنه، فقالت أم ثابت: أقول فيه بقولكَ أنْتَ فيه، فأطلَقها؛ وقالت عمرة: رحمة الله عليه، كان عبْدًا صالحًا.

فكتب إلى أخيه عبد الله: إنها تزعم أنه نبي، فأمره بقَتْلِهَا، فقتِلَتْ ليلاً بين الحِيرة والكوفة، فقال عمر بن أبي ربيعة المخزوميّ[١]: [من الخفيف]

إنَّ من أعجبِ العجائب عندي ... قَتْلَ بيضاء حرّةٍ عُطبولِ[٢]
قتِلتْ هكذا على غَيْر جُرم ... إن لِلّهِ درَّها من قَتيلِ
كُتِبَ القَتْلُ والقِتَالُ علينا ... وعلى المحصَنات جرُّ الذُّيول[٣]

وقيل: إن المختار إنما أظهر الخلاف على ابن الزبير عند قدوم مصعب البصرة، وإن مُصْعَبًا لمّا سار إليه فبلغه مسيرُه أرسل إليه أحمر بن شُميط، وأمره أن يُواقِعه بالمذَار[٤]، وقال: إن الفتح بالمذَار، لأنه بلغه أن رجُلاً من ثَقيف يُفْتَح عليه بالمَذار فتحٌ عظيم، فظن أنه هو، وإنَّما كان الحجّاج في قتال عبد الرحمٰن بن ٱلأشعث، وأمر مصعبٌ عبادًا الحَبَطِيّ بالمسير إلى جَمْع المختار، فتقدّم وتقدّم معه عبيد الله بن عليّ بن أبي طالب، وبقي مصعبٌ على نهر البصْريّين، على شط الفرات، وخرج المختار في عشرين ألفًا، وزحف مصعب ومَنْ معه فوافَوه مع اللّيل، فقال المختار لأصحابه: لا يبرحَنَّ أحدٌ منكم حتَّى يسمَع مناديًا ينادي: يا محمّد، فإذا سمعْتموه فٱحملوا، فلما طلع القمر أمر مناديًا فنادي: يا محمد؛ فحملوا على أصحابِ مُصْعبٍ فهزموهم وأدخلوهم عَسكرهم، فلم يَزَالُوا يقاتلونهم حتى أصبحوا، وأصبح المختارُ وليس عنده أحَد، وقد أوغَل أصحابُه في أصحابِ مُصْعبٍ، فٱنصرف المختارُ منهَزِمًا حتى دخل قَصْرَ الكوفة، وجاء أصحابُه حين أصبحوا، فوقفوا مَلِيًّا، فلم يَرَوا المختارَ، فقالوا: قد قتِل، فهرب منهم مَنْ أطاق الهرَبَ، فٱختفَوا بدُور الكوفَةِ، وتوجّه منهم نحو القَصْرِ ثمانية آلاف، فوجدوا المختار في القصر، فدخلوا معه وكانوا قد قَتلوا تلك الليلةَ من أصحْاب مصعب خَلْقًا كثيرًا، منهم محمد بنُ الأشعث.

---

(١) هو أبو الخطاب عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم بن يقظة بن مرة، القرشي المخزومي الشاعر المشهور؛ لم يكن في قريش أشعر منه، وهو كثير الغزل والنوادر والوقائع والمجون والخلاعة، وله في ذلك حكايات مشهورة... احترق في حدود سنة ٩٣هـ وعمره مقدار سبعين سنة... وكانت ولادته في الليلة التي قتل فيها عمر بن الخطاب رضي الله عنه... وفيات الأعيان (٣: ٤٣٦).

(٢) العطبول: المرأة الفتية الجميلة الممتلئة.

(٣) المحصنة: المتزوجة أو العفيفة.

(٤) المذار: بليدة بين واسط والبصرة (المراصد).. أو أرض بقرب اكلوفة.

وأقبل مصعب فأحاط بالقَصْر، وحاصرهم أربعة أشهر يخرجُ المختار كلَّ يوم فيقاتلهم في سوقِ الكوفة، فلمّا قتِلَ المختار بَعَث مَنْ في القصر يطلبون الأمان، فأبَى مصعب، فنزلوا على حكمه، فقَتَل من العَرب سبعَمائة أو نحو ذلك، وسائِرُهم من العَجَم، فكان عدة الْقَتْلى ستَّة آلاف رجل، وقيل: سبعة آلاف، وذلك في سنة سبع وستِّين، وكان عُمْرُ المختارِ يوم قتِل سبعًا وستِّين سنة، وكان تارةً يدعو لمحمد ابن الحنفيّة، وتارةً لعَبْدِ الله بن الزبير.

وحَكى عبدُ الملك بن عبدون في كتابه المترجم (كمامة الزَّهَر وصدفة الدُّرَر)، أن المختار ٱدّعى النبوّة وقال: إنه يأْتيه الوَحْيُ من السماء، وأظهر ذلك في آخر أمره، وكان له كرسي يَستنصر به.

ذكر خبر كرسي المختار الذي كان يستنصر به ويزعم أنه في كتاب بني إسرائيل

قال الطُّفَيْل بن جَعْدة بن هُبَيرة: أضقت إضاقةً شديدة، فخرجت يومًا فإذا جارٌ لي زَيّات وعنده كرسيّ قد ركِبهُ الوسخ، فقلتُ في نفسي: لو قلتُ للمختار في هذا شيئًا، فأخذته من الزيّات وغسلته، فخرج عُود نُضار قد شرب الدُّهن وهو أبيض، فقلت للمختار: إنِّي كنْتُ أكْتمُك شيئًا، وقد بَدا لي أن أذكره لك، إن أبي جعْدَة كان يجلس عندنا على كرسي، ويرى أنّ فيه أثَرًا مِن عِلْم. قال: سبحان الله، أخَّرتَه إلى هذا الوقت! ابعثْ به إليَّ، فأحضرتُه وقد غشَّيْته، فأمر لي بٱثني عشر ألفًا، ثم أمر فنودِي: الصلاة جامعة، فٱجتمع الناسُ، فقال: إنه لم يكن في الأُمم الخالية أمرٌ إلاّ وهو كائن في هذه الأُمَّةِ مثله، وإنه كان لبني إسرائيل التابوت، وإن هذا فينا مِثله، فكشفوا عنه وقامت السَّبَائيَّة[1] فكبّروا، ثم لم يلبث أنْ أرسل المختارُ الجيشَ لقتال ٱبنِ زياد، وخرج بالكرسيّ على بغْلٍ وقد غُشِّيَ، فكان من هزيمة أهل الشام وقَتْلِ أشرافهم ما ذكرناه، فزادهم ذلك فتنةً حتى تعاطَوا الكفر.

قال الطفيل: فندمتُ على ما صنعْتُ، فتكلَّم الناسُ في ذلك، فغيّبه المختار.

---

(١) السبائية: أصحاب عبد الله بن سبأ الذي قال لعلي كرم الله وجهه: أنت، أنت، يعني أنت الإلّه، فنفاه إلى المدائن، زعموا أنه كان يهوديًا فأسلم... وهو أول من أظهر القول بالنص بإمامة عليّ رضي الله عنه ومنه انشعبت أصناف الغلاة من الشيعة... (الملل والنحل للشهرستاني).

وقيل: إن المختار قال لآل جعْدَة بن هُبيرة ـ وكانت أُمّ جعدة هي أُم هانيء بنت أبي طالب أُخت عليّ رضي الله عنه لأبويه ـ ائتوني بكرسي عليّ، فقالوا: واللّهِ ما هو عندنا، فقال: لا تكونوا حَمْقَى، اذهبوا فأْتوني به، فظنُّوا أنَّهم لا يأْتونه بكرسي إلا قال: هذا هو، فأتوْه بكرسيّ، فأَخَذَه وخرجتْ شِبَام وشاكر وفودًا، يعني أصحاب المختار، وقد جعلوا عليه الحرير، وكان أوّل من سَدنَه[1] موسى بن أبي موسى الأشعريّ، فعتب الناسُ عليه، فتركه فسدنَه حَوْشَب الْبُرْسُمِيّ حتى هلك المختار.

وقال أعشى همدان فيه[2]: [من الطويل]

شَهدتُ عليكم أنكم سبَئيّةٌ ... وإنّي بكم يا شرْطةَ الشِّرْك عارفُ
فأُقسِم ما كُرْسِيُّكمْ بسكينةٍ ... وإن كان قد لفَّت عليه اللّفائفُ
وأن ليس كالتابوت فينا وإن سعَتْ ... شِبامٌ حوالَيْه ونَهْد وخَارفُ[3]
وإنِّي اَمرؤٌأحببتُ آلَ محمّدٍ ... وتابعْتُ وحْيًا ضُمِّنتْه المصاحفُ
وبايعتُ عبْدَ الله لما تتابعتْ ... عليه قريشٌ شُمْطها والغَطارفُ[4]

وقال المتوكل اللَّيثي: [من السريع]

أبلغْ أبَا إسحاق إن جئْتَه ... أنِّي بكرْسيِّكم كافرُ
تَنْزو شِبامٌ حوْلَ أعوادِه ... ويحْمِل الوحيَ له شاكرُ
محمرَّةً أعينُهمْ حولَه ... كأنَّهن الحامض الحازرُ[5]

انتهت أخبار اَلْمختارِ بن أبي عُبيد، فلنذكر أخبار نَجْدَةَ الحَنَفي، والله وليّ التوفيق.

---

(١) السدنة: جمع سادن: وهو الخادم.

(٢) هو عبد الرحمٰن بن نظام بن جشم بن عمرو بن مالك بن جشم بن حاشد... كان زوج أخت الشعبي، وكان الشعبي زوج أخته، وكان من القراء، ثم تركه وصار شاعرًا، خرج مع ابن الأشعث فأتى به الحجاج فقتله صبرًا... (المؤتلف ١٤ والإكمال للأمير ٢: ٣٠٠).

(٣) بنو شبام: بطن من همدان، من القحطانية. وبنو نهد بطن من قضاعة من القحطانية. وبنو خراف: بطن من بني حاشد، من همدان، من القحطانية... (نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب).

(٤) الشمط: جمع أشمط، وهو الذي اختلط سواد شعره ببياضه. والغطاريف: جمع الغطريف، وهو السيد الكريم.

(٥) الحازر: الذي حمض.

ذكر أخبار نجدة بن عامر الحنفي
حيث وثب باليمامة وما كان من أمره

كان نَجْدة بنُ عامر بن عبد الله بن سيار بن مفرّج الحنفي مع نافع بن الأزرق، ففارقه وسار إلى اليمامة، وكان أبو طالوتَ وهو من بني بكْر بن وائل، وأبو فُدَيْك عبدُ الله بنِ ثور بنِ قيس بن ثعلبة، وعطيّة بن الأسود اليشكريّ - قد وثَبُوا بها مع أبي طالوت، فلمّا قدمها نَجْدة دعا أبا طالوتَ إلى نفسه، فأجابه بعد ٱمتناع، ومضى أبو طالوت إلى الخضَارم[1]، فنهبها، وكانت لبني حنيفة، فأخذها منهم معاوية بن أبي سفيان، فجعل فيها من الرَّقيق ما عِدَّتهم وعدّة أبنائهم ونسائهم أربعة آلاف، فغنم ذلك وقسّمه بين أصحابه، وذلك في سنة خمس وستِّين، ثم إن عيْرًا خرجتْ من البحْرين - وقيل من البصرة - تحمل مالاً وغيرَه يُراد بها عَبْدُ الله بن الزُّبير، فٱعترضها نَجْدَة، فأخذها وساقها حتى أتى بها أبا طالوت بالخضَارم، فقسمها بين أصحابه، وقال: اقتسموا هذا المالَ - وردّوا هذه العبيد، واجعلوهم يعملون بالأرض لكم، فإن ذلك أنفع، فٱقتسَموا المال، وقالوا: نجدة خيرٌ لنا من أبي طالوت، فخلعوا أبا طالوت، وبايعوا نَجْدَة، ثم بايعه أبو طالوت، وذلك في سنة ست وستِّين.

ولمّا تمت بيعته بينهم سار في جمع إلى بني كَعْب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة، فلقيهم بذي المَجَاز[2] فهزمهم وقَتَل فيهم قَتْلاً ذريعًا، ثم كثُرتْ جموعُه حتى بلغت ثلاثةَ آلاف، فسار إلى الْبَحْرَيْن في سنة سبع وستِّين، فقالت الأزْد: نَجْدة أحبُّ إلينا مِنْ وُلاتنا لأنه ينكر الجَوْر، ووُلاتنا تجور؛ فعزموا على مسالمته، وٱجتمعت عبْد القيس ومَن بالبحرين غير الأزد على محاربته، فٱلتقوا بالقَطِيف[3]، فانهزمتْ عَبْدُ القيس، وقُتل منهم جمْعٌ كثير، وسَبى نجْدة منْ قدر عليه من أهل القَطِيف، وأقام بالبحرين.

---

(١) الخضارم: بفتح أوله، وكسر رائه: واد بأرض اليمامة، أكثر أهله بنو عجل، وهم أخلاط من حنيفة وتميم. . . (معجم البلدان).

(٢) ذو المجاز: موضع سوق عرفة، كانت به تقوم في الجاهلية ثمانية أيام.

(٣) القطيف: بفتح أوله وكسر ثانيه: مدينة بالبحرين، هي اليوم قصبتها وأعظم مدنها وكان قديمًا اسمًا لكورة هناك غلب عليها الآن اسم هذه المدينة. . . وقيل: القطيف قرية لجذيمة عبد القيس. . . (معجم البلدان).

فلمّا قدم مصعب إلى البصْرةِ في سنة تسع وستِّين بعث إليه عبْد الله بن عمير اللَّيثي الأعور في أربعة عشر ألفًا، وقيل: في عشرين ألفًا، فجعل يقول: اثْبت نَجْدة فإنَّا لا نَفرّ، فقدم ونجْدَةُ بالقَطِيف، فأتى نجدة إلى ابن عُمير وهو غافل فقاتل طويلاً، ثم ٱفترقوا، وأصبح ابْن عُمير فهالَه ما رأى في عسكره من القَتْلى والْجَرْحى، فحمل عليهم نَجدة، فلم يثبتوا، وٱنهزموا، وغنم نَجْدَة ما في عسكرهم.

وبعث نجدة بعد هزيمة ابن عمير جيشًا إلى عُمَان، واستعمل عليهم عطيّة بن الأسود الحنفيّ، وقد غلب عليها عبّاد بن عبد الله وابناه سعيد وسليمان، فقاتلوه، فقتل عبّاد وٱستولى عطيّة عليها، فأقام بها أشهرًا، ثم خرج عنها، وٱستخلف رَجُلاً يُكَنى أبا القاسم، فقتله سعيد وسليمان ٱبنا عبّاد، فعاد إلى عُمَان فلم يقدر عليها، فركب في البحر وأتى كِرْمَان[1]، وضرب بها دراهمَ سمّاها العَطَويّة، فأرسل إليها المهلَّب جيشًا، فهرب إلى سِجِسْتان، ثم أتى السِّنْد، فقتلتْه خيلُ المهلّب بقَنْدَابِيل[2].

وبعث نجدة إلى البَوادي مَن يأخذ صَدَقة أهلها، ثم سار نَجْدَةُ إلى صنعاء في خفّ[3] من الجيش، فبايعه أهلُها، وبعث أبا فدَيْك إلى حَضْرَمَوْت فجَبى صدقاتِ أهلها، وحج نجْدَة سنة ثمان وستّين، وقيل في سنة تسع، وهو في ثمانمائة وستّين رجلاً، وقيل في ألفين وستمائة رجل، فصالح ٱبنَ الزبير على أن يُصَلّي كلُّ واحد بأصحابه، ويقف بهم، ويكفّ بعضهم عن بعض، فلما صَدَر نَجْدة عن الحج سار إلى المدينة، فتأهب أهلها لقتاله، وتقلَّد عبد الله بن عمرَ سيفًا، فلما أُخبر نجدة أن ٱبن عمر لبس السلاحَ رجع إلى الطائف، فلمّا قرُب منها أتاه عاصم بن عُرْوَة بن مسعود الثَّقَفي، فبايَعه على قومه، فرجع نجدة إلى البَحْرَيْن، فقطع المِيرة عن أهل الحَرَمين، فكتب إليه ٱبن عبّاس: إنَّ ثُمَامة بن أُثَال لمّا أسلم قَطع المِيرة عن أهل مكة وهم كفّار، فكتب إليه رسولُ الله ﷺ: إن أهل مكّة أهلُ الله، فلا تمنعْهم المِيرةَ، فخلاها لهم، وإنَّك قطعتَ الميرة عنا ونحن مسلمون، فخلاَّها لهم نَجْدَة، لم تزل عمّال نجدَة على النَّواحي حتى ٱختَلف عليه أصحابُه، على ما نذكره. واللّهُ أعلم.

---

(١) كرمان: إقليم يشاكل فارس في أوصاف ويشابه البصرة في أسباب ويقارب خراسان في أنواع... وهي بلاد كثيرة النخل والزرع والمواشي والضرع...

(٢) قندابيل: مدينة بالسند، قصبة لولاية. (٣) الخف: الجماعة القليلة.

ذكر الخلاف على نجدة وقتله وتولية أبي فديك

قال: ثم إن أصْحابَ نَجْدة ٱخْتلفوا عليه لأسْبابٍ نَقِمُوها منه، فخالف عليه عطيَّة بن الأسود، وسببُ ذلك أنَّ نجدَة بعث سرِّية برًّا وبحرًا، فأعطى سرية البر أكثَر من سريّة البحر، فنازعه عطيّة حتى أغضبه، فشتمه نَجْدة، فغضب عطيّة وفارقه، وألّب الناس عليه، فخالفوه وٱنحازوا عنه، ووَلّوا أمرهم أبا فدَيْك عبد الله بن ثَوْر، من بني قيس بن ثعلبة، فٱستخفى نَجْدَة، وقيل لأبي فُديك: إن لم تَقْتله تفرَّقَ الناسُ عنك، فألحّ في طلبه حتَّى ظفِر به أصحابُه، فقتلوه، فلمّا قتل نجدة سَخِط قَتْلَه جماعةٌ من أصحاب أبي فُديك، ففارقوه وثار بِهِ مسلم بن جبير فضربه اثنتي عشرة ضربةً بسكين، فقتل مُسلم، وحُمِل أبو فدَيك إلى منزله.

هذا ما كان من أمْرِ الخوارج الَّذين خرجوا على عبد الله بن الزُّبيْر في أيّام خلافته، فلنذكر خلاف ذلك ممّا وقع في أيامه بالأعمال الداخلة في ولايته.

ذكر الحوادث التي وقعت في أيام عبد الله بن الزبير خلاف ما ذكرناه في الأعمال الداخلة في ولايته على حكم السنين

سنة أربع وستين:

قد ذكرنا بعْضَ حوادث هذه السنة في أخبار يزيد، فلنذكر من حوادثِها خلاف ذلك:

فيها حج عبْدُ الله بنِ الزبير بالناس، وكان عاملَه على المدينة أخوه عبيدة بن الزبير، وعلى الكوفة عَبْد الله بن يزيد الخطْمي، وعلى قضائها سعيد بن نِمْران، وأبى شُريح أن يَقْضِي في الفتنة، وعلى البصْرة عمر بن عبيد الله بن معمر التَّيمي، وعلى قضائها هشام بن هُبيرة، وعلى خراسان عبد الله بن خازم.

سنة خمس وستين:

في هذه السنة عزل عبْدُ الله بن الزبير أخاه عُبيْدة عن المدينة، وٱستعمل أخاه مُصعبًا؛ وسببُ ذلك أن عُبيدة خطب الناس فقال: قد تَروْنَ ما صنع اللّهُ بقومٍ في ناقة قيمتها خمسمائة درهم، فسمي: مقوّم الناقة، فبلغ ذلك أخاه، فعزله، وٱستعمل مصعبًا.

ذكر بناء ابن الزبير الكعبة

كان عَبْدُ الله بن الزبير لمّا ٱحترقت الكعبة ـ حين غَزَاهُ أَهْلُ الشام في أيام يزيد بن معاوية، قد تركها ليشنع بذلك على أَهْل الشام. وقد ٱختلفَ في سبب حَرْق الكعبة، فقيل: إن ٱبن الزبير لما حاصره أهلُ الشام سمع أصواتًا في اللَّيل فوق الجبل، فخاف أن يكون أهلُ الشام قد وصلوا إليه، وكانت الليلة ظَلْماءَ ذاتَ ريح صعبة ورعدٍ وبَرق، فرفع نارًا علَى رأس رُمْح لينظرَ إلى الناس، فأطارتْها الرِّيح، فوقعتْ على أستار الكعبة فأحرقتْها، وجَهدَ الناسُ في إطفائها فلم يَقْدِرُوا، فأصبحت الكعبة تتهافَت[1]، وماتت ٱمْرأةٌ من قريش، فخرج الناسُ كلُّهم مع جنَازتها خوفًا من أن يَنزل عليهم العذاب؛ وأصبح ٱبن الزبير ساجدًا يدْعو ويقول: اللهم إنِّي لم أعتمِد ما جرى، فلا تهلك عبادَك بذنبي، وهذه ناصيتي بين يديك. فلمَّا تعالى النهارُ أمِن وتراجعَ الناسُ. حكاه أبو الفرج الأصفهانيّ بسنَدٍ رفَعه إلى أبي بكر الهُذَليّ، وقيل في حرقِها غيرُ ذلك.

فلمّا مات يزيد وٱستقرّ الأمر لٱبن الزبير، شرع في بنائها، فأمر بهدمها حتى أُلْحقت بالأرض، وكانت حيطانها قد مالت من حجارة الْمنْجَنيق، وجعل الحجرَ الأسوَدَ عنده، وكان الناسُ يطوفون مِنْ وراء الأساس، وضرب عليها السُّتور، وأدخل فيهَا الحِجْر، واحتج بأن رسولَ اللّهِ ﷺ قال لعائشة رضي الله عنها: لولا حِدْثانُ عَهْدِ قومِك بالكفْر لرددتُ الكعبَة على أساس إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وأزيد فيها من الحجْر، فحفرَ ٱبن الزبير رضي الله عنهما، فوجد أساسًا أمثال الجِمَال فحرّكوا منها صَخْرةً فبرقتْ بارقَة، فقال: أقِرُّوها على أساسها، وبَنَاها، وجعل لها بابَيْنِ يُدخَل من أحدهما ويُخْرَج من الآخر. وقيل: كانت عمارتها في سنة أربع وستِّين. والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب.

سنة خمس وستين:

ذكر الحرب بين عبد الله بن خازم وبين بني تميم بخراسان

في هذه السنة كانت الحربُ والفتنة بين عبد الله بن خَازِم السُّلَمي وبين بني تميم بخراسان؛ وسبَبُ ذلك أن مَنْ كان من بني تميم بخرَاسَان أعانوا ٱبْنَ خازم على من بها

(١) تتهافت: تتساقط.

من ربيعة كما تقدّم، فلمّا صفَتْ له خُراسان جَفَا بني تميم، وكان قد جعل ٱبنه محمدًا على هَراة[١]، وجعل على شرْطته بُكير بن وَسّاج، وضَم إليه شمّاس بنَ دِثَار العُطَاردي وكانت أُمُّ محمد تميميّة، فلمّا جفاهم ابْنُ خازم أتوا ٱبنَه محمّدًا بهَرَاة، فكتب إلى أبيه وإلى بُكير وشمّاس، يأمرهم بمَنْعِهم عن هَراة، فأمّا شَمَّاس فصار مع بني تميم، وأما بُكير فإنه منعهم، فأقاموا ببلاد هراةَ، فأرسل بُكير إلى شمّاس: إني أُعطيك ثلاثين ألفًا، وأُعْطِي كلَّ رجل من تميم ألفًا، على أن ينْصرفوا، فأبوا وأقاموا يترصّدون محمدَ بن عَبْد الله حتى خرج إلى الصيد، فأخذوه وشدّوه وثاقًا، ثم قتلوه، وولَّوا عليهم الحَرِيش بنَ هلال، فكانت الحَرْبُ بينه وبين ٱبن خازم، وطالت بينهما، فخرج الحَرِيش، فنادى ٱبن خازم، وقال: لقد طالت الحَرْبُ بيننا، فعلامَ يُقْتَل قومي وقومك، ابرزْ إلي فأيُّنَا قَتَل صاحبَه صارت الأرض له، فقال ابْن خازم: لقد أنصفت، فبرز إليه، فالتقيا وتصاوَلاَ طويلاً، فغفل ٱبن خازم، فضربَهُ الحريش على رأسه فألْقَى فَرْوَة رأْسه على وجهه، وٱنقطع رِكابَا الحَرِيش، ولزم ٱبن خازم عُنقَ فرسِه، ورجع إلى أصحابه، ثم غاداهم القتال، فمكثوا أيامًا بعد الضَّرْبة، ثم ملَّ الفريقان، فتفرقوا، فافترقتْ تميم ثلاث فِرق: فرقة إلى نيسابور مع بَحِير بن وَرْقَاء، وفرقة إلى ناحية أُخرى، وفرقة فيها الحرِيش إلَى مرْو الرُّوذ[٢]، فاتَّبعه ٱبن خازم إلى قرية تسمى الملحمة، والحَرِيشُ في اثني عشر رَجُلاً، وقد تفرَّق عنه أصحابُه وهم في خربة، فلمّا انتهى إليه قال له الحَرِيش: ما تريدُ منّي وقد خلَّيْتك والبلاد، قال: إنَّك تعودُ إليها، قال: لا أعود؛ فصالحه على أنْ يخرج عن خُرَاسان ولا يعود إلى قِتَاله، فأعطاه ٱبن خازم أربعين ألفًا، وفتح له الحرِيشُ بابَ القصر، فدخله ابن خازم وضمن له وفاءَ ديْنه.

وفي هذه السنة وقع طاعون الجارف بالبَصْرة، وعليها عبيد الله بن عبد الله بن معمَر، فهلَك خلقٌ كثير، وماتت أُمُّ عبيد الله فلم يجدوا لها مَنْ يَحمِلها، حتَّى ٱستأْجروا مَن تولَّى حمْلَها.

وحج بالناس عبْدُ الله بن الزبير، وكان على المدينة مُصْعب بن الزبير، وعلى الكوفة عبد الله بن مطيع، وعلى البصرة الحارث بن أبي ربيعة المخزوميّ، وعلى خراسانَ عبد الله بن خازم.

---

(١) هراة: بالفتح: مدينة عظيمة مشهورة من أمهات مدن خراسان... فيها بساتين كثيرة ومياه غزيرة وخيرات كثيرة، محشوة بالعلماء ومملوءة بأهل الفضل والثراء... (معجم البلدان لياقوت).

(٢) مرو الرّوذ: هي مدينة قريبة من مرو الشاهجان بينهما خمسة أيام، وهي على نهر عظيم فلهذا سميت بذلك، وهي صغيرة بالنسبة إلى مرو الأخرى... (معجم البلدان).

وفيها توفي عبد الله بن عَمْرُو بن العاص بمصر، وكان قد عَمِيَ. وقيل: كانت وفاته في سنة ثمانٍ وستِّين، وقيل سنةَ تسع، والله أعلم.

سنة ست وستين:

ذكر الفتنة بخراسان

في هذه السنة حاصر عبدُ الله بن خازم منْ كان بخراسانَ من بني تميم بسبَبِ قَتْلهم ٱبنَه محمّدًا، وذلك أنَّه لما تفرّقتْ بنو تميم بخُراسان على ما تقدّم، أتى قصر قَرَنْبا[١] عدة منهم ما بين السبعين إلى الثمانين، فولّوا أمرهم عثمان بن بشر بن المُحْتَفز المازني، ومعه شعبة بن ظُهير النَّهْشَلي، ووَرْد بن الفَلق العنْبري، وزهيْر بن ذؤيب العَدَوي، وجَيْهان بن مَشْجَعة الضبّي، والحجاج بن ناشب العدويّ، ورقَبة بن الحُر في فرْسان بني تميم وشجعانهم، فحاصرهم ابْنُ خازم، فكانوا يخرجون إليه فيقاتلونه، ثم يرجعون إلى القصر، فخرج ٱبن خازم يومًا في ستَّةِ آلاف، وخرج أهْلُ القَصْر إليه، فقال لهم بشر: ارجعوا فلن تطيقوه، فحلف زهير بن ذؤيب بالطّلاق إنه لا يرجع حتى ينقضَ[٢] صفوفَهم، فٱستبطن نَهْرًا قد يَبِس، فلم يَشعر به أصحاب ٱبن خازم حتى حمل عليهم، فحطَّم أوّلهم على آخرهم، وٱستدار وكرّ راجعًا، وٱتبعوه يصيحون به، ولم يَجسُر أحد ينزل إليه حتى رجع إلى موضعه، فحمل عليهم، فأفرجُوا له حتى رجع، فقال ٱبنُ خازم لأصحابه: إذا طاعنتم زهَيرًا فٱجعلوا في رِمَاحكم كَلالِيب، ثم علقوها في سِلاَحه، فخرج إليهم يومًا فطاعنهم، فأعلقوا فيه أربعةَ رماح بالكلاَليب، فٱلتفت إليهم ليحمَل عليهم، فاضطربتْ أيديهم، وخَلَّوا رماحَهم، فعاد يجرّ أربعة أرماح حتى دخل القَصْر، فأرسل ٱبن خازم إلى زهير، فضَمِهن له مائة ألف وميْسان[٣] طعمةً ليُنَاصحه، فلم يُجبْه، فلما طال الحِصار علهيم أرسلوا إلى ابْنه خازم أن يمكّنهم من الخروج ليتفرّقوا، فأبى إلاَّ على حُكْمِه، فأجابوه إلى ذلك، فقال زهير: ثكلتكم أُمهاتكم، والله ليقتلنَّكم عن آخركم، فإن طِبْتم بالموت نَفْسًا فموتوا كِرَامًا، اخرجُوا بنا جميعًا، فإما أن تموتوا كرامًا، وإما أن ينجو بعضكم ويهلك بعضكم، وٱيم الله لئن شددْتم عليهم شَدَّةً صادقةً ليفرجن لكم، فإن شئتم كنتُ

---

(١) قصر قرنبا: موضع بخراسان؛ وقيل: موضع بمرو.

(٢) نقض الشيء: أفسده بعد إحكامه.

(٣) ميسان: كورة واسعة كثيرة القرى والنخل بين البصرة وواسط.

أمامكم، وإن شئتم كنتُ خلفَكم، فأبَوْا عليه، فقال سأُريكم؛ ثم خرج هو ورَقَبة بنُ الحُر وغلام تركيّ وأبن ظهير، فحملوا على القوم حملَةً منكرة فأفرجوا لهم، فمضوا. فأمّا زهيْر فرجع إلى مَنْ بالقصر ونجا أصحابُه، فقال زهَير لِمَنْ بالقصر: قد رأيْتم، أطيعوني، فقالوا: إنّا نَضعُف عن هذا ونطمع في الحياة، فقال: والله لا أكون أعجزَكم عند الموت، فنزلوا على حكم ابن خازم، فأرسل إليهم فقيَّدهم، وحُمِلوا إليه رجُلاً رجُلاً، فأراد أن يَمُنَّ عليهم، فأبى عليه أبنُه موسى، وقال له: إن عفوْتَ عنهم قتلتُ نفسي، فقتَلَهُمْ إلا ثلاثة، أحدهم الحجاج بن ناشب، شفع فيه بعض مَنْ معه فأطْلَقه، والآخر جيْهان بن مَشْجعَة الضبِّي، وكان قد منع القوم مِن قَتْلِ محمد بن عبد الله، ورمى نفسَه عليه، فأبَوْا، فترَكَه لذلك، والآخر رجل من بني سعْد من تميم، وهو الَّذي ردّ الناس عن أبن خازم يوم لحقوه، وقال: انْصرِفوا عن فارِس مُضَر.

قال: ولمّا أرادوا حملَ زهير بن ذؤيب وهو مقيَّد أبَى، واعتمد على رُمْحِه، فوثب الخندق، ثم أقبل إلى أبن خازم يحجِل[1] في قيودِه؛ فقال له ابْنُ خازم: كيف شكرُك إنْ أطلقْتك وأطعمتك مَيْسان؟ قال: لو لم تصنع بي إلاَّ حقْن دَمِي لشكرتك، فلم يمكنه أبنه موسى من إطْلاَقِه، فقال له أبوه: ويْحك، تقتل مِثْل زهير، مَنْ لقتال عدو المسلمين، مَن لنساء العرب؟ فقال: والله لو شركت في دمِ أخي لقتلتك، فأمر بقتله، فقال زهير: إن لي حاجةً، لا تقتلني وتخلط دمي بدماءِ هؤلاء اللِّئام، فقد نهيتُهم عما صنعوا، وأمَرْتهم أن يموتوا كِرَامًا ويخرجوا عليكم مُصْلِتين، وأيم الله لو فعلوا لذَعَروا بنَيَّك هذا. وشغلوه بنفسه عن طلب ثأْر أخيه، فأمر به أبن خازم فقتل ناحية.

وحجّ بالناس في هذه السنة عبْدُ الله بن الزبير.

سنة سبع وستين:

في هذه السنة استعمل عبد الله بن الزبير أخاه مصعبًا على البصرة، فقتل المختارَ كما تقدّم، ثم عزَلَه عن العراق، وأستعمل أبنه حمزة بن عبد الله. وكان حمزة جوادًا مخلِّطًا[2]، يجود أحيانًا حتى لا يدع شيئًا يَملِكه، ويمنَعُ أحيانًا ما لا يمنع مثلَه، وظهر منه بالبَصْرَة خِفَّة وضَعْف، فكتب الأحنف إلى أبيه، وسأله أن يعْزِلَه عنهم، ويعيد مصعبًا، فعزَلَه، فاحتمل مالاً كثيرًا من مال البَصْرة، فعرض له مالك بن مِسْمَع،

---

(١) يحجل في قيوده: أي يثب في مشيه. (٢) المخلط في الأمر: الذي يفسد فيه.

فقال: لا نَدعُك تخرج بأعطياتنا؛ فضمن له عبيد الله بن عَبْدِ الله العطاء، فكفّ عنه، وشخَصَ حمزة بالمال إلى المدينة، فأودعَه رجالاً، فجحدوه، إلا رجلاً واحدًا، فوَفى له، فبلغ ذلك أباه، فقال: أبْعدهُ الله، أردتُ أن أُباهِي به بني مرْوان فنَكَص(١).

وقيل: إن مصعبًا أقام بالكوفة سنةً بعد قتل المختار معزولاً عن البصْرَةِ، ثم وفد إلى أخيه فردّه إلى البصرة، وقيل: بل ٱنصرف مصعبٌ إلى البصْرة بعد قَتْل المختار، وٱستعمل على الكوفة الحارث بن أبي ربيعة، وكانا في عَمَلِهِ، فعزله أخوه، واستعمَل ٱبنَه حمزة، ثم عزلَ حمزة بكتاب الأحنف وأهل البصرة، وردّ مصعبًا، وذلك في سنة ثمانٍ وستين.

وحج بالناس في هذه السنة عبدُ الله بنُ الزبير، وكان العمّال من تقدم ذكرهم، وكان على قضاء الكوفة عبدُ الله بنُ عتبة بنِ مسعود، وعلى قضاء البصرَة هشامُ بن هُبيرة.

سنة ثمان وستين:

ذكر حصار الريّ(٢) وفتحها

وفي هذه السنة أمر مُصْعَب بنُ الزبير عتَّابَ بن وَرْقَاء الرّياحيّ عاملَه على أصْفَهَان بالمسير إلى الرَّي وقتالِ أهلها، لمساعدتهم الخوارج على يزيد بن الحارث، كما تقدم، وٱمتناعهم في مدينتهم، فسار إليهم عتّاب، وقاتَلَهم، وعليهم الفرُخان ففتحها عَنْوة، وغَنِم ما فيها وافتتح سائرَ قلاعها ونواحيها. والله أعلم.

ذكر أخبار عبيد الله بن الحر ومقتله

وفي هذه السنة قتل عُبَيْدُ الله بنُ الحُرّ الجُعْفيّ، وكان مِنْ خِيَار قومه صَلاَحًا وفَضْلاً وٱجتهادًا، ولما قتل عثمان حضر إلى معاوية وشهد معه صِفِّين وأقام عند معاوية، وكانت زوجته بالكوفة، فلمّا طالت غيبته عنها زوّجها أخوها رجلاً، يقال له عِكْرمة بن الخَنْبَص، فبلغ ذلك عُبيد الله، فَأَقْبَلَ مِنَ الشام فخاصمه عِكْرِمَة إلى علي

---

(١) نكص: أحجم.

(٢) الريّ: بفتح أوله، وتشديد ثانيه: وهي مدينة مشهورة من أمهات البلاد وأعلام المدن كثيرة الفواكه والخيرات، وهي محط الحاج على طريق السابلة وقصبة بلاد الجبال، بينها وبين نيسابور مائة وستون فرسخًا وإلى قزوين سبعة وعشرون فرسخًا... (معجم البلدان لياقوت).

رضي الله عنه، فقال له عليٌّ رضي الله عنه: ظاهرْتَ علينا عدوَّنا وفعلْت وفعلتَ. فقال له: أمنعني ذلك مِنْ عَدْلك؟ قال: لا، فقصَّ عليه قصتَه فردَّ عليه امرأتَه وكانت حُبْلى، فوضعها عند منْ يثِق إليه حتى وضعت فألحق الولَدَ بعكرمة، ودفع المرأة إلى عُبَيْدَ الله، وعاد إلى الشام فأقام به حتى قتل علي رضي الله عنه، فرجع إلى الكوفة، فلما كان في وقْتِ قَتْل الحسين تغيب عُبيد الله عَمْدًا، فجعل ابْن زياد يتفقَّد أشراف أهل الكوفة، فلم ير ابنَ الحُرّ ثم جاء بعد ذلك فقال: أين كنت يا ابْنَ الحُر؟ قال: كنْتُ مريضًا. قال: كذَبْتَ، ولكنك كنْت مع عدونا. قال: لو كنْتُ معه لَرُئي مكاني. وغفل عنه ابْنُ زياد، فخرج وركب فرسه، ثم طلبه فقيل له: ركب الساعة، فبعث الشرط خَلْفه فأدركوه فقالوا: أجب الأمير، فقال: بلغوه عَنِّي أني لا آتِيه طائعًا أبدًا، وركض فرسه، وأتى منزل أحمد بن زياد الطائي، فاجتمع إليه أصحابُه، ثم خرج حتى أتى كَرْبَلاء، فنظر إلى مصارع الحسين رضي الله عنه، ومَنْ قتل معه، فاْستغفر لهم ثم مضى إلى المدائن[١]. وقال في ذلك: [من الطويل]

يــقــول أمــيــرٌ غــادرٌ حــقُّ غــادِرٍ ... ألاَ كنتَ قاتلتَ الشهيد ابن فاطمهْ
ونَـفْـس عـلـى خِـذْلانـه واْعـتـزالِـه ... وبيعةِ هذا الناكثِ العهد لائمَهْ
فـيـا نـدمـي ألا أكـونَ نَـصَـرْتـه ... ألا كـلُّ نـفـسٍ لا تـسـدّد نـادِمـهْ
وإنّـي لأنـي لـم أكـن مِـن حُـمـاتِـه ... لـذو حـسْـرة مـا إنْ تـفـارِق لازمـهْ
سـقَـى الله أرواح الـذيـنَ تـآزَرُوا ... على نَصْره سُقْيًا من الغَيْث دائمهْ
وقـفـتُ عـلـى أجداثـهـم ومـجـالِـهـمْ ... فكاد الحَشَى ينقَضُّ والعَيْنُ ساجِمَهْ[٢]
لَعَمْري لقد كانوا مَصاليتَ في الوَغَى ... سِراعًا إلى الْهَيْجا حُمَاةً خَضارِمهْ[٣]
تـأسَّوا على نَصْرِ ابنِ بِنْتِ نبيّهمْ ... بـأسيـافـهـمْ آسادُ غِيْـلٍ ضَـراغِـمهْ[٤]
فـإن يُـقـتَـلـوا فـكـلُّ نـفـس تـقـيـةٍ ... على الأرض قد أضحت لذلك واجِمهْ

---

(١) المدائن: جمع المدينة.. قيل بناها وأقام بها أنو شروان بن قباذ.. وقيل: سميت المدائن لأن زاب الملك الذي بعد موسى عليه السلام، ابتناها بعد ثلاثين سنة من ملكه... (معجم البلدان).

(٢) يقال: سجمت العين الدمع سجمًا: أسالته.

(٣) الخضارمة: جمع الخضرم، وهو الكثير الواسع من كل شيء. والخضارمة: قوم بالشام تطرقوا إليها من بلاد العجم. والخضارم: السيد الحمول الجواد الكثير العطاء والمعروف وهو المراد.

(٤) الغيل: الشجر الكثير الملتف الذي يستتر فيه.

وما إن رأى الراؤون أفضل منهمُو لدى الموتِ ساداتٍ وزهْرًا قَماقِمهْ[١]
أتقتلهم ظلْمًا وترجو وِدادنا فَدعْ خطَّةً لَيست لنا بمُلائمهْ
لَعَمْرِي لقد راغَمْتموا بقَتْلِهمْ فكم ناقم منَّا عليكم وناقِمَهْ
أهُمُّ مِرارًا أن أسير بجحْفَلٍ إلى فئةٍ زاغَتْ عن الحقِّ ظالمهْ[٢]
فكفُّوا وإلا زرْتكمْ في كتائبٍ أشَدَّ عليكم من زحُوفِ الدَّيالِمهْ

قال: وأقام ابن الحُرّ بمنزلِهِ على شاطىء الفرَات إلى أن مات يزيد، ووقعت الفتنة، فقال: ما أرَى قرشيًّا يُنْصِف، أين أبْنَاءُ الحرائر؟ فأتاه كلُّ خليع، ثم خرج إلى المدائن فلم يَدَعْ مالاً قدم به للسلطان إلا أخذ منه عطاءَه وعطاء أصحابِه، ويكتب لصاحبِ المال بما أخذ منه، ثم جعل يتقصَّى الكور[٣] على مثل ذلك، إلا أنه لم يعترض لمالِ أحد ولا دمِه، فلم يزلْ كذلك حتى ظهر المختارُ وسمع ما يعمله ابْنُ الحرِّ في السَّواد، فأخذ امرأتَه فحبسها، فأقبل عُبَيد الله في أصحابه إلى الكوفة، فكسر بابَ السجْنِ، وأخرجها، وأخرج كلَّ امرأةٍ كانت فيه، ومضى، وجعل يبعث بعمال المختار وأصحابه، فأُحرقت داره في همْدان، ونهبت ضَيْعَته، فسار إلى ضِيَاع همذان فنهبها جميعًا، وكان يأْتي المَدَائنَ فيمرُّ بعمَّال جُوخَى[٤] فيأْخذ ما معهم من المال، ثم يميل على الجَبَل، فلم يزل على ذلك حتى قتِل المختار.

وقيل: إنه بايع المختار بعد امتناعٍ، وسار مع إبراهيم بن الأشتر إلى الموصِل، ولم يشهَدْ معه قتال ابن زياد، وتمارض، ثم فارق ابْن الأشتر، وأقبل إلى الأنبار في ثلاثمائة، فأغار عليها، وأخذ ما في بيْتِ مالها، فلما فعل ذلك أمرَ المختارُ بهدْمِ داره وأخذ امرأتَه، ففعل ما تقدّم ذِكْرُه، وحضر مع مُصْعب قتالَ المختار، فلما قتِل المختارُ قال الناس لمصعب: إنَّا لا نأْمَن أنْ يَثِب عُبيد الله بن الحرّ بالسّواد كما فعل بابْنِ زياد والمختار، فحبسه، فكلَّم قومًا من وجوه مذْحِج ليشفعوا له إلى مصعب، وأرسل إلى فِتْيَان مذْحج، فقال: البسوا السلاحَ واستروه، فإن شفَّعهم مصعب وإلاَّ فاقصدوا السجنَ فإنني سأُعينكم مِنْ داخل.

(١) القمقام: السيد الجامع للسيادة الواسع الخير.
(٢) الجحفل: الجيش الكثير.
(٣) الكور: جمع الكورة، وهي كل صقع يشتمل على عدة قرى.
(٤) جوخى: بلد بالعراق.

فلما شفَع أُولئك النَّفر شفَّعهم مُصْعب فيه، وأطلقه، فأتى منزله، وأتاه الناس يهنئونه، فكلَّمهم في الخروج على مصعب، وقال لهم: قاتِلوا عَنْ حرِيمكم؛ فإني قد قلبْتُ ظهر المِجن[١] وأظهرْتُ العداوَة ولا قوةَ إلا بالله.

وخرج عن الكوفة، وحارَبَ وأغار، فأرسل إليه مُصعب سيْفَ بن هانىء المرادي، فعرضَ عليه خراجَ بادُورا[٢] وغيرها، ويدخل في الطاعة، فلم يُجب إلى ذلك، فندب لقتاله الأبْرد بنَ قرّة الرِّيَاحي، فقاتَله فهزمه عُبيد الله وضربه على وجهه، فبعث إليه حُرَيْث بن زَيْد فقتله، فبعث إليه الحجاجَ بن حارثة الخَثْعَمي، ومسلم بن عَمْرو، فلقياه بنَهْرِ صَرْصَر[٣]، فقاتلهما وهزمهما، فأرسل إليه يَدْعُوه إلى الأمَانِ والصِّلَة، وأن يولِّيه أيَّ بلدٍ شاء؛ فلم يقبل ذلك وأتى نَرْسًا[٤]، ففر دهْقَانها[٥] بمالٍ إلى عين التَّمْر[٦] وعليها بِسْطام بن مصقلة بن هبيرة الشيباني، فالتجأ الدهقان إليه، فتبعه عبيد الله فقاتله بِسْطام، ووافاه الحجاجُ بن حارثة، فأسرهما عُبيد الله، وأسر جماعةً كثيرة ممّنْ معهما، وأخذ المال الذي مع الدهقان، وأطلَقَ الأُسارى وأتى تَكْرِيت، فأقام بها يجْبي الخَراج، فبعث إليه مُصْعب الأبرد بن قرّة الرياحي، والجَوْن بن كَعْب الهَمْدَاني في ألفٍ، وأمدَّهم المهلَّبُ بيزيد بن المغفَّل في خمسمائة، فقاتلهم يوْمَيْن وهو في ثلاثمائة. فلما كان عند المساء من اليوم الثاني تحاجَزوا، وخرج عُبيد الله من تَكْرِيت، وسار نحو كَسْكَر، فأخذ بيْتَ مالها، ثم أتى الكوفةَ فنزل إلى ديْر الأعْوَر[٧]، فبعث إليه مصعب حَجّار بن أبْجر فانهزم حجّار، فشتمه مُصْعب، وضم إليه الجَوْنَ بن كَعْب الهَمْدَاني وعُمر بن عُبيد الله بن مَعْمر، فقاتلوه بأجمعهم، وكرت الجراحات في أصحاب ابن الحُر، وعُقرت خيولهم، فانهزم حجَّار، ثم رجع فاقْتَتَلوا قِتَالاً شَديدًا، حتى أمْسوا، وخرج ابن الحُر من الكوفة، فكتب مُصْعب إلى يزيد بن الحارث بن رُويم الشيباني وهو بالمدائن يأمره بقتاله، فقدَّم ابْنه حَوْشبًا، فقاتله فهزَمَه عُبيد الله، وأقبل إلى المدائن فتحصَّنوا منه، فندب إليه الجَوْن بن كَعْب الهمداني

---

(١) المجن: الترس.

(٢) بادورا: موضع بالجانب الغربي من بغداد.

(٣) صرصر: موضعان من نواحي بغداد.

(٤) نرسا: نهر حفره ابن بهرام بنواحي الكوفة وأخذه من الفرات.

(٥) الدهقان: رئيس الإقليم، أو رئيس القرية.

(٦) عين التمر: بلدة في طرف البادية على غربي الفرات.

(٧) دير الأعور: موضع بظاهر الكوفة، بناه رجل من إياد.

وبِشْر بن عبْد الله الأسدي، فنزل الجَوْن بحَوْلاَيَا[١]، فخرج إليه عبد الرحمٰن بن عَبْد الله فقتله ابْنُ الحرّ وهزم أصحابه، وخرج إليه بشير بن عبد الرحمٰن بن بشير العِجْلِي، فقاتله بسُورًا قتالاً شديدًا، فرجع عنه بشير، وأقام ابن الحُرّ بالسواد يُغير ويَجْبِي الخراج.

ثم لحق بعَبْد الملك بن مروان، فلما صار إليه أكرمه وأجلسه معه على السرير، وأعطاه مائة ألف درهم، وأعطى لمَنْ معه مالاً، فقال له ابن الحرّ: وجِّهْنِي بجُنْد أُقاتل بهم مصعبًا، فقال له: سِرْ بأصحابك، وادْعُ مَنْ قدرت عليه، وأنا ممدُّك بالرجال، فسار في أصحابه نحو الكوفة إلى أن انتهى إلى الأنبار[٢]، فنزل بقَرْيَةٍ بجوارها، واستأذنه أصحابه في إتيان الكوفة، فأذن لهم، وأمرهم أن يُعْلموا أصحابه بمقدمه ليَخْرُجوا إليه، فبلغ ذلك القَيْسية فأتوا الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة عامل ابن الزُّبير بالكوفة، فسألوهُ أن يُرْسِلَ معهم جَيْشًا يقاتلون به عُبيد الله ويغتنمون الفرْصَة فيه بتَفْريق أصحابه، فبعث معهم جيشًا كثيفًا، فساروا إليه، فقال له مَنْ بَقي معه من أصحابه: نحن في نَفَرٍ يَسيرٍ، ولا طاقةَ لنا بهذا الجيش، فقال: ما كنتُ لأدعهم، وحمل عليهم وهو يقول: [من الرجز]

يا لك يومًا فات فيه نَهْبي وغاب عنّي ثِقَتِي وصَحْبي

فعطفوا عليه فكشفوا أصحابه، وحاولوا أن يَأْسِرُوه، فلم يقدروا على ذلك، وأذِنَ لأصحابه في الذّهاب، فذهبوا فلم يعْرِضْ لهم أحد، وجعل يقاتِلُ وَحْده وهم يَرْمُونَه ولا يَدْنون منه، وهو يقول: أهذه نبل أم مغَازل! فلما أثْخنَتْهُ الجِراح خاض[٣] إلى مَعْبر فدخله ولم يدْخل فَرسُه، فركب السفينة، ومضى به الملاَّح حتى توسط الفرات، فأشرفَت الخيلُ عليهم، وكان في السفينة نَبط، فقالوا لهم: إن في السفينة طَلبةَ أمير المؤمنين، فإن فاتكم قَتَلْنَاكم، فوثب ابن الحُرْ ليرميَ نفسه في الماء، فوثب إليه رجُلٌ عظيم الخلْق، فقبض على يَديْه، وجِرَاحَاته تَجْري دمًا، وضربهُ الباقون بالمجاديف، فقبض على الذي أمسكه، وألقى نَفْسَه في الماء، فغرِقَا معًا.

وقيل في قتله: إنه كان يغْشَى مُصعب بن الزبير بالكوفة فرآه يُقدِّم عليه غَيْره،

(١) حولايا: قرية كانت بالنهروان.
(٢) الأنبار: موضع بالعراق من أرض بابل.
(٣) خاض الماء: دخله ومشى فيه.

فكتب إلى عَبْد الله بن الزبير قصيدةً يعاتب فيها مُصْعبًا ويخوِّفه مسيره إلى عبد الملك بن مرْوَان يقول فيها: [من الكامل]

أبلغْ أمير المؤمنين رسالةً ... فلستُ على رأْيٍ قبيحٍ أُوارِبُهْ[١]

أفي الحق أنْ أُجفى ويَجعَلُ مُصْعَبٌ ... وزِيرَيْه منْ قد كنْتُ فيه أُحاربُه

فكيف، وقد أبليْتكم حقَّ بَيْعَتِي ... وحَقِّي يُلَوَّى عندكمْ وأُطالِبُه[٢]

وأبليتكم مالاً يُضيَّع مِثْلُه ... وآسيْتكم والأمرُ صعْبٌ مراتِبُه

فلمّا استنار المُلْك وانقادتِ العِدَا ... وأُدرِك مِنْ مال العراق رَغائِبُه

جَفَا مُصْعَبٌ عنِّي ولو كان غيْره ... لأصبح فيما بيننا لا أُعاتِبُه

لقد رابني مِنْ مُصْعبٍ أنَّ مُصْعبًا ... أرى كلَّ ذي غِشٍّ لنا هو صاحِبُه

إذا قمتُ عند الباب أُدخِلَ مُسْلِمٌ ... ويمنعني أن أدْخل الباب حَاجِبُه

أشار بقوله: وزِيريْه؛ إلى مُسْلم بن عَمْرو والد قتَيْبة، والمهلَّب بن أبي صُفْرة، ويدلُّ على ذلك قوله أيضًا في غيرها: [من الطويل]

بأيِّ بلاءٍ أم بأيَّةِ نعمةٍ ... تَقدَّم قَبْلي مسلمٌ والمهلَّبُ

قال: فحبسه مصعب، وله معه معاتَبَاتٌ من الحَبْس، وقال في قصيدة يهجو فيها قيس عَيْلاَن منها: [من الطويل]

ألم تَرَ قَيْسًا قَيْس عَيْلاَن بَرْقَعَتْ ... لِحَاها وباعت نَبْلَها بالمغازل[٣]

فأرسل زفَر بن الحارث الكِلاَبي إلى مُصْعب يقول: قد كفَيْتك قتالَ ابْن الزَّرْقَاء - يعني عبد الملك - وابن الحُرّ يَهْجُو قَيْسًا؛ ثم إنَّ نفرًا من بني سُليم أسَرُوا عُبيد الله بن الحرّ، فقال: إنما قلت: [من الطويل]

ألم تر قَيْسًا قَيْس عيْلان أقبلت ... إلينا وسارت في القَنَا والقَنَابل[٤]

قتله رجل منهم يقال له عيَّاش، والله أعلم.

وفي هذه السنة وافَى عرفات أربعة ألوية:

---

(١) واربه: داهاه وخاتله وخادعه.

(٢) يقال: لوى فلانًا دينه: مطله. ويقال: لوى فلانًا حقه: جحده إياه.

(٣) برقعت وجهها: أي غطته بالبرقع، أي القناع.

(٤) القنابل: جمع القنبل، وهي الطائفة من الناس ومن الخيل.

لواء ابن الزبير وأصحابه، ولواء ابن الحنفية وأصحابه، ولواء لبني أُمية، ولواء لنَجْدَة الحَرُورِي، ولم يَجْرِ بينهم حَرْب ولا فِتْنَة.

وكان العاملُ على المدينة جابر بن الأسود بن عَوْف الزُّهْرِي، وعلى البصْرة والكوفة مُصْعب بن الزبير، وعلى قضائهما منْ ذكرنا قَبْلُ، وعلى خراسان عبْد الله بن خازم.

وفيها توفِّي عَبْدُ الله بن عبّاس بن عبد المطلب، وعديّ بن حاتم الطائي. وقيل في سنة ست وستين، وله مائة وعشرون سنة.

سنة تسع وستين:

في هذه السنة شخَص مُصْعب بن الزبير إلى مكّة ومعه أموالٌ عظيمة ودوابٌ كثيرة، فقسم في قومه وغيرهم، ونحر بُدْنًا كثيرة. وقيل: كان ذلك في سنة سبعين.

وحجّ بالناس عَبْدُ الله بن الزُّبَيْر؛ وفيها حَكّم رجُلٌ من الخوارج بمنى، وسلَّ سيْفَه، وكانوا جماعة، فأمسك اللّهُ أيديهم، فقتل ذلك الرجل عند الجمْرَة[1]. وكان عُمّال الأمصار منْ ذكَرْنا.

سنة سبعين:

ذكر يوم الجفرة[2]

في هذه السنةِ سارَ عَبْدُ الملك بن مَرْوان يُريد مُصْعب بْنَ الزبير، فقال له خالد بن عَبْدَ الله بن أسيد: إن وجّهْتَني إلى البَصْرَة وأتبعتني خَيْلًا رجوت أن أغلِب لك عليها، فوجّهه عَبْدُ الملك، فقدمها مستخفيًا في خاصّتِه حتى نزل على عَمْرو بن أصْمَع. وقيل: على عليّ بن أصْمع الباهلي، فأرسل عَمْرٌو إلى عَبّاد بن الحصين وهو على شرطة ابن معمر، وابن معمر خليفة مصعب على البَصْرَة، ورَجَا ابْن أصْمَع أنَّ عبَّاد بن الحُصَين يُتَابعه، وقال له: إني قد أجرْتُ خالدًا وأحبَبْتُ أنْ تَعلم ذلك لتكون ظَهيرًا لي؛ فوافَاهُ الرسولُ حين نزل عَنْ فَرسه؛ فقال عَبّاد: قلْ له: والله لا أضَعُ لبد[3] فَرَسِي حتى آتيك في الخَيْل، فقال ابن أصْمَع لخالد: إنّ عبّادًا يأتينا الساعةَ،

---

(١) الجمرة: موضع بمكة.
(٢) الجفرة: بالضم، آخرها هاء: موضع بالبصرة...
(٣) اللبد: ما يوضع تحت السرج.

ولا أقدِرُ أمنَعُك منه؛ فعليك بمالك بن مِسْمع، فخرج خالد يركض فَرَسَه حتى أتى مالكًا فقال: أجِرْني فأجاره، وأرسل إلى بكْر بن وائل والأزْد، فأقبلَت إليه، وأقبل عباد في الخيل، فتواقفوا ولم يكنْ بينهم قِتَال، فلما كان الغد غَدوْا إلى جُفْرة نافع بن الحارث، ومع خالد رجالٌ مِنْ تميم، منهم صعْصَعة بن معاوية وعبْد الله بن بشر ومُرّة بن مَحْكَان وغيرهم، وكان من أصحاب خالد، عُبيْد الله بن أبي بَكْرة، وحُمْران بن أبان، والمغيرة بن المهلَّب. ومن أصحاب ابن معْمر؛ قيْس بن الهيْثَم السلمي، وأمدّه مُصْعب بِزَحْر بن قَيْس الجُعفي في ألْف، وأمدَّ عبْدُ الملك خالدًا بعُبيد الله بن زياد بن ظبيان، فبلغه تفرُّق الناسِ، فرجع إلى عبْد الملك. والتقى القَوْم، واقتتلوا أربعةً وعشرين يومًا، ومشَتْ بينهم السُّفَراء، فاصطلحوا على أنْ يُخْرِج خالدًا من البصرة، فأخرجه مالك، ولحق مالك بثأج[1]، وجاء مُصْعب إلى البصْرة، وطمع أنْ يُدْرِك خالدًا فوجده قد خرج، فسخط على ابْنِ معْمر، وقال لعُبيد الله بن أبي بَكْرة: يا ابْنَ مسروح، إنما أنت ابن كَلْبة تعاورها[2] الكلاَب، فجاءت بأحمر وأصفر وأسود من كلِّ كَلْب بما يُشبِهه، وإنما كان أبوك عبْدًا نزل إلى رسولِ الله ﷺ من حِصْنِ الطائف، ثم ادعيْتم أنَّ أبا سفيان زَنَى بأُمكم، ووالله لئن بَقِيتُ لأُلحقنكم بنسبكم.

ثم دعا حُمْران فقال له: إنما أنتَ ابْن يهودية عِلْج نبطي سُبِيت من عيْن التَّمْر. وقال للحكم بن المنذر بن الجارُود، ولعبْدِ الله بن فضالة الزهراني، ولعلي بن أصْمَع، ولعبد العزيز بن بِشر وغيرهم نحو هذا من التوبيخ والتقريع، وضربهم مائةً مائة، وحلق رؤوسهم ولحاهم وهدَم دُورَهم، وصَهَرَهم في الشمس ثلاثًا، وحملهم على طلاقِ نسائهم، وجهز أولادهم في البعوث، وطاف بهم في أقطار البصرة، وأحلفهم ألاّ ينكحوا الحَرائر، وهدمَ دَارَ مالك بن مسمع، وأخذ ما فيها؛ فكان فيما أخذ منها جارية ولَدتْ له عمرو بن مصعب.

وأقام مصعب بالبصرة، ثم شخص إلى الكوفة فلم يزَلْ بها حتى خرج لِحرْبِ عَبْد الملك.

وحجّ بالناس في هذه السنة عَبْدُ الله بن الزُّبير.

---

(١) ثأج: بالجيم: عين من البحرين على ليال. . .

(٢) تعاورها الكلاب: تداولوها فيما بينهم.

سنة إحدى وسبعين:

في هذه السنة كان مقتل مُصْعب بن الزُّبيْر واستيلاء عبد الملك بن مرْوان على العِراقِ فعلى ما نذكر ذلك إن شاء الله مبيَّنًا في أخبار عبد الملك.

وفيها عزَلَ عبْدُ الله بن الزبير جابرَ بن الأسود عن المدينة، واستعمل عليها طَلْحة بن عَبْد الله بن عوف، وهو آخر والٍ كان له على المدينة حتى أتاه طارق بن عمْرو ولي عثمان فهرب.

سنة اثنتين وسبعين:

في هذه السنة قتل عَبْدُ الله بن خازم أمير خراسان، واستولى عبد الملك على خراسان على ما نذكر ذلك إن شاء الله في أخباره.

وفيها انتزع عبْدُ الملك المدينةَ من عَبْدِ الله بن الزُّبير، واستعمل عليها طارق بن عمرو؛ فلم يبق مع ابْنِ الزُّبير إلا مكة.

سنة ثلاث وسبعين:

في هذه السنة كان مَقْتَل عبْدِ الله بن الزبير واستقلالُ عبد الملك بن مَرْوَان بالأمر، جرْيًا على القاعدة التي قدمناها أنْ نذكر الواقعة بجملتها ونُحِيل عليها في أخبار المغلوب، وعند ذِكْرنا لمَقْتَل عبْد الله بن الزبير نذكر نبذةً من سيرته وأولاده، فلنرجع إلى أخبار الدولة الأُموية.

ذكر بيعة مروان بن الحكم

هو أبو الحكم، وقيل أبو عَبْد الملك، مَرْوان بن الحكم بن أبي العاص بن أُميّة بن عَبْد شمس بن عَد مناف بن قُصَيّ، يجتمعُ نسبَهُ ونَسبُ معاوية في أُمية، وهو الرابع من ملوكِ بني أُمية، وكان النبيُّ ﷺ طَرَد أباه إلى بَطْن وَجّ[1]، فنزل الطائف، وخرج معه ابْنُه مروان. وقيل: إن مرْوان وُلد بالطف[2].

(١) وج: بالفتح ثم التشديد: والوج: السرعة، والوج: القطا، والوج: النعام، والمراد هنا موضع في الطائف.

(٢) الطف: بالفتح، والفاء مشددة: أرض من ضاحية الكوفة في طريق البرية فيها كان مقتل الحسين ابن علي رضي الله عنه وهي أرض بادية قريبة من الريف فيها عدة عيون ماء جارية. . . (معجم البلدان).

واختلف في السبب الموجب لنَفْي رسول الله ﷺ الحكَمَ، فقيل: كان يتحيّل ويستخفي ويسمع ما يُسِرُّه رسولُ الله عليه الصلاة والسّلام إلى كِبار أصحابه في مشركي قريش وسائر الكفار والمنافقين، وكان يُفْشِي ذلك عنه، حتى ظهر ذلك عليه؛ وكان يحْكِي رسول الله ﷺ في مِشْيته وبعْضِ حركاته، وكان النبيُّ عليه الصلاة والسلام إذا مشى تكفّأ[1]، فكان الحَكَم يحْكِيه[2]، فالتفت النبيُّ ﷺ يومًا فرآهُ يفْعلُ كذلك، فقال: فكذلك فلتكُنْ. فكان الحكم مُخَلّجًا[3] يرتعش من يومئذ، فعيَّره عبد الرحمٰن بن حسان، فقال في عَبْد الرحمٰن بن الحكم يهجوه:

إنَّ اللّعِينَ أبوك فارْمِ عِظَامَه إن تَرْمِ تَرْمِ مخلَّجًا مجنونا
يمشي خَمِيص البطن من عَمل التُّقى ويظلُّ مِنْ عملِ الخبيثِ بَطِينا[4]

وروي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت لمرْوان بن الحكم حين قال في أخيها عبد الرحمٰن ما قال: أما أنت يا مرْوَان فأشهد أنَّ رسولَ الله ﷺ لعن أباك وأنت في صُلْبه.

وعن عَبْد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسولُ الله ﷺ: يدخلُ عليكم رَجُلٌ لعِين. قال عبْد الله: وكنت قد تركْتُ عمْرًا يلبسُ ليُقْبِلَ إلى النبيّ ﷺ، فلم أزَلْ مُشْفِقًا أنْ يكونَ أوّل مَنْ يدخل، فدخل الحَكَم بن أبي العاص، فلهذا قال عبد الرحمٰن بن حسان في شعره: إنَّ اللعينَ أبوك. ولم يزل الحَكَمُ طريدًا إلى خلافة عثمان بن عَفَّان فردّه إلى المدينة، وقال: إن النبيَّ عليه الصلاة والسّلام كان أذِن في رَدّه.

وكان إسلام الحكم يوم فَتْح مَكَّةَ، ومات في خلافة عثمان قبل القيام عليه بأشْهر.

ووُلِدَ مرْوَان على عهْدِ رسولِ الله ﷺ قبل سنة اثنتين من الهجرة، وقيل عام الخَنْدَق، وقيل يَوْمَ أُحُد، وقيل ولِد بمكة، وقيل بالطائف، ولم يَرَ مرْوَان رسول الله عليه الصلاة والسلام، لأنه خرج إلى الطائف طِفْلًا لا يَعْقِل، وقدم المدينةَ مع أبيه في خلافة عثمان، ثم تُوفي أبوه فاستكْتَبهُ عثمان بن عفان، وضمَّه إليه، فاستولى مَرْوَان عليه، وغلب على رأيه حتى كان سبب قيام الناس على عُثمان وقتلِه.

---

(١) تكفأ في مشيته: تبختر. (٢) يحكيه: أي يشابهه.
(٣) المخلج: الذي يتمايل ويتخلع في مشيته.
(٤) البطين: الذي أصابه البطن، وهو مرض يصيب البطن.

حكى أبو عمر بن عبد البر[١] في كتابه المترجم بالاستيعاب أنَّ عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه أتى مرْوان يومًا، فقال: ويْلك وويْل أُمّةِ محمد منك ومن بنِيك إذا شابتْ ذِرَاعاك. وكان مَرْوان يقال له خيط باطِل[٢]، وضُرِب يوم الدَّارِ على قفاه فخرّ لِفيه. وفيه يقول أخوه عبد الرحمٰن بن الحكم وكان ماجِنًا شاعرًا، وكان لا يرى رَأْي مروان: [من الطويل]

فــوالله مــا أدْرِي وإنّــي لــســائــلٌ حليلة مضروب القَفَا كَيْف يصنع
لـحـا الـلّـهُ قـوْمًـا أمَّـرُوا خَـيْـطَ بـاطـل على الناس يُعطي مَنْ يشاء ويمنع

وقيل: إنه قال ذلك حين ولاَّه معاوية المدينة، وكان كثيرًا ما يهجوه.

وأم مَرْوَان آمِنة بنت عَلْقمة بن صفوان، وكان مَرْوَان قصيرًا رقيقًا أوْقَص[٣]، بُويعَ له بالجَابِيَة[٤] يوم الخميس لسَبْع بَقِين من شهر رجب سنة أربع وستين، وقيل في ذي القعدة منها.

ذكر السبب في بيعة مروان

كان سَبَب بَيْعَته أن عبدَ الله بن الزُّبَيْر لما بُويع له بالحجاز والعراق استعمل أخاه عُبَيْدَة بن الزُّبَيْر على المدينة، فأخرج مَرْوَان بن الحكم وابْنَه منها إلى الشام؛ فلما قدم الحُصَيْن بن نُمَيْر ومَنْ معه إلى الشام أخبر مرْوان بما كان بينه وبين ابن الزبير، وقال له ولِبَنِي أُمية: أقِيموا أمْرَكم قبل أنْ يدخل عليكم شامكم، فتكون فتنة عمْياء صماء. وكان مِنْ رَأْي مرْوان أنْ يسير إلى عبْد الله بن الزُّبيْر فيبايعه، فلما قدم عُبيد الله بن زياد من العراق قال لمروان: لقد استحييت لك من ذلك، وأنت كبيرُ قريش وسيِّدُها؛ وقَبَّح ذلك عليه، فقال: ما فات شيء بعْدُ، وقام إليه بنو أُميّة ومواليهم فتجمع إليه أهْلُ اليمن، فسار إلى دمشق فقدمها والضحّاك بن قَيْسٍ الفِهْرِي يصلّي بالناس قد بايَعُوه على ذلك إلى أن يتَّفِقَ رأيُ الناس على إمام، وهو يَدْعُو إلى ابْنِ الزبير سرًّا، والنعمان بنُ بشِير الأنصاري بِحِمْص يُبَايع له أيضًا. وكان حسانُ بن مالك بن بَحْدَل الكلبي غلامًا لمعاوية وابنه يزيد بفلسطين وهو يريد بَنِي أُمية.

---

(١) هو أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي، إمام عصره في الحديث والأثر وما يتعلق بهما، روى بقرطبة عن أبي القاسم خلف بن القاسم الحافظ وعبد الوارث بن سفيان، وغيرهما.. كانت وفاته ثلاث وستين وأربعمائة... (وفيات الأعيان ٧:٦٦).

(٢) خيط باطل: الهواء أو ضوءٌ يدخل من الكوّة.

(٣) الأوقص: قصير العنق.

(٤) الجابية: قرية من أعمال دمشق.

فكتب حسان إلى الضحاك كتابًا يعظِّم فيه حَقَّ بني أُمية وحُسْنَ بلائهم، ويذمّ ابْنَ الزّبيْر، وأنه خلع خليفتين، وأمره أن يقرأ كتابَه على الناس. وكتب كتابًا آخر، وسلَّمه إلى رسوله واسمه ناغِضَة، وقال له: إن قرأ الضحاك كتابي على الناس وإلاّ فاقْرَأْ هذا الكتاب عليهم.

وكتب حسان إلى بني أُمية أن يحضروا ذلك، فقدم نَاغِضَة، فدفع كتابَ الضحّاكِ إليه وكتابَ بني أُمية إليهم.

فلما كان يوم الجمعة صعد الضحّاك المنبر، فقال له ناغضة: اقرأ كتابَ حسّان على الناس. فقال له: اجلس، فجلس، ثم قام الثانية والثالثة وهو يأْمره بالجلوس، فأخرج ناغِضَة الكتابَ الذي معه، وقرأه على الناس، فقام يزيد بن أبي النمس الغسّاني، وسُفيَان بن الأبرد الكلبي، فصدّقا حسانًا، وشتمَا ابْنَ الزبير، وقام عمرو بن يزيد الحكمي فشتمَ حسانًا، وأثنى على ابن الزُّبَيْر، واضطرب الناس، فأمر الضحاك بيزيد وسفيان فحُبِسا، ووثَبَتْ كلْب على عمرو بن يزيد فضربوه وخَرَقُوا ثيابهُ، وقام خالد بن يزيد، فسكنَ الناس، ونزل الضحّاك فصلَّى الجمعةَ بالناس، ودخل القَصْرَ فجاءت كَلْب فأخرجوا سفيان، وجاءت غَسّان فأخرجوا يزيد، وكان أهلُ الشام يُسَمُّون ذلك اليوم يوم جَيْرُون الأول[1].

ثم خرج الضحاك بن قَيْس إلى المسجد، وذكر يزيد بن معاوية فسبَّه، فقام إليه شابٌّ من كَلْب فضربه بعصًا، فقام الناسُ بعضهم إلى بعض فاقتتلوا؛ فقَيْسٌ تَدْعو إلى ابن الزبيْر ونُصْرَة الضحاك، وكَلْب تَدْعُو إلى بني أُمية.

ودخل الضحاك دَار الإمارة، ولم يخرج من الغَدِ لصلاةِ الفَجْرِ، وبعث إلى بني أُمَيَّة فاعتذر إليهم، وأنه لا يريدُ ما يكرهون، وأمرهم أن يكتبوا إلى حسان، ويكتب معهم ليسير من الأُرْدنّ إلى الجابِية، ويسيرون هم من دمشق إليها فيجتمعون بها ويبايعون لرجلٍ من بني أُمية، فرضُوا، وكَتَبُوا إلى حسّان، وسار الضحَّاك وبنو أُمية نحو الجابِيَة، فأتاه ثور بن معْن السُّلَمي، فقال: دعوتنا إلى ابْن الزُّبيْر فبايعْنَا على ذلك، وأنت تسير إلى هذا الأعرابي مِنْ كَلْب يستخلف ابْنَ أُخته خالد بن يزيد.

---

(١) جيرون: بالفتح: حصن عند باب دمشق، من بناء سليمان بن داود. وقيل: إن الشياطين بنته، وهي سقيفة مستطيلة على عمد وسقائف وحولها مدينة تطيف بها... وقيل غير ذلك... (معجم البلدان لياقوت).

قال الضحاك: فما الرأيُ؟ قال: الرأيُ أن نُظْهِر ما كنَّا نكتم ونَدعو إلى ابْنِ الزُّبير، فرجع الضحاك بمنْ معه من الناس، فنزل مرْجَ راهط ودمشقُ بيده، واجتمع بنو أُمية وحسَّان وغيرهم بالجابِيَة، فكان حسَّان يُصلِّي بهم أربعين يومًا والناسُ يتشاوَرُونَ، وكان مالك بن هُبيْرة السَّكوني يهْوي خالد بن يزيد والحُصيْن بن نمير يميل إلى مَرْوان، فقال مالك للحُصيْن: هلمّ نبايع هذا الغلام الذي نحن ولدنا أباه وهو ابْنُ أُختنا، وقد عرفْت منزلتّنا من أبيه، فإنه يحْمِلنا على رِقاب العرب. يعني خالد بن يزيد. فقال الحُصَيْن: لا والله لا تأتينا العَرَبُ بشَيْخٍ ونأتيها بصبيّ. فقال مالك: والله لئن استخلفْتَ مرْوان ليحسدنَّك على سَوْطِك وشِراكِ نَعْلِك وظلِّ شجرة تستظلُّ بها، إنّ مرْوَان أبو عشرة وأخو عشرة وعَمُّ عشرة، فإن بايعْتموه كنْتم عبيدًا لهم، ولكن عليكم بابْنِ أُختكم خالد، فقال الحُصيْن: إني رأيْت في المنام قِنْدِيلاً معلَّقًا من السماء وأن مَنْ يلي الخلافةَ يتناوله، فلم ينله إلاَّ مروان؛ واللّهِ لنستخلفنَّه.

وقام رَوْح بن زِنْباع الجُذامي فقال: أيُّها الناس، إنكم تذكرون عبْدَ الله بن عُمر وصُحْبته وقَدَمه في الإسلام، وهو كما تذكرُونَ، ولكنه ضعيف، ولس بصاحِب أُمَّة محمد الضعيفُ، وتذكرون ابْنَ الزبير وهو كما تذكرون، إنه ابْن حوَارِيّ رسول الله ﷺ، وأُمُّه ذات النِّطَاقَيْن، ولكنه منافِق قد خَلَع خَلِيفتَيْن: يزيد، وابنه معاوية، وسفَكَ الدماء، وشقَّ عصا المسلمين، وليس المنافق بصاحبِ أُمَّةِ محمد.

وأما مرْوان بن الحكم فوالله ما كان في الإسلام صدْعٌ إلا كان ممن يشْعبُه، وهو الذي قاتل عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان يوم الدار، والذي قاتل عليّ بن أبي طالب يوْم الجَمَل، وإنّا نَرى للنَّاس أنْ يُبايعوا الكبير، ويستشبُوا[1] الصغيرَ - يعني بالكبير مرْوان، وبالصغير خالد بن يزيد - فأجمع رَأْيهُم على البيْعةِ لمَرْوَان، ثم لخالد بن يزيد، ثم لعَمْرو بن سَعِيد بن العاص من بعْدِ خالد، على أنَّ إمرة دمشق لعمْرو، وإمْرَة حِمْص لخالد.

فدعا حَسَّان خالدًا، فقال: يا بْنَ أُختي؛ إنَّ الناس قد أبَوْكَ لحداثةِ سنِّك، وإني واللّهِ ما أُرِيدُ الأمْرَ إلاَّ لكَ ولأهل بيتك، وما أُبايعُ مرْوَانَ إلا نظَرًا لكم. فقال خالد: بل عجِزْت عنا. فقال: والله ما أنا عجزت، ولكن الرأي لك ما رأيتُ.

ثم بايعُوا مَرْوان لثلاثٍ خَلَوْن من ذي القعدة سنة أربع وستين، وقال مرْوَان حين بويع له: [من الرجز]

---

(١) استشب: اختار الشبان لعمل ما.

لـمـا رأيـتُ الأمْـرَ أمْـرًا نَـهْـبـا يـسَّـرْتُ غَـسَّـانَ لَـهُـمْ وكَـلْـبـا
والـسَّـكْـسـكِـيِّـيـن رجَـالاً غـلْـبـا وطـيِّـئًـا تـأبـاهُ إلاَّ ضـرْبـا[١]
والـقَـيْـن تـمشـي فـي الـحـديـد نُـكْـبـا ومـن تَـنـوخَ مُـشـمـخِـرا صـعْـبـا[٢]
لا يـأخـذونَ الـمُـلْـكَ إلا غـصْـبـا فـإن دنَـتْ قَـيْـسٌ فَـقـلْ لا قـرْبـا

ذكر موقعة مرج راهط[٣]
وقتل الضحاك بن قيس بن خالد الفِهْري والنعمان ابن بشير بن سَعِيد بن تغْلب الأنصاري الخَزْرجي

قال: ولـمَّا بُويع مرْوَان بن الحكم سار من الجابِية إلى مرْج رَاهِط، وبه الضحاك بن قيْس ومَنْ معه؛ وكان الضحاك قد استمدّ النعمان بن بشير وهو على حِمْص؛ فأمدَّه بشرحبيل بن ذِي الكَلاَع، واستمدّ أيضًا زُفَر بن الحارث فأمدّه بأهل قنَّسْرين[٤]، وأمده نَاتِل بأهلِ فلسطين، وكان ناتِل بن قَيْس قد وثب بفلسطين لَمّا خرج منها حسّان بْنُ مالك إلى الأُرْدُنّ، وأخرج خليفته روْح بن زِنْبَاع، وبايع نَاتِل لابْنِ الزبير، فاجتمعت هذه الأمْدادُ مع الضحاك.

واجتمع إلى مرْوَان كَلب، وغَسّان، والسَّكَاسِك، والسَّكُون؛ وجعل على مَيْمَنتِه عمْرو بن سعِيد، وعلى ميسرته عُبَيد الله بن زياد، وكان يزيد بن أبي النِّمس الغساني مُخْتَفِيًا بدمشق لم يحضر الجابِيَة، فغلب على دِمَشْق، وأخرج عنها عامِلَ الضَّحاك بن قَيْس، واستولى على الخزائن وبَيْتِ المال، وبايع لمَرْوَان، وأمدّه بالأموال والرجال والسلاح، فكان ذلك أول فَتْحٍ على بني أُمية.

وتحارب مَرْوَان والضحاك بمَرْجِ رَاهِط عشرين ليلة؛ واقتتلوا قتالاً شديدًا؛ فقُتِل الضحاك، قتلَه زُحْنَة بن عَبْد الله الكلبي، وقُتِل معه ثمانون رجلاً من أشراف الشام، وقُتلت قيس مقْتلةً عظيمة لم تقتل مثلها في مَوْطنٍ قطّ، وكان ممن قتل هانىء بن

---

(١) السكاسك والسكون من رجال بني زيد بن كهلان وقبائلهم، وهما ابنا أشرس بن ثور بن كندي. . . (الاشتقاق لابن دريد).

(٢) القين: العبد، أو الصانع.

(٣) مرج راهط: موضع بنواحي دمشق.

(٤) قنسرين: بكسر أوله، وفتح ثانيه وتشديده وقد كسره قوم ثم سين مهملة: مدينة طولها ثلاث وثلاثون درجة، وعرضها أربع وثلاثون درجة وثلث، وفي جبلها مشهد يقال إنه قبر صالح النبي عليه السلام، وفيه آثار أقدام الناقة، والصحيح أن قبره باليمن بشبوة، وقيل بمكة، والله أعلم. . . (معجم البلدان لياقوت).

قبيصة النميري سيِّد قومه، قتله وازع بن ذُؤالَة الكلبي، فلما سقط جريحًا قال: [من الطويل]

تعِسْتَ ابن ذات النوْفِ أجْهِزْ عى فتًى يرى المَوْتَ خَيْرًا من فِرَارٍ وأكْرَمَا
ولا تترُكَنِّي بالحشاشة إنني صبُور إذا ما النُّكسُ مِثلُكَ أحجما[1]

فعاد إليه وازع فقتله، وكانت هذه الوقعة في المحرم سنة خمس وستين.

وقيل: كانت في آخر سنة أربع وستين.

ولما أُتي مرْوَان برَأْسِ الضحاك ساءه ذلك، وقال: الآن حين كبِرَتْ سِنِّي ودقَّ عظْمي أقبلْتُ بالكتائِب أضْرِبُ بعْضَها ببعض.

وقيل: إنَّ الضحّاك كان في ستين ألف فارس ومَرْوَان في ثلاثة عشر ألفًا.

حكى المدائني[2] في كتاب المكايد له، قال: لما التقى مَرْوَان والضحاك بمرْج راهِط قال عُبيْد الله بن زياد لمَرْوان: إن فرْسان قيْسٍ مع الضحاك فلا ننال منه ما نريد إلاَّ بكيْدٍ، فأرْسِلْ إليه فاسأله المُوَادَعةَ حتى ننظرَ في أمرك، على أنك إنْ رأيْت البيعة لابْنِ الزبير بايعْتَ، ففعل فأجابه الضحاك إلى الموادعَة، وأصبح أصحابُه قد وضعوا سِلاحهم، وكفُّوا عن القِتَال، فقال ابن زياد لمروان: دونك، فشَدَّ مَرْوَان ومَنْ معه على عسْكَرِ الضحاك على غَفْلَةٍ منهم وانتشارٍ، فقتلوا مِنْ قيس مقتَلةً عظيمة، وقُتل الضحاك يومئذ فلم يضحك رجالٌ من قيس بعد يَوْم المَرْج حتى ماتوا.

وقيل المكيدة كانت من عُبيْد الله بن زياد، كاد بها الضحاك. وقال له: ما لكَ والدعاء إلى ابن الزبير! وأنت رجل قرشي ومعك الخَيْل، وأكْثَرُ قيس؟ فادْعُ لنفسك، فأنت أسنُّ منه وأولى.

ففعل الضحاكُ ذلك، فاختلف عليه الجنْدُ، فقاتله مَرْوان عند ذلك فقتل. والله أعلم.

---

(١) النكس: الضعيف، أو الرذل المقصر عن غاية النجدة والكرم.

(٢) المدائني: هو علي بن محمد بن عبد الله البصري، المدائني (أبو الحسن) مؤرخ، إخباري، راوية للشعر، ولد ونشأ بالبصرة، وسكن المدائن، ثم انتقل عنها إلى بغداد، وروى عنه الزبير بن بكار وغيره، وتوفي بها سنة ٢٢٥ هجرية. من تصانيفه الكثيرة: أمهات النبي ﷺ، أخبار المنافقين، عهود النبي، كتاب الردة، ومقتل الحسين عليه السلام... (معجم المؤلفين كحالة ٧: ٢١١).

قال: ولما انهزم الناس من المَرْج لحقوا بأجْنَادهم، فانتهى أهْلُ حِمْص إليها وعليها النعمانُ بن بشِير، فلما بلغه الخَبَرُ خرج هاربًا ومعه امرأتُه نائلة بنت عُمَارة الكَلْبيّة وثَقَلُه وأولاده، فتحيّر ليلَتَه كلها، فأصبح أهل حِمْص فطلبوه، وكان الذي طلبه مروان بن الخَليّ الكَلاَعي فقتله.

وقيل: اتبعه خالد بن عديّ الكَلاَعي فيمن خفَّ معه من أهل حِمْص فلحقه فقتله وبعث برأسه إلى مَرْوان.

وقال علي بن المديني: قُتِل النعمان بن بَشير بحمص غِيلةً قتلَه أهلُها.

وقيل: قُتِل بقرية من قُرَى حمص يقال لها تِيْزِين[١]. والنعمان من الصحابة، وُلد قبل وفاة رسولِ اللّهِ ﷺ بثماني سنين.

قال: ولما بلغت الهزيمةُ زُفَرَ بن الحارث الكلابي بِقِنّسْرِين هربَ منها، فلحق بقرْقِيسيا[٢] وعليها عِياض الجُرَشي، وكان يزيد بن معاوية ولاّهُ إياها، فطلب منه أن يدخل الحمَّام ويَحْلِف له بالطلاق والعِتاق أنه إذا خرج من الحمَّام لا يُقيم بها، فأذِن له، فدخلها، فغلب عليها وتحصَّنَ بها، ولم يدخل حمَّامها، واجتمعت إليه قيس. وهرب ناتل بن قَيْس الجُذَامي من فلسطين، فلحق بابْنِ الزبير بمكّة؛ واستعمل مرْوَانُ بعْده على فلسطين روح بن زِنْبَاع، واستوثق الشام لمَرْوَان.

وقيل: إن عُبيد الله بن زياد إنما جاء إلى بني أُمية وهُمْ بتَدْمر[٣]، ومَرْوَان يريد أن يسيرَ إلى ابْنِ الزُّبير فيُبَايعه ويأخذ منه الأمانَ لبني أُمية، فردّه عن ذلك، وأمره أنْ يسير بأهْلِ تَدْمُر إلى الضحاك فيقاتله، وواقفه عَمْرو بن سعيد، وأشار على مَرْوان أن يتزوَّج أُم خالد بن يزيد ليسقُط من أعْيُنِ الناس، فتزوجها، وهي فاخِتَة ابنة أبي هاشم بن عُتْبة، ثم جمع بني أُمية فبايعوه، وبايعه أهل تَدْمُر.

وسار إلى الضحاك في جَمْعٍ عظيم، وخرج الضحاكُ إليه، فاقتتلا، فقُتل الضحاكُ، وسار زُفَر بن الحارث إلى قَرْقِيسياء، وصحِبهُ في هزيمته شابان من بني سُلَيم؛ فجاءت خَيْلُ مرْوان في طلبه، فقال الشابان له: انجُ بنفسك، فإنَّا نحن نقتل. فمضى زفر وتركهما فقتلا، وقال زُفَرَ في ذلك: [من الطويل]

---

(١) تيزين: قرية كبيرة من نواحي حلب.

(٢) قرقيسيا: بلد على نهر الخابور (المراصد).

(٣) تدمر: بالفتح ثم السكون، وضم الميم: مدينة قديمة مشهورة في برية الشام، بينها وين حلب خمسة أيام. . . (معجم البلدان).

أرِيـنـي سِـلاَحِـي لا أبـا لـكِ إنَّـنـي ... أرَى الـحـرْب لا تَـزْدَادُ إلاَّ تَـمـادِيـا
أتـانِـيَ عـنْ مـرْوَانَ بـالـغَـيْـبِ أنـه ... مُـقِـيـدٌ دمِـي أو قـاطِـعٌ مِـنْ لِـسَـانِـيَـا
ففي العيش مَنْجاةٌ وفي الأرضِ مَهْرَبٌ ... إذا نـحـن رَفَّـعْـنـا لـهـنَّ الـمَـثَـانِـيـا
فـلا تـحْـسِـبُـونـي إنْ تـغـيّـبتُ غَـافِـلاً ... ولا تَـفْـرَحُـوا إنْ جـئـتُـكُـم بـلِـقَـائِـيـا
فقد ينبُت المَرْعَى على دِمَنِ الثَّرَى ... وتـبـقـى حَـزَاراتُ الـنـوسِ كـمـا هِـيَـا
لـعـمْـرِي لـقـد أبـقَـتْ وَقـيـعـةُ راهِـطٍ ... لـحـسَّـان صَـدْعًـا بـيـنـنـا مُـتَـنَـائـيـا
فـلـم تُـر مِـنّـي نَـبْـوَةٌ قَـبْـل هَـذه ... فِـرَارِي وتَـركـي صاحِبَـيَّ وَرائـيـا[1]
عَـشـيَّـةَ أدْعُـو بـالـقِـرَانِ فـلا أرَى ... مِـنـع الـنـاس إلاَّ مَـن عـلَـيَّ ولا لِـيـا
أيَـذهَـبُ يـومٌ واحـدٌ إن أسـأتُـه ... بـصـالِـح أيـامـي وحُـسْـنِ بَـلاَئِـيـا
فلا صُلْح حتى تَنْحِطَ الخَيْلُ بالقَنَا ... ويَـثْـأر مِـنْ نِـسْـوَان كَـلْـبٍ نِـسَـائـيـا

فأجابه جوَّاس بن القَعْطَل[2]: [من الطويل]

لـعَـمْـرِي لـقـد أبـقـت وَقِـيـعـةُ راهِـطٍ ... عَـلـى زُفَـرٍ داءً مـن الـداءِ بـاقِـيـا
مُـقِـيـمًـا ثَـوَى بـيـن الـضُّـلـوع مَـحَـلُّـه ... وبـين الحشا أعْيا الطبِيب المُداويا
تُـبَـكِّـي عـلـى قَـتْـلَـى سُـلَـيـم وعـامِـرٍ ... وذُبْـيَـانَ مـغْـذُورًا وتُـبـكـي الـبـوَاكِـيـا
دعـا بـسـلاحٍ ثـم أحـجَـم إذْ رَأى ... سـيـوفَ جـنـابٍ والـطِّـوَالَ الـمَـذَاكِـيَـا
عـلـيـهـا كـأُسْـدِ الـغـاب فـتْـيـانُ نـجـدة ... إذا أشْـرَعُـوا نَـحْـو الـطِّـعَـان الـعـوالـيـا

ذكر مسير مروان إلى مصر واستيلائه عليها

قال: ولما قُتل الضحاكُ واستقرَّ الشامُ لمَرْوَان سار إلى مِصْر فقدمها، وعليها عَبْد الرحمٰن بن جحدر الفِهْري يَدْعُو لابن الزُّبيْر، فخرج إلى مَرْوان فيمن معه، وبعث مَرْوان عمْرو بن سعِيد مِنْ ورائه، حتى دخل مصر، فقيل ذلك لابن جحدر، فرجع فبايَع الناس مرْوان، وجاء مرْوان إلى مصر، ودخل الدار البيْضَاء، ثم سار عنها واستعمل عليها ابْنَه عبد العزيز بن مرْوان، واستقرّ مرْوان بدمشق.

---

(١) المراد بصاحبيه: ابنه كعب، ومولاه مسكان (شرح الحماسة).

(٢) هو جواس بن القعطل بن سويد بن حارث الكلبي.

ذكر البيعة لعبد الملك وعبد العزيز ابني مروان ابن الحكم بولاية العهد

وفي سنة خمس وستين أمر مَرْوان بالبيْعةِ لابنيه: عبد الملك، وعبد العزيز، وكان سبب ذلك أن عمْرو بن سعِيد كان قد توجّه إلى فلسطين، وقاتل مُصْعَب بن الزبير حين وجّهه أخوه عبد الله إليها فهزم مُصْعبًا، ورجع إلى مرْوان وهو بدمشق، وقد غلب على الشام ومِصْر، فبلغ مرْوان أنَّ عَمْرو بن سعيد يقول: إن الأمْرَ لي مِنْ بعْد مرْوان، فدعا حسانَ بن مالك بن بَحْدَل، فأخبره بما بلغه عن عمْرو، فقال: أنا أكفيك عَمْرًا. فلما اجتمع الناسُ عند مَرْوان قام حسان فقال: إنَّه بلغني أنَّ رجالاً يتمنَّوْن أمانيّ، قومُوا فبايِعُوا لعبْدِ الملك وعبد العزيز من بَعْدِه، فبايعوا من عند آخرهم.

وفي هذه السنة بعث مرْوان بن الحكم بعْثَيْن: أحدهما مع عُبيد الله بن زِياد إلى الجزيرة ومحاربة زُفَر بن الحارث بقرْقِيسيَا، واستعمله على كل ما يفْتَتِحُه، فإذا فرغ من الجزيرة توجَّه لقَصْدِ العراق. فلما كان بالجزيرة بلغه موتُ مرْوان، وأتاه عهْد عبد الملك بن مروان يستعمله على ما استعمله عليه أبوه ويحثُّه على المسير إلى العراق.

والبعث الثاني مع حُبَيْش بن دَلْجةَ القَيْنِي، فسار حتى انتهى إلى المدينة وعليها جابر بن الأسود بن عَوْف ابن أخي عَبْد الرحمْن بن عَوْف من قِبَل ابْنِ الزبير، فهرب منه جابر.

ثم إن الحارث بن أبي ربيعة وجَّه جَيْشًا من البَصْرة وجعل عليهم الحَنْتفَ بن السِّجْف التميمي لحَرْب حُبَيْش. فلما سمع بهم حُبَيْش سار إليهم من المدينة، وأرسل عَبْدُ الله بن الزبير عَبّاس بن سهل الساعدي إلى المدينة أميرًا، وأمره أن يسير في طلب حُبَيْش حتى يُواف بجيْشَ البصرة، فأقبل عبّاس في آثارهم حتى لحقهم بالرَّبذَة فقاتلهم حُبيش، فرماه يزيد بن سِياه بسَهْم فقتله وكان معه يومئذ يوسف بن الحَكَم، وابنُه الحجَّاج بن يوسف، وهما على جَمَلٍ واحدٍ، وانهزم أصحابُه فتحرّز منهم خمسمائة بالمدينة، فقال لهم عباس: انْزِلُوا على حُكْمِي، فنزلوا فقتلهم، ورجع فَلّ[1] حُبيْش إلى الشام.

---

(١) الفلّ: المنهزمون.

ذكر وفاة مروان بن الحكم

كانت وفاتُه في شهر رَمَضان سنة خمس وستين. قيل: مات بالطاعون. وقيل: بل كان سببُ موتِه أنه لما بُويع بالخلافةِ أراد حسّان بن بحْدَل أنْ يجعلَ الأمْر من بعده لخالد بن يزيد بن معاوية، فبايعه على ذلك، فقيل لمرْوان: الرأيُ أن تتزوَّج أُمَّ خالد تكفل ابنها حتى يصغر شأْنه فلا يطلب الخلافةَ. فتزوّجها.

وقد ذكرنا ذلك، فدخل خالدٌ يومًا على مَرْوان، وعنده جماعةٌ فنظر إليها وهو يمشي بين الصفَّين فقال: إنَّه واللهِ لأحمق، تعال: يا بْنَ الرطْبةِ الاسْتِ، يريد بذلك إسقاطَه مِنْ أعين أهْل الشام، فقال له خالد: مؤتمن خائن. فندم مَرْوان، ثم دخل خالد على أُمِّه، فقال: هكذا أردت، يقول لي مرْوَان على رؤوس الناس كذا وكذا. فقالت له: لا يُعْلَمنَّ ذلك منك، فأنا أكفيك، فواللّهِ لا ترى بعْدُ منه شيئًا تكرهه، وسأُقرِّب عليك ما بَعُد.

ثم دخل مَرْوَان عليها، فقال لها: قال لك خالد فيّ شيئًا؟ قالت: إنه أشدُّ تعظيمًا لك مِنْ أنْ يقولَ فيك شيئًا. فصدَّقها، ومكثَتْ أيامًا بعد ذلك، فنام مَرْوان عندها في بعض الأيام، فوضعَتْ على وَجْهه وِسَادَةً، وجلستْ عليها حتى مات. وهو معدودٌ ممَّنْ قتلَه النساء.

ومولده سنة اثنتين من الهجرة، وكان عمره ثلاثًا وستين سنة. واختلف فيه إلى نَيّف وثمانين سنة. وصلَّى عليه ابْنُه عبدُ الملك، وكانت ولايته منذ جُدّدتْ له البيْعةُ عشرةُ أشهر تقريبًا، وكان سلطانه بالشام ومصر.

أولاده: عبد الملك، ومعاوية، وعمرو، وعُبيد الله، وعَبْد الله، وأبَان، وداود، وعبد العزيز، وعبد الرحمٰن، وبِشر، ومحمد، وأُم عمار.

كاتبه: سفيان الأحول. وقيل: عُبيْد الله بن أوس.

قاضيه: أبو إدريس الخولاني.

حاجبه: أبو سهْل مولاه.

نقش خاتمه: الله ثِقَتِي ورَجائِي.

* * *

ومَرْوَان أوّل مَنْ قَدَّم الخطبةَ قبل صلاةِ العيد، وكان يقال له ولولده بنو الزَّرْقَاء، يقول ذلك منْ يريد ذَمَّهم وعَيْبهم، وهي الزرقاء بنت موهب جدّة مرْوَان لأبيه، كانت من ذوات الرايات التي يُستدلّ بها على بيوتِ البغايا؛ فلهذا كانوا يُذمّون بها، ولعل هذا منها كان قبل أن يتزوَّجَها أبو العاص بن أُمية والد الحكم، فإنه كان مِنْ أشرافِ قُريش، ولا يكون هذا من امرأةٍ وهي عنده. والله أعلم.

ذكر بيعة عبد الملك بن مروان

هو أبو الوليد عبْد الملك بن مَرْوَان بن الحكم، وهو الخامس من ملوكِ بني أُمية.

وأُمه عائشة بنْتُ المغيرة بن أبي العاص، وهو أوّل مَنْ سُمّي عبد الملك في الإسلام، ولُقّب رشح الحَجر[1] لبُخْله، ولُقّب أيضًا بأبي الذُّبّان لبخره[2]. وقيل: إن السببَ في بخره أنه كان يَتْلُو القرآنَ في المصحف، فأفضت الخلافةُ إليه وهو يَتْلُو، فَردّ المصحفَ بَعْضَه على بَعْض، وقال: هذا فِرَاقُ بَيني وبينك، يُشير بهذا الكلام إلى المصحف فبَخِر لوقْتِ، وعجزت الأطباءُ عن مداواته، فكان لا يمرُّ ذُباب عن فِيه إلا مات لوقته، وكان أفْوَه مفتوحَ الفَم مُشَبّك الأسنان بالذّهب.

بويع له في شهر رَمضان سنة خمس وستين بعد وفاةِ أبيه، وكان وليَّ عَهْدِه كما تقدّم، وأراد عَبْدُ الملك أن يقتلَ أُمّ خالد، فقيل له: يظهر عند الناس أنّ امرأةً قتلَتْ أباك، فتركها، وكان عبدُ الملك وُلِد لسبعة أشهر، فكان الناس يذمُّونه بذلك.

قيل: إنه اجتمع عنده قومٌ من الأشراف، فقال لعُبَيد الله بن زياد بن ظبيان البَكْري: بلغني أنكَ لا تُشْبِه أبَاك! فقال: والله إني لأشْبَهُ به من الماء بالماء والغرابِ بالغراب، ولكن إن شئْتَ أخْبَرْتُك بمن لم تُنْضِجْه الأرحام، ولم يولد لتمام، ولم يُشْبه الأخْوال ولا الأعْمَام. قال: مَنْ ذاك؟ قال: سُوَيد بن مَنْجُوف.

فلما خرج عُبيد الله وسُويد قال له سُويد: والله ما يسرُّني بمقالتك له حُمْر النعم[3]. فقال عُبيْد الله: وما يسرُّني والله باحتمالك إياي وسكوتك عني سودُها.

قال: وكان أول ما بَدأ به عَبْدُ الملك أنْ كتب إلى عُبيد الله بن زياد واستعملَه على ما كان مَرْوَان قد استعمله عليه، فكان من أخبار ابن زِياد في مسِيره وحُروبه ومَقْتَله ما قدَّمْنَاه في أخبار عبْدِ اللّهِ ابن الزبير، فلا حاجة لنا إلى إعادته ههنا، فلنذكر هنا أخبار عَبْدِ الملك غير ما قدمنا ذكره:

---

(١) رشح: عرق. (٢) البخر: الرائحة الكريهة من الفم.
(٣) النعم: الإبل.

في سنة ست وستين أرسل عَبْدُ الله بن عباس ابْنَهُ عليّ بن عَبْد الله إلى عَبْد الملك، وقال: لأن يرُبّني بنو عَمّي أحبُّ إليّ من أن يرُبَّني رجُلٌ من بني أسد - يعني بني عمِّه بني أُمية، لأنهم كلهم أولاد عبد مناف، ويعني بالرجل من بني أسد عبْد الله بن الزُّبير.

فلما وصل إلى عبد الملك سأله عن اسْمِه وكنْيَتِه، فقال: الاسم عليّ، والكنية أبو الحسن. فقال عبد الملك: لا يجتمع هذ الاسم وهذه الكنية في عَسْكري أنْتَ أبو محمد.

ذكر مقتل عمرو بن سعيد الأشدق
وشيء من أخباره ونسبه

هو عَمْرو بن سَعِيد بن العاص بن أُمية بن عَبْد شمس بن عبد مناف، ويسمى عَمْرو اللطيم لميل كان في فَمِه، فمن أجل ذلك قيل له لطيم الشيطان، ويُسَمَّى الأشدق لتشادُقِه في الكلام، وكان من فُصحاء قُريش وأهل الخطابة منهم. وقيلَ في تسميته الأشدق: إنه لما مات سعِيد والده دخل عَمْرو على معاوية فاستنطقه، فقال: إن أوّل مركب صَعْب. فقال له معاوية: إلى مَنْ أوْصَى بكَ أبوك؟ فقال: إن أبي أوصاني ولم يُوص بي. قال: فبأي شيء أوصاك؟ قال: ألاَّ يفقد منه أصحابُه غَيْرَ شَخْصه. فقال معاوية: إن عَمْرًا هذا لأشدَق.

ولنذكر سبب مقتله ثم نذكر نَبذة من أخبار آبائه:

كان سبب مَقْتَله أنّ عَبْد الملك بن مَرْوَان سار في سنة تسع وستين من دِمَشق يريد قَرقِيسياء، يريد زُفَرَ بن الحارِث الكلابي، وصَحِبه عَمْرو بن سَعِيد في سيره، فلما بلغ بُطْنَان[1] حَبِيب رجع عَمْرو ليلاً ومعه حُميد بن حُريث وزهير بن الأبْرَد الكَلْبيّان، فأتى دمشق وعليها عبد الرحمٰن ابن أُم الحكم الثقفي خليفة عبد الملك بها، فهرب عنها ودخلها عمرو، فغلب عليها وعلى خزائنها، وهدم دار ابن أُم الحكم؛ واجتمع الناسُ إليه، فخطبهم ومنّاهم ووعدَهم، وأصبح عَبْدُ الملك وقد فقد عَمْرًا، فسأل عنه فأُخبِر برجوعه، فرجع إلى دمشق، فقاتله أيامًا، ثم اصطلحا، وكتبا بينهما كتابًا، وأمّنه عَبْدُ الملك، فجاءه عَمْرو واجتمعا، ودخل عَبْدُ الملك دِمَشق.

---

(١) بطنان: بالضم ثم السكون، ونونان بينهما ألف: اسم واد بين منبج وحلب، بينه وبين كل واحد من البلدين مرحلة خفيفة، فيه أنهار جارية وقرى متصلة. . . (معجم البلدان).

فلما كان بعد دخوله بأربعة أيام أرسل إلى عَمْرو يَسْتَدْعيه، فأتاه الرسولُ وعنده عبدَ الله بن يزيد بن معاوية، فنهاه أنْ يأتِيَه، فقال عمرو: ولـم؟ قال: لأنّ تُبيْع ابن امرأة كَعْب الأحبار قال: إن عظيمًا من وَلد إسماعيل يرجع فيُغْلِقُ أبوابَ دمشق، ثم يخرج منها، فلا يلبَثُ أن يُقتل. فقال عمرو: والله لو كنتُ نائمًا ما أنْبَهَنِي ابنُ الزرقاء ولا اجْتَرأ عليّ، مع أني رأيت البارحة عُثْمَان في المنام، فألبسني قميصَه.

ثم قام فلبس دِرعًا وغطّاها بالقَباء[1]، وتقلّد سيفًا، وذلك بعد أن صرف رسولَ عبد الملك، فلما نهض عثر بالبِساط، فقال له حُميد ابن حُريث: والله لو أطعتَنِي لم تَأْتِهِ، وقالت له امرأته الكَلْبِية كذلك، فلم يلتفت، ومضى في مائة من مواليه.

فلما بلغ بابَ عبد الملك أُذِن له فدخل فلم يَزَلْ أصحابُه يُحْبَسون عند كل بابٍ حتى بلغ قاعةَ الداره، وليس معه إلا وصِيف واحد، فنظر عَمْرو إلى عبْدِ الملك وإذا حولَه بنو مَرْوَان، وحسّان بن بَحْدَل الكلبي، وقبيصة بن ذُؤيْب الخُزاعي، فلما رأى جماعتَهم أحسَّ بالشر، فالتفت إلى وصيفه، وقال له: انطلق إلى أخي يحيى، وقل له يأتيني، فلم يفهم الوصِيف عنه، فقال: لبيك! فقال عمرو: اغْرُب في حرق الله وناره. وأذِن عَبْدُ الملك لحسّان وقبيصة فقاما، فلقيا عمْرًا، فقال عمْرو لقَبِيصة: انطلق إلى يحيى فمُرْه أنْ يأْتيني، فقال: لبيك! فقال: اغرب عني.

فلما خرج حسّان وقبيصة أُغلِقت الأبواب، ودخل عمْرو فرحّب به عبْدُ الملك، وقال: ههنا يا أبا أُميّة! فأجلسه معه على السرير، وحدّثه طويلاً، ثم قال: يا غلام، خُذِ السيفَ عنه. فقال عمْرٌو: إنّا لله يا أميرَ المؤمنين! فقال عَبْدُ الملك: أتطمع أن تَجْلِسَ معي متقلّدًا سيْفك؟ فأُخذَ السيفُ عنه، ثم تحدّثا، ثم قال له عبد الملك: يا أبا أُمية، إنك حيْثُ خلعتني آليتُ بيمين إنْ أنا ملأْتُ عيني منك وأنا مالكٌ لك أنْ أجعلك في جامعة[2]، فقال له بنو مروان: ثم تُطْلقه يا أميرَ المؤمنين؟ قال: نعم، وما عسيت أن أصنع بأبِي أُمية! فقال بنو مرْوان: أبرّ قَسَم أمير المؤمنين. فقال عمرو: قد أبرّ اللّهُ قسمك يا أمير المؤمنين، فأخرج مِنْ تحت فراشه جامعةً، ثم قال: يا غلام، قم فاجمعه فيها. فجمعه الغلام فيها، فقال عَمْرٌو: أُذكرك الله يا أميرَ المؤمنين أن تُخْرجني فيها على رؤوس الناس؛ فقال عبد الملك: أمكرًا وأنتَ في الحديد! لا، واللّهِ ما كُنَّا لنُخْرجَك في جامعةٍ على رؤُوس الناس، ثم جذبه جَذْبَةً أصاب فمه السريرُ فكسر ثنِيَّتيه، فقال: أُذكرك الله يا أمير المؤمنين؛ كُسِرَ عظْم سني، فلا تركَبْ

---

(١) القباء: ضرب من الثياب.

(٢) الجامعة: الغل يوضع في العنق أو اليد.

ما هو أعظم من ذلك. فقال: والله لو أعلم أنك تُبْقِي عليّ إن أبقيتُ عليك لأطلقْتُكُ، ولكن ما اجتمع رجُلاَن قطّ في بلدة على ما نَحْنُ عليه إلا أخرج أحَدُهما صاحبَه، وأذن المؤذِّنُ، وأُقيمت صلاةُ العصر، فخرج عَبْدُ الملك يُصَلِّي بالناس، وأمر أخاه عَبْدَ العزيز أنْ يقتُلَه، فقام إليه بالسيف، فقال له عمرو: أُذكرك الله والرَّحِمَ أنْ تَلِيَ قَتْلي، لِيَقْتُلْني مَنْ هو أبْعَدُ رَحِمًا منك؛ فألقى عبد العزيز السيْفَ، وجلس. وصَلَّى عَبْدُ الملك صلاةً خفيفة، ودخل وغُلِّقت الأبواب، ورأى الناسُ عَبْد الملك خرج وتأخّرَ عَمْرو، فذكروا ذلك لأخيه يحيى بن سَعِيد، فأقبل في الناس ومعه ألف عَبْدٍ لعَمْرو، وخَلْق كثير، فجعلوا يصيحون بباب عبد الملك: أسْمِعْنَا صوتك يا أبا أُميَّة! وأقبل مع يحيى حُميد بن حُريث وزهير بن الأبرد، فكسروا باب المقصورة، وضربوا الناسَ بالسيوف وضُرِبَ الوليد بن عبد الملك على رأْسِه، واحتمله إبراهيم بن عربي صاحب الديوان، فأدخله بيت القراطيس[١]، ودخل عبد الملك حين صلَّى فرأى عمْرًا بالحياة، فسبَّ أخاه عبد العزيز، ثم أخذ عبْدُ الملك الحرْبة فطعن بها عَمرًا، فلم تُغْنِ شيئًا، ثم ثنى فلم تجز، فضرب بيده إلى عَضُده فرأى الدِّرْع، قال: ودارعٌ أيضًا! إن كنت لمُعِدًّا، وأخذ الصمصامة[٢] وأمر بعمْرو فصُرع، وجلس على صدْرِه فذبحه، وهو يقول[٣]: [من البسيط]

يا عمرو إلاّ تَدعْ شَتْمي ومنْقَصتِي ... أضربْك حيثُ تقول الهامَةُ[٤] اسْقُوني

وانتفض عبد الملك برِعْدةٍ[٥]، فحُمِل عن صدْرِه، ووُضع على سريره.

ودخل يحيى بن سعيد ومنْ معه على بني مرْوان ومواليهم، فقاتلوهم، وجاء عبْدُ الرحمٰن ابن أمّ الحكم الثقفي، فَدُفع إليه الرَّأس فألقاه إلى الناس، وقام عبْدُ العزيز بن مَرْوَان، فأخذ المالَ في البِدَرَ[٦]، فجعل يلقيها إلى الناس، فلما رأى الناسُ الرأس والأموال انتهبوا وتفرّقُوا.

ثم أمر عبْدُ الملك بعْد ذلك بتلك الأموال فجُبِيت حتى عادت إلى بيْتِ المال.

---

(١) القراطيس: جمع القرطاس، وهو الصحيفة يكتب فيها، والمراد هنا ضرب من البرد المصري.
(٢) الصمصامة: السيف.
(٣) هذا البيت لحرثان بن عدوان بن عمرو بن قيس بن عيلان، كان جاهليًا وسمي ذا الإصبع لأن حية نهشته في إصبعه فقطعها...
(٤) الهامة: طائر يخرج من جسد القتيل يطالب قومه بالثأر... (الشعر والشعراء).
(٥) الرعدة: اضطراب الجسم من فزع أو حمى أو غيرها.
(٦) البدر: جمع البدرة، وهي كيس فيه مقدار من المال يتعامل به.

قال: وأخرج عبْدُ الملك سريره إلى المسجد، وخرج، فجلس عليه، وفقد الوليد ابنه، فقال: والله، لئن كانوا قتلوه لقد أدركوا ثأرهم، فأتاه إبراهيم بن عربي الكناني، فقال: الوليد عندي وقد جُرح، وليس عليه بأس.

وأُتي عبْدُ الملك بيحيى بن سعيد فأمر أن يُقْتَل؛ فقام إليه عبد العزيز بن مَرْوان فقال: يا أمير المؤمنين، أتراك قاتل بني أُمية في يوم واحد، فأمر بيحيى فحُبِس، وأراد قَتلَ عَنْبَسة بن سعيد، فشفع فيه عبدُ العزيز أيضًا، وشفع في عامر بن الأسود الكلبي، وأمر ببني عمْرو بن سعيد فحُبِسوا؛ ثم خرجوا مع عَمّهم يحيى، فألحقهم بمصعب. ثم بعث عبْدُ الملك إلى امرأةِ عمْرٍو الكلبية: ابعثي إليّ الصُّلْح الذي كتَبْتُ لعمرو. فقالت لرسوله: ارجعْ إليه فأعْلمه أنَّ ذلك الصُّلْحَ معه في أكفانه ليُخَاصِمك به عند ربِّه.

قال: ولما قَتَل عبْدُ الملك مُصْعب بن الزبير دخل أولادُ عمرٍو عليه وهم أربعة: أُمية، وسعيد، وإسماعيل، ومحمد؛ فلما نظر إليهم عبد الملك قال: إنكم أهل بيت لم تزالوا تَروْن لكم علَى جميع قومكم فَضْلاً لم يجعلْه اللّهُ لكم، وإن الذي كان بيني وبين أبيكم لم يكن حديثًا، بل كان قديمًا في أنفس أوَّليكم علَى أوَّلينا في الجاهلية.

فلم يقدر أُمية أن يتكلَّم. وكان الأكبر من أولاد عمْرو، فقام سعِيد بن عمرو وكان الأوسط فقال: يا أمير المؤمنين، ما تَنعي علينا أمرًا في الجاهلية، وقد جاء اللّهُ بالإسلام فهدم ذلك، ووعد جنَّةً، وحذَّر نارًا، وأما الذي كان بينك وبين عمرو فإنه كان ابْنَ عمك وأنت أعلم وما صنعْتَ. وقد وصل عَمْرٌو إلى الله، وكفى بالله حسِيبًا؛ ولعمري لئن أخذْتَنا بما كان بينك وبينه لبَطْنُ الأرض خَيْرٌ لنا من ظَهْرها، فرقَّ لهم عبْدُ الملك وقال: إنَّ أباكم خَيَّرَني بين أنْ يقتلني أو أقتله، فاخترْتُ قَتْلَه على قَتْلي، وأمّا أنتم فما أرْغَبَني فيكم وأوْصلني لقَرابتكم، وأحْسنَ جائزتَهم ووصلَهم وقرَّبهم.

وقد قيل في سبب قَتْله: إنه قال لعبْد الملك حين سار إلى العراق لقتال مُصْعب: إنك تخرجُ إلى العراق، وقد كان أبوك جعل لي الأمْر بعده، وعلى ذلك قاتلْتُ معه، فاجعل هذا الأمْرَ لي بعدك، فلم يُجِبْه عَبْدُ الملك إلى ذلك، فرجع إلى دمشق، وكان من أمره ما تَقدّم.

وقيل: بل كان عبْدُ الملك قد استخلفه على دِمَشق، فوثب بها.

وقيل: إنَّ عبدَ الملك لم يقتلَ عمْرَو بن سعيد بيدِهِ، وإنما أمر غلامه ابن الزّعيْزِعَة، فقتله وألْقَى رَأْسَهُ إلى الناس ورمى يحيى بصخْرَة في رأْسه، وكان مقتله في سنة تسع وستين. وقيل: في سنة سبعين. والله أعلم.

ذكر نبذة من أخبار عمرو بن سعيد الأشدق في الإسلام والجاهلية

كان مولد سعِيد بن العاص والد عَمْرو عام الهجرة. وقيل: سنة إحدى. وقُتِل جَدُّه العاصُ بنُ سعيد يوم بَدْرٍ كافرًا، قَتَلَه عليُّ بْنُ أبي طالب رضي الله عنه، وكان لجدِّ أبيه سَعِيد بن العاص بن أُميَّة ثمانيةُ بنين؛ منهم ثلاثة ماتوا على الكُفْر، وهم: أُحَيْحَة، وبه كان يُكْنَى سَعِيد بن العاص، وقتل أُحيحة يوم الفِجَارِ[١]. والعاص، وعُبيدة قُتِلا يوم بدْرٍ كافِرَين، قَتَل العاص عليٌّ، وقَتَل عُبيدةَ الزُّبيرُ؛ وخمسة أدركوا الإسلام، وصحبوا رسولَ الله ﷺ؛ وهم: خالد، وعمرو، وسعيد، وأبان، والحكم بنو سعِيد بن العاص بن أُمية، وغيَّر رسولُ الله ﷺ اسْم الحكَم، فسمَّاه عَبْد الله. وَجدُّ هؤلاء العاص بن أُمية ذو العصابة؛ قيل له ذلك، لأنه كان من شَرفِه إذا اعتَمَّ بعمامة بمكَّة لا يعْتَمُّ أحدٌ بلَوْنها إجلالاً له، وكان يكنى بأبي أُحيْحة، وفي ذلك يقول الشاعر: [من البسيط]

أبو أُحيْحة من يعْتَمَّ عمَّته ... يضرب ولو كان ذا مالٍ وذا حسبِ

وكان سعيد بن العاص والد عمْرو مِن أشراف قريش ممن جُمع له السخاء والفصاحة، وهو أحدُ الذين كتبوا المُصْحف لعثمان بن عفان رضي الله عنه، واستعمله عثمان على الكوفة، وغَزَا بالناس طَبَرِسْتَان[٢] فافتتحها. ويقال: إنه افتتح أيضًا جُرجان[٣] في سنة تسع وعشرين أو سنة ثلاثين، وغزا أذْرَبِيجان[٤] لما انتقضت فافتتحها، ثم عزله عثمانُ، واستعمل الوليد، فمكث مدة، ثم شكاه أهلُ الكوفة، فعزله، وردَّ سعِيدًا، فردَّه أهلُ الكوفة، وكتبوا إلى عثمان: لا حاجةَ لنا في سعِيدك ولا وليدك، وكان في سعيد تجبُّرٌ وغلظ وشِدَّةُ سُلْطان.

---

(١) يوم الفجار: بين بني بكر بن وائل وبني تميم وكانت أربعة أيام: الأول بين كنانة وبين نصر بن معاوية، ولم يكن فيه كبير قتال، والرابع، وهو الأكبر، كان بين قريش وهوازن، وكان بينه وبين مبعث رسول الله ﷺ ستة وعشرون عامًا. وشهده رسول الله ﷺ وهو ابن أربع عشرة سنة. . . (نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب).

(٢) طبرستان: بلاد واسعة ومدن كثيرة من الري.

(٣) جرجان: بالضم، وآخره نون: مدينة مشهورة عظيمة بين طبرستان وخراسان، فبعض يعدها من هذه وبعض يعدها من هذه. . . وقيل: إنها أكبر مدينة بنواحيها، وهي أقد ندى ومطرًا في طبرستان. . . (معجم البلدان).

(٤) أذربيجان: كورة تلي الجبل من بلاد العراق. . . (البكري).

ولما قُتِل عثمانُ بن عَفَّان كان سعِيد والد عمرو ممن لزم بيْتَه، واعتزل حرْب الجمَل وصِفِّين، فلما اجتمع الناسُ على معاوية ولأَه المدينة، ثم عزله وولأَّها مَرْوان بن الحكم، وكان يعاقِبُ بينه وبين مَرْوَان في ولاية المدينة، وفيه يقول الفرزدق: [من الوافر]

تَرَى الغُرّ الجَحَاجِحَ مِنْ قُرَيشٍ ... إذا ما المَرْءُ في الحدَثان غَالا[1]

قِيَامًا ينْظُرُون إلى سَعِيدٍ ... كأنهمو يَرَوْنَ به هِلالا

وحكى الزبير بن بكّار[2] قال: لما عُزل سَعِيد عن المدينة انصرف عن المسجد وَحْدَه، فتبعَه رجلٌ، فنظر إليه سَعِيد رضي الله عنه، وقال: ألكَ حاجةٌ! قال: لا، ولكني رأيْتُك وَحْدَك، فوصلْتُ جَناحك. فقال له: وصلَك الله يا ابْنَ أخي، اطلُب لي دواةً وجِلْدًا، وادْعُ لي مولاي فُلانًا، فأتاه بذلك، فكتب له بعشرين ألف درهم، وقال: إذا جاءت غَلَّتُنا دَفَعْنَا ذلك إليك، فمات في تلك السنة، فأتى بالكتابِ إلى ابْنِه عَمْرو، فأعطاه المالَ.

وكان لسعيد بن العاص سبْعَةُ بنين، وهم: عَمْرو هذا، ومحمد، وعبد الله، ويحيى، وعثمان، وعَنْبَسة، وأبان.

وكانت وفاة سَعِيد في سنة تسع وخمسين. ولنرجع إلى أخبار عبد الملك:

ذكر عصيان الجراجمة بالشام
وما كان مِنْ أمْرهم

هذه الحادثة ذكرها ابن[3] الأثير في سنة تسع وستين، فقال: لما امتنع عمرو بن سعِيد على عَبْد الملك خرج قائدٌ مِن قُوَّادِ الضواحِي في جبل اللُّكَام[4] واتَّبعَه خَلْقٌ

(١) الجحاجح: جمع الجحجيح، وهو السيد السمح الكريم.

(٢) الزبير بن بكار: هو أبو عبد الله الزبير بن بكر بن بكار - وكنيته أبو بكر - بن عبد الله بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير بن العوام القرشي الأسدي الزبيري؛ كان من أعيان العلماء، وتولى القضاء بمكة حرسها الله... (وفيات الأعيان ٢:٣١١).

(٣) ابن الأثير: هو أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني، المعروف بابن الأثير الجزري، الملقب عز الدين؛ كان إمامًا في حفظ الحديث ومعرفته وما يتعلق به، وحافظًا للتاريخ المتقدمة والمتأخرة، وخبيرًا بأنساب العرب وأخبارهم وأيامهم ووقائعهم، صنف في التاريخ كتابًا كبيرًا سماه «الكامل»... (وفيات الأعيان ٣:٣٤٨).

(٤) اللكام: هو الجبل المشرف على أنطاكية والمصيصة وطرسوس.

كثير من الجَرَاجِمة[١] والأنبَاط، وأُبَاقِ عَبِيد المسلمين، وغيرهم، وسار إلى لُبْنَان، فلما فرغ عَبْدُ الملك من عَمْرو أرسل إلى هذا الخارج عليه، فبذل له في جُمْعة ألْف دينار، فركَنَ إلى ذلك، ولم يُفْسِدْ في البلاد، ثم وضع عليه عبْدُ الملك سُحيم بن المُهاجر، فتلطَّف حتى وصل إليه متنَكِّرًا، وأظهر الميْلَ إليه، ووعده أن يَدُلَّه على عَوْرَاتِ عبْد الملك، وما هو خيْرٌ له من الصلح؛ فوثق به؛ ثم أتاه سُحيم في جيْشٍ من مَوَالي عبد الملك وبني أُمية وجند من ثقات جُنْدِه والخارج ومنْ معه على غير أُهْبةٍ، فدهَمَهم، وأمر فنودي: مَنْ أتانا من العبيد ـ يعني الذين كانوا معه ـ فَهو حُرٌّ، وثبت في الديوان؛ فالتحق به خَلْق كثيرٌ منهم، وقاتلوا معه، فقُتِلَ الخارجُ ومَنْ أعانه مِنَ الروم، وقُتل نَفَرٌ من الجراجمة والأنباط، ونادى بالأمان فيمن بقي منهم فتفرَّقُوا، وعاد إلى عبْد الملك ووفَّى للعبيد.

وفي سنة تسع اجتمعت الرومُ واستجاشوا[٢] علَى منْ بالشام، فصالح عبْدُ الملك ملكهم عَلى أن يؤدِّي إليه في كل جمعة ألف دينار.

وفيها كان يوم الجُفْرة وقد تقدم ذكره في أخبار ابن الزبير رضي الله عنه.

ذكر خبر عمير بن الحباب بن جعدة السلمي وما كان بين قَيس وتغلب من الحروب إلى أن قُتِلَ عُمير بن الحُبَاب وما كان بعد ذلك

كان مَقْتَلُ عُمير بن الحُباب في سنة سبعين، وكان سبب ذلك أن عُمير بن الحُبَاب لما انقضى مرْجُ راهِط التحق بزُفرَ بن الحارث الكِلاَبي بقَرْقِيسيا، ثم بايع مَرْوَان وفي نفسه ما فيها بسبَب قَتْل قَيْس بالمَرْج، فلما سار عُبيد الله بن زياد إلى المؤصِلِ كان معه، وقد ذكرنا اتفاقَه مع إبراهيم بن الأشتر وانهزامَه، حتى قُتل عبيد الله بن زياد، وانهزمت جيوشُ الشَّام، فلما كان ذلك أتى عُمَيْر بن الحُباب قَرْقِيسِيا، وصار مع زُفر بن الحارثِ، فجعلا يَطْلُبَان كَلْبًا واليمانيّة بمَنْ قُتلوا مِنْ قَيْس، وكان معهما قومٌ من تَغْلِبَ يقاتلون معهما، ويدلُّونهما، وشُغِل عبد الملك عنهما

(١) الجراجمة: قوم من عجم الجزيرة، أو نبط الشام.

(٢) استجاش عليهم: طلب لهم الجيش وجمعه عليهم. . . (اللسان مادة ج.ي.ش).

بمُصْعَب، وتغلَّب عُمير على نَصِيبين[١]، ثم ملّ المقام بقَرْقيسيا، فاستأْمن إلى عَبْد الملك، فأمَّنه، ثم غدَرَ به فحبسه عند مَوْلاه الريان، فسقاه عُمَير ومَن معه من الحرَسِ خمرًا حتى أسكرهم، وتسلَّق في سُلَّم من الحِبَال، وخرج من الحبس، وعاد إلى الجزيرة، ونزل على نَهْرِ البَلِيخ[٢] بين حَرّان والرقَّة، فاجتمعت إليه قَيْس، فكان يُغير بهم على كَلْب واليمانية، وكان مَنْ معه يُسِيئونَ جِوَارَ تَغْلب، ويسخِّرون مشايخَهم من النصارى، فهاج ذلك بينهم شرًا، إلاَّ أنه لم يبلغ الحَرْبَ. ثم إن عُمَيْرًا أغار على كَلْب، ورجع فنزل على الخَابُور[٣]، وكانت منازلُ تغلب بين الخابور والفُرَات ودِجْلَة، وكانت بحيث نزل عميرة امرأةٌ من تميم ناكحٌ في تَغْلب، يقال لها أُم ذُويل، فأخذ غلامٌ من بني الحَرِيش أصحابِ عُمير عنْزًا من غَنَمها، فشكت ذلك إلى عُمير، فلم يمْنَعْ عنها، فأخذوا الباقي، فمانعهم قَوْمٌ من تَغْلب، فقُتِل منهم رجلٌ يقال له مجاشع التَّغْلبي، وجاء ذُويل فشكت أُمُّه إليه، وكان من فُرْسانِ تغلب، فسار في قَوْمه وجعل يذكِّرهم ما يصنع بهم قيس، فاجتمع منهم جماعةٌ وأمَّرُوا عليهم شُعَيْث بن مُلَيْل التغلبي، فأغاروا على بني الحَرِيش ومعهم قومٌ من نُمَير، فقتَل فيهم التغلبيّون واستاقوا ذَوْدًا لامرأة منهم يقال لها أُمّ الهيْثَم، فمَانَعُهم القَيْسِيّون، فلم يقدِرُوا على منْعهم، فكان بينهم أيامٌ مذكورة نحن نذكرها على سبيل الاختصار: منها:

يوم مَاكِسِين[٤]:

قال: ولما استحكم الشرُّ بين قَيْس وتَغْلب؛ وعلى قَيْس عُمَير، وعلى تغلب شُعيث بن مُلَيل غزا عُمَيْر بني تغلب وجماعتهم بِمَاكِسين من الخَابُور فاقتتلوا قتالاً شديدًا، وهي أول وقعةٍ كانت بينهم، فقُتِل من بني تغلب خمسمائة وقتل شُعَيْث، وكانت رِجْلُه قد قُطعت، فجعل يقاتل حتى قُتل، وهو يقول: [من الرجز]

---

(١) نصيبين: بالفتح ثم الكسر ثم ياء علامة الجمع الصحيح: مدينة على شاطىء الفرات كبيرة تعرف بنصيبين الروم، بينها وبين آمد أربعة أيام أو ثلاثة ومثلها بينها وبين حران، ومن قصد بلاد الروم من حران مر بها. . . (معجم البلدان).

(٢) البليخ: اسم نهر بالرقة.

(٣) الخابور: اسم لنهر كبير بين رأس عين والفرات من أرض الجزيرة ولاية واسعة وبلاد جمة غلب عليها اسمه فنسبت إليه من البلاد قرقيسياء وماكسين والمجدل وعربان. . . (معجم البلدان لياقوت).

(٤) ماكسين: قرية لبني تغلب على شاطىء الفرات.

قـد عـلـمـتْ قـيـس ونـحـن نـعـلـم　　　أنَّ الـفـتـى يـقـتـل وهـو أجـذمُ[١]

ويوم الثَّرْثار الأول:

والثَّرْثار[٢] نهر أصل مَنْبعه شرقي مدينة سِنْجَار يفرغ في دجلة.

قال: لما قُتل من تغْلب بماكَسِينَ منْ قُتِل استمدّت تَغْلب وحَشَدَتْ واجتمعت إليها النَّمر بن قاسط، وأتاها المُجَشِّر بن الحارث الشيباني. وكان من ساداتهم بالجزيرة، وأتاها عُبيْد الله بن زِيَاد بن ظبيان مُنْجِدًا لهم، واستنجد عُمَير تميمًا وأسدًا فلم يُنْجِدْه منهم أحد، فالتقوا على الثَّرْثَارِ، وقد جعلت تَغْلبُ عليها بعد شُعيْث زياد بن هوْبر، ويقال يزيد بن هوْبَر التغلبي، فاقتتلوا، فانهزمت قيس، وقَتَلَتْ تَغْلِبُ منها مقتلةً عظيمة، وبقَرُوا[٣] بطونَ ثلاثين امرأة من بني سُلَيم.

ويوم الثَّرْثَار الثاني:

قال: ثم إنَّ قيسًا تجمَّعتْ واستمدّت، وأتاهم زفَر بن الحارث من قَرْقِيسيا، فالتقوا بالثَّرْثَار، واقتتلوا قتالاً شديدًا، فانهزمت تغلب ومنْ معها.

ويوم الفُديْن:

قال: وأغار عُمير على الفُدين، وهي قَرْيةٌ على الخابور فقَتل منْ بها من بني تَغْلب.

ويوم السُّكَيْر:

وهو على الخابور؛ يسمى سُكَيْر العباس؛ قال: ثم اجتمعوا والتقوا واقتتلوا قتالاً شديدًا، فانهزمت تَغْلب والنَّمر، وهرب عُمَير بن جنْدل، وهو من فرْسان تغلب؛ فقال عُمَيْر بن الحباب[٤]: [من الطويل]

وأفـلـتـنـا يـوم الـسُّـكَـيْـر ابـن جـنْـدلٍ　　　عـلـى سـابـحٍ عُـوج الـلـبـانِ مـثـابـرِ[٥]
ونـحـن كـرَرْنَـا الـخَـيْـل قُـبًّـا شَـوَازِبـا　　　دِقَـاقَ الـهَـوَادِي دَامـيـات الـدَّوابِـرِ[٦]

---

(١) الأجذم: الذي انقطعت يده أو ذهبت أصابعها.
(٢) الثرثار: ماء معروف قبل تكريت.
(٣) بقر البطن: شقه.
(٤) هو عمير بن الحباب السلمي، قتله بنو تغلب بالحشاك ـ وهو إلى جانب الثرثار بالقرب من تكريت ـ في يوم من أيام قيس وتغلب في الإسلام. . . (الأغاني ١١: ٥٥).
(٥) السكير: بليدة صغيرة بالخابور فيها منبر وسوق. . . (معجم البلدان).
(٦) القبب: دقة الخصر وضمور البطن. والشازب: الضامر اليابس.

ويوم المعَارك:

والمعارك بين الحَضْر والعَقِيق من أرْضِ الموصل، اجتمعت تَغْلب بهذا المكان فالتَقَوْا هم وقَيْس، واقتَتلُوا به، فاشتدّ قتالُهُمْ، فانهزمت تغلب، فيقال: إن يوم المعارك والحضْر واحدٌ هزموهم إلى الحَضْر، وقَتَلُوا منهم بشرًا كثيرًا. وقيل: هما يومان، كانا لِقَيْس على تغلب. والتقوا أيضًا بِلِبيّ(١) فوق تَكْرِيت فتناصفُوا، فقَيْس تقولُ: كان الفضْل إليّ، وتغلب تقول: كان لنا.

ويوم الشَّرعَبِيّة:

ثم التقوا بالشرعبِيَّة فكانَ بيْنَهم قِتالٌ شديد كان لتَغْلب على قيس، قُتِل يومئذٍ عمار بن المِهْزَم السلمي. والشَّرْعبِيَّة هذه من بلاد تَغْلب ليست الشرعبيّة التي ببلاد مَنْبج.

ويوم البلِيخ:

والبلِيخ: نهر بين حرَّان والرَّقَّة اجتمعت تَغلب، وسارت إليه، وهناك عُمير في قيْس، فالتقوْا واقتَتلُوا فانهزمت تغلب، وكَثُر القتل فيها وبقرت بطون النساء كما فعلوا يوم الثَّرْثَار. والله أعلم.

ذكر يوم الحشاك(٢)
ومقتلُ عُمَير بن الحُبَاب السلمي وابن هوْبر التغلبي

قال: ولما رأت تغلب إلحاح عُمير بن الحُبَاب عليها جمعت حاضِرها وباديها، وساروا إلى الحشَّاك ـ وهو نهر قريبٌ من الشرْعَبيَّة ـ فأتاهم عُمَير في قيس، ومعه زُفَر بن الحارث الكِلاَبي، وابنه الهُذَيْل بن زُفَر، وعلى تغلب ابن هوْبر، فاقتتلوا عند تَل الحشَّاك أشدَّ قتال حتى جنَّ(٣) عليهم الليل، ثم تفرقوا واقتتلوا من الغَد إلى الليل، ثم تحاجَزُوا وأصبحت تَغْلِب في اليوم الثالث، فتعاقدوا ألا يَفِرُّوا، فلما رأى عُمير جدَّهم وأنّ نساهم معهم قال لقَيْس: يا قوم؛ أرى لكم أن تنصرفوا عن هؤلاء فإنهم مستَقْتلون، فإذا اطمأنُوا وسارُوا وجَّهنا إلى كل قَوْمٍ منهم منْ يُغير عليهم. فقال له

---

(١) اللبي: موضع من أرض الموصل.

(٢) الحشاك: موضع إلى جانب الشرثار بالقرب من تكريت كان فيه أيام بين قيس وتغلب في الإسلام.

(٣) جنّ: ستر.

عبد العزيز بن حاتم بن النعمان الباهلي: قتلْت فُرسانَ قَيْس أمس وأول أمس، ثم مُلِىءِ سحْرك وجبُنْت. ويقال: إن الذي قال هذه المقالة عيينة بن أسماء بن خارجة الفزَاري، وكان أتاه منجدًا، فغضب عليه عُمير ونزل وجعل يقاتل راجلًا وهو يقول:

أنــا عُــمــيــر وأبـــو الـــمـــغـــلـــس قد أحبس القَوْمَ بضَنْك فاحبس(١)

وانهزم زُفَر بن الحارث في اليوم الثالث، فلحق بقَرْقِيسا، وذلك أنه بلغه أن عَبْد الملك عزم على الحركة إليه بقَرْقِيسِيا، فبادَر إليها، وانهزمت قَيْس، وشدّ على عُمَير جميل بن قيس من بني كعب بن زُهيْر فقتله.

ويقال: بل اجتمع على عُمير غِلمان من بني تغلب فرَمَوْهُ بالحجارة وقد أعيا حتى أثخنوه، وكَرَّ عليه ابن هَوْبَر فقتله، وأصابت ابْن هوْبر جراحةٌ، فلما انقضت الحَرْبُ أوصى بني تَغْلب أن يولُّوا أمرهم مرار بن علْقَمَة الزهيري. وقيل: إنّ ابن هَوْبر جُرِح في اليوم الثاني من أيامهم هذه، فأوصى أن يولُّوا مرارًا أمْرَهم، ومات من ليلته، وكان مرار رئيسَهم في اليوم الثالث، فعَبأهم على رايَاتِهم، وأمر كلَّ بني أبٍ أنْ يجعلُوا نساءهم خَلْفَهم، وكان ما تقدّم.

وكَثُرَ القتل يومئذ في بني سُلَيم وغَنِيّ خاصةً، وقُتل مِنْ قَيس أيضًا بَشَرٌ كثير،وبعث بنو تغلب رَأسَ عُمير إلى عَبْدِ الملك بن مَرْوَان؛ فأعطى الوَفْد، وكساهم. فلما صالح عبد الملك زُفَر بن الحارث اجتمع الناس عليه، فقال الأخطل(٢): [من البسيط]

بـنـي أُمـيـة قـد نـاشـلـتُ دونـكـمـو أبـنـاء قـوم هـم آووْا وهُـمْ نَـصَـرُوا
وقـيـس عـيـلان حتَّـى أقبـلـوا رقـصًـا فـبـايـعُـوا لَـكَ قَسْـرًا بـعـدمـا قُـهِـروا
ضجّوا من الحرب إذ عضَّت غَواربَهم وقيس عيلان من أخلاقها الضَّجَرُ(٣)

وكان مقتل عُمير بن الحُبَاب في سنة سبعين كما تقدم.

---

(١) الضنك: الضيق من كل شيء.

(٢) الأخطل: هو غياث بن غوث من بني تغلب من فدوكس ويكنى أبا مالك. مدح بني أمية، مدح معاوية ويزيد ومن بعدهم من خلفاء بني مروان حتى هلك. . . (الشعر والشعراء لابن قتيبة).

(٣) بنو قيس عيلان: بالعين المهملة: قبيلة من مضر، من العدنانية. . . (أنساب العرب للقلقشندي).

ذكر الحرب بعد مقتل عمير بن الحباب السلمي

قال: ولما قُتِل عُمير أتى ابْنُه تميمٌ زُفَر بن الحارث، فسأله الطلب بثأْره، فامتنع فقال له ابنه الهُذَيْل بن زُفَر: والله لئن ظفِرت بهم تَغْلب إنَّ ذلك لعارٌ عليك، ولئن ظَفِرُوا بتَغْلب وقد خذَلْتَهم إنَّ ذلك لأشدُّ، فاستخلف زُفَر على قَرْقِيسْياء أخاه أوْس بن الحارث ووجّه زُفَر خَيْلاً إلى بني فَدَوْكَس، وهم بطنٌ من تَغْلب، فقتل رجالَهم، واستُبِيحت الأموال والنساء حتى لم يَبْقَ منهم غَيْرُ امرأة واحدةٍ استجارت، فأجارها يزيد بن حُمْران، ووجّه ابْنه الهذيل في جيش إلى بني كَعْب بن زُهير، فقتل فيهم قَتْلاً ذَريعًا، وبعث أيضًا مسلم بن ربيعة العُقَيْلي إلى قَوْم من تَغْلِب وقد اجتمعوا بالعقِيق من أرض الموصل، فلما أحَسُّوا به ارتحلوا يريدون عُبورَ دِجْلة، فلما صاروا بالكُحيْل وهو من أرض الموصل في جانب دجلة الغربي، فلحقهم زُفَر بن الحارث به في القيسية، فاقتتلوا قِتالاً شديدًا؛ وترجّل أصحابُ زُفَر كلُّهم، وبقي زُفَر على بغْلة له فقتلهم ليلتَهم وبقَرُوا بطون نساءٍ منهم، وغرق في دِجْلَة أكثر ممن قُتِل بالسيف، وأتى فلُّهم لِبِّى فوجَّه زُفَر ابْنَه الهذيل فأوقع بهم إلاَّ مَنْ هرب فَنَجا، وأسرَ منهم زُفَر مائتين فقتلهم صبْرًا[1]، فقال في ذلك زُفَر: [من الوافر]

ألاَ يـا عـيـن بـكّـي بـانـسـكـاب	وبَـكّـي عـاصـمًـا وابْـنَ الـحُـبـاب
فـإنْ تَـكُ تَـغْـلـبٌ قـتـلَـتْ عُـمَـيْـرًا	ورهـطًـا مـن غَـنـيٍّ فـي الـحـراب
فـقـد أفْـنَـى بـنـي جُـشَـمِ بـن بَـكْـرٍ	ونـمـرَهـمُ فـوارسُ مـن كـلاب
قـتـلْـنَـا مـنـهـمـو مـائـتـيـن صَـبْـرًا	ومـا عـدَلُـوا عُـمَـيْـر بـن الـحُـبـاب

وأُسِر القُطَامِيّ[2] التغلبي في يوم من أيامهم، وأُخذ ماله، فقام زُفَر بأمره حتى ردّ عليه ماله ووصلَه، فقال فيه: [من البسيط]

إنـي وإنْ كـان قَـوْمِـي لـيـس بـيـنـهـمـو	وبـيـن قَـوْمِـك إلا ضـربـة الـهـادي
مُـثْـنٍ عـلـيـك بـمـا أولَـيْـتَ مِـنْ حـسَـنٍ	وقـد تـعـرَّضَ مـنّـي مـقْـتَـلٌ بَـادِي

---

(١) قتله صبرًا: أي حبسه حتى مات.

(٢) القطامي: هو عمير بن شييم من بني تغلب وكان حسن التشبيب رقيقه. وكان يمدح زفر بن الحارث الكلابي وأسماء بن خارجة الفزاري... (طبقات الشعراء).

ذكر خبر يوم البشر[١]

كان سبب هذا اليوم أن عبْد الملك لما استقرّ له الأمْرُ قدم عليه الأخْطَل الشاعر التغلبي وعنده الجَحّاف بن حَكيم السلمي، فقال له عبد الملك: أتعرف هذا يا أخطل؟ قال: نعم، هذا الذي أقولُ فيه: [من الطويل]

ألاَ سائِلِ الجَحّافَ هل هُوَ ثائر ... بقَتْلَى أُصِيبتْ من سُلَيْم وعامِر

وأنشد القصيدة حتى فرغ منها، وكانِ الجَحّاف يأْكل رطبًا فجعل النَّوى[٢] يتساقط مِن يد غيظًا، ثم أجابه فقال: [من الطويل]

بلَى سوْف نَبْكيهمْ بكلِّ مُهنَّدٍ ... ونَنْعَى عُمَيْرًا بالرِّمَاحِ الشَّواجرِ[٣]

ثم قال يا ابْنَ النصرانية؛ ما كنت أظنُّ أنْ تجترىء عليّ بمثل هذا. فأُرعد من خَوْفه، ثم قام إلى عَبْدِ الملك فأمسك ذَيْله، وقال: هذا مقام العائذ بك. فقال: أنا لكَ، ثم قام الجحّاف فمشى وهو يجُرُّ ثوْبه، ولا يعقل، فتلطَّف لبعض كُتّاب الديوان حتى اختلق له عهْدًا على صدقات تغلب وبكْر بالجزيرة، وقال لأصحابه: إنَّ أمير المؤمنين ولأّني هذه الصدقات، فمن أراد اللحاق بي فليفعل.

ثم سار حتى أتى رُصافة هشام، فأعلم أصحابه ما كان من الأخطل إليه، وأنه افتعل كتابًا وأنه ليس له بِوَالٍ، فمن كان يحبُّ أن يغْسِل عني العار وعنْ نفسه فليصْحبْنِي، فإني أقسمْتُ ألاّ أغسل رأسي حتى أُوقع ببني تغلب. فرجعوا عنه غير ثلاثمائة قالوا: نموتُ لموْتك ونَحْيا لحياتك، فسار ليلته حتى أصبح بالرَّحُوب[٤]، وهو ماء لبني جُشَم بن بكر بن تَغْلب، فصادف عليه جماعةً عظيمةً منهم، فقتل منهم مقتلةً عظيمة، وأُسِر الأخطل وعليه عباءةٌ وسخة، وظنَّ الذي أسره أنه عبْدٌ، فسأله عن نفسه، فقال: عَبْد. فأطلقه فرمى بنفسه في جُب، مخافةَ أنْ يراه منْ يعرفه فيقتله، وأسرف الجحاف في القَتْل، وبقرَ البطونَ عن الأجِنّة؛ وفعل أمرًا عظيمًا، فلما عاد عنهم قدم الأخطل على عبد الملك فأنشده: [من الطويل]

لقد أوقع الجحّاف بالبشْر وقْعَةً ... إلى اللّهِ منها المُشْتَكَى والمُعوَّلُ

---

(١) البشر: بكسر أوله وسكون ثانيه: اسم جبل. وقيل: سمي البشر برجل من النمر بن قاسط كان يخفر السابلة يسمى بشرًا.

(٢) النوى: عجم التمر والزبيب ونحوهما أو بذره.

(٣) الرماح الشواجر: المختلفة المتداخلة.

(٤) الرحوب: موضع قريب من البشر من عمل الجزيرة.

فطلب عبد الملك الجحَّاف فهرب إلى الرُّوم، فكان يتردَّدُ فيها، ثم بعث إلى بطانة عبْد الملك من قَيْس، فطلبوا له الأمانَ، فأمَّنه عبد الملك، فلما جاء أَلْزَمه دِيات من قُتل، وأخذ منه الكُفَلاء، فسعى فيها حتى جمعها وأعطاها، ثم تَنَسَّك الجَحَّاف بعْد، وصلُح، ومضى حاجًّا فتعلَّقَ بأستار الكعبة، وجعل يقول: اللهم اغْفِرْ لي، وما أظنُّكَ تَفْعَلُ! فسمعه محمد ابنُ الحنفية، فقال: يا شيخ، قُنُوطُك شَرٌّ من ذنبك.

وقيل: كان سبَب عوْد الجَحَّاف أنَّ مَلك الروم أكرمه وقرَّبه وعرض عليه النصرانية، ويعطيه ما شاء، فامتنع، وقال: ما أتيتُك رغبةً عن الإسلام.

ثم هزم الجَحَّاف صائفة[1] المسلمين، فأخبروا عَبْدَ الملك أن الذي هزمهم الجحَّاف، فأرسل إليه عبد الملك، فأمَّنَهُ، فسار في بلادِ الروم، وقصد البِشْر وبه حَيٌّ من تغلب وقد لبس أكفانَه، وقال: قد جئتُ إليكم أُعطي القَود من نفسي، فأراد شبابُهم قَتْلَه، فنهاهم شيوخُهم، وعفوْا عنه، فحج، فسمعه عبْدُ الله بن عمر وهو يطوف ويقول: اللهم اغفر لي وما أظنك تفعل! فقال ابن عمر رضي الله عنهما: لو كنت الجحاف ما زدتَ على هذا. قال: فأنا الجَحَّاف.

ذكر مسير عبد الملك بن مروان إلى العراق وقتل مُصْعب بن الزبير واستيلاء عبد الملك على العراق

وفي جمادى الآخرة سنة إحدى وسبعين كان مقتل مصعب بن الزبير بن العوام واستيلاء عبد الملك على العراق؛ وسببُ ذلك أنَّ عبْد الملك بن مروان لما قتل عمْرو بن سعيد كما تقدم وضَع السيف على مَنْ خالفه، فصفَا له الشامُ، فلما لم يبْقَ له بالشام مُخَالف أجْمَع المسِيرَ إلى مُصْعَب بن الزبير بالعراق، فاستشار أصحابَه في ذلك، فأشار عليه عمُّه يَحْيَى بن الحكم أنْ يَقْنَع بالشام ويترك ابْنَ الزبير والعراقَ، فكان عَبْدُ الملك يقول: منْ أراد صواب الرأْي فليخالف يحيى. وأشار بعضُهم أن يؤخِّر السَّيْرَ هذا العام، وأشار محمد بن مَرْوان أنْ يُقيم ويبْعث بعْضَ أهله، ويمدّه بالجنود. فأبى إلاَّ المسير. فلما عزم على المسير ودَّع زَوْجتَه عاتكة بنت يزيد بن

(١) الصائفة: الغزوة في الصيف. وبها سميت غزوة الروم؛ لأنهم كانوا يغزون صيفًا اتقاء البرد والثلج. وصائفة القوم: ميرتهم في الصيف.

معاوية، فبكت فبَكَى جوَاريها لبكائها، فقال: قاتل الله كُثَيِّر عزَّة[١]، لكأنَّه يشاهدنا حين يقول: [من الطويل]

إذا مـا أراد الـغَـزْوَ لـم يـثْـنِ هـمَّـهُ حـصَـانٌ عـلـيـهـا عِـقْـدُ دُرٍّ يـزِيـنـهـا
نَـهَـتْـهُ فَـلَـمَّـا لـم تَـر الـنَّـهْـيَ عـاقَـه بكَتْ فبكى مما عَنَاها قَطِينُها[٢]

وسارَ عَبْدُ الملك نَحْوَ العراق، فلما بلغ مُصْعب بن الزبير مسِيرُه وهو بالبصرة أرسل إلى المهلَّب بن أبي صُفَرة وهو يُقاتل الخوارج يستشيره. وقيل: بل أحضره إليه، فقال لمصعب: اعلم أنَّ أهْل العراق قد كاتَبُوا عبْد الملك وكاتبهم فلا تبعدني عنك.

فقال له مصعب: إنَّ أهل البصرة قد أبَوْا أنْ يسيروا حتَّى أجعلَك على قتالِ الخوارج، وهم قد بلغوا سُوقَ الأهْواز، وأنا أكره إذ سار عبْدُ الملك إليّ ألاَّ أسير إليه، فاكْفِنِي هذا الثغر.

فعاد إليهم، وسار مُصْعب إلى الكوفة ومعه الأحنف فتُوفِّي الأحْنَفُ بالكوفة، وأحضر مُصْعب إبراهيم بن الأشْتَر، وكان على الموصل والجزيرة، فجعله على مقدّمته، وسار حتى نزلَ باجُمَيْرَا[٣] قريب أوَانا[٤] فعسْكَرَ هناك، وسارَ عَبْدُ الملك حتى نزل بمسْكِن[٥] على فرسخين أو ثلاثة من عسكر مُصْعب.

وكتب عبد الملك إلى أهْلِ العراق مَنْ كاتبه ومَنْ لم يكاتبه، فجميعهم طلب أصفهان طعْمَةً، وأخفوا جميعهم كُتبَهم عن مُصْعب إلا ابْن الأشتر فإنه أحضر كتابه مختومًا إلى مُصْعب، فقرأه فإذا هو يَدْعُوه إلى نفسه، ويجعل له ولايةَ العراق. فقال له مصعب: أتَدْري ما فيه؟ قال: لا. قال: إنه يعرض عليك كذا وكذا، وإن هذا لما يُرغب فِيه. فقال إبراهيم: ما كُنْتُ لأتقلَّد الغَدْرَ والخيانة، والله ما عند عَبْد الملك من أحَدٍ من الناس بأيْأس منه مني، ولقد كتب إلى جميع أصحابِك مِثْل الذي كَتَب إليّ، فأطِعْني واضْرِبْ أعناقهم. فقال: إذًا لا تناصحني عشائرُهم.

---

(١) هو كثير بن عبد الرحمٰن بن أبي جمعة من خزاعة، وكان رافضيًا. وكان أحد عشاق العرب المشهورين بذلك وصاحبته عزة وإليها ينسب وهي من ضمرة... (طبقات الشعراء).
(٢) القطين: الخدم والأتباع.
(٣) باجميرا: موضع دون تكريت.
(٤) أوانا: بالفتح والنون: بليدة كثيرة البساتين والشجر نزهة، من نواحي دجيل بغداد، بينها وبين بغداد عشرة فراسخ من جهة تكريت وكثيرًا ما يذكرها الشعراء الخلصاء في أشعارهم... (معجم البلدان لياقوت).
(٥) مسكن: موضع قريب من أوانا على نهر دجيل عند دير الجاثليق... (معجم البلدان).

قال: فأوقرهم[١] حَديدًا، وابْعَثْ بهم إلى أبيض كِسْرى، واحْبِسهم هنالك، ووَكِّلْ بهم منْ إن غُلِبْتَ وتفرقَتْ عشائرُهم عنك ضَرَب رقابهم، وإن ظهرْتَ مَنَنْتَ على عشائرهم بإطلاقهم. فقال: إني لفي شغل عن ذلك.

ولما قرب العَسْكَرَان بعث عَبْدُ الملك إلى مُصْعَب يقول: دَعَ الدُّعَاء لأخيك، وأدَعُ الدعاءَ إلى نفسي، ونجعلِ الأمْرَ شُورَى. فأبى مُصْعب إلاَّ السيفَ.

فقدّم عبد الملك أخاه محمدًا. وقدّم المُصْعَب إبراهيم بن الأشتر، فالتقيَا، فتناوَشَ الفريقان، فقُتل صاحِبُ لواءِ محمد، وجعل مُصعب يمدُّ إبراهيم، فأزال محمدَ بن مَرْوان عن مَوْقِفه، فوجَّه عَبْدُ الملك عَبْدَ الله بن يزيد إلى أخيه محمد، فاشتدّ القتال، فقتل مسلم بن عَمْرو الباهلي والد قُتَيْبة، وهو في أصحابِ مُصْعب، وأمَدّ مصعب إبراهيم بعتَّاب بن وَرْقَاء؛ فساء ذلك إبراهيم، واسترجع، وقال: قد قلْت له: لا يمدّني بعتّاب وضُرَبَائِه. وكان عَتَّاب قد كاتب عبْدَ الملك وبايعه، فانهزم عَتَّاب بالناس وصبر ابْنُ الأشتر، وقاتل حتى قُتِلَ، قتله عُبَيْد بن مَيْسَرة مولى بني عُذْرَة[٢]، وحمل رَأْسَه إلى عَبْد الملك.

وتقدَّم أهْلُ الشامِ فقاتلهم مُصْعب، وقال لقَطَن بن عبْد الله الحارثي: قدّم خَيْلَك أبا عثمان. فقال: أكره أن تقتل مذحج في غَيرِ شيء. فقال لحَجّار بن أبْجَر: أبا أسِيد: قَدِّم خَيْلَك. فقال: إلى هؤلاء الأنْتَان! قال: ما نتأخر إليه أنْتن.

وقال لمحمد بن عَبْد الرحمٰن بن سَعِيد: قدم خَيْلَك. فقال: ما فعل أحد هذا فأفْعَلَه. فقال مُصْعَب: يا إبراهيم، ولا إبراهيم لي اليوم! ثم التفت فرأى عُروة بن المغيرة بن شعبة فاستدناه، فقال له: أخْبِرْني عن الحُسَين بن علي كيف صَنَع بامتناعه عن النُّزول على حُكم ابن زِيَاد وعَزْمه على الحرب؟ فأخبره، فقال: [من الطويل]

إنَّ الأُلَى بالطَّفِّ مِنْ آلِ هاشِمٍ ... تأسَّوا فسَنُّوا لِلْكِرَام التأسِّيا[٣]

ثم دنا محمد بن مَرْوان من مُصْعَب، وناداه: أنا ابْنُ عمك محمد بن مروان، فاقْبَلْ أمانَ أمير المؤمنين. قال: أمير المؤمنين بمكة، يعني أخاه عَبْد الله. قال: فإنَّ القومَ خاذِلُوكَ، فأبى ما عَرَض عليه.

---

(١) وقرهم: حمّلهم حملاً ثقيلاً. (٢) بنو عذرة: بطن من العرب عظيم.

(٣) الطف: أرض من ضاحية الكوفة في طريق البرية فيها كان مقتل الحسين بن علي رضي الله عنه وهي أرض بادية قريبة من الريف فيها عدة عيون ماء جارية... (معجم البلدان لياقوت).

فنادى محمد عيسى بن مُصْعب إليه، فقال له مصعب: انظر ما يُريد، فدنا منه، فقال له: إني لكَ ولأبيكَ ناصح، ولكُمَا الأمان. فرجع إلى أبيه فأخبره. فقال: إني أظنُّ القَوْمَ يَفُونَ لك، فإن أحبَبْتَ أنْ تأتيهم، فافعل. قال: لا تَتَحدَّث نِساءُ قريش أنِّي خذلْتُك، ورغِبْتُ بنفسي عنك. قال: فاذهب أنتَ ومَنْ معك إلى عَمّك بمكة، فأخْبِرْه بما صنع أهْلُ العراق ودَعْنِي فإنِّي مقتول. فقال: لا أُخبِرُ قريشًا عنكَ أبدًا، ولكن يا أبتِ الْحَقْ بالبصرة فإنهم على الطاعة، أو الحَق بأمير المؤمنين. فقال مُصْعب: لا تتحدث قريش أني فَرَرْتُ.

وقال لابنه عيسى: تقدّم إذا أحتسبك. فتقدَّم ومعه ناس، فقُتِل، وقُتلوا، وجاء رجل من أهل الشام ليحتزَّ رَأْسَ عيسى، فحمل عليه مُصْعَب فقتله، وشدَّ على الناس فانفرجُوا له، وعاد، ثم حمل ثانية فانفرَجُوا له، وبذل له عَبْدُ الملك الأمانَ، وقال: إنه يعزُّ عليّ أن تُقْتَل، فاقْبَلْ أمَانِي. ولك حُكْمُك في المال والعمل، فأبَى، فقال عبد الملك: هذا والله كما قال القائل: [من الطويل]

ومُدَجّج كَرِهَ الكماةُ نِزَالَه ... لا مُمْعِنٌ هَرَبًا ولا مُسْتَسْلِمُ(١)

ودخل مُصعب سُرَادِقَه(٢) فتحَنَّطَ ورَمَى السرادق، وخرج فقاتل، فأتاه عبيد الله بن زياد بن ظَبْيَان فدعَاه إلى المبارَزَةِ فقال: يا كلب، اغرب، مِثْلي يُبَارِزُ مِثْلَك! وحمل عليه مُصْعَب فضربه على البَيْضة فهشمها وجَرحه، فذهب يعصب رَأْسَه، وترك الناسُ مُصْعبًا وخذلُوه حتى بَقِيَ في سبعة أنفس، وأُثخن بالرمي، وكَثُرتْ فيه الجِرَاحَات، فعاد إليه عُبَيْد الله بن زياد بن ظبيان فضربه مصعب، فلم يصنع شيئًا لضَعْفِه، وضربه ابن ظَبْيان فقتله. وقيل: بل نظر إليه زائدة بن قُدَامة الثقفي فحمل عليه، فطعنه فقال: يا لثاراتِ المختار! فصرعه وأخذ عُبيد الله بن زياد رَأْسَه وحمله إلى عَبْد الملك، فألقاه بين يديه وأنشد: [من الطويل]

نُعاطي الملوكَ الحقّ ما قَسَطُوا لنا ... وليس علينا قَتْلُهم بمحرَّمِ(٣)

فلما رأى عَبْدُ الملك الرأسَ سجد، فقال ابن ظبيان: لقد هممتُ أن أقْتُلَ عبد الملك وهو ساجدٌ فأكون قد قتلْتُ ملكَي العرب، وأرخت الناس منهما، وفي ذلك يقول: [من الطويل]

---

(١) الكميّ: الشجاع المقدام الجريء.

(٢) السرادق: كل ما أحاط بشيء من حائط أو مضرب. أو الفسطاط يجتمع فيه الناس لعرس أو مأتم أو غيرهما.

(٣) قسط: عدل.

هـممتُ ولـم أفعَلْ وكِدْتُ ولَيْتَني فـعـلْـت فـأدمـنـت الـبُـكَـا لأقـاربـه
فـأوْردتـهـا فـي الـنـار بَـحْـر بـن وائـلٍ وألحقتُ مَنْ قَدْ خرَّ شكرًا بصاحبه

وقال عبد الملك: لقد هممت أن أقتل ابن ظبيان فأكون قد قتلت أفْتَكَ الناس بأشجع الناس.

وأمر عبد الملك لابن ظبيان بألْفِ دينار، فقال: لم أقتُلْه على طاعتك، وإنما قتلته بأخي النابي بن زياد، ولم يأْخذ منها شيئًا. وكان النابي قد قطع الطريقَ فقتله مُطَرّف الباهلي صاحب شُرْطَة مُصْعب.

وكان قتلُ مصعب بدَيرِ الجاثَلِيق[١] عند نهر دُجَيْل، وأمر عَبْدُ الملك به وبابْنه عيسى فدُفِنعا، وقال: كانت الحرمةُ بيننا وبينه قديمة، ولكن هذا الملك عقيم.

قال: ثم دعا عَبْدُ الملك جُنْدَ العراق إلى البَيْعَة فبايعوه، وسار حتى دخل الكوفة، فأقام بالنُخَيْلة[٢] أربعين يومًا، وخطب بالناس بالكوفة، فوعد المُحْسِن وتوعَّدَ المسيء، وقال: إن الجامعةَ التي وضعت في عُنق عَمْرو بن سَعِيد عِنْدِي، ووالله لا أضَعُها في عُنق رجل فأنتزعها إلاً صُعَدًا لا أفكها عنه فَكًا، فلا يُبْقينّ امرؤٌ إلاَّ على نفسه، ولا يوبقني[٣] دَمُه. والسلام.

قال عبد الملك بن عُمير: كُنْتُ مع عبد الملك بِقَصْرِ الكوفة حين جيء برَأْسِ مصعب فوُضِعت بين يديه، فرآني قد ارتعدت، فقال لي: ما لك؟ فقلت: أُعيذك بالله يا أميرَ المؤمنين! كنْتُ بهذا القَصْرِ بهذا الموضع مع عُبيد الله بن زياد فرأيت رَأْسَ الحُسين رضي الله عنه بين يديه، ثم كنت فيه مع المختار بن أبي عُبيد فرأيت رَأْسَ عُبَيْد الله بن زياد بين يديه، ثم كنْتُ مع مُصْعَب فيه فرأيْتُ رأس المختار بين يديه، ثم رأيت رأْسَ مُصْعب فيه بين يديك. فقام عبد الملك مِنْ مقامه ذلك، وأمر بهَدْم ذلك الطاق[٤] الذي كُنَّا فيه، وقال عبد الملك بن مَرْوَان: متى تخلف قريش مِثْلَ المصعب! ثم قال: هذا سَيِّدُ شبابِ قريش. فقيل له: أكان يشرُبُ الطِّلا[٥]؟ فقال: لو علم المصعب أنَّ الماءَ يُفْسدُ مروءته ما شربه حتى يموت عَطَشًا.

---

(١) دير الجاثيق: دير قديم البناء رحب الفناء من طسوج مسكن قرب بغداد في غربي دجلة في عرض حربي، وهو في رأس الحد بين السواد وأرض تكريت. . . (معجم البلدان).

(٢) النخيلة: موضع قرب الكوفة.

(٣) أوبق: أهلك، أو حبس، أو ذلّل.

(٤) الطاق: الطوق أو ما يشبهه، والطاق من الجبل وغيره: جزء ناشز يبرزونه، أو الطيلسان، أو ما عطف وجعل كالقوس من الأبنية. .

(٥) الطلا: الخمر.

قال: وبعث عَبْدُ الملك برَأْس مُصْعب إلى أخيه عبد العزيز بن مروان بمصر، فلما رآه وقد قطع السيفُ أنْفَهُ قال: رحمك الله، أمَا واللّهِ لقد كنْتَ مِنْ أحسنهم خلقًا، وأشدهم بأسًا، وأسخاهم نفسًا.

ثم سيَّره إلى الشام فنُصِب بدمشق، وأرادوا أن يَطُوفُوا به في نواحي الشام، فأخذَتْهُ عاتكةُ بنْتُ يزيد بن معاوية زَوْجَة عبد الملك بن مَرْوان، فغسلته وطيّبته ودفَنَتْهُ، وقالت: أما رضِيْتُم بما صنعتم حتى تطوفُوا به المُدُنَ! هذا بَغْيٌ.

وكان عُمْرُ مصعب حين قُتل ستًّا وثلاثين سنة.

ولما بلغ عَبْدَ الله بن خازم مَسِيرُ مُصْعب لقتال عَبْدَ الملك قال: أَمَعهُ عمر بن عبيد الله بن معمر؟ قيل: لا، استعمله على فارس. قال: أَمَعَه المهلَّب؟ قيل: لا، استَعْمَله على الخوارج. قال: أمعه عباد بن الحُصين؟ قيل: لا، استَخْلَفَه على البصْرة. قال: وأنا بخراسان. وأنشد: [من الطويل]

خُـذيـني فـجـرّيـنـي جَـعَـارِ وأبْـشِـري بلَحْمِ امرىء لم يَشْهد اليومَ نَاصِره[1]

قال: ولما قُتل مصعب كان المهلَّبُ يُحارب الأزارقةَ بسُولاَف[2] ثمانية أشهر، فبلغ الأزارقةَ قَتْلُه قبل أنْ يبلغ المهلَّب، فصاحُوا بأصحابِ المهلَّب: ما قولكم في مُصْعب؟ قالوا: أمير هُدًى؛ وهو وَلِيُّنا في الدنيا والآخرة، ونحن أولياؤُه. قالوا: فما قولُكم في عَبْد الملك بن مَرْوان! قالوا: ذلك ابْنُ اللَّعين، نحن نبرأُ إلى الله منه، وهو عندنا أحلّ دَمًا منكم. قالوا: فإن عبد الملك قتل مُصْعبًا، وسيجعلون غَدًا عَبْدَ الملك إمامَكم.

فلما كان الغَدُ سَمِع المهلَّبُ وأصحابه قَتْلَ مُصْعب، فبايع المهلَّب الناسُ لعَبْدِ الملك، فصاح بهم الخوارج: يا أعداء الله، ما تقولون في مصعب؟ قالوا: يا أعداء اللّهِ لا نخبركم. وكرهوا أن يكذِّبوا أنفسهم. قالوا: فما قَوْلُكم في عَبْد الملك؟ قالوا: خَلِيفَتُنَا. ولم يجدُوا بُدًّا إذ بَايَعُوه أن يقولوا ذلك. قالوا: يا أعداء الله؛ أنْتُم بالأمس تَتَبَرَّؤون منه في الدنيا والآخرة، وهو اليوم إمَامُكم، وقد قَتَلَ أميرَكم الذي كنتم تتولَّونه، فأيُّهما المهتدى؟ وأيُّهما المبطل؟ قالوا: يا أعداء اللّهِ، رَضِينا بذاك إذْ كان يتولَّى أمْرَنا ونَرْضَى بهذا. قالوا: لا، والله ولكنكم إخْوَانُ الشياطين وعَبيد الدنيا.

---

(١) جعار: اسم للضبع.

(٢) سولاف: قرية على غربي دجيل من أرض خوزستان.

قال: ولم يَفِ عَبْدُ الملك لأحَدٍ بأصبهان، واستعمل قَطَن بن عَبْد الله الحارثي على الكوفة، ثم عَزَلَه، واستعمل أخاه بِشْر بن مَرْوَان. واستعمل محمد بن عُمير على هَمَذَان، ويزيد بن ورقاء بن رؤيم على الريّ، واستعمل خالد بن عَبْد الله بن خالد بن أسِيد على البصرة. وعاد إلى الشام.

ذكر خبر عبد الملك بن مروان وزفر بن الحارث وما كان بينهما من القتال وانتظام الصُّلْحِ بينهما

قد ذكرنا أن زُفَر بن الحارث لما فَرَّ من مرْج رَاهِط إلى قَرْقِيسياء، واستولى عليها، وتحصَّنَ بها، واجتمعت قَيْس عليه، وكان في بَيْعة عَبْدِ الله بن الزبير وفي طاعته. فلما مات مَرْوَان بن الحكم وولي عَبْدُ الملك كتب إلى أبَان بن عُقْبة بن أبي مُعَيط، وهو على حِمْص، يأمُره أن يَسير إلى زُفَر، فسار إليه، وعلى مقدّمته عَبْد الله بن زَمِيت الطائي، فواقع عبد الله زُفَر قَبْل وصولِ أبَان فَقُتِل من أصحابه ثلاثمائة، فلامَهُ أبَان على عَجَلته، وأقبل أبان فواقع زُفَر فقتل ابنه وكيع ابن زُفَر. فلما سار عَبْدُ الملك إلى العراق لقتال مُصْعب بدأ بقَرْقيسياء، فحضر زُفَر فيها، ونصب عليها المَجَانِيق[1]، فأمر زُفر أن يُنَادى في عسكر عبد الملك: لم نَصَبْتُم المجانيق علينا؟ فقالوا: لنثلم ثُلْمَةً[2] نقاتلكم عليها. فقال زفر: قولوا لهم: فإنا لا نقاتلكم مِن وراء الحيطان، ولكنا نخرج إليكم. وقاتَلهم زُفَر.

وكان خالد بن يزيد بن معاوية مُجدًّا في قتال زُفر، فقال رجُلٌ من أصحابه من بني كِلاَب: لأقولن لخالد كلامًا لا يعودُ إلى ما يصنع. فلما كان الغد خرج خالد للمحاربة فقال له الكلابي: [من الرجز]

مــاذا ابــتــغــاءُ خــالــدٍ وهــمُّــهْ إذْ سُــلِـبَ الــمــلْــك ونــيــكــت أُمُّــه

فاستحيا وعادَ، ولم يَعُد لقتالهم.

وقالت كَلْب لعبد الملك: إنا إذا لقينا زُفر انهزمت القَيْسيّةُ الذين معك، فلا تَخْلِطْهم مَعَنا. ففعل. فكتبت القيسية على نبْلها: إنه ليس يقاتلكم غدًا مُضَري، ورَمَوا النَّبْل إلى زُفَر. فلم أصبح دَعَا ابْنَه الهُذَيْل فقال: اخرج إليهم، فشُدَّ عليهم،

---

(١) المجانيق: واحدتها المنجنيق، وهي آلة من آلات الحصار، ترمى بها الحجارة، وهي مؤنثة وقد تذكر.
(٢) الثلمة: الموضع الذي قد انثلم.

ولا ترجع حتى تضربَ فُسْطَاط[١] عَبْدِ الملك، وأقسم لئن رجع دونَ أنْ يفعَل ذلك ليقْتُلنّه.

فجمع الهُذَيل خَيْلَه، وحمل، فصَبَرُوا قليلاً ثم انكشفوا، وتبعهم الهُذَيل بخَيْله حتى وطئوا أطنابَ الفُسْطَاط، وقطعوا بعضَها، ثم رجعوا. فَقبَّل زُفَر رأسَ ابنِه الهذيل. فقال: والله لو شئت أن أدْخُلَ الفسطاط لفعلت.

قال: وكان رجل من كَلْب يقال له الذيّال يخرجُ فيسبّ زُفَر فيكثر، فقال زفر للهُذَيل ابنه أو لبعض أصحابه: أما تكفيني هذا؟

قال: أنا آتيكَ به، فدخل عَسْكَر عبْدِ الملك ليلاً، فجعل يُنَادي مَنْ يعرف بَغْلاً مِنْ صِفَته كذا وكذا؟ حتى انتهى إلى خِبَاء الرجل. فقال الرجل: رَدّ الله عليك ضالَّتَك. فقال: يا عَبْدَ الله، إني قد أعْيَيتُ، فلو أذِنْتَ لي فاسترحْتُ قليلاً. قال: ادْخُلْ، فدخل، والرجلُ وحْدَه في خِبَائه، فرمى بنفسه، ونام صاحِبُ الخباء، فقام إليه فأيْقَظَه، وقال: والله، لئن تكلمت لأقتلنّك، قُتِلْتُ أو سَلمت، فماذا ينفعك قتلي إذا قُتلتَ أنتَ؛ ولئن سكتّ وجئْتَ معي إلى زُفَر فلك عهْدُ الله وميثاقُه أنْ أردَّك إلى عَسْكَرك بعد أن يَصِلك زُفر ويُحْسِن إليك، فخرجا وهو يُنَادِي: مَنْ دلَّ على بغْلٍ مِنْ صِفَتِهِ كذا وكذا حتى أتى زُفَر. والرجلُ معه، فأعلمه أنَّه قد أمَّنَه، فوهبه زُفَر دَنَانير وحمله على رِحَالِ[٢] النساءِ وألبسه ثيابَهُنَّ، وبعث معه رجالاً حتى دَنَوْا من عسْكَرِ عبد الملك، فنادَوا: هذه جاريةٌ قد بعث بها زُفَر إلى عَبْد الملك، وانصرفُوا!

فلما رآه أهْلُ العسكر عرفوه، وأخبروا عَبْدَ الملك الخبر فضحك، وقال: لا يُبعد اللّهُ رجالَ مَضَر، والله إنَّ قَتْلَهم لذلّ، وإن تَرْكَهُمْ لحسرة. وكفّ الرجل فلم يَعُد يسبُّ زُفَر.

وقيل: إنه هرب من العسكر، ثم أمر عبدُ الملك أخاه محمدًا أن يَعْرِض على زُفَر وابنِه الهُذَيْلِ الأمَانَ على أنفسهما ومَنْ معهما وأن يُعْطَيا ما أحبَّا. ففعل ذلك، فأجابا على أنَّ لزفر الخِيَارَ في بَيْعَته سنةً، وأن يُتْرَك حيث شاء، وألا يُعين عبد الملك على قتالِ ابن الزبير.

---

(١) الفسطاط: بيت يتخذ من الشعر.

(٢) الرحال: جمع الرحل: وهو ما يوضع على ظهر البعير للركوب. أو كل شيء يعد للرحيل من وعاء للمتاع وغيره.

فبينما الرسل تختلف بينهم إذ جاء رجُلٌ من كَلْب، فقال: قد هدم من المدينة أربعة أبراج، فقال عَبْدُ الملك: لا أُصالِحُهُمْ، وزحف إليهم، فهزَمُوا أصحابَه حتى أدخلوهم عَسْكَرهم، فقال: أعْطُوهم ما أرادوا. قال زُر: لو كانَ قَبْلَ هذا لكان أحسن، واستقَرّ الصلحُ على أمَانِ الجميع، ووَضْع الدماء والأموال، وألاّ يبايع عبْد الملك حتى يموت ابن الزُّبَيْر للبَيْعَة التي له في عُنُقه، وأن يُعطى مالاً يقسّمه في أصحابه، وخاف زُفَر أن يَغْدر به عبْدُ الملك كما غَدَر بِعَمْرِو بن سَعِيد، فلم ينزل إليه، فأرسل إليه بقَضِيب النبي ﷺ أمانًا له، فنزل إليه، فلما دخل عليه أجلسه معه على سريرِه، فلما رأى عبد الملك قِلَّةَ مَنْ مَعَ زُفَرَ قال: لو علمْتُ بأنه في هذه القلَّةِ لحاصرْتُه أبدًا حتى نزل على حُكْمِي، فبلغ قَوْلُه زُفَر فقال: إن شئْتَ رجَعْنَا ورجعت. قال: بل نَفِي لك يا أبا الهُذَيْل.

وأمر زُفَر ابْنَه الهذيل أنْ يسير مع عبد الملك إلى قتالِ مُصْعب، وقال: أنت لا عَهْدَ عليك، فسار معه، فلما قارب مصعبًا هرب إليه، وقاتل مع ابن الأشْتَر. فلما قُتل ابْنُ الأشتر اختفى الهذيل في الكوفة حتى استؤمن له من عبد الملك فأمّنه.

قال: وتزوّج مسلمة بن عبد الملك الرّباب بنت زفر فكان يُؤْذَن لإخوتها: الهذيل والكوثر في أول الناس.

وفي هذه السنة، أعني سنة إحدى وسبعين، افتتح عَبْد الملك قَيْسارِيَّةَ في قول الواقدي[1] رحمه الله.

ذكر مقتل عبد الله بن خازم
واستيلاء عبْد الملك على خراسان

ولما قُتل مُصْعَب كان عَبْدُ الله بن خازم يقاتل بَحِير بن وَرْقَاء الصُّريمي التميمي بنيسابور، فكتب عَبْدُ الملك إلى ابْنه خازم يدعوه إلى البَيْعَةِ ويُطْعِمُه خراسان سَبْع سنين، وأرسل الكتاب مع سَوحرة بن أشيم النميري، فقال له ابن خازم: لولا أنْ أُضَرِّب بين بني سُليم وبني عامر لقتَلْتُك، ولكن كلْ كتابَه، فأكله. وقيل: بل كان الكتاب مع سَوَادَة بن عُبَيد الله النميري. وقيل: مع مكمل الغنوي. فقال له ابن

(١) الواقدي: هو أبو عبد الله محمد بن عمر بن واقد الواقدي المدني مولى بني هاشم، وقيل مولى بني سهم بن أسلم؛ كان إمامًا عالمًا له التصانيف في المغازي وغيرها، وله كتاب «الردة» ذكر فيه ارتداد العرب بعد وفاة النبيّ ﷺ. . . (وفيات الأعيان ٤ :٣٤٨).

خازم: إنما بعثك أبو الذِّبَّان لأنكَ مِنْ غَنِيّ، وقد علم أني لا أَقْتُل رَجُلاً من قيس، ولكن كُلْ كتابَه.

وكتب عبد الملك إلى بُكير بن وسّاج، وكان خليفة ابن خازم على مَرْو، بعَهْده على خراسان، ووعدَه ومنَّاه، فخلع بُكير عَبْدَ الله بن الزبير ودعا إلى عبْدِ الملك، فأجابه أهل مَرْو، وبلغ ابْن خازم، فخاف أن يأْتيه بُكير فيجتمع عليه أهْلُ مَرْو وأهل نَيْسابور، فترك بَحِيرًا وأقبل إلى مرْو، فاتبعه بَحير فلحقه بقرية على ثمانية فراسخ من مَرْو، فقاتله، فقُتل ابنُ خازِم، وكان الذي قتله وكيع بن عمرو القُرَيْعي، اعْتَوَره وَكيع وبَحير بن وَرْقَاء وعَمَّار بن عبد العزيز، فطعنوه، فصرعوه؛ وقعد وكيع على صَدْره فقتله، وبعث بَشِيرًا بقَتْلِهِ إلى عَبْد الملك، ولم يبعث برأْسه.

وأقبل بُكير في أهْل مَرْو، فوافاهم حين قتل ابن خازم، فأراد أخْذَ الرأْس وإنفاذه إلى عبد الملك، فمنعه بَحِير فضربه بعمود وحبسه، وسيَّر الرأْسَ إلى عبْد الملك، وذلك في سنة اثنتين وسبعين.

وقيل: بل كان مقْتَله بعد قَتْل عَبْدِ الله بن الزبير، وأنّ عبدَ الملك أنْفَذَ إليه رَأْسَ ابن الزُّبير، ودعاه إلى نفسه فغسله وكفَّنه، وبعثه إلى أهله بالمدينة، وأطعم الرسول الكتابَ، وقال: لولا أنك رَسُولٌ لقتلتك.

وقيل: بل قطع يديه ورجليه وقَتَله، وحلف ألا يطيع عبْد الملك أبدًا. والله أعلم.

ذكر مقتل عبد الله بن الزبير رضي الله عنه وشيء من أخباره

قال: لما قتل مصعب بن الزبير تقدم الحجاجُ بن يوسف الثقفي إلى عبد الملك، فقال: يا أمير المؤمنين، قد رأيت في المنام أني أخذتُ ابْنَ الزبير وسلخْتُه، فابعثني إليه، وَوَلّني حَرْبه، فبَعَثَهُ في أَلْفَيْن، وقيل في ثلاثة آلاف، فسار في جمادى الأُولى سنة اثنتين وسبعين، ونزل الطائف، وكان يَبْعَثُ الخيلَ إلى عَرَفة في الحل بعد الطائف، ويبعث ابنُ الزبير الخَيْل فيقتلون فتنهزم خَيْلُ ابنِ الزبير، وتعودُ خَيْلُ الحجاج بالظَّفَر.

ثم كتب الحجاج إلى عبد الملك يستأْذِنُه في دخول الحرم وحَصْرِ ابن الزبير، ويُخْبِرُه بضَعْفِه وتفرُّقِ أصحابِه، ويستمدّه، فأمدَّه بطَارق بن عَمْرو مَوْلَى عثمان، وكان عَبْدُ الملك قد بعثه في جَيْشٍ إلى وَادِي القُرى ليمنع عمَّالَ ابن الزُّبَيْر من الانتشار،

فقدم المدينة في ذي القعدة سنة اثنتين وسبعين، وأخرج عامِلَ ابْنَ الزبير منها، وجعل عليها رجلاً من أهلِ الشام اسْمُه ثَعْلَبَة، وقدم طارق مكة في ذي الحجة منها في خمسة آلاف، وتقدم الحجَّاجُ إلى مكة، فنزل عند بئر مَيْمون[١]، وحَجَّ بالناس في تلك السنة. إلاَّ أنه لم يَطُفْ بالبَيْتِ، ولا سَعَى بين الصَّفَا والمرْوَة؛ مَنعه عَبْدُ الله بنُ الزبير من ذلك؛ ولم يحجّ ابْنُ الزبير ولا أصحابهُ في تلك السنة. ونصب الحجاج المِنْجَنِيق على أبي قُبَيْس[٢]، ورمَى به الكَعْبَة، فقال عَبْدُ الله بنُ عمر بن الخطاب رضي الله عنهما للحجاج: اتَّق الله واكفُفْ هذه الحجارة عن الناس، فإنك في شَهْرِ حرام في بلدٍ حرام؛ وقد قدمَتْ وفودُ اللّهِ مِنْ أقطار الأرض ليؤدُّوا فريضةَ الله، وقد منعهم المِنجَنِيقُ عن الطَّواف. فكَفَّ حتى انقضى الحج، ثم نادى في الناس: انصرفوا إلى بِلاَدكم، فإنا نعودُ بالحجارة على ابْنِ الزبير المُلْحِد.

قال: وأول ما رمَى الكعبة بالمَنْجَنِيق رعدت السماءُ وبرقَتْ، وعَلاَ صَوْتُ الرَّعْدِ على الحجارة، فأعظم ذلك أهْل الشام وأمسكوا أيديهم، فأخذ الحجاج حجرَ المِنْجَنِيق ووضعه بيدِه ورمى به، فجاءت الصواعِقُ فقتلتْ مِنْ أصحابه اثني عشر رجلاً، فانكسر أهْلُ الشام، فقال الحجاج: يا أهل الشام، لا تُنْكِرُوا هذا، فإني ابْنُ تِهامة، وهذه صَوَاعِقُها، وهذا الفَتْحُ قد حضر، فأبْشِرُوا.

فلما كان الغَدُ جاءت الصاعِقَةُ فأصابت من أصحاب ابْنِ الزبير عدّة. فقال الحجاج: ألا تَرَوْنَ أنهم يُصَابُونَ كما تُصَابُون، وأنتم على الطاعةِ وهم على خِلاَفها، وكان الحَجَرُ يقع بين يدي عَبْدِ الله بن الزُّبير وهو يُصَلِّي، فلا ينصرف عن مكانه.

وغَلَت الأسعارُ عند ابن الزبير حتى ذبح فَرَسَه، وقَسَّم لحْمَه في أصحابه، وبِيْعَت الدجاجةُ بعشرة دراهم والمُدّ الذرة بعشرين درهمًا، وكانت بيوتُ ابن الزبير مملوءةً قمحًا وشعيرًا وذُرة وتمرًا، وكان أهلُ الشام ينتظرون فَنَاءَ ما عنده، فكان لا ينفق منه إلاَّ ما يُمْسِك الرَّمَق ويقول: نفوسُ أصحابي قويّة ما لم تَفْن.

فلما كان قُبَيْل مقْتَله تفرّق الناسُ عنه، وخرجوا إلى الحجَّاج بالأمان، فخرج مِنْ عنده نحو عشرة آلاف. وكان ممن فارقه ابْنَاه حَمْزَة وخبيبُ، أخَذَا لأنْفُسهما أمانًا،

---

(١) بئر ميمون: بمكة، منسوبة إلى ميمون بن خالد بن عامر الحضرمي.. وقيل أن ميمونًا صاحب البئر هو أخو العلاء بن الحضرمي والي البحرين، حفرها بأعلى مكة في الجاهلية... (معجم البلدان لياقوت).

(٢) أبو قبيس: جبل مشرف على مكة.

فقال عَبْدُ الله لابنه الزُّبير: خُذْ لنفسك أمَانًا كما فعل أخَواك، فوالله إني لأُحِبُّ بقاءكم. فقال: ما كنْتُ لأرْغَبَ بنفسي عنك، فقُتِل معه.

قال: ولما كان في الليلة التي قُتِل فيها عَبْدُ الله في صبيحتها جمع قُرَيشًا فقام لهم: ما تَرَوْنَ؟ فقال رجل من بني مخزوم: والله، إنَّا قاتلْنَا معكَ حتى ما نجِدُ مَقْتَلاً، والله لئن سِرْنَا معك ما نَزِيد على أنْ نموت، وإنما هي إحْدَى خصلتين: إما أن تأْذَنَ لنا فنأْخُذَ الأمَانَ لأنفسنا ولك، وإما أن تأْذنَ لنا فنخرج.

فقال له رجل: اكتُبْ إلى عَبْدِ الملك. فقال: كيف أكتب من عَبْدِ الله أمير المؤمنين إلى عَبْدِ الملك بن مروان؟ فوالله لا يَقْبَلُ هذا أبدًا، أو أكتب لعَبْدِ الملك بن مروان أمير المؤمنين. من عبد الله بن الزبير؟ فوالله لأنْ تقعَ الخَضْراء[1] على الغَبْرَاء[2] أهونُ عليّ من ذلك. فقال له عُرْوَة وهو جالس معه على السرير: قد جعل اللّهُ لكَ أُسوةً في الحَسَنِ بن علي رضي الله عنهما، خَلَع نَفْسَه وبايعَ معاوية، فركضه[3] برِجْلِه ورماه عن السرير، وقال: قَلْبِي إذًا مثل قلبك، والله لو قلتُها ما عشتُ إلاَّ قليلاً وإنْ أُضْرَب بسيفٍ في عزٍّ خيرٌ منْ أن أُلْطَم في ذُلٍّ.

فلما أصبح دخل على امرأته أُم هاشم فقال: اصنعي لي طعامًا. فلما صنعَتْه وأتَتْ به لاكَ منه لُقْمة ثم لفَظَها، وقال: اسقُوني لبنًا فسقَوه، ثم اغتسل وتطيّب وتحنَّط، ودخل على أمه، فقال: يا أُماه، قد خذلني الناسُ حتى وَلَدِي وأهلي ولم يبْقَ معي إلاَّ اليسير، والقَوْمُ يعطونني ما أردت من الدنيا، فما رأْيك؟

قالت له: أنْتَ أعلَمُ بنفسك، إن كنْتَ تعلم أنك على حق وأنت تَدْعُو إليه فامْضِ له، فقد قتِل عليه أصحابُك، ولا تمكِّنْ من نفسك يتلعَّبُ بك غِلْمَانُ بني أمية، وإن كنْتَ إنما أردْتَ الدنيا فبئس العَبْدُ أنت، أهلكْتَ نفسك ومَنْ قُتِل معك، وإن قلْتَ: كنْتُ على حَقٍّ فلما وهَن أصحابي ضعُفْتُ، فهذا ليس فِعْلَ الأحرار ولا أهْل الدين، كم خلودُك في الدنيا؟ القَتْلُ أحسن! فقال: يا أُماه، أخاف إنْ قتلني أهْلُ الشام أن يُمَثِّلُوا بي ويصلبُوني. فقالت: يا بني، إن الشاةَ لا تأْلم السلْخَ بعد الذَّبح، فامْضِ على بصِيرتك، واستَعِنْ بالله.

فقَبَّل رأْسها وقال: هذا رأْيي، والذي خرجْتُ به دَاعيًا إلى يومي هذا. ما

---

(١) الخضراء: السماء؛ لونها الأخضر. (٢) الغبراء: الأرض.
(٣) ركضه برجله: ضربه بها.

ركَنْتُ[1] إلى الدنيا، ولا أحببْتُ الحياةَ فيها، وما دَعاني إلى الخروج إلاَّ الغَضَبُ لله، وأن تُستَحَلَّ حُرُماته؛ ولكني أحببت أن أعْلَمَ رَأْيك، فقد زدتني بصيرةً، فانظري فإني مقتولٌ في يومي هذا، فلا يشتدّ حُزْنك، وسَلِّمي لأمْرِ الله، فإنَّ ابْنَك لم يتعمَّد إتْيَانَ مُنْكَرٍ ولا عمَلاً بفاحشة، ولم يَجُرْ في حُكْم الله، ولم يَغْدِرْ في أمان، ولم يتعمَّدْ ظُلْم مُسلم أو مُعَاهَدٍ، ولم يبلغني ظُلْمٌ عن عمّالي، فرضيْتُ به؛ بل أنكرْتُه، ولم يكن شيءٌ آثَر عندي من رِضاء ربي. اللهم إني لا أقولُ هذا تزكيةً لنفسي، ولكن أقُولُه تعزيةً لأمي حتى تَسْلُو عني.

فقالت: إني لأرجو أنْ يكون عَزَائي فيك جَميلاً، إن تقدَّمْتَني احتَسَبْتُك، وإن ظفِرْت سُرِرْت بظَفَرك. اخرج عني حتى أنظُر إلى ما يَصِير أمْرُك، فقال: جزاكِ اللّهُ خيرًا؛ فلا تَدعِي الدعَاءَ لي. قالت: لاَ أدَعُه لك أبدًا، فمن قُتلَ علَى باطلٍ فقد قتلت على حقّ.

ثمّ قالت: اللهم ارْحَمْ طُولَ ذلك القِيَام في الليل الطويل، وذلك النَّحيب والظمَأ في هَوَاجِر مكَّة والمدينة، وبرَّه بأبيه وبي. اللهم قد سلَّمْتُهُ لأمْرِكَ فيه، ورضيتُ بما قضَيْتَ، فأثِبْنِي فيه ثواب الصابرين الشاكرين.

فتناول يَدَها ليقَبِّلها، فقالت: هذا ودَاعٌ فلا تبعَدْ. فقال لها: جِئْتُ مودّعًا، لأني أرَى هذا آخرَ أيامي من الدنيا. قالت: امْضِ على بصِيرتك، وادْنُ مني حتى أُودّعك، فدَنَا منها فعانَقَها، وقبَّلَ بيْنَ عينيها، فوقَعَتْ يدُها على الدِّرع، فقالت: ما هذا صَنِيع مَنْ يُريد ما تُريد! فقال: ما لبِسْتُه إلاَّ لأشدّ مَتْنَك. قالت: فإنه لا يشدُّ متْني، فنزعها، ثم درج كميْه، وشدّ أسفَلَ قميصِه وجُبّة خَز تحت السراويل، وأدخل أسفلها تَحْتَ المنطقة[2]، وأمه تقول: البس ثيابَك مشمَّرةً.

فخرج مِنْ عندها وحمل على أهْلِ الشام حَمْلَةً منكرة، فقَتَل منهم، ثم انكشف هو وأصحابُه، فقال له بعضُ أصحابه: لو لحقْت بموضع كذا. فقال: بئس الشيخ أنا إذًا في الإسلام أنْ أوقعْتُ قومًا فقُتِلوا ثم فَرَرْتُ عن مِثْل مصارعهم.

ودنا أهْلُ الشام حتى امتلأتْ منهم الأبواب، وكانوا يصيحون:

* يـا بْـن ذاتِ الـنِّـطـاقِـيـن لُـؤمـهـا *

فيقول: [من الطويل]

* وتـلـك شـكـاةٌ ظـاهـرٌ عـنـك لـؤمـهـا *

---

(١) ركن إليه: مال إليه وسكن.

(٢) المنطقة: ما يشد به الوسط.

وجعل أهْلُ الشام على أبوابِ المسجد رجالاً، فكان لأهل حِمْص البابُ الذي يواجِهُ باب الكعبة، ولأهل دمشق بابُ بني شَيْبَة، ولأهل الأُرْدُن بابُ الصَّفَا، ولأهل فلسطين باب بني جُمَح، ولأهل قِنَّسْرِين باب بني سَهْم. وكان الحجاج وطارق بناحية الأبْطَح[١] إلى المَرْوَة[٢]، وابنُ الزبير يحمل على هذه الناحية مرةً وفي هذه أُخرى، وكأنه أسَدٌ في أجَمَةٍ ما تُقْدم عليه الرجال وهو يَعْدُو في إثر القوم حتى يحرجهم، ثم يصيح يا أبا صفْوان، ويلُ أمِّه فَتْحًا، لو كان له رجالٌ.

* لــو كـــان قِــرْنِــي واحــدًا كــفَــيْــتُــه *

فيقول أبو صفْوان عبد الله بن صَفوان بن أُمية بن خلف: أي والله وألف.

فقال رجل من أهل الشام اسمه جُلْبوب: إنما يمكنكم أخْذُه إذا ولَّى. قيل: فخُذْه أنْتَ إذا ولَّى. قال: نعم، وتقدّم ليحْضِنَه مِنْ خَلْفه، فعطف عليه فَقَطّ ذِرَاعَيْه فصاح، فقال: اصبر جُلْبُوب.

قال: فلما رأى الحجاج أنَّ الناس لا يُقْدِمون على ابْنه الزبير غضب وترجَّل يسوقُ الناس ويصدم بهم، فصدم صاحب عَلَم ابن الزبير وهو بين يَديه، فتقدَّم ابْنُ الزُّبَيْر على صاحبِ عَلَمه وقاتلهم حتى انكشفوا، ورجع فصلَّى ركعتين عند المقام، فحملوا على صاحِب عَلَمه، فقتلوه عند بابِ بني شَيْبَة، وأخذوا العَلَم. فلما فرغ من صلاتِه تقدم فقاتل بغير عَلَم، وقتل رجلاً من أهل الشام وآخر، وقاتل معه عَبْدُ الله بن مُطيع، وهو يقول: [من الرجز]

أنـــا الـــذي فـــررْتُ يـــوم الـــحـــرَّهْ والـــحُـــرُّ لا يَـــفِـــرُّ إلاَّ مَـــرَّهْ

* والـــيـــوم أجـــزى فَـــرّة بـــكَـــرَّهْ *

وقاتل حتى قُتل، ويقال: أصابته جراحة فمات منها بعد أيام.

قال: وقال عَبْدُ الله بن الزُّبير لأصحابه وأهله يوم قُتِل بعد صلاة الصبح: اكشفوا وُجُوهكم حتى أنظر إليكم وعليكم المَغَافِرُ[٣]، ففعلوا، فقال: يا آل الزبير، لو طِبْتُم لي نفسًا عن أنفسكم كنَّا أهْل بيت من العرب اصطُلِمْنَا في اللّهِ فلا يَرُعْكم وَقْعُ

---

(١) الأبطح: بالفتح ثم السكون وفتح الطاء والحاء مهملة: وهو يضاف إلى مكة وإلى منى لأن المسافة بينه وبينهما واحدة، وربما كان إلى منى أقرب، وهو المحصّب، وهو خيف بني كنانة... (معجم البلدان).

(٢) المروة: جبل بمكة يعطف على الصفا.

(٣) المغافر: جمع المغفر، وهو زرد ينسج من الدروع على قدر الرأس يلبس تحت القلنسوة.

السيوف، فإنَّ ألَم الدواء للجراح أشدّ من ألم وَقْعِها، صونُوا سيوفَكم كما تصونون وجوهكم، غُضُّوا أبصاركم عن البارِقة، وليشغل كلّ امرىء قِرْنه، ولا تسألوا عني، فمن كان سائلاً عني فإني في الرَّعيل الأوّل، احملوا على بَركة الله.

ثم حمل عليهم حتى بلغ بهم الحجُون[1] فَرُمِيَ بآجُرّة، رماه بها رجُلٌ من السَّكون، فأصابتْ وجْههُ فأرعش لها وسال الدَّمُ على وجهه، فقال رضي الله عنه وأرضاه: [من الطويل]

فلَسْنَا على الأعقابِ تَدْمَى كلومُنا ولكن على أعقابنا تَقْطُر الدِّما[2]

وقاتلهم قتالاً شديدًا، فتعاونوا عليه، فقتلوه، قَتَلَهُ رجُلٌ من مُراد، وحمل رَأْسَه إلى الحجاج، فسجد. ووفَد السَّكُوني والمُرَادي إلى عَبْدِ الملك بالخبر؛ فأعطى كل واحدٍ منهما خمسمائة دينار.

وقيل في قَتْله: إنه جاءه حَجَر المِنْجَنِيق وهو يقاتِلُ فصرعه فاقتحم عليه أهْلُ الشام، وذهبوا به إلى الحجّاج فحزَّ رأسه بيده.

وكان مقتله رضي الله عنه في يوم الثلاثاء لثلاث عشرة ليلة بقيت من جُمَادى الأُولى سنة ثلاث وسبعين وقيل في جُمادى الآخرة منها، وله ثلاث وسبعون سنة.

ولما قُتِل رضي الله عنه كبَّرَ أهْلُ الشام فَرَحًا بقتله؛ فقال عَبْدُ الله بن عمر: انظروا إلى هؤلاء. انظرُوا إلى هؤلاء. لقد كبَّرَ المسلمون فرحًا بولادته، وهؤلاء يكبِّرون فَرَحًا بقَتْله.

وبعث الحجاج برأسه ورَأس عبد الله بن صفوان ورأس عُمارة بن عَمْرو بن حَزْم إلى المدينة، ثم إلى عبد الملك وصلب جثَّته منكَّسة على الثنيَّة[3] اليمنى بالحَجُون، فأرسلت إليه أسماء تقول: قاتلكَ اللّهُ! على ماذا صلبتَه؟ قال: استبقْتُ أنا وهو إلى هذه الخشبَة، فكانت له. فاستأذَنَته في تكفينه ودَفْنِه. فأبى.

وكتب إلى عَبْد الملك يُخْبِرُه بصَلْبِه، فكتب إليه يَلُومُه، ويقول: ألا خلَّيْت بينه وبين أُمِّه. فأذِنَ لها الحجاج فدفَنَتْهُ بالحَجُون.

---

(١) الحجون: موضع بأعلى مكة عند مقبرة أهلها.

(٢) الكلوم: جمع الكلم، وهو الجرح.

(٣) الثنية: الطريق في الجبل.

وكان قبل مقْتَله بقي أيامًا يستعمل الصّبر والمِسْكَ لئلا ينْتن إنْ هُو صلب، فلما صُلِب ظهر منه ريحُ المسك، فقيل: إن الحجاج صلَب معه كَلْبًا ميّتًا. وقيل، سِنَّورًا، فغلب على ريح المسك.

ولما قتل عبْدُ الله ركب أخوهُ عُرْوَةُ بن الزبير ناقَةً لم يُرَ مِثْلُها وسار إلى عَبْد الملك فسبق رُسلَ الحجاج، فاستأْذن على عَبْدِ الملك فأذِن له، فلما دخل عليه سلَّم عليه بالخلافة، فرحَّب به وأجلسه معه على السرير، فقال عروة: [من الطويل]

نَمُتُّ بأرحامٍ إليك قريبة ... ولا خير في الأرْحامِ ما لم تُقرب

وتَحَدَّثَ حتى جرى ذِكْرُ عَبْدِ الله، فقال عُرْوَة: إنه كان. فقال عبد الملك: وما فعل؟ قال: قُتِلَ؛ فخرَّ سَاجِدًا. فقال عُرْوَةُ: إن الحجاج صلَبه. فهَبْ جُثَّتَه لأمه. قال: نعم.

وكتب إلى الحجاج فَعَظَّم صَلْبه.

وكان الحجاج لما فقد عُرْوة كتب إلى عبد الملك: إنّ عُرْوة كان مع أخيه. فلما قُتل عَبْدُ الله أخذ مالاً من مالِ اللّهِ وهرب.

فكتب إليه عَبْدُ الملك يقول: إنه لم يهرب، ولكنه أتاني مُبَايِعًا، وقد أمَّنته وحللته مما كان منه، وهو قادِمٌ عليك، فإياك وعُرْوة.

فعاد عُرْوَة إلى مكة فكانت غَيْبتُه عنها ثلاثين يومًا. فأنزل الحجاجُ جُثَّةَ عبْد الله عن الخشبة وبعث بها إلى أُمِّه فغسلته. فلما أصابه الماءُ تقطَّع فغسلته عُضْوًا عضوًا. وصلى عليه عُرْوة وقيل غيره.

وقيل: لم يُصَلِّ عليه أحدٌ؛ منع الحجاجُ من الصلاة عليه.

وكانت أيام ولايته منذ مات معاوية بن يزيد إلى أنْ قُتِل سبع سنين وأيّامًا.

وكان له من الأولاد: عَبْد الله، وحمزة، وخُبَيْب، وثابت، وعبّاد، وقيس، وعامر، وموسى.

وكاتبه زيد بن عَمْرو.

وحاجبه سالم مولاه والله الموفق بمنّه وكرمه.

ذكر نبذة من سيرته
رضي الله عنه وأخباره

كان كثيرَ العبادة إذا سجد وقعت العصافيرُ على ظَهْرِه تظنُّه حائطًا لسكُونِه وطُولِ سجوده. وقال بعض السلف: قَسَّم عَبْدُ الله الدّهْر على ثلاث حالات فَلَيْلَةٌ قائم حتى الصباح، وليلة راكع حتى الصباح، وليلة ساجد حتى الصباح.

وقيل: أول ما عُلم مِنْ همَّتِه أنه كان يَلْعَبُ ذات يوم مع الصِّبْيان وهو صَبِي، فمرَّ رجلٌ فصاح عليهم ففرُّوا، ومشى عَبْدُ الله القَهْقَرَى، وقال للصبيان: اجعلوني أمِيرَكم، وشُدُّوا بِنَا عليه.

ومرّ به عُمَر بن الخطاب رضي الله عنه وهو يلعَبُ مع الصبيان ففرُّوا ووقف هو، فقال له عُمَر: ما منعك أن لا تفرَّ معهم؟ فقال: لم أُجْرِمْ فأخافَك، ولم تكن الطريقُ ضيقةً فأُوسِّعَ لك.

وقال هشام بن عروة: كان أول ما أفصح به عَمِّي عَبْدُ الله بن الزبير وهو صغير السيف، فكان لا يضَعُه مِنْ فيه. فكان الزبير رضي الله عنه يقول: واللّهِ ليكوننَّ لك منه يوم وأيام.

وقال ابن سيرين[1]: قال ابنُ الزبير: ما كان شيء يحدثنا به كَعْب إلا وقد جاء على ما قال إلاَّ قوله: فَتًى ثقيفٍ يقتُلني وهذا رَأسه بين يديّ - يعني المختار -.

قال: لم يشعر ابْنُ الزبير أنَّ الحجاج قد خُبِّيء له. ومر به عبد الله بن عُمَر رضي الله عنهم وهو مصلوبٌ، فقال: يَرْحَمُك الله إن كُنْتَ لصوَّامًا قوّامًا، ولقد أفلحت قريش إن كنتَ شرها.

وكان الحجاج قد صلبه ثم ألقاه في مقابر اليهود، وأرسل إلى أُمِّه يستحضرها، فلم تحضر، فأرسل إليها لتأْتيني أو لأبعثنَّ إليك مَنْ يسحبُك بقُرُونك، فلم تأْتِه فجاء إليها. فقال: كيف رأيتني صنَعْتُ بعَدُوّ الله؟ قالت: رأيتك أفسدْتَ عَلَى ابْنِي دُنْيَاه، وأفسد عليك آخِرتَك؛ وإنَّ رسول الله ﷺ حدثنا أنّ في ثقيف كذّابًا ومُبِيرًا[2]، فأما الكذاب فقد رأيناه تعني المختار، وأما المُبير فأنت.

---

(١) ابن سيرين: هو أبو بكر محمد بن سيرين البصري؛ كان أبوه عبدًا لأنس بن مالك رضي الله عنه، كاتبه على أربعين ألف درهم.. وكان من سبي ميسان، ويقال من سبي عين التمر... روى ابن سيرين عن أبي هريرة وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وعمران بن حصين وأنس بن مالك رضي الله عنهم... (وفيات الأعيان: ١٨١٤).

(٢) المبير: المهلك، أو المفسد.

وقال قَطَن بْنُ عَبْد الله: كان الزُّبير يُفْطِر من الشهر ثلاثة أيام، ومكث أربعين سنة لم ينزع ثَوْبَه عن ظَهْره. وقال مجاهد: لم يكن بابٌ من أبوابِ العبادة يعجز عنه الناسُ إلا تكلَّفه ابن الزبير، ولقد جاء سيْلٌ طبَّق البيْت، فجعل ابْنُ الزبير رضي الله عنه يطوفُ سباحة. وماتت أسماءُ رضي الله عنها بعده بقليل.

انتهت أخبار عبد الله بن الزبير رضي الله عنه، فلنذكر غَيْرَ ذلك مِنْ أخبارِ أيام عبد الملك ونبدأ بتتمَّةِ أخبار الحجاج وما فعل بمكة والمدينة والله أعلم.

ذكر مبايعة أهل مكة عبد الملك بن مروان وما فعله الحجاج من هَدْم الكعبة وبنائها ومسيره إلى المدينة وما فعله فيها بالصحابة رضي الله عنهم

قال: ولما فرغ الحجاجُ من أمْرِ عَبْدِ الله بن الزبير دخل مَكَّةَ فبايَعَهُ أهْلُها لعَبْدِ الملك بن مَرْوان، وأمر بكَنْسِ المسجد الحرام من الحجارة والدم، وهَدم الكعبة في المحرم سنة أربع وسبعين، وأعادها إلى البناء الأول وأخرج الحجر منها، وكان عبد الملك يقول: كذب ابْنُ الزبير فيما رواه عن عائشة رضي الله عنها عَنْ رسولِ الله ﷺ في أمْرِ الحجر، وأنه من البيت. فلما قال له غَيْرُ ابنِ الزبير: إنَّ عائشةَ رضي الله عنها روَتْ ذلك عن رسولِ الله ﷺ قال: ودِدْتُ أني تركْته وما تَحَمَّل.

والكعبةُ في وقتنا هذا على بنائها الذي أعادَهُ الحجاجُ بن يوسف.

قال: ثم سار الحجاج إلى المدينة في سنة أربع وسبعين، وكان عَبْدُ الملك قد عزل طارِقًا عنها، واستعمل عليها الحجاج، فصار معه مكة والمدينة واليمن واليَمامة، فلما قدم المدينة أقام بها شهرًا أو شهرين، فأساء إلى أهلها، واستخف بهم، وقال: أنتُمْ قَتَلةُ أميرِ المؤمنين عثمان، وخَتَم أيْدِي جماعةٍ من الصحابة بالرصاص استخفافًا بهم، كما يُفْعَل بأهلِ الذمَّة، منهم جابر بن عَبْد الله، وأنَس بن مالك، وسَهْل بن سَعْد، ثم عاد إلى مكة مُعْتَمِرًا، وقال حين خرج من المدينة: الحمد لله الذي أخرجني من أُمِّ نَتْن، أهْلها أخبث أهل بلد، وأغَشُّه لأمير المؤمنين، وأحسدهم له على نعمة الله، والله لولا ما كانت تأْتيني كُتُب أمير المؤمنين فيها لجعَلْتُها مثل جَوْفِ الحِمَارِ، أعوداً يعوذُونَ بها، ورِمّة قد بليت، يقولون: منبر رسول الله، وقَبْرُ رسول الله ﷺ.

فبلغ جابرَ بن عَبْدِ الله قولُه، فقال: إن وراءَه ما يسوءه. قد قال فرعون ما قال، فأخذه اللّهُ بعد أن أنْظَره.

وأقام الحجاج بالحجازِ إلى أنْ نقله عَبْدُ الملك إلى ولاية العراق، وذلك في سنة خمس وسبعين على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر أخبار الخوارج
في أيام عبد الملك بن مَرْوان منذ استقلَّ بالأمر

قد ذكرنا أنه لما قُتِل مصعب بن الزبير كان المهلَّب بن أبي صُفْرة يقاتل الخوارج منذ ثمانية أشهر، وذكرنا مقالَتهم لأصحابه حين بلغهم قَتْل مُصْعب، وتبعه عبد الملك، فلما كان في سنة اثنتين وسبعين استعمل عبْدُ الملك خالدَ بن عَبْد الله بن أسِيدٍ على البَصْرَة، فلما قدمها استعمل المهلَّب على خراج الأهواز ومعونتها، وبعث أخاه عَبْد العزيز بن عَبْد الله إلى قِتَالِ الخوارج، وسيَّر معه مقاتل بن مسمع، فخرجا يَطْلُبَان الأزارقة، فأتت الخوارجُ من ناحية كَرْمان[1] إلى دَرَابجْرد[2] وأرسل قَطَرِيّ بن الفُجَاءة المازِني أمير الحج سبعمائة فارس مع صالح بن مخراق، فأقبل بهم حتى استقبل عَبْد العزيز وهو يَسيرُ ليلاً على غير تَعْبئة، فانهزم بالناس، ونزل مقاتل بن مسمع، فقاتل حتى قُتِل.

ولما انهزم عبْدُ العزيز أُخِذت امرأتُه ابنةُ المنذر بن الجارُود، فأُقيمت فيمن يزيد، فبلغت قيمتها مائة ألف، فجاء رجل من قومها كان من رؤُوسِ الخوارج، فقال: تنحّوا هكذا، ما أرى هذه المشركة إلاَّ قد فتَنَتْكم، فضرب عُنُقَها، ولحق بالبصرة، فرآه آلُ المنذر، فقالوا: والله ما ندري أنحمدك أم نذمّك؟ فكان يقول: ما فعلتُه إلاَّ غيرةً وحميّة.

وانتهى عبد العزيز إلى رَامَهرمز، وأتى المهلبَ خَبَرُه، فأرسل إلى أخيه خالد بن عبد الله بخَبَرِ هزيمته، فقال للرسول: كذبت. فقال: إن كنْتُ كاذبًا فاضْرِبْ عُنُقي، وإن كنْتُ صادقًا فأعطني جُبَّتَك ومُطْرَفك[3]. قال: ويحك! قد رضيْت من الخَطَر العظيم بالخَطَر اليسير، ثم حبسه وأحسن إليه لما صَحَّ عنده خبر الهزيمة. وفي هذه

---

(١) كرمان: هي ولاية مشهورة وناحية كبيرة معمورة ذات بلاد وقرى ومدن واسعة بين فارس ومكران وسجستان وخراسان... وهي بلاد كثيرة النخل والزرع والمواشي والضرع تشبه بالبصرة في كثرة التمور وجودتها وسعة الخيرات... (معجم البلدان لياقوت).

(٢) درابجرد: كورة بفارس نفيسة عمرها دراب بن فارس... ودرابجرد أيضًا: محلة من محال نيسابور بالصحراء من أعلى البلد... (معجم البلدان).

(٣) المطرف: رداء أو ثوب من خز مربع ذو أعلام.

الهزيمة وفرار عبد العزيز يقول ابن قَيْس الرقَيَّات[١]: [من الكامل]

عبد العزيز فَضَحْتَ جَيْشَكَ كُلَّهم ... وتركْتَهم صَرْعَى بكلِّ سَبِيلِ
من بين ذي عَطَشٍ يَجُودُ بنَفْسِه ... ومُلَحَّب بين الرجالِ قَتِيلِ[٢]
هلاَّ صبَرْت مع الشهيدِ مُقَاتِلا ... إذْ رُحْت مُنْتَكِثَ القُوَى بأصِيلِ
وتركت جَيْشَك لا أمِيرَ عليهمُو ... فارْجِعْ بعَارٍ في الحياةِ طويلِ
ونسيت عِرْسَك إذ تُقاد سَبِيَّةً ... تبكي العيونَ بِرَنَّةٍ وعَوِيلِ

قال: وكتب خالد إلى عَبْد الملك بالخبر، فكتب إليه يقول: قبَح اللّهُ رَأْيَك حين تبعثُ أخاك أعرابيًا مِنْ أهل مكة على القتال، وتدَعُ المهلب يَجْبِي الخراج، وهو الميمون النَّقِيبة، المُقَاسِي للحَرْبِ، ابنها وابن أبنائها. أرسل إلى المهلب يستقبلهم، وقد بعثْتُ إلى بِشْر بالكوفة أن يمدَّك بجيش، فسِرْ معهم، ولا تعمل في عدوّك برأي حتى يحضره المهلَّب. والسلام.

وكتب عَبْدُ الملك إلى أخيهِ بِشْر، وهو أميرُ الكوفة، يأمره بإنفاذِ خمسة آلاف مع رجلٍ يرْضَاه لقتالِ الخوارج، فإذا قضوا غَزْوَتهم سارُوا إلى الرَّيّ[٣]، فقاتلوا عدوَّهم، وكانوا مَسْلَحة[٤]، فبعث بِشْر عبْدَ الرحمٰن بن محمد بن الأشعث في خمسة آلاف، وكتب عَهْدَه على الرّيّ، وخرج خالد بأهْلِ البَصْرة حتى قدم الأهواز؛ وقدمها عبد الرحمٰن في أهل الكوفة، وجاءت الأزارقة حتى دنوا من الأهواز؛ فعبَّأ خالد أصحابَهُ، وجعل المهلب على ميمنته، وداود بن قَحْذَم من بني قيس بن ثعلبة على مَيْسَرته، ثم زحف خالدٌ إليهم بالناس بعد عشرين ليلة، فرأَوْا من كَثْرَةِ الناس ما هالهم، فانصرفوا على حامية، ولم يقاتلوا؛ فأرسل خالد داودَ بْنَ قَحْذَم في آثارهم، وانصرف عَبْدُ الرحمٰن إلى الرَّيّ، وأقام المهلَّبُ بالأهواز، وانصرف خالد إلى البصْرَة، وكتب إلى عَبْدِ الملك بذلك، فكتب إلى أخيه بِشْر يأْمرُهُ أن يبعثَ أربعةَ آلاف فارس من أهل الكوفةِ مع رجل بصيرٍ بالحَرْبِ إلى فارس في طلب الأزارقة، ويأمر صاحبَه بموافقة داود بن قَحْذَم إن اجتمعا.

---

(١) ابن قيس الرقيات: هو عبيد الله بن قيس أحد بني عامر بن لؤي وإنما سمي الرقيات لأنه كان يشبب بثلاث نسوة يقال لهن جميعًا رقية... (طبقات الشعراء).

(٢) ملحب: قطعة السيف.

(٣) الريّ: بفتح أوله وتشديد ثانيه: هي مدينة مشهورة من أمهات البلاد وأعلام المدن كثيرة الفواكه والخيرات، وهي محط الحاج على طريق السابلة وقصبة بلاد الجبال، بينها وبين نيسابور مائة وستون فرسخًا... (معجم البلدان لياقوت).

(٤) المسلحة: القوم المسلحون في ثغر أو مخفر للمحافظة أو موضع السلاح.

فبعث بِشْر عتَّاب بنَ وَرْقَاء في أربعة آلاف، فساروا حتى لحقوا داود، فاجتمعوا، ثم اتَّبَعُوا الخوارج حتى هلكت خيولُ عامتهم، وأصابهم الجوعُ والجهد، ورجع عامة الجيش مُشاةً إلى الأهواز؛ وذلك في سنة اثنتين وسبعين.

ذكر مقتل أبي فديك الخارجيّ

قد ذكرنا في أخبارِ عَبْدِ الله بن الزبير قَتْل نَجْدَة بن عامر وطاعة أصحابه أبا فُدَيك، فلما كان في سنة اثنتين وسبعين غَلَب أبو فُدَيك على البَحْرَيْن؛ فبعث خالدُ بْنُ عَبْد الله أمِيرُ البصرة أخاه أُمية بن عبْد الله في جُنْد كثيف، فهزمه أبو فُديك، وأخذ جاريةً له، فاتخذها لنفسه، فكتب إلى عبْدِ الملك بذلك، فأمر عَبْدُ الملك عُمرَ بن عُبيد الله بن معمر أن يَنْدب الناسَ من أهل الكوفة والبصرة ويَسِير إلى قِتاله، فانتدب معه عشرة آلاف، وسار بهم، وجعل أهلَ الكوفةِ على الميمنة، وعليهم محمد بن موسى بن طلحة بن عُبيد الله، وأهلَ البَصْرة على الميسرة وعليهم عُمَرُ بن موسى بن عبيد الله بن معمر، وهو ابن أخي عُمر، وجعل خَيْلَه في القَلْبِ، وساروا حتى انتهوا إلى البَحْرَيْن، فالتقوا، واصطفّوا للقتال، فحمل أبو فُدَيْك وأصحابُه حمْلَةَ رجلٍ واحدٍ، فكشفوا ميسرة عُمر حتى أبْعَدُوا إلاَّ المغيرة بن المهلَّب، ومَجَّاعَة بن عبد الرحمٰن، وفُرْسَان الناس؛ فإنهم مالوا إلى صَفِّ أهلِ الكوفةِ بالمدينة، ثم رجع أهلُ الميسرة وقاتلوا واشتد قتالُهم حتى دخلوا عَسْكَرَ الخوارج، وحمل أهلُ الميمنة حتى استباحُوا عسْكَر الخوارج، وقتلوا أبا فُدَيْك، وحَصَرُوا أصحابَه حتى نزلوا على الحكم، فقُتل منهم نحو ستة آلاف، وأُسر ثمانمائة؛ ووجدوا جارية أمية بن عبد الله حُبْلَى من أبي فُدَيك، وعادوا إلى البصرة، وذلك في سنة ثلاث وسبعين.

ذكر ولاية المهلب بن أبي صفرة حرب الأزارقة

في سنة أربع وسبعين أمر عَبْدُ الملك أخاه بِشْرًا، وكان قد أضاف إليه ولايةَ البَصْرة مع الكوفةِ، أنْ يبعَثَ المهلَّب بْن أبي صُفْرَة لحرْبِ الأزَارقة في أهل البصرة، وأن ينتخب مَنْ أراد منهم، وأنْ يتركه في الحرب ورَأْيه، وأمره أن يَبْعَثَ من أهْلِ الكوفة رجُلاً شريفًا معروفًا بالبَأْسِ والنَّجْدة في جيش كثيف إلى المهلَّب، وأن يتتبَّعُوا الخوارجَ حيث كانوا حتى يستأْصلوهم.

فأرسل المهلَّب خَدِيج بن سَعِيد بن قَبيصة، وأمره أن ينتخب الناس من الديوان، وشقَّ على بشر أن إمرةَ المهلَّبِ جاءت من قِبَل عَبْد الملك، وبعث بشر عبد الرحمٰن بن

مِخْنَف على أهل الكوفة، وأغْرَاه بالمهلَّب، وأمره أن يستبدَّ بالأمر، وسار المهلَّب حتى نزل رَامَهُرْمز[١]، فلقي بها الخوارج، فَخَنْدَق عليه، وأقبل أهلُ الكوفةِ حتى نزلوا على ميل من المهلَّب، فلم يلبث العسكر إلاَّ عشْرًا حتى أتاهم نَعْي بِشر بن مرْوان فتفرقوا، وعاد أكْثَرُ أهل الكوفة والبصرة إلى أن قدم الحجاج إلى الكوفة في سنة خمس وسبعين، فأخرج الناس إلى المهلَّب وابن مِخْنَف على ما نذكر ذلك إن شاء الله في أخبار الحجاج حين قدم الكوفَةَ.

ذكر إجلاء الخوارج عن رامهرمز وقتل عبد الرحمٰن بن مِخْنَف

قال: ولما أعاد الحجاج البعوثَ إلى المهلَّب كتب إليه وإلى عَبْد الرحمٰن بن مِخْنَف يأمُرهما بمناهَضَةِ الخوارج رجعوا إليهم وقاتلوهم شيئًا مِنْ قتال، فانزاحت الخوارجُ كأنهم على حاميةٍ، وساروا حتى نزلوا بكازَرُون[٢]، وسار المهلَّب وابن مِخْنَف حتى نزلوا بهم، وخَنْدَق المهلَّب على نفسه، وأشار على ابن مِخْنَف أن يخندق، فقال أصحابه: نحن خندَقُنَا سيوفُنَا، فأتى الخوارجُ المهلَّبَ ليبَيِّتُوه، فوجدوه قد خَنْدَق، فمالوا نحو ابْنِ مخنف، فقاتلوه، فانهزم عنه أصحابُه، فنزل فقاتل في ناسٍ من أصحابه، فقُتِل وقَتَلُوا رجاله، فقال شاعرهم: [من الخفيف]

لمن العسْكَرُ المكلَّلُ بالصَّرْ عى فهُمْ بَيْنَ ميّتٍ وقَتِيلِ
فتراهُمو تَسْفِي الرياحُ عليهمو حاصِبَ الرَّمْلِ بعْدَ جرّ الذُّيُولِ[٣]

هذا قول أهل البصرة في قَتْلِ ابْن مِخْنف.

وأما أهْلُ الكوفة فقالوا: إنه لَمَّا وصل كتابُ الحجاج لمناهضة الخوارج ناهضهم المهلَّب وابن مِخْنَف، واقتتلوا قتالاً شديدًا؛ فمالت الخوارج إلى المهلَّب فاضطرّوه إلى عسكره، فاستنجد عَبْدَ الرحمٰن فأمدَّه بالخيل والرجال، وكان ذلك بعد الظهر لعَشْرٍ بقين من شهر رمضان سنة خمس وسبعين.

---

(١) رامهرمز: مدينة مشهورة بنواحي خوزستان... وهي من بين مدن خوزستان تجمع النخل والجوز والإترنج، وليس ذلك يجتمع بغيرها من مدن خوزستان، وقد ذكر كثير من الشعراء... (معجم البلدان).

(٢) كازرون: بتقديم الزاي وآخره نون: مدينة بفارس بين البحر وشيراز. قيل: هي بلدة عارمة كبيرة، وهي دمياط الأعاجم... (معجم البلدان).

(٣) الذيول: جمع الذيل: وهو أسفل الثوب.

فلما كان بعد العَصْرِ ورأت الخوارج مَنْ يأتي مِنْ عسكر عبد الرحمٰن من الرجال علموا أنه قد خفَّ أصحابُه، فجعلوا بإزاء المهلَّب مَنْ يَشْغله، وانصرفوا بحَدِّهم إلى ابن مِخْنَف، فنزل ونزل معه القُرّاء، منهم أبو الأحوص صاحب ابن مسعود، وخزيمة بن نصر أبو نصر بن خزيمة، ونزل معه من قومه واحدٌ وسبعون رجلاً، وحملت عليهم الخوارجُ فقاتلوا قتالاً شديدًا، وانكشف الناسُ عنه، وبقي في عصابةٍ من أهل الصَّبْر، فقاتلوا حتى ذهب نَحوُ ثلثي الليل، ثم قُتِلَ في تلك العِصَابَةِ.

فلما أصبحوا جاء المهلَّب فصلَّى عليه ودفَنَه، وكتب بذلك إلى الحجاج، فبعث إلى عَسْكَر عبد الرحمٰن عَتَّاب بن ورقاء، وأمرَه أن يسمع إلى المهلَّب، فساءه ذلك، ولم يجد بُدًّا من طاعته، فجاء وقاتل الخوارج؛ ثم وقع بينه وبين المهلَّب كلامٌ أغلظَ كلٌّ منهما لصاحبه، فرفع المهلَّب القضيب على عتَّاب، فوثب المغيرةُ بن المهلب فقبض القضيبَ من يَدِ أبيه وسكته، وأثنى على عتَّاب، وافْتَرَقَا.

فأرسل عَتَّاب إلى الحجَّاج يَشْكُو المهلَّب، ويسأله أنْ يأمر بالعود، فوافق ذلك حاجَةً من الحجاج إليه، فاستقدمه، وأمره أنْ يترك ذلك الجيش مع المهلَّب، فجعل المهلَّب عليهم ابنه حَبيبًا، وقاتلَ المهلَّبُ الخوارجَ على سابور[١]، نحو سنَةٍ بَعْدَ مسير عَتَّاب عنه، وكانت كَرْمَان في يَدِ الخوارج، وفارس في يَدِ المهلب؛ فضاق على الخوارج مكانُهم، فخرجوا حتى أتوا كِرمَان، وتبعهم المهلب حتى نزل بِجيْرَفْت[٢]، وهي مدينة كِرْمَان، فقاتلهم قتالاً شديدًا. ثم أرسل إليه الحجاج البَرَاءَ بْنَ قَبيصة يحثُّه على قتالِ الخوارج، ويأمُره بالجِدّ، وأنه لا عُذْرَ له عنده.

فخرج المهلَّبُ بالعسكر، فقاتل الخوارج مِنَ الغدَاة إلى الظهر، ثم انصرفوا والبراء على تَلّ مُشرِف يَراهم، فأثنى على المهلَّب وعلى أصحابه، وانصرف إلى الحجّاج، وعرّفه عُذْرَ المهلب، ثم قاتلهم المهلَّب ثمانية عشر شهرًا لا يَقْدِرُ منهم على شيء إلى أن وقع بينهم الاختلاف.

ذكر الاختلاف بين الأزارقة ومفارقة قَطَرِيّ بن الفُجاءة إياهم ومبايعتهم عبد ربّ الكبير والحَرْب بينه وبين المهلَّب ومقْتَله

وفي سنة سبْع وسبعين وقع الاختلافُ بين الخوارج، فخلعوا قَطَرِيّ بن الفُجَاءة، وبايعوا عبد ربّ الكبير، واختلف في سبب ذلك، فقيل: إن عاملاً لقَطَرِيّ على ناحية

---

(١) سابور: كورة مشهورة بأرض فارس. (٢) جيرفت: مدينة بكرمان.

كِرْمَان، يدعى المُقَعْطَر الضَّبي، قتل رجُلاً منهم، فوثبت الخوارجُ إلى قَطَري، وطلبوا منه أنْ يقيدهم مِنْ عامله، فلم يَفْعَل، وقال: إنه تأوّلَ فأخْطأ التأويل، وهو من ذَوِي السابقة فيكم، ما أرى أنْ تقتلوه، فاختلفوا.

وقيل: كان السبب في اختلافهم أنَّ رجلاً كان في عسْكَرهم يَعْملُ النصولَ المسمومةَ، فيرمي بها أصحابَ المهلَّب، فشكا أصحابُه منها، فقال: أنا أكفيكموه، فوجَّه رجلاً من أصحابه ومعه كتابٌ، فأمره أن يُلْقِيَه في عسكر قَطَريّ ولا يراه أحَد، ففعل، ووقع الكتابُ؛ إلى قَطريّ، فإذا فيه: أما بعد فإنّ نِصَالَك[1] وصلَتْ، وقد أنفَذْتُ إليك ألْفَ درهم، فأحضر قَطَرِيٌّ الصانَع فسأله. فجحد[2]، فقتله، فأنكر عليه عبد ربّ الكبير قَتْلَه، واختلفوا.

ثم وضع المهلَّب رجلاً نصرانيًا، وأمره أنْ يسجد لقَطَريّ. ففعل. فقال الخوارج: إن هذا قد اتَّخَذَكَ إلَهًا. ووثب بعْضُهم على النَّصْراني فقتَله، فزاد اختلافُهم، ففارق بعْضُهُم قَطَرِيًا وخلعوه، ووَلَّوْا عبد رب الكبير، وبقي مع قَطَريّ منهم نحو رُبعهم أو خُمسهم، واقتتلوا فيما بينهم نَحْوًا من شهر.

وكتب المهلَّب إلى الحجاج بذلك، فكتب إليه الحجاجُ يأمره بقِتَالِهم على حالِ اختلافهم قبل أن يجتمعوا.

فكتب إليه المهلَّب: إني لسْتُ أرَى أن أُقاتِلَهم ما دام يَقْتُلُ بعضُهم بعضًا، فإن تَمّوا على ذلك فهو الذي نُريد، وفيه هلاكهم. وإن اجتمعوا لم يجتمعوا إلاّ وقد رقَّق بَعْضُهم بعضًا فأُناهضهم حينئذ، وهم أهونُ ما كانوا وأضعفهم شَوْكَة إن شاء الله تعالى. والسلام.

فسكت عنه.

ثم إن قَطَرِيًا خرج بمَنْ معه نحو طَبرستان[3]، وأقام عند عبد ربّ الكبير بكَرْمَان، فنهض إليهم المهلَّبُ، فقاتلوه قتالاً شديدًا وحصرهم بِجيْرَفْت، وكرّر قتالَهم وهو لا يبلغُ منهم ما يريد.

---

(١) النصل: حديدة الرمح والسهم والكسين. (٢) جحد الأمر: أنكره مع علمه به.

(٣) طبرستان: بفتح أوله وثانيه، وكسر الراء: هي بلدان واسعة كثيرة يشملها هذا الاسم... فمن أعيان بلدانها دهستان وجرجان واستراباذ وآمل، وهي قصبتها، وسارية، وهي مثلها، وشالوس، وهي مقاربة لها... (معجم البلدان لياقوت).

فلما طال عليهم الحِصار خرجوا من جِيْرفْت بأموالهم وحُرمهم، فقاتلهم المهلَّبُ قتالاً شديدًا حتى عُقِرت الخَيْلُ وتكسّر السلاحُ، وقُتل الفرسان، فتركهم، فساروا؛ ودخل المهلَّب جِيْرَفْت، ثم سار حتى لحقهم على أربعة فراسخ منها، فقاتلهم مِنْ بُكْرَة النهار إلى الظُّهْرِ، ثم كفّ عنهم، فجمع عبدُ رب الكبير أصحابه، وقال: يا معشر المهاجرين؛ إن قَطَريًا ومن معه هربوا، طلب البقاء، ولا سبيل إليه، فالْقَوْا عدوّكم، وهبُوا أنفسكم لله، ثم عاودَ القتال، فاقتتلوا قتالاً شديدًا أنْساهُم ما قَبْله، فتبايع جماعةٌ من أصحاب المهلَّبِ على الموت، وترجّلت الخوارجُ، وعَقَرُوا دوابَّهم، واشتدّ القتالُ، وعَظُم الخَطْبُ حتى قال المهلب: ما مرّ بي يوْمٌ مثل هذا.

ثم هزم اللّهُ الخوارِج، وكَثُر القَتْلُ فيهم، فكان عَدَد القتلى أربعة آلاف، منهم ابن عبد ربّ الكبير، ولم يَنْجُ منهم إلا القليل، وأُخِذَ عسكرهم وما فيه، وبعث المهلَّب إلى الحجاج مُبَشِّرًا. فلما دخل البَشِير إليه أخبره عن الجيْشِ وعن الخوارج وذكر حروبَهم، وأخبره عن بني المهلب، فقال: المغيرة فارسُهم وسيِّدهم، وكفى بيزيد فارسًا شجاعًا، وجوادُهم وشجاعهم قَبيصةُ، ولا يستحي الشجاع أنْ يفرَّ من مُدْرِكِهِ. وعبد الملك سمٌّ ناقع، وحَبيب موتٌ ذُعَاف[1]، ومحمد لَيْثُ غَابٍ، وكفاك بالمفضل نَجْدَة. قال: فأيهم كان أَنْجد؟ قال: كانوا كالحلْقَةِ المُفْرَغَة لا يُعْرَف طَرفها.

فاستحسن قوله: وكتب إلى المهلب يشكره، ويأْمُره أن يولّي كِرْمَان مَنْ يَثِقُ إليه، ويجعل فيها مَنْ يحمِيها، ويَقْدُم عليه، فاستعمل عليها ابْنَه يزيد. وسار إلى الحجاج.

فلما قدم عليه أكْرَمه وأجلَسه إلى جَانِبه، وقال: يأهل العِراقِ. أنتم عَبِيدُ المهلَّب. ثم قال له: أنت كما قال لَقِيط بن يعْمُر[2] الإيادي في صِفَةِ أميرِ الجيوش: [من البسيط]

فـقـلِّـدُوا أمْـرَكـم لِـلّـهِ درُّكـمُـو ... رَحْبَ الذراع بأمْرِ الحَرْبِ مُضْطَلِعَا
لا مُتْرفًا إنْ رَخَاءُ العيشِ ساعَدَه ... ولا إذا عَضّ مكروهٌ به خَشَعا
مُسَهَّدُ النَّوْمِ تَعْنِيه ثُغورُكمو ... يَرُوم منها إلى الأعْدَاءِ مُطَّلَعا

---

(١) الموت الذعاف: السريع.

(٢) هو لقيط بن معمر من إياد وكانت إياد أكثر نزار عددًا وأحسنهم وجوهًا وأمدهم وأشدهم وأمنعهم وكانوا لقاحًا لا يؤدون خرجًا. وهم أول معديّ خرج من تهامة فنزلوا السواد وغلبوا على ما بين البحرين إلى سنداد والخورنق... (طبقات الشعراء لابن قتيبة).

ما انْفَكَّ يَحْلُبُ هذا الدَّهرَ أشْطُرَه … يكون متَّبِعًا طَوْرًا ومتَّبَعا[١]
وليس يشغَلُه مالٌ يُثمِّرُه … عنكم ولا ولد يبْغِي له الرِّفَعا
حتى استمرت على شَزْرٍ مَريرتُه … مستحكم السنِّ لا قَحْمًا ولا ضرَعا[٢]

وأحسن الحجاجُ إلى أهْلِ البَلاَءِ من أصحاب المهلَّب وزادَهم والله أعلم.

ذكر مقتل قطريّ بن الفجاءة وعبيدة بن هلال ومَنْ معهما من الأزارقة

كان مقْتلهم في سنة سبع وسبعين، وذلك أنه لما تشتَّت أمْرُهم بسببِ الاختلاف الذي ذكَرْنَاه، وسار قَطَرِيّ نحو طَبِرسْتَان ندب الحجاجُ سُفْيَان بن الأبْرد في جيشٍ كثيف، فسار، واجتمع معه إسحاق بن محمد بن الأشْعَثِ في جَيْشٍ لأهْل الكوفة بطبرستان، فأقبلا في طَلَبِ قَطَرِي، فأدركوه في شِعْبٍ[٣] من شِعَاب طَبَرسْتَان، فقاتلوه، فتفرَّق عنه أصحابُه، وسقط عن دابته فَتَدَهْدَه[٤] إلى أسفل الشِّعب، وأتاه عِلْجٌ من أهل البلد وهو لا يعرِفُه فقال له قَطَرِيّ: اسْقِني الماءَ. فقال العِلجُ: أعْطِني شيئًا. فقال: ما معي إلا سِلاَحي، وإن أتَيْتَنِي بالماء فهو لَكَ، فانطلق العِلْجُ حتى أشرفَ على قَطَرِي ثم حَدَّر عليه حَجَرًا عظيمًا من فوقه، فأصاب وَرِكَه فأوْهَنه، وصاح بالناس فأقبلوا نحوه.

وجاء نَفَرٌ من أهل الكوفة فقتلوه، منهم سَوْرَة بن أبْجر التميمي، وجعفر بن عبد الرحمٰن بن مخنف، والصباح بن محمد بن الأشعث، وعُمر بن أبي الصلت، وكلُّ هؤلاء ادّعى قَتْلَه، فجاءهم أبو الجَهْم بن كنانة، فقال: ادفعوا رَأْسه إليّ حتى تصطلحوا، فدفعوه إليه، فأقبل به إلى إسحاق بن محمد، وهو على أهْل الكُوفة، فأرسله معه إلى سُفْيَان بن الأبْرد، فبعثه معه إلى الحجاج، فسيَّره معه إلى عبْد الملك، فجعل عطاءه في ألفين؛ ثم سار سُفْيَان إليهم، وأحاط بهم وأميرُهم عُبَيدة بن هلال، فأمر منادِيًا فنادى: مَنْ قتل صاحبه وجاء إلينا فهو آمِن، وحصرهم سُفْيَان حتى أكلوا دوابَّهم، ثم خرجوا إليه، وقاتلوه، فقتلهم، وبعث برؤوسهم إلى الحجاج، وانقرضت

---

(١) حلب الدهر أشطره: خبره وجرّبه.
(٢) القحم: الكبير السن جدًا. والضرع: الضعيف.
(٣) الشعب: انفراج بين الجبلين؛ أو الطريق.
(٤) تدهده: تدحرج.

الأزارقةُ بعد مَقْتَل قَطَرِيّ وعُبَيدة، فكان أولهم نافع بن الأزرق، وآخرهم قَطِري وعُبيدة. واتصل أمرهم بِضْعًا وعشرين سنة، ثم دخل سفيان دُنْبَاوَند[١] وطَبَرِستان، فكان هناك حتى عَزَلَه الحجاجُ قبل الجَماجِم.

هذا ما كان من أمر الأزارقة، فلنذكر منْ سِواهم من الخوارج أيام عبْد الملك.

ذكر خروج صالح بن مسرح التميمي وشَبِيب بن يزيد بن نُعيم الشيباني

قال: كان صالح بن مُسَرِّح التميمي رجلاً نَاسِكًا مُصْفَرّ الوجّهِ صاحبَ عِبادة، وكان بدارًا وأرض الموصل والجزيرة، وله أصحابٌ يُقرئهم القُرْآن والفِقْهَ، ويقصُّ عليهم، فدعاهم إلى الخروج وإنكارِ المظالم وجهادِ المخالفين لهم، فأجابوه إلى ذلك، فبينما هم في ذلك إذْ ورد عليهم كتاب شَبِيب يقول له: إنك كنْت تريدُ الخروج، فإن كان ذلك من شأنك اليوم فأنت شيخُ المسلمين، ولن نَعْدِل بكَ أحدًا، وإن أرَدْتَ تأْخيرَ ذلك فأعلمني؛ فإنَّ الآجالَ غادِيَةٌ ورائحة، ولا آمنُ أن تَخْتَرِمني[٢] المنيَّةُ، ولم أُجاهد الظّالمين.

فكتب إليه صالح: إنه لم يمنعني من الخروج إلا انتظارُك، فاخْرُجْ إلينا، فإنك ممن لا يُسْتَغْنَى عن رأيهِ، ولا تُقْضى دونه الأُمور.

فلما قرأ شَبِيب كتابَه دعا نَفَرًا من أصحابه؛ منهم أخوه مُصَاد بن يزيد، والمُحلَّل بن وائل اليشكري وغيرهم، وخرج بهم حتى قَدِم على صالح بدارا، فلما لقِيه قال: اخرج بنا رَحِمَك الله، فوالله ما تَزْدَادُ السُّنةُ إلاَّ دُرُوسًا، ولا يزدادُ المجرمون إلاَّ طغيانًا.

فبثَّ صالحٌ رُسُلَه، وواعدَ أصحابَه للخروج هلال صفر سنة ست وسبعين، فاجتمعوا عنده ليلةَ الموعد، فسأله بَعْضُ أصحابه عن القتال؛ أيكون قبل الدعاء أو بَعْدَهُ؟ فقال: بل ندعوهم، فإنه أقطع لحُجَّتهم. فقال: كيف ترى فيمن قاتلنا فظفِرنا بهم، ما تقولُ في دمائهم وأموالهم؟ فقال: إنْ قاتلنا فغنمنا فلَنَا، وإن عَفَوْنا فموسَّعٌ علينا.

---

(١) دنباوند: جبل في نواحي الريّ.
(٢) اخترمته المنية: أخذته.

ثم وعظ أصحابَه وأمرهم بأمره، وقال لهم: إن أكثركم رجَّالة، وهذه دوابُّ لمحمد بن مرْوان فابدؤُوا بها، فاحملوا عليها رَاجِلكم وتقوّوا بها على عَدُوِّكم.

فخرجوا تلك الليلة فأخذوا الدوابَّ، وأقاموا بأرض دَارًا ثلاث عشرة ليلة، وتحصَّنَ أهْلُها منهم وأهل نَصِيبين[١] وسِنْجَار[٢]، وكان خروجُه في مائة وعشرين، وقيل: وعشرة.

وبلغ ذلك محمد بن مَرْوَان وهو أمِيرُ الجزيرة يومئذ، فأرسل إليهم عديَّ بن عديّ الكندي في ألفٍ، فسار من حرّان[٣]، وكأنه يُساقُ إلى الموت، وأرسل عديٌّ إلى صالح يسألهُ أن يخرجَ من هذه البلد، ويعلمه أنه يَكْرَهُ قِتَالَهُ. وكان عديٌّ ناسكًا، فأعاد صالح إليه: إن كُنْتَ ترى رأْيَنَا خرجْنَا عنك. فأرسل إليه: إني لا أرَى رأْيَكَ، ولكني أكرَهُ قتالَك وقتالَ غَيْرِك. فقال صالح لأصحابه: اركبوا، فركبوا، وحبس الرسول عنده ومضى. فأتى عَدِيًّا وهو يصلّي الضُّحَى، فلم يشعرُوا إلا والخيلُ قد طلعَتْ عليهم، وهو على غَيْر تعبئة، فحمل عليهم شَبِيب وهو على مَيْمَنة صالح، وسُوَيد بن سُليم وهو على ميسرته؛ فانهزموا، وأُتِي عدِيّ بدابَّته فركبها، وانهزم. وجاء صالح فنزل في معسكره، وأخذَ مَا فِيهِ، ودخل أصحابُ عديّ على محمد بن مَرْوان فغضب على عديّ. ثم دعا خالد بن جَزْء السلمي، فبعثه في ألف وخمسمائة، وبعث الحارث بن جَعْوَنَةَ في ألف وخَمْسِمائِة، وقال: اخرُجا إلى هذه المارِقَة، وأغِذَّا السير، فأيُّكما سبق فهو الأمِيرُ على صاحبه، فخرجا متساندَيْن يسألان عن صالح؛ فقيل: إنه نحو آمِد[٤]، فقصداه، فوجّه صالح شَبِيبًا في شطر من أصحابه إلى الحارث، وتوجّه هو نحو خالد، فالتَقَيا، واقتتلوا وقْتَ العصر أشدّ قتال حتى أمسوا، وقد كثر الجراح في الفريقين، فلما حال بينهما الليلُ خرج صالح وأصحابُه، فساروا حتى قطعوا أرْضَ الجزيرة والموصل، وانتهوا إلى الدَّسْكرة[٥].

---

(١) نصيبين: تقدم تفسيرها ووصفها.

(٢) سنجار: مدينة مشهورة من نواحي الجزيرة، بينها وبين الموصل ثلاثة أيام.

(٣) حرّان: بتشديد الراء وآخره نون: هي مدينة عظيمة مشهورة من جزيرة أقور، وهي قصبة ديار مضر، بينها وبين الرها يوم وبين الرقة يومان، وهي على طريق الموصل والشام والروم... (معجم البلدان).

(٤) آمد: بلد قديم على نشر، ودجلة محيطة بأكثره مستديرة به كالهلال.

(٥) الدسكرة: قرية كبيرة بنواحي نهر ملك.

فلما بلغ خبرهم الحجاج سَرّح إليهم الحارث بن عميرة في ثلاثةِ آلاف من أهل الكوفة، فلقيهم صالح في تسعين رجلاً، وذلك لثلاث عشرة ليلة بقيت من جُمادى الآخرة، فاقتتلوا. فانهزم سُويد بن سُلَيم بميْسَرة صالح، وثبت صالح، فقاتل حتى قُتل، وقاتل شَبيب حتى صُرِع عن فرسِه، فحمل عليهم راجِلاً فانكشفوا عنه، فنادى: إليّ يا معشر المسلمين، فلاذُوا به. فقال لأصحابه: ليجعل كلُّ واحد منكم ظَهْره إلى ظَهْرِ صاحبه، وليطاعِنْ عدوَّه حتى ندخل هذا الحِصْن ونرى رَأْيَنا. ففعلوا ذلك، ودخلوا الحِصن، وهم سبعون رجلاً، وأحاط بهم الحارِثُ، وأحرق عليهم الباب، وقال: إنهم لا يقدِرونَ على الخروج منه. وكانت هذه الوقعة بقرية يقال لها المدَبّج[١].

ذكر بيعة شبيب بن يزيد الشيباني ومحاربته الحارث بن عميرة وهزيمة الحارث

قال: ولما أحرق الحارثُ البابَ على شَبيب انصرف إلى عَسْكَرِه وقال: إنهم لا يَقْدِرُونَ على الخروج منه؛ فنصبّحهم غَدًا فنقتلهم. فقال شبيب لأصحابه: ما تنتظرون؟ فوالله لئن صبّحكم هؤلاء إنّه لهلاكُكُمْ. فقالوا: مُرْنَا بأمرِكَ. فقال: بايِعُونِي أو مَنْ شئتم مِنْ أصحابكم، واخرجوا بنا إليهم، فإنهم آمنون، فبايَعُوه، وأتوا باللبود[٢] فبلُّوها وجعلوها على جَمْر الباب وخرجوا. فلم يشعر الحارثُ إلاّ وهم بينهم بالسيوف، فصُرِعَ الحارث، فاحتمله أصحابُه وانهزموا نَحْوَ المدائن، وحَوَى شَبيب عَسْكَرَهُمْ، فكان ذلك أول جيش هزمه.

ذكر الحروب بين أصحاب شبيب وعنزة

قال: ثم لقي شبيب سلامة بن سيَّار التَّيمي، تيْم شيبَان، بأرض الموصل، فدعاه إلى الخروج معه فشرط عليه سلامة أن ينتخب ثلاثين فارسًا ينطلقُ بهم نحو عَنَزَة[٣] ليُوقع بهم، فإنهم كانوا قتلوا أخاه فَضَالة، وكان فَضَالة قد خرج في ثمانية عشر رجلاً

(١) المدبج: مدينة على تخوم ما بين الموصل والعراق.

(٢) اللبود: جمع اللبد، وهو كل شعر أو صوف متلبد؛ أو ضرب من البسط؛ أو ما يوضع تحت السرج.

(٣) عنزة: اسم قبيلة منسوبة إلى عنزة بن أسد، وسمي عنزة لأنه طعن رجلاً بعنزة، وهي خشبة في رأسها زج... وبنو عنزة، من بني ربيعة بن نزار... (الاشتقاق لابن دريد).

حتى نزل ماءً يقال له الشجرة[١] وبه عَنَزَة نازلون، فنهضت عَنَزَةُ فقتلوه ومَنْ معه وأتوا برؤوسهم إلى عبد الملك فأنزلهم بَانِقْيا[٢]، وفَرَضَ لهم، وكان خروج فضالة قبل خروج صالح، فأجابه شَبِيب فخرج حتى انتهى إلى عَنَزَة، فجعل يَقْتُل المحلة بعد المحلة حتى انتهى إلى فريق منهم فيه خالَتُه قد أكبت على ابنٍ لها وهو غلامٌ حين احتلم، فأخرجت ثَدْيَها إليه وقالت: أنشدك ترحم هذا يا سلامة. فقال: لا والله ما رأيتُ فضالة مذ أناخ بأرضِ الشجرة. لتقومِنّ عنه أو لأجمعنّكما بالرمح، فقامَتْ عنه. فقتَلَهُ.

ذكر مسيرة شبيب إلى بني شيبان وإيقاعه بهم ودخولهم معه

قال: ثم أقبل شَبِيب بخَيْله نحو راذان[٣] فهرب منه طائفةٌ من بني شَيْبَان، ومعهم ناسٌ قليلٌ مِنْ غيرهم، فأقبلوا حتى نزلوا دَيْرًا خرابًا إلى جَنْب حَوْلاَيا[٤]، وهم نحو ثلاثة آلاف، وشَبِيبٌ في سبعين رجلاً أو يزيدون قليلاً، فنزل بهم فتحصَّنُوا منه فجعل أخاه مُصاد بن يزيد يحاصِرُهم، وتوجَّه إلى أُمِّه ليأْخذَها وهو في اثني عشر رجلاً؛ فمرّ في طريقه بجماعة من بني تيم بن شبيان في أموالهم مُقيمين؛ لا يرَون أنَّ شبيبًا يمرُّ بهم. ولا يشعر بمكانهم، فحمل عليهم فقتل ثلاثين شيخًا فيهم حَوْثَرة بن أَسَد، ومضى إلى أُمِّه؛ وأشرف رجُلٌ من الدَّير على أصحاب شَبِيب، فقال: يا قوم؛ بيننا وبينكم القرآن، قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ [التوبة: ٦] فكُفُّوا عنّا حتى نخرجَ إليكم بأمانٍ وتَعْرِضُوا علينا أمركم، فإنْ قبلناه حرُمَتْ عليكم دِمَاؤُنا وأموالُنا، وإن نحن لم نَقْبَلْه ردَدْتموننا إلى مَأمننا، ثم رأيتم رَأْيكم. فأجابوهم فخرجوا إليهم، فعرض عليهم أصحابُ شبيب قولَهم، فقبلوه كلَّه، فنزلوا إليهم، وجاء شَبيب فأُخبر بذلك، فقال: أَصبتُم ووُفِّقْتُم.

---

(١) الشجرة: موضع على ستة أميال من المدينة.

(٢) بانقيا: من نواحي الكوفة.

(٣) رذان: بفتح أوله، وثانيه مخفف، وآخره نون: قرية بنواحي نسا؛ ينسب إليها أبو جعفر محمد بن أحمد بن أبي جعفر عون الرذاني النسوي... (معجم البلدان).

(٤) حولايا: قرية كانت بالنهروان، خربت بخرابه... (المراصد).

ذكر الوقعة بين شبيب وسفيان الخثعمي

قال: ثم ارتحل شَبِيب، وخرج معه طائفة، وأقامت طائفة؛ فسار في أرض الموصل نحو أذْرَبِيجان[١]. وكتب الحجاجُ إلى سفيان بن أبي العالية الخَثْعَمي يأمره بالقُفُول، وكان معه ألفُ فارس يريدُ أن يدخل بها طَبرِسْتَان. فلما أتاه كتابُ الحجاج صالح صاحِب طَبرِسْتَان ورجع، فأمره الحجاج أنْ ينزل الدَّسْكِرَة[٢] حتى يأتيه جيْش الحارث بن عميرَة الهَمْدَاني وتأتيه خَيْل المناظِر، ثم يسير إلى شَبِيب. فأقام بالدَّسْكرَة ونُودِي في جيشِ الحارث: الحرب بالكوفة والمدائن، فخرجوا حتى أتوا سُفْيان، وأتته خَيْل المَنَاظر عليهم سَوْرَة بن أبْجَر التميمي، وكتب إليه سَوْرة بالوقوف حتى يلحقَه، فعجل سفيان في طلب شبيب، فلحقه بِخَانِقِين[٣] وارتفع شبيب عنهم، وأكمن له أخاه مُصَادًا في خمسين رجلاً، ومضى في سَفْح الجبَل، فقالوا: هرب عدُوُّ الله، فاتَّبعوه، فقال لهم عديّ بن عميرة الشيباني: لا تعجلوا حتى تُبْصِرُوا الأرض لئلا يكون قد أكْمَنَ بها كَمِينًا، فلم يلتفِتُوا واتَّبعوه، فلما جازُوا الكَمِينَ عطف عليهم شَبِيب، وخرج أخوه في الكَمِين، فانهزم الناسُ بغير قتال، وثبت سفيان في نحو مائتين؛ فقاتلهم قِتَالاً شديدًا، ثم نجا حتى انتهى إلى بابل مهْروذ[٤] وكتب إلى الحجاج بالخبر، ويعرفه وصولَ الجند إلاَّ سَوْرة بن أبجر فإنه لم يَشْهَد معي القتال.

ذكر الوقعة بين شبيب وسورة

قال: ولما وصل كتابُ سفيان إلى الحجّاج كتب إلى سَوْرة بن أبجر يلومُه ويتهدَّده، ويأمره أنْ ينتخبَ من المدائن خَمْسَمائة فارس ويسِير بهم وبمَنْ معه إلى شبيب، فسار سَوْرَة بهم نحو شبيب، وشبيب في جُوخى[٥]، وسَوْرة في طلبه حتى انتهى إلى المدائن، فتحصن منه وأخذ منها دوابّ وقتل مَنْ ظَهَرَ له، وخرج حتى

(١) أذربيجان: هو إقليم واسع. ومن مشهور مدائنها: تبريز، وهي اليوم قصبتها وأكبر مدنها، وكانت قصبتها قديمًا المراغة؛ ومن مدنها خوي، وسلماس، وأرمية، وأردبيل، ومرند، وغير ذلك... (معجم البلدان).

(٢) الدسكرة: قرية كبيرة بنواحي نهر ملك كمدينة صغيرة على ضفة نهر ملك... والدسكرة أيضًا: قرية بخوزستان.

(٣) خانقين: بلدة من نواحي السواد. (٤) مهروذ: من طساسيج سواد العراق.

(٥) جوخى: نهر عليه كورة واسعة في سواد العراق.

انتهى إلى النَّهْرَوَان[١] فصلُّوا وترحّموا على أصحابهم الذين قتلهم علي رضي الله عنه وتبرءُوا مِنْ عليّ وأصحابه. وبلغ سَوْرَة خَبَرُه، فجمع أصحابه وقال: إن شبيبًا لا يزيد على مائة رجل، وقد رأيت أن أنتخبكم فأسير في ثلاثمائة من شجعانكم وآتيه، فأجابوه إلى ذلك، فسار في ثلاثمائة نحو النَّهْرَوان، وأذكى شَبِيبٌ الحرس، فلما دنا أصحابُ سَوْرَة علموا بهم، فاستَوَوْا على خُيُولهم، وتعبَّئُوا تعْبِئَتهم للحرب؛ فلما انتهى إليهم سَوْرة رآهم قد حذروا، فحمل عليهم فثبتوا له، وصاح شبيب بأصحابه فحملوا عليهم وشبيب يقول: [من الرجز]

مَن يَنِكِ العَيْرَ يَنِكْ نَيَّاكا جَنْدَلَتَانِ اصْطَكَّتَا اصْطِكَاكا[٢]

فرجع سَوْرَة إلى عَسْكَره وقد هُزِم الفُرْسَان وأهلُ القوة، فتحمّل بهم، وأقبل نحو المدائن، فتَبِعه شَبِيب يرجو أنْ يُدْرِكه، فوصل إليهم، وقد دخل الناسُ المدائن، فمرّ على كَلْوَاذَا[٣]، فأصاب بها دوابَّ كثيرة للحجاج، فأخذها ومضى إلى تَكْرِيت، وأرجف الناسُ بالمدائن بوصولِ شَبِيب إليهم، فهرب مَنْ بها من الجند نحو الكوفة، وحبس الحجاجُ سَوْرَة ثم أطلقه.

ذكر الحرب بين شبيب والجزل بن سعيد وقَتل سعيد بن مجالد

قال: ولما قدم الفَلّ[٤] الكوفة سيّر الحجاجُ الجزْلَ بن سعِيد بن شُرَحْبيل الكندي، واسمه عثمان، نحو شَبيب، وأوصاه بالاحتياط وتَرْك العجلة، وأخرج معه أربعة آلاف ليس فيهم أحَدٌ ممن هُزِم، فقدَّم الجَزْل بين يديه عِيَاض بن أبي لِيْنَة الكِنْدي، فساروا في طَلَب شَبِيب وهو يخرجُ من رُسْتَاقٍ[٥] إلى رُسْتاق، يقصِدُ بذلك أنْ يفرِّقَ الجَزْلُ أصحابَهُ فيلقاه وهو على غير تعبئة، فجعل الجَزْل لا يسير إلا على تعبئة، ولا ينزل إلاّ خَنْدَق على نفسه.

---

(١) النهروان: كورة واسعة أسفل بغداد من شرقي تامرا.

(٢) الجندل: مكان في مجرى النهر فيه حجارة يشتد عندها جريان النهر. وفي المثل: «جندلتان اصطكتا»: يضرب للقرنين يتصاولان.

(٣) كلواذى: وهي طسوج قرب مدينة السلام بغداد... وهي الآن خراب أثرها باق بينها وبين بغداد فرسخ واحد للمنحدر... (معجم البلدان).

(٤) الفل: المنهزمون.

(٥) الرستاق: كل موضع فيه مزارع وقرى، ولا يقال ذلك للمدن كالبصرة وبغداد... (مقدمة معجم البلدان لياقوت).

فلما طال ذلك على شبيب دعا أصحابَه وكانوا مائةً وستين رجلاً، ففرّقهم أربَعَ فرق كل فرقة أربعين، فجعل أخاه مُصَادًا في أربعين، وسويد بن سُليم في أربعين، والمحلَّل بن وَائِل في أربعين، وبَقِي هو في أربعين. وأتته عيونُه، فأخبروه أن الجَزْل يريد يَزْدَجِرْد، فسار شَبِيب، وأمر كلَّ رأس من أصحابه أنْ يأْتِيَ الجزْل من جهة ذكرَها له، وقال: إني أُريد أن أُبَيِّتَهُ، فسار أخوه فانتهى إلى دَيْر الخرّارة[١]، فرأى للجَزْل مَسْلَحة مع ابن أبي لِيْنَة، فحمل عليهم مُصاد فيمن معه، فقاتلوه ساعةً، ثم اندفعوا بين يديه، وقد أدركهم شَبِيب، فقال: اركبوا أكتافَهم لتَدْخُلوا عليهم عسكَرَهم إن استطعتُمْ.

فاتبعوهم فانتَهوا إلى عسكرهم، فمنعهم أصحابُهم من دخول خَنْدقِهِمْ، وكان للجَزْلِ مسالح أُخرى فرجعَتْ، فمنعهم من دخولِ الخَنْدق، وجعل شَبِيب يَحْمِلُ على المسالح حتى اضطرهم إلى الخَنْدَق، ورشقهم أهْلُ العسكر بالنَّبْلِ. فلما رأى شَبِيب أنه لا يصل إليهم سار عنْهُم وتركهم، ثم نزل هو وأصحابه فاستراحوا، ثم أقْبَل بهم راجعًا إلى الجَزْل، فأقبلوا وقد أدخل أهْلُ العسكر مسالِحَهم إليهم وأمِنُوا، فما شعروا إلاَّ بوَقْعِ حَوَافِرِ الخَيْل، فانتهوا إليهم قَبْلَ الصبح، وأحاطوا بعسكرهم من جهاته الأربع، ثم انصرف شَبِيب وتركهم، ولم يظفَرْ بهم، فنزل على ميل ونصف، ثم صلَّى الغَدَاة وسار نحو جَرْجَرَايا[٢]، وأقبل الجَزْل في طلبهم على تعبئتهِ، وسار شَبِيب في أرض الجُوخى وغيرها، فطال ذلك على الحجَّاج، فكتب إلى الجَزْل يُنْكِر عليه إبطاءه ويأْمُره بمناهضتهم، فجدَّ في طلبهم وبعث الحجاجُ سعيدَ بن المجالد على جَيْش الجَزْل، وأمره بالجِدِّ في قتال شَبِيب وتَرْكِ المطاولة، فوصل سعِيد إلى الجَزْل وهو بالنَّهْرَوَان وقد خَنْدَق عليه، فقام في العسكر ووبَّخَهُم وعجزهم.

ثم خرج، وأخرج معه الناس، وضمّ إليه خيولَ أهل العسكر ليسير بهم جريدة[٣] إلى شبيب ويترك الناس مكانَهم، فنهاه الجزْل عن ذلك، فلم يَنْتَه ولم يرجع إليه، وتقدّم ومعه الناس، وأخذ شبيب إلى قَطِيطيا، فدخلها وأغلق الباب، وأمر دُهْقَانَها أن يُصْلح لهم غداء، فلم يتهيّأ الغداء حتى أتاه سعيد في ذلك الجيش، فأعلم الدّهْقَان شَبِيبًا، فقال: لا بأْس، قَرِّب الغداء، فقرَّبه فأكل وتوضَّأ وصلَّى ركعتين،

---

(١) الخرارة: موضع قرب السيلحون من نواحي الكوفة.

(٢) جرجاريا: بلد من أعمال النهروان الأسفل بين واسط وبغداد من الجانب الشرقي.

(٣) الجريدة: خيل لا رجالة فيها.

وركب بَغْلاً، وخرج إلى سَعيد وهو على باب المدينة فحمل عليهم، وقال: لا حُكْم إلا للحكم، فهزمهم وثبت سعِيد، ونادى أصحابه، فحمل عليه شَبِيب، فضربه بالسيف فقتله، فانهزم ذلك الجيش، وقَفَلوا حتى انتهوا إلى الجَزْل، وكان قد وقف في بقيَّة العَسْكَرِ، فناداهم: أيها الناس، إليّ إليّ، وقاتل قِتَالاً شديدًا حتى حُمِل جريحًا، وقَدم المنهزمون الكوفة.

وكتب الجَزْل إلى الحجاج بالخبر، وأقام بالمدائن، فكتب إليه الحجاجُ يشكره ويُثْني عليه، وأرسل إليه نفَقةً ومَنْ يُدَاوي جِرَاحه، وسار شبيب نحو المدائن فعلم أنه لا سبيلَ إلى أهلها؛ فأقبل حتى أتى الكَرْخ[1]، فعبر دجْلَة إليه، وأرسل إلى أهل سُوق بغداد فأمّنهم، وكان يَوْم سوقهم، واشترى أصحابُه دوابَّ وغيرها.

ذكر مسير شبيب إلى الكوفة

قال: ثم سار شَبِيب إلى الكوفة فنزل عند حَمّام[2] عُمر بن سعد، فلما بلغ الحجاج مكانه بعث سُوَيْد بن عبد الرحمٰن السَّعْدِي في أَلْفَي رجل، وقال له: الْقَ شَبِيبًا فإن استطرد لكَ فلا تَتْبعْه. فخرج وعسْكَرَ بالسبَخَةِ[3]، فبلغه أنّ شبيبًا قد أقبل، فسار نحوه وأمر الحجاج عثمان بن قَطَن فعَسْكَرَ بالناس في السَّبَخَة، فبينا سُوَيْد يُعبىء أصحابَه إذ قيل له: أتاك شَبِيب؛ فنزل ونزل معه جُلُّ أصحابه، ثم أُخبر أنه قد عَبَر الفراتَ وهو يُرِيد الكوفةَ من وجْهٍ آخر، فركب هو ومنْ معه، وسارُوا في آثارهم، وبلغ منْ بالسبَخَة إقبالُ شَبِيب فهمُّوا بدُخولِ الكوفة، ثم قيل لهم: إن سُوَيْدًا في آثارهم قد لحقهم وهو يقاتِلُهم، فثبتوا، وحَمل شَبِيب على سُوَيد ومَنْ معه حملةً منكرة، ثم أخذ على بُيوتِ الكوفة نحو الحيرة، وذلك عند المساء، وتَبِعه سُوَيد إلى الحيرة، فرآه قد ترك وذهب، فتركه سُوَيد وأقام حتى أصبح. وأرسل إلى الحجاج يُعْلمه الخبر.

ذكر محاربة شبيب أهل البادية

قال: وكتب الحجاجُ إلى سُويد يأْمُرُه باتباعه، فاتَّبعه، ومضى شبيب حتى أغار أسفل الفرات على مَنْ وجد مِنْ قومه، وارتفع إلى البر فأصاب رجالاً من بني

---

(١) الكرخ: كانت الكرخ أولاً في وسط بغداد والمحال حولها، فأما الآن فهي محلة وحدها مفردة في وسط الخراب وحولها محال إلا أنها غير مختلطة بها. . . (معجم البلدان).

(٢) موضع في طريق الحاج بالكوفة. (٣) موضع بالبصرة.

الوِرْثَة[١]، فقتل منهم ثلاثة عشر رجلاً، منهم: حنْظَلة بن مالك، ومالك بن حَنْظَلة، ومضى حتى أتى بني أمية على اللَّصَف[٢]، وعلى ذلك الماء الفَزْر بن الأسود، وهو أحَدُ بني الصلت، وكان ينهى شَبِيبًا عن رأيه، وكان شبيب يقول: لئن ملكت سبْعَةَ أعِنَّة لأغْزَوَنَّ الفَزر، فلما بلغهم خَبَر شبيب ركب الفَزْر فرسًا، وخرج مِن البيوت وانهزم. فرجع شَبِيب، وقد أخاف أهل البادية، فأخذ على القُطْقُطَانة[٣] ثم على قَصْر بني مقَاتل، ثم على الأنبار، ومضى حتى دخل دَقُوقَاء[٤]، ثم ارتفع إلى أداني أذْرَبِيجان، فلما أبْعَد سار الحجاجُ إلى البصرة، واستَخْلَف على الكوفة عُرْوة بن شعبة، فأتاه الخبر بإقبالِ شبيب نحو الكوفة، فكتب إلى الحجاج بذلك، فأقبل من البَصْرة مجدًّا نحو الكوفة فسابق شبيبًا إليها.

ذكر دخول شبيب الكوفة

قال: وأقبل شَبِيب إلى الكوفة فسابقَ الحجاج إليها، فَطَوى الحجاجُ المنازل، فوصل الكوفة صلاةَ العصر، ونزل شبيب السَّبَخَة صلاةَ المغرب، فأكلوا شيئًا ثم ركبوا خيولَهم فدخلوا الكوفة وبلغوا السُّوقَ، وضرب شبِيب بابَ القصر بعَمُوده، فأثَّر فيه أثرًا عظيمًا، ووقف عند المصطبة[٥]، ثم قال: [من الكامل]

عَـبْـدٌ دَعِـيٌّ مِـن ثَـمـودٍ أصْـلُـهُ لا بـل يُـقـال أبـو أبـيـهـم يـقْـدُمُ

يعني الحجاج، فإنّ بعضَ الناسِ يقول: إن ثقيفًا بقايا ثمود، ومنهم من يقول: هم من نَسْل يقْدُم الزيادي.

ثم اقتحموا المسجد الأعظم، وكان لا يفارِقه قوم يصلُّون فيه، فقتلوا عقيل بن مُصْعب الوادعيّ، وعديّ بن عمْرو الثقفي، وأبا ليث بن أبي سُليم؛ ومرُّوا بدار حَوْشب وهو على الشُّرط ـ فقالوا: إن الأمير يطلُبُه، فأراد الركوبَ، ثم أنكرهم فلم يخرج إليهم، فقتلوا غلامَه. ثم مرُّوا بمسجد بني ذُهْل، فرأوا ذُهْل بن الحارث فقتلوه، ثم خرجوا من الكوفَة، فاستقبلهم النَّضر بن القَعْقَاع بن شَوْر الذُّهْلي، وكان

---

(١) بنو الورثة: بطن من العرب نسبوا إلى أمهم.
(٢) اللصف: بركة في غربي طريق مكة.
(٣) القطقطانة: موضع قرب الكوفة من جهة البرية بالطف.
(٤) دقوقاء: بلدة بين إربل وبغداد.
(٥) المصطبة: بناء غير مرتفع يجلس عليه.

قد أقبل مع الحجاج مع البَصْرة، فتخلَّف عنه فقتلوه، ثم خرجوا نحو المَرْدَمَة[١]، وأمر الحجاج مُنَاديًا فنادى: يا خيل الله اركبي؛ فأتاه الناس مِنْ كل جانب، فبعث بِشْر بن غالب الأسدي في أَلْفَي رجل، وزائدة بن قُدامة الثقفي في ألفي رجل، وأبا الضُّرَيْس مَوْلى بني تميم في أَلْفَي رجل، وعبد الأعلى بن عبْد الله بن عامر، وزياد بن عمْرو العَتَكِي، وسَيَّرَ معهم محمد بن موسى بن طلحة بن عبيد الله، وكان عبد الملك قد استعمله على سجستان، وكتب إلى الحجاج أن يُجَهِّزَه، فقال له الحجاج: تَلْقَى شبيبًا فتجاهده[٢]، فيكون الظَّفَرُ لك، ويظهر اسمك ثم تمضي إلى عملك.

وقال الحجاج لهؤلاء الأمراء: إن كان حَرْبٌ فأميرُكم زائدة بن قُدَامة. فساروا فنزلوا أسفل الفرات، فترك شبيب الوَجْهَ الذي هم فيه وأخذ نحو القادِسِيّة.

ذكر محاربة شبيب زحر بن قيس وهزيمة جيش زَحْر

قال: ووَجَّه الحجاجُ جريدةً[٣] خَيْلٍ اختارهُمْ ألف وثمانمائة فارس مع زَحْر بن قيس، وقال له: اتبع شبيبًا حتى تواقِعه أين أدْركْتَه إلا أن يكون ذاهبًا فاتْرُكْه ما لم يعطِفْ عليك؛ فخرج زَحْر حتى انتهى إلى السَّيْلَحِين[٤]، وأقبل شَبِيب نحوه فالْتَقَيا، فجمع شبيب خَيْلَهُ، ثم اعترض بهم الصفَّ حتى انتهى إلى زَحْر، فقاتل زَحْر حتى صُرِع، وانهزم أصحابهُ وظنُّوا أنهم قتلوه، فلما كان السَّحَر قام يمشِي حتى دخل قريةً فبات بها، وحُمِل منها إلى الكوفة وبوَجْهِه ورأْسِه بِضع عشرةَ جراحة، فمكث أيامًا. ثم أتَى الحجاج فأجلسه معه على السرير، وقال: مَنْ أراد أن يَنْظُر إلى رجل من أهل الجنة يمشي في الناس فلينظر إلى هذا.

ذكر محاربته الأمراء الذين ندبهم الحجَّاج لقتالِه وقتال محمد بن موسى بن طلحة وزائدة بن قُدامة

قال: لما هزم شَبيب أصحاب زَحْر قال له أصحابه: انصرفْ بنا الآن وافِرِين[٥]،

---

(١) المردمة: جبل لبني مالك بن ربيعة. (٢) يقال: جاهد العدو مجاهدة: إذا قاتله.

(٣) الجريدة: خيل لا رجالة فيها.

(٤) السيلحين: بفتح أوله وسكون ثانيه: وقد يعرب إعراب جمع السلامة فيقال: هذه سيلحون ورأيت سيلحين: قرية قرب الحيرة... ضاربة في البر قرب القادسية.. وبين هذه الناحية وبغداد ثلاثة فراسخ... (معجم البلدان).

(٥) الوافر: التام الذي لم ينقص؛ أو المصان.

فقد هزَمْنَا لهم جُنْدًا. فقال: إن هذه الهزيمة قد أرعبت قلوبَ الأُمراءِ والجنود الذين في طَلَبكم؛ فاقصدوهم، فوالله لئن قاتلناهم ما دون الحجاج مانِع، ونأْخذ الكوفة إن شاء الله.

فقالوا: نحن لِرَأْيِك تَبَع، وسأل عن الأُمراء فقيل: إنهم برُوذْبار[١] على أربعة وعشرين فرسخًا من الكوفة؛ فقصدهم فانتهى إليهم وقد تعبَّئُوا للحرب، وأميرُ الجماة زائدة بن قُدَامة، وعلى ميمنته زِياد بن عَمْرو العتَكي، وعلى الميسرة بِشر بن غالب الأسدي، وكلٌّ أمير واقفٌ في أصحابه.

وأقبل شَبِيب في ثلاث كتائب: كتيبة فيها سُويد بن سُلَيم وقَف بإزاء الميمنة، وكتيبة فيها مُصاد أخو شبيب وقف بإزاء الميسرة، ووقف شبيب مقابل القَلْب. فحمل سُوَيد على زِياد فانكشف أهلُ الميمنة، وثبت زياد في نَحْوٍ من نصف أصحابه، ثم ارتفع عنهم سُويد قليلاً، ثم حمل ثانية فتطاعنوا ساعةً، واقتتلوا أشدَّ قتال، ثم ارتفع سُويد عنهم، فتفرَّق أصحابُ زياد بن عَمْرو مِنْ كل جانب، فحمل عليهم الثالثة فانهزموا وأخذت السيوف زياد بن عمرو مِن كل جانب فلم تضره للباسه، فانهزم وقد جُرح جراحةً يسيرة، وذلك عند المساء، ثم حملوا على عبْد الأعلى بن عبْد الله بن عامر، فهزموه، ولم يقاتل كثيرًا، ولحق بزياد؛ فمضَيا منهزمين.

وحملت الخوارجُ على محمد بن موسى بن طَلْحة عند المغرب، فقاتلوه قتالاً شديدًا، وحمل مُصَاد على بشر بن غالب، وهو في ميْسَرةِ أهل الكوفة، فصبر بشر، ونزل ونزل معه نحو خمسين رجُلاً، فقاتلوا حتى قتلوا عن آخرهم، وانهزم أصحابُه، وحملت الخوارج على أبي الضُّرَيس مولى بني تميم، وهو يَلي بِشْرَ بن غالب، فهزموه حتى انتهى إلى موقف أعْيَنَ، ثم حملوا عليه وعلى أعْين، فهزمُوهما حتى انْتهَوْا بهما إلى زائدة بن قُدَامة، فنادى زائدة: يا أله الإسلام؛ الأرض، الأرض، لا يكونوا على كُفْرِهم أصْبر منكم على إيمانكم، فقاتلهم عامّةَ الليل حتى كان السَّحَر، ثم إن شبيبًا حمل عليه في جماعة من أصحابه، فقتله وقتل أصحابه، فلما قتل دخل أبو الضُّريس وأعين جَوْسقًا[٢] عظيمًا، وقال شبيب لأصحابه: ارفَعُوا السيفَ عنهم، وادْعُوهم إلى البيعة، فدعوهم إلى البَيْعَةِ عند الْفَجر، فبايَعُوه وسَلَّمُوا عليه بإمْرَةِ

---

(١) روذبار: بضم أوله، وسكون ثانيه، وذال معجمة، وراء، وبعد الواو المفتوحة راء أخرى: كورة قرب نهاوند من أعمال الجبال، وهي مسيرة ثلاثة فراسخ... وهي مدينة صغيرة بناؤها من طين حصينة... (معجم البلدان).

(٢) الجوسق: القصر الصغير؛ أو الحصن.

المؤمنين، وكان فيمن بايعه أبو بُرِدَةَ بن أبي موسى الأشعري، فلما طلع الفجر أَمَرَ محمد بن موسى بن طلحة مؤذِّنه فأذَّن، وكان لم ينهزم. فقال شبيب: ما هذا؟ قالوا: محمد بن موسى لم يبرح، فقال: قد ظَنَنْتُ أن حُمْقَه وخيلاءه يَحْمِلُه على هذا. ثم نزل شَبِيب فأذَّن هو وصَلَّى بأصحابه الصبح، ثم ركبوا فحملوا على محمد وأصحابه، فانهزمت طائفةٌ منهم، وثبتَتْ معه طائفةٌ، فقاتل حتى قُتل، وأخذت الخوارجُ ما في العسكر، وانهزم الذين كانوا بايَعُوا شبيبًا بجملتهم، ثم أتى شَبِيب الجَوْسقَ الذي فيه أعْين وأبو الضُّرَيْس فتحصَّنُوا منه، فأقام عليهم يَوْمَه ذلك، وسار عنهم فأتى خَانيجار[1] فأقام بها، وبلغ الحجاجَ مَسيرُه، فظنَّ أنه يريد المدائِن، فهالَه ذلك، فبعث عثمان بن قَطَن أميرًا على المدائن وعزلَ عنها عبيد الله بن أبي عُصَيْفِير.

وقيل في مقتل محمد بن موسى: أنه قتله مُبارزةً، وذلك أنه كان شهد مع عمر بن عُبيد الله بن مَعمر قتالَ أبي فُدَيْك، وكان شجاعًا ذا بَأس، فزوّجه عُمر ابْنَته، وكانت أُخته تحت عبد الملك بن مَرْوَان، فولاَّه سجستان، فمرّ بالكوفة وفيها الحجاج، فقيل له: صار هذا بسجستان مع صِهْره لعبد الملك، فلو لجأ إليه أحَدٌ ممن يُطْلَب مَنَعَك منه. قال: فما الحِيْلَةُ؟ قال: تأْتي إليه، وتسلِّم عليه، وتذكر نَجْدَتَه وبأْسَه، وأنَّ شبيبًا في طريقه، وأنه قد أعياك، وتَرْجُو أن يريح الله منه على يَدِهِ، فيكون له ذِكْره وفَخْره.

ففعل الحجاج ذلك، فأجابه محمد، وعَدَل إلى شَبِيب، فأرسل إليه شَبِيب إنَّك مخدوع، وإن الحجاج قد اتَّقى بك، وأنت جار لك حقّ، فانطلِقْ لما أُمرت به ولك الله أني لا أضُرك. فأبى إلاَّ محاربته، فواقفه شَبِيب، وأعاد عليه الرسول، فأبى وطلب البِرازَ فبرزَ إليه شَبِيب، وقال له: أنشدكَ الله في دَمِك؛ فإنّ لك جوارًا، فأبى. فحمل عليه شبيب فضربه بعَمُود حديد زِنَتُه اثنا عشر رطلاً بالشامي، فهشم البَيْضَة[2] ورأْسَه، فسقط فكفَّنه شبيب ودفَنَه، وابتاع ما غنمه من عَسْكَره فبعثه إلى أهْلِه واعتذر شَبِيب إلى أصحابه، وقال: هو جارِي، ولي أن أهب ما غنمت.

ذكر محاربته عبد الرحمٰن بن محمد بن الأشعث وعثمان بن قَطَن وقتل ابن قَطَن

قال: ثم إن الحجَّاج أمر عَبْدَ الرحْمَن بن محمد بن الأشعث أنْ ينتخبَ ستة آلاف فارس ويسير بهم في طَلَبِ شَبِيب أين كان، ففعل ذلك، وسار نحوه، فسار

---

(١) خانيجار: بليدة قرب دقوقاء.
(٢) البيضة: الخوذة.

شَبِيب إلى دَقُوقاء وشَهْرَزُور[١]، وعَبْدُ الرحمٰن في طلبه حتى انتهى إلى التُّخُوم، فوقف وقال: هذه أرض الموصل، فلْيُقَاتلوا عنها.

فكتب إليه الحجاج: أما بعد فاطلُبْ شَبِيبًا واسْلُك في أثَره أين سلَكَ حتى تُدْرِكَه فتَقْتُله أو تَنْفيه، فإنما السلطانُ سلطان أمير المؤمنين والجندُ جُنْده.

فخرج عَبْدُ الرحمٰن في طلبه، فكان شَبِيب يَدَعُه حتى يَدْنو منه فيبيّته فيَجِده قد خَنْدَق على نفسه وحذر، فيتركه ويسير فيتبعه عبد الرحمٰن، فإذا بلغ شَبِيبًا مَسِيرهُم أتاهم وهم سائرون فيجدهم على تَعْبِئَةٍ فلا يصيب لهم غِرّةً، ثم جعل إذا دنَا منه عَبْدُ الرحمٰن يسير عشرين فرسخًا، ونحوها، وينزل في أرض خَشِنة غليظة، ويتبعه عَبْدُ الرحمٰن، فإذا دنَا منه فَعل مِثْلَ ذلك حتى أتْعَبَ ذلك الجيش، وشَقَّ عليهم، وأحْفَى[٢] دوابَّهم.

ولم يزل عبد الرحمٰن يَتْبَعُه حتى مرّ به على خَانِقِين[٣] وجَلُولاء[٤] وتَامَرًّا[٥]، ثم أقبل إلى البَتّ، وهي من قُرَى الموصل ليس بينها وبين سواد الكوفة إلاَّ نهر حَوْلاَيا، وذلك في عشر ذي الحجة سنة ست وسبعين، فأرسل شبيب إلى عبد الرحمٰن: إن هذه أيام عِيْدٍ لنا ولكم يعني عيد النَّحر، فهل لك في الموادعة حتى تَمْضِي هذه الأيام؟ فأجابه إلى ذلك، وكان يحبُّ المُطَاوَلة.

وكتب عثمان بن قَطَن أمير المدائن إلى الحجاج يقول: أما بعد فإنّ عَبْدَ الرحمٰن قد حفر جُوخى[٦] كلَّها خندقًا واحدًا، وكسر خَراجها، وخلَّى شبيبًا يأْكلُ أهلها. والسلام.

فكتب إليه الحجاج يأْمره بالمسير إلى الجيش، وأمّره عليهم، وعزَل عنهم عبْدَ الرحمٰن، وبعث إلى المدائن مُطَرّف بن المغيرة بن شُعْبة، فسار عثمان حتى قدم

---

(١) شهرزور: كورة واسعة بين إربل وهمذان... (المراصد).

(٢) حفيت الدابة: رقّ حافرها أو خفها من كثرة المشي.

(٣) خانقين: بلدة من نواحي السواد في طريق همذان من بغداد، وهي أيضًا بلدة بالكوفة.

(٤) جلولاء: بالمدّ: طسوج من طساسيج السواد في طريق خراسان، بينها وبين خانقين سبعة فراسخ... (معجم البلدان).

(٥) تامرا: نهر كبير تحت بغداد شرقيها.

(٦) جوخى: اسم نهر علية كورة واسعة في سواد بغداد، بالجانب الشرقي منه الراذانان، وهو بين خانقين وخوزستان... (معجم البلدان).

على العسكر عشيَّةَ الثلاثاء يوم التَّرْوية[١]؛ فنادى الناسَ - وهو على بَغْلةٍ: أيها الناس، اخرجوا إلى عدوّكم، فقالوا: هذا المساء قد غَشِينا والناسُ لم يوطِّنوا أنفسهم على الحرب، فبتِ الليلة ثم اخرج على تعبئة، فأبى ذلك، ثم نزل وبات لَيْلَتَه يحرِّضُ أصحابه، فلما أصبح يوم الأربعاء خرج بالناس كلِّهم، فاستقبلتهم ريحٌ شديدة وغبرة، فقال له أصحابه: ننشدك الله أن تخرج بنا والريحُ علينا. فأقام بهم ذلك اليوم، ثم خرج يوم الخميس، ثم عبّأهم، فجعل في الميمنة خالد بن نَهيك بن قَيْس، وعلى الميسرة عقيل بن شدّاد، ونزل هو في الرجّالة، وعبر شبيب إليهم النهر، وهو يومئذ في مائةٍ وأحد وثمانين رجلاً، فوقف هو في الميمنة، وجعل أخاه مُصادًا في القَلْبِ، وجعل سُويد بن سُلَيم في الميْسرة، وزحف بعضُهم إلى بعضٍ، فحمل شَبِيب على ميْسَرَة عثمان فانهزموا، ونزل عقيل بن شداد فقاتل حتى قُتل، وقتل مالك بن عَبْد الله الهَمْدَاني، ودخل شبيب عسْكرهم، وحمل سُويْد على ميْمنَة عثمان فهزمها، فقاتل خالد بن نَهيك قتالاً شديدًا، وحمل شبيب مِنْ ورائه فقتله، وتقدم عُثْمَانُ بن قَطَن وقد نزل معه العُرفاء وأشرافُ الناس والفُرْسان نحو القَلْب وفيه مُصاد أخو شبيب في نحْوِ من ستِّين رجلاً، فشدَّ عليهم عثمان فيمنْ معه فثَبتُوا له.

وحمل شبيب بالخَيْل مِن ورائهم فما شعرُوا إلاَّ والرِّمَاحُ في أكتافهم تكبُّهم لِوُجوههم، وعطف عليهم سُوَيد بن سُلَيم في خَيْلِه، وقاتل عثمان بن قَطَن أحْسن قِتال، ثم أحاطوا به، وضَرَبه مُصاد بن يزيد ضَرْبةً بالسيف استدار لها وقال: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [النساء: ٤٧].

ثم قُتل، وسقط عبد الرحمٰن عن فَرَسِه، فأتاه ابن أبي سبْرَةَ الجعفي وهو على بغْلَةٍ فأركبه معه، ونادى في الناس: الحقوا بَدَيْر أبي مريم، ثم انطلقا ذاهبَيْن، ثم أتاه واصل بن الحارث السكوني ببِرْذَوْن فركبه وسار حتى نزل ديْرَ البقار، وأمر شَبِيب أصحابه فرفعوا السيفَ عن الناس، ودعاهم إلى البيعة فبايعوه، وقُتِل يومئذ مِنْ كِنْدَة مائة وعشرون، وبات عبد الرحمٰن بَدْير البَقَّار، فأتاه فارِسان، فصعدا إليه فخلاَ به أحَدُهما طَوِيلاً ثم نزلاَ؛ فقيل: إن ذلك الرجل كان شبيبًا، وكان بينه وبين عبد الرحمٰن مكاتبةٌ، وسار عبْدُ الرحمٰن حتى أتى دَيْرَ أبي مريم، فاجتمع الناسُ إليه وقالوا له: إنْ سَمِع شَبِيبٌ بمكانِك أتاك فكنْتَ له غنيمة.

---

(١) يوم التروية: الثامن من ذي الحجة.

فخرج إلى الكوفةِ واختفى من الحجَّاج حتى أخذ له الأمَان منه، وكانت هذه الوقائعُ التي ذكرناها كلُّها من أخبار شَبِيب في سنة ست وسبعين.

ذكر محاربة عتاب بن ورقاء وزَهْرة بن حَوِيّة وقتلهما

وفي سنة سبع وسبعين أتى شَبيب ماه بَهْراذَان[١] فصيّف بها ثلاثة أشهر، وكان حين هزم ذلك الجيش حَرٌّ شديد، فلما صيّف هناك أتاه ناسٌ كثير ممن يطْلُبُ الدنيا وممَّنْ كان الحجاج يطلبُهم بمالٍ أو تَبِعاتٍ.

فلما ذهب الحَرُّ خرج في نحو ثمانمائة رجل، فأقبل نحو المدائن، وعليها مُطرِّف بن المغيرة بن شعبة، فجاء حتى نزل قناطر حُذَيفة[٢] بن اليمان، فكتب مَهروذ عظيم بابل إلى الحجّاج بذلك، فقام الحجّاج في الناس فقال: أيها الناس، لتُقَاتِلُن عن بِلَادكم وعَنْ بنيكم أو لأبعثَنَّ إلى قومٍ هم أطوع وأصبر على الّلأْوَاء[٣] والقَيْظِ منكم، فيقاتلون عدُوَّكم ويأكلون فَيئكم.

فقام إليه الناس من كل جانب فقالوا: نحن نقاتِلُهم فَلْيَنْدبنا الأمِيرُ إليهم، وقام زَهْرَة بن حوِيّة ـ وهو شيخ كبير، فقال: أصلح اللّهُ الأمير، إنما تبعَثُ إليهم الناسَ متقطِّعين، فاستَنْفِرِ الناسَ إليهم كافَّةً، وابعث إليهم رجلاً شجاعًا مجرِّبًا ممن يرى الفرار هضمًا وعارًا، والصَّبْرَ مَجْدًا وكرمًا.

فقال الحجاج: فأنْتَ ذاكَ الرجل، فاخْرُجْ.

فقال: أصلح اللّهُ الأمير، إنما يصلحُ رجلٌ يحْمِلُ الدِّرْع والرمح، ويهزُّ السيف، ويثْبُتُ على الفرس، وأنا لا أُطِيقُ شيئًا مِنْ هذا، وقد ضَعفَ بصري، ولكن أخرجني في الناس مع الأمير فأشير عليه برَأْيي.

فقال له الحجاجُ: جزَاكَ اللّهُ خيرًا عن الإسلام وأهله في أوّل أمرك وآخره.

ثم قال: أيّها الناسُ، سِيرُوا بأجمعكم كافَّةً؛ فخرج الناس يتجهَّزُون ويدرون مَنْ أمِيرُهم.

---

(١) ماه بهراذان: وما أظنها إلا ناحية الراذانين. . . (معجم البلدان لياقوت).

(٢) قناطر حذيفة: بسواد بغداد، منسوبة إلى حذيفة بن اليمان الصحابي لأنه نزل عندها، وقيل: لأنها رمها وأعاد عمارتها، وقيل: قناطر حذيفة بناحية الدينور. . . (معجم البلدان).

(٣) اللأواء: ضيق المعيشة، أو شدة المرض.

وكتب الحجاج إلى عبد الملك يُخبره أنَّ شَبِيبًا قد شارف المدائن؛ وأنه يُريد الكوفةَ، وقد عجز أهْلُها عن قِتَاله في مواطن كثيرة، يقتل أُمراءهم ويهزم جُندهم؛ وسأله أن يبعث جُنْدًا من الشام يقاتلون الخوارج، ويأْكلون البلادَ. فبعث عبدُ الملك سُفْيان بن الأبْرد الكَلْبي في أربعة آلاف، وحبيب بن عبْد الرحمٰن الحكمي في ألفين، وبعث الحجاج إلى عَتَّاب بن وَرْقَاء يستدعيه، وكان يقاتل الأزارقة مع المُهَلَّب كما تقدم.

واستشار الحجاجُ أهلَ الكوفة فيمَنْ يُوليه أمْرَ الجيش، فقالوا: رأيُكَ أفضل. فقال: قد بعثْتُ إلى عَتَّاب بن وَرْقاء وهو قادمٌ عليكم الليلة أو القابلة؛ فقال زَهْرَة: رمَيْتَهم بحَجَرِهم، والله لا يرجع إليك حتى يَظْفَرَ أو يقتل. وقال له قَبِيصة بن وَالق: إنَّ الناس قد تحدثوا أنَّ جيشًا قد وصل إليك من الشام، وأن أهْل الكوفة قد هُزِمُوا وهانَ عليهم الفرار، فقلوبُهم كأنها ليست فيهم؛ فإنْ رأيْتَ أنْ تَبْعثَ إلى أهل الشام ليأْخذوا حِذْرَهُم، فإنك تحارِبُ حُوّلاً قُلَّبًا ظَعَانًا رَحّالاً، وقد جهَّزْتَ إليهم أهْلَ الكوفة ولَسْت واثقًا بهم كلَّ الثقة، فإن شبيبًا بينا هو في أرض إذا هو في أُخرى، ولا آمَنُ أنْ يأْتي أهْلَ الشام وهم آمِنُونَ؛ فإن يهلكوا تهلك ويَهلك أهْلُ العراق.

فقال: لله أبوك، ما أحْسن ما أشرْتَ به! وأرسل إلى أهْل الشام يحذِّرُهم ويأْمرهم أن يأْتوا على عَيْن التمر[1]، ففعلوا، وقدم عتَّاب بن ورقاء تلك الليلة، فبعثه الحجاجُ على ذلك الجيش، فعَسْكَرَ بحمَّام أعْين[2]، وأقبل شبيب حتى انتهى إلى كَلْوَاذا[3] فقطع منها دِجْلة، ثم سار حتى نزل مدينة بَهُرَسِير[4] الدنيا، وهي المدائن الغربية، فصار بينه وبين مُطَرِّفِ دِجْلَةُ، فقطع مطرف الجسر، وبعث إلى شبيب أن ابْعَثْ إليّ رجالاً من وُجوه أصحابك أُدَارِسهم القرآن وأنظر فيما يدعون إليه، فبعث إليه بمعَتِّب بن سُوَيد والمحلّل وغيرهما، وأخذ منه رهائِنَ على عوْدِ أصحابه، فأقاموا عنده أربعةَ أيام، ثم أعادهم، ولم يتفقوا، فلما لم يتبعه مُطَرِّف تهيَّأ للمَسِير إلى

---

(١) عين التمر: بلدة في طرف البادية على غربي الفرات.

(٢) حمام أعين: موضع بالكوفة منسوب إلى «أعين» مولى سعد بن أبي وقاص.

(٣) كلواذا: طسوج قرب مدينة السلام بغداد وناحية الجانب الشرقي من بغداد من جانبها وناحية الجانب الغربي من نهر بوق، وهي الآن خراب أثرها باق، بينها وبين بغداد فرسخ واحد للمنحدر. . . (معجم البلدان).

(٤) بهرسير: من نواحي بغداد قرب المدائن. وقيل: هي إحدى المدائن السبعة التي سميت بها المدائن، وهي في غربي دجلة.

عتَّاب. وأقبل عَتَّاب حتى نزل بسُوقِ حَكَمَةَ[١] وقد خرج معه مِنَ المقاتلة أربعون ألفًا، ومِنَ الشباب والأتْبَاع عشرةُ آلافٍ، فكانوا خمسين ألفًا. وكان الحجاج قد قال لهم حين سارُوا: ألا إن للسائر المجدَ الكرامة والأثرة، وللهارب الهَوَان والجفوة، والذي لا إلَه غيره لئن فعلْتُم في هذا الموطن كفِعْلكم في غيره من المواطن لأُولينَّكم كَنَفًا[٢] خَشِنًا، ولأعْركَنَّكُم بكَلْكَل[٣] ثقيل.

وسار شبيب مِن المدائن وأصحابُه ألفُ رجل، فتخلَّفَ عنه بعضُهم، فصلَّى الظهر بِسَابَاط، وصلَّى العصر، وسار حتى أشرَف على عتَّاب وعسْكَرِه، فلما رآهم نزل فصلَّى المغرب؛ وكان عَتَّاب قد عبَّأ أصحابه، فجعل في الميمنة محمد بن عبد الرحمٰن بن سعيد بن قيس، وفي الميسرة نُعيم بن عُليم، وبعث حنظلة بن الحارث اليربوعي ـ وهو ابنُ عمه ـ على الرجَّالة، وصَفَّهم ثلاثة صفوف: صَفٌّ فيهم أصحابُ السيوف، وصفٌّ فيهم أصحابُ الرماح، وصفٌّ فيهم الرُّماة، ثم سار في الناس يُحرِّضُهم على القتال، ورجع فجلس في القَلْب، ومعه زَهْرة بن حَويّة جَالِسٌ، وعبْدُ الرحمٰن بن محمد بن الأشعث، وأبو بكر بن محمد بن أبي جهْم العَدَوِي.

وأقبل شَبِيب وهو في ستمائة، وقد تخلَّفَ عنه من أصحابه أربعمائة؛ فجعل سُوَيد بن سُليم في الميسرة في مائتين، والمحلّل بن وائل في القلب في مائتين، ووقف هو في الميمنة في مائتين، وذلك بين المغرب والعشاء الآخرة حين أضاء القَمر، فناداهم: لمَنْ هذه الرايات؟ قالوا: لربيعة. قال: طالما نصرت الحقَّ، وطالما نصرتِ الباطلَ؛ والله لأُجاهِدَنَّكم محتسِبًا، أنا شَبِيب، لا حُكْم إلا للحكم، اثبتوا إنْ شئْتُم.

ثم حمل عليهم ففَضَّهم، فثبت أصحابُ رايات قَبِيصة بن والق، وعُبيد بن الحليس، ونُعيم بن عليم، فقتلوا، وانهزمت الميسرة كلها، ثم حمل شبيب على عَتَّاب بن ورقاء، وحمل سُويد بن سُليم على الميمنة وعليها محمد بن عبد الرحمٰن، فقاتلهم في رجال من تميم وهَمْدَان؛ فما زالوا كذلك حتى قيل لهم: قُتِل عتَّاب، فانْفَضُّوا. ولم يزل عَتَّاب جالسًا على طِنْفِسَتِه[٤] في القلْبِ ومعه زَهْرَة بن حَوِيَّة حتى غَشِيَهم شبيب، فقال عتَّاب: يا زَهْرَة، هذا يوم كَثُرَ فيه العدد وقَلَّ فيه الغَنَاء، والهفي

(١) سوق حكمة: موضع بنواحي الكوفة. (٢) الكنف: الجانب.
(٣) الكلكل: الصدر؛ أو هو ما بين الترقوتين.
(٤) الطنفسة: البساط، أو النمرقة فوق الرحل.

على خمسمائة فارس من تميم مِنْ جميع الناس، ألا صابِر لعدوه! ألاَ مُوَاسٍ بنفسه! فانفَضُّوا عنه وتركوه، فلما دنا منه شَبِيب وثب في عصَابَةٍ قليلة صبَرَتْ معه؛ وقاتل ساعةً، فرآه رجُلٌ من أصحابِ شَبِيب يُقَال له عامر بن عَمْرو التغلبي، فحمل عليه فطعَنَهُ، وجاء الفَضْلُ بن عامر الشيباني إلى زَهْرَة فقتله، وتمكَّن شبيب من أهْل العسكر والناس، فقال: ارفعوا السيفَ. ودعاهم إلى البيْعَةِ، فبايعه الناسُ وهربوا من ليلتهم، وحوى ما في العسكر. وأقام شَبِيب بعد الوقعة ببيت قُرة يَوْمين، ثم سار نحو الكوفة فنزل بسُورَا[١] وقتل عامِلَها، وكان سفيانُ بن الأبرد وعَسْكَرُ الشام قد دخلوا الكوفة فشدُّوا ظهر الحجاج، واستغنى بهم عَنْ أهل الكوفة، وقام على المنبر فقال: يا أهل الكوفة، لا أعزَّ الله مَنْ أراد بكم العِزَّ، ولا نَصر مَنْ أراد بكم النَّصْرَ، اخرجوا عَنَّا فلا تشاهِدُوا معنا قِتَال عدونا، انزلوا الحِيْرَةَ مع اليهود والنصارى، ولا يقاتل معنا إلاَّ من لم يشهد قِتَالَ عَتَّاب.

ذكر قدوم شبيب الكوفة وانهزامه عنها

قال: ثم سار شبيب من سُورَا فنزل حمّام أعْين، فدعا الحجاجُ الحارث بن معاوية الثقفي، فوجَّهه في ناسٍ من الشُرَط وغيرهم لم يشهدُوا يوم عتَّاب، فخرجوا في ألفٍ فنزلوا زُرَارَة[٢]، فبلغ ذلك شَبِيبًا، فَعَجِل إلى الحارث، فلما انتهى إليه حمل عليه فقتله، وانهزم أصحابُه، فدخلوا الكوفة، وجاء شَبِيب فعَسْكَر بناحية الكوفة فأقام ثلاثًا، فنزل السَّبخَة، وابْتَنَى بها مَسجدًا، وذلك في اليوم الثاني من الأيام الثلاثة.

فلما كان اليوم الثالث أخرج الحجاجُ أبا الوَرْدِ مَوْلاَه عليه تِجْفَاف[٣] ومعه غلمان له، فقالوا: هذا الحجاج! فحمل عليه شَبِيب فقتله، فأخرج إليه غلامه طَهْمَان في مثل تلك العُدَّة والحالة، فقتله شَبِيب، وقال: إن كان هذا الحجاج فقد أرحْتُكم منه.

ثم خرج الحجاج عند ارتفاع النهار من القَصْر، فركب بَغْلاف ومعه أهل الشام، فلما رأى الحجاج شبيبًا وأصحابه نزل وجلس على كرسيّ، وتقدَّم إليه شَبِيب وأصحابه فلقوهم بأطراف الأسِنَّة؛ فكان بينهم قِتَالٌ شديد عامَّةَ النهار، حتى انتهى الحجاج إلى مسجد شَبِيب، فقال: هذا أوَّلُ الفَتْح.

---

(١) سورا: موضع من أرض بابل.

(٢) زرارة: محلة بالكوفة، سميت بزرارة بن يزيد بن عمرو بن عدس من بني البكار، وكانت منزله فأخذها معاوية منه.

(٣) التجفاف: آلة يلبسها الفرس والإنسان لتقيه في الحرب.

ثم قال خالد بن عَتَّاب للحجاج: ائذن لي في قتالهم، فإني موتور[1]. فأذِنَ له، فخرج ومعه جماعةٌ من أهل الكوفة، فقصد عَسْكَرَهم مِنْ ورائهم، فقتل مُصَادًا أخا شبيب، وقتل امرأته غزالة، هذا وشبيب يُقَاتِلُ الحجاج، وأتى الخبر الحجاج فكبَّرَ فعِنْدها ركب شبيب وكان قد نزل فقاتل على الأرْض، وقال الحجاجُ لأصحابِه: احملوا عليهم، فإنه قد أتاهم ما أرْعبهم؛ فشدُّوا على أصحابِ شَبِيب فهزموهم، وثبت شبيب في حامِيَة الناسِ، فبعث الحجاجُ إلى خَيْله أنْ دَعُوه، فتركوه ورجَعُوا، ودخل الحجاج الكوفة، وبعث حَبيب بن عَبْدِ الرحمٰن الحكمي في ثلاثة آلاف فارس من أهل الشام، فخرج في أثره حتى نزل إلى الأنْبَار.

وكان الحجاجُ قد نادى عند انهزامِ شبيب: منْ جاءَنَا منكم فهو آمِنٌ؛ فتفرَّقَ عن شَبِيب ناسٌ كثير من أصحابه. فلما نزل حبيب الأنبار أتاهم شبيب، فلما دنا منهم نزل فصَلَّى المغرب، وكان حبيب قد جعل أصحابَه أرباعًا، وقال: ليمنع كلُّ ربع منكم جانِبَه فإنْ قاتل هذا الربع فلا يُعِنْهُم الربع الآخر. وأتاهم شبيب وهو على تعبئته فحمل على ربع، فقاتلهم طَوِيلاً، فما زالت قَدَمُ إنسانٍ عن موضعها فتركهم، وأقبل إلى رُبع آخر، فكانوا كذلك، وقاتل الربع الثالث والرابع وهم كذلك، فما برح يقاتلهم حتى ذَهَب ثلاثةُ أرباع الليل، ثم نازلهم رَاجِلاً، فسقطت بينهم الأيدي وكثرت القَتْلَى، وفُقِئَت الأعين، وقُتل مِنْ أصحاب شبيب نحو ثلاثين رجلاً، ومن أهل الشام نحو مائة. واستولى التَّعبُ والإعياء على الطائفتين حتى أن الرجل ليَضْرِبُ بسيفه فلا يصنع شيئًا، فلما يئس شبيبٌ منهم تركهم وانصرف عنهم، ثم قطع دجْلَة وأخذ في أرض جُوخَى ثم قطع دجلة مرة أُخرى عند واسط، وأخذ نحو الأهواز إلى فارس ثم إلى كَرْمَان ليستريح هو وَمَن معه.

ذكر مهلك شبيب

كان مَهْلكُ شَبيب في سنة سبع وسبعين، وسَبَبُ ذلك أن الحجاجُ أنفق في أصحاب سُفْيَان بن الأبْرد مالاً عظيمًا، وأمرهم بقَصْد شَبِيب، فساروا نحوه مع سفيان بن الأبرد، وكتب الحجاج إلى الحكم بن أيوب زَوْج ابنته ـ وهو عامِلُه على البصرة ـ أن يُرْسِل أربعة آلاف فارس مِنْ أهل البصرة، ففعل وسَيَّرَهم مع زياد بن عمرو العَتَكي، فلم يَصِلْ إلى سفيان حتى التقى سفْيَان مع شَبِيب. وكان شبيب قد

(١) الموتور: الذي قتل حميمه.

أقام بِكَرْمان حتى استراح وَأرَاح، ثم أقبل راجعًا فالتقى مع سفيان بِجَسْر[١] دُجيل الأهواز، فعبر شبيب الجِسْر إلى سفيان فوجده قد نزل في الرجال، وجعل مُهَاصر بن سيف على الخيل، وأقبل شبيب في ثلاثة كَرَاديس[٢]، فاقتتَلُوا أشَدَّ قتال، ورجع شَبِيب إلى المكان الذي كان فيه، ثم حمل عليه هو وأصحابه أكثر من ثلاثين حَمْلة، وأهلُ الشام على حالِهم في ثباتِ القَدَم، وما زالوا يقاتلون الخوارج حتى اضْطَرُّوهم إلى الجِسْر. فلما انتهى شَبِيب إلى الجِسْر نزل ونزل معه نحو مائة رجل؛ فقاتلوا حتى المساء، وأوْقَعُوا بأهلِ الشام من الضَّرْبِ والطعن ما لم يَرَوْا مثله، فأمر سفيان الرُّماة أن يرموهم فتقدَّمُوا، ورَمُوهم ساعة، فحمل شبيب وأصحابه على الرُّمَاة، فقتلوا منهم أكْثَر من ثلاثين رجلًا، ثم عطف على سُفْيان ومن معه فقاتلهم حتى اختلط الظَّلاَمُ، ثم انْصَرَف، فقال سفيان لأصحابه: لا تتبعوهم.

فلما انتهى شبيب إلى الجِسْرِ قال لأصحابه: اعبروا فإذا أصْبَحْنَا باكَرْنَاهم إن شاء الله. فعَبرُوا أمَامَه، وتخلَّفَ في آخرِهم، وجاء ليَعْبُر وهو على حصانٍ وبين يديه حِجْر[٣]، فنزا فَرَسُه عليها وهو على الجِسْر فاضطربت تحْتَه، ونزل حافر رِجْل حصانِه على حَرْفِ السفينة، فسقط في الماء، فلما سقط قال: لِيَقْضِيَ اللّهُ أمْرًا كان مفعولاً. وانغمس في الماء، ثم ارتفع، وقال: ذَلِكَ تَقْدِيرُ العزيزِ العليم. وغَرِق.

قال: وكان أهْلُ الشام قد عَزَمُوا على الانصراف، فأتاهم صاحِبُ الجِسر، فقال لسفيان: إنَّ رجلاً منهم وقع في الماء، فتنادوْا بينهم: غَرِق أمِير المؤمنين. ثم انصرفوا راجعين، وتركوا عسكرهم ليس فيه أحَد، فكبَّر سفيان وكَبَّر أصحابُهُ، وأقبل حتى انتهى إلى الجِسْرِ، وبعث إلى المعسكر، وإذا ليس فيه أحَد، وإذا هو أكثر العساكر خيرًا، ثم استخرجوا شبيبًا فشقُّوا جوْفه، وأخرجوا قَلْبَهُ؛ فكان صلبًا كأنه صخرة، فكان يضرب به الصَّخْرة فينْبُو عنها قامَةَ إنسان.

قال: وكان شبيب يُنْعَى لأُمه فيقال لها: قُتل، فلا تَقْبل ذلك. فلما قيل لها غرق صدَّقت ذلك، وقالت: إني رأيت حين وَلَدْتُه أنه خرج منِّي شهابُ نارٍ، فعلمْتُ أنه لا يُطفِئه إلاَّ الماء، وكانت أُمّه جارية رومية اشتراها أبوه فأولدها شبيبًا سنة خمس

---

(١) دجيل: اسم نهر في موضعين أحدهما مخرجه من أعلى بغداد بين تكريت وبينها مقابل القادسية دون سامرا فيسقي كورة واسعة وبلادًا كثيرة... ودجيل الآخر: نهر بالأهواز حفره أردشير بن بابك أحد ملوك الفرس... (معجم البلدان لياقوت).

(٢) الكراديس: جمع الكردوسة، وهي قطعة عظيمة من الخيل.

(٣) الحجر: الأنثى من الخيل.

وعشرين يوم النَّحْر[١]، وقالت: إني رأيْتُ فيما يرى النائم أنه خرج مِنْ قُبُلي شِهابُ نار، فذهب ساطعًا إلى السماء، وبلغ الآفاقَ كلَّها، فبينا هو كذلك إذْ وقع في ماءٍ كثير فخبَا، وقد ولَدْتُه في يومكم الذي تهريقون فيه الدِّمَاءَ، وقد أوَّلْتُ ذلك أنَّ ولَدي يكون صاحِبَ دماء وأنَّ أمْره سيَعْلُو ويعظم سريعًا.

ذكر خروج مطرف بن المغيرة ابن شُعْبَة ومَقْتله

كان خروجه وقَتْله في سنة سبع وسبعين، وذلك أنه لما قدم الحجَّاجُ العِرَاقَ استعمل أولادَ المغيرةِ على أعماله لشَرفِهم ومنزلتهم مِنْ قومهم، واستعمل عُروَة بن المغيرة على الكوفة، ومُطَرِّفًا على المدائن، وحَمْزة على همَذان، فكانوا على أعمالهم أحسَنَ الناسِ سيرةً، وأشدَّهم على المريب، وكان المُطَرِّف على المدائن لما خرج شَبيب، وقد ذكرنا أن المطرِّف أرسلَ يسْتَدْعي منه أنْ يُسيِّر إليه مِنْ أصحابِه منْ يُدَارسه ويسْمَعُ منه، وأنه سيَّر إليه جماعةً، ولم يحصل بينهم اتِّفَاق، وكان مِمّا تكلَّمُوا فيه أنَّ المطرّف سألهم عما يَدعُونَ إليه، فقالوا: ندعو إلى كتاب الله وسنة رسوله، وأنَّ الذي نقمنا على قومنا الاستئثارُ بالفَيْءِ[٢] وتعطيلُ الحدود[٣] والتسلُّطُ بالجبرية[٤]، فقال لهم مُطَرِّف: ما دعوتُم إلا إلى حق، وما نقمتم إلاَّ جوْرًا ظاهرًا، أنا لكم مُتَابع، فبايِعُوني على ما أدْعُوكم إليه: أنْ نُقَاتِل هؤلاء الظَّلَمة على أحداثهم، ونَدْعوهم إلى كتابِ الله وسنَّةِ نبيِّه ﷺ، وأن يكونَ هذا الأمْرُ شُورَى بين المسلمين، يُؤمِّرون منْ يرضون على مِثْلِ الحال التي تركهم عليها عمرُ بن الخطاب، فإنَّ العَرب إذا علمت أنها إنما يُراد بالشورى الرضا من قُريش رضُوا وكَثُر تبعكم وأعوانُكم.

فقالوا: هذا ما لا نُجيبُك إليه، وفارقُوه، وأحضر مُطرِّف نصحاءِ وثِقَاتِه، فذكر لهم ظُلْمَ الحجاج وعَبْد الملك، وأنه ما زال يُؤْثِر مخالفَتَهم ومناهضتَهم، وأنه يرى ذلك دينًا لو وجد عليه أعوانًا، وذكر لهم ما جرى بينه وبين أصحاب شبيب، وأنهم لو تابعوه على رَأْيِه لخلعَ عبد الملك والحجاج، واستشارهم فيما يفعل.

---

(١) النحر: أيام عيد الأضحى.

(٢) الفيء: الخراج، أو الغنيمة تنال بلا قتال.

(٣) الحدود: جمع الحد، وهو في اصطلاح الشرع: عقوبة مقدرة وجبت على الجاني. وحدود الله تعالى: ما حدّه بأوامره ونواهيه.

(٤) الجبرية: التكبر.

فقالوا له: أخْفِ هذا الكلامَ ولا تُظْهِرْه لأحد. فقال له يزيد بن أبي زياد مولى أبيه: واللّهِ لا يَخْفَى على الحجاج مما كان بينك وبينهم كلمةٌ واحدةٌ وليُزَادَنّ على كل كلمةٍ عَشر أمثالها، ولو كنتَ في السحاب لالْتَمَسَكَ الحجاجُ حتى يُهْلكَكَ، فالنَّجاء النَّجاء.

فوافقه أصحابُه على ذلك، فسار عن المدائن نحو الجبال، ثم دعا أصحابَه الذين لم يعْلَمُوا بحالِه إلى ما عزمَ عليه، فبايعه بعْضُهم، ورجع عنه بعضُهم، وسار نحو حُلوان[١] وبها سُوَيْد بن عبد الرحمٰن السعدي من قِبَل الحجاج، فأراد هو والأكراد مَنْعَه ليعذر عند الحجاج، فأوقع مُطَرِّف بالأكراد فقتل منهم، وسار.

فلما دنا من هَمَذان[٢] وبها أخوه حمزة بن المغيرة تركها ذاتَ اليسار، وأرسل إلى أخيه حَمْزَة يستمدُّه بالمال والسلاح، فأرسل إليه ما طَلَب سِرًّا، وسار مُطَرِّف حتى بلغ قُمّ[٣] وقَاشَان[٤]، وبعث عمالَهُ على تلك النواحي، وأتاه الناسُ.

وكان مِمَّنْ أتاه سُويد بن سرحان الثقفي، وبكير بن هارون النَّخعي، من الريّ في نحو مائةِ رجلٍ، وكتب البَراء بن قَبيصة - وهو عامل الحجاج على أصفهان - إليه يعرِّفُه حالَ المُطَرِّف ويستمدُّه، فأمدَّه بالرجال بَعْدَ الرجال على دوابّ البريد.

وكتب الحجَّاجُ إلى عَدِيّ بن زياد عامل الريّ يأمره بقَصْد مُطَرّف، وأن يجتمع هو والبَرَاءُ على محارَبَته، فسار عدِيّ من الرَّيّ واجتمع هو والبراء وعدي الأمِيرُ، واجتمعوا في نحو ستة آلاف مُقَاتل. وكان حمزة بن المغيرة قد أرسل إلى الحجاج يعتذر، فأظهر قبولَ عُذْره، أراد عَزْله وخاف أن يمتنع عليه، فكتب إلى قيس بن سَعْد العِجْلي، وهو على شُرْطَة حمزة بعَهْده على هَمَذَان، ويأمُرُهُ أن يقبضَ على حَمْزَة بن المغيرة؛ فسار قَيْس بن سَعْد إلى حَمْزَة في جماعةٍ من عشيرته فأقرأه العَهْد بولايته، وكِتَابَ الحجَّاج بالقَبْضِ عليه، فقال: سَمْعًا وطاعة. فقبض قَيْس عليه وسجَنَه، وسار عديّ والبراء نحو مُطَرِّف فالتَقوْا واقتتلوا قتالاً شديدًا، فانهزم أصحابُ مُطَرّف وقُتِل هو وجماعة كثيرة مِنْ أصحابه، قَتَلَهُ عمَر بن هبيرة الفَزَاري، وكان الحجاج يقول: إن

(١) حلوان: بالضم ثم السكون: وحلوان العراق في آخر حدود السواد مما يلي الجبال من بغداد... وقيل: حلوان مدينة عامرة ليس بأرض العراق بعد الكوفة والبصرة، وواسط وبغداد، وسر من رأى أكبر منها... (معجم البلدان).

(٢) همذان: روي عن شعبة أنه قال: الجبال عسكر وهمذان معمعتها وهي أعذبها ماء وأطيبها هواء.

(٣) قم: مدينة قرب أصبهان.

(٤) قاشان: بالشين المعجمة، وآخره نون: مدينة قرب أصبهان، تذكر مع قم، ومنها تجلب الغضائر القاشاني... وأهلها كلهم شيعة إمامية... (معجم البلدان لياقوت).

مُطَرّفًا ليس بوَلد المغيرة بن شعبة، إنما هو ولد مَصْقَلَة بن هُبيْرَة الشيباني، وكان مصْقَلَة والمغيرة يدَّعِيانه، فأُلحق بالمغيرة، وجُلِد مصْقَلة الحَدَّ، فلما أظهر رأْيَ الخوارج قال الحجاج ذلك، لأنّ كثيرًا من ربيعة كانوا خوارج ولم يكن منهم أحدٌ من قيس عَيْلان.

انتهت أخبار الخوارج فلنذكر الغزوات في خلافة عبد الملك.

ذكر الغزوات والفتوحات
في أيام عبد الملك بن مَرْوَان على حكم السنين

في سنة إحدى وسبعين افتتح عبد الملك قَيْسَارِيَّة في قَوْلِ الواقدي.

وفي سنة ثلاث وسبعين غزا محمد بن مرْوَان الروم صائفةً، فهزمهم، وفيها كانت وَقْعَةُ عثمان بن الوليد بالروم من ناحية أرْمِينية، وهو في أربعة آلاف، والروم في ستين ألفًا، فهزمهم وأكثر فيهم الْقَتْل.

وفي سنة أربع وسبعين غزا عبد الله بن أُمية رُتْبِيل من سِجِسْتَان، وكان رُتْبِيل هائبًا للمسلمين، فلما وصل عبْدُ الله إلى بُسْت[1] راسَله رُتْبيل في طَلَبِ الصلح، وبذلَ ألْفَ ألف، وبعث إليه بهدايَا ورقيق، فأبى عَبْدُ الله قبولَ ذلك، وقال: إن مَلأَ لي هذا الرّواقَ ذَهَبًا وإلاَّ فَلاَ صلح، وكن غِرًّا، فخلَّى لهُ رُتْبِيل البلادَ حتى أوْغَل فيها، وأخذ عليه الشّعَابَ[2] والمضايق وطلب أن يخلِّي عنه وعن المسلمين، ولا يأْخذ منه شيئًا، فأبى رُتْبيل وقال: يَأْخُذُ ثلاثمائة ألف درهم صلْحًا، ويكتبُ لنا بها كِتَابًا، ولا يَغْزُو بلادنا ما دمْتُ أميرًا، ولا يحرق ولا يخرّب.

ففعل، وبلغ ذلك عبد الملك فعزَلَه.

وفيها غزا محمد بن مروان الروم صائفةً، وبلغ أندوليَة، وغزا أيضًا في سنة خمس وسبعين صائفةً حتى خرجت الروم من قبل مَرْعَش[3]، وغزا أيضًا في سنة ست وسبعين من ناحيةِ مَلَطْية.

وفي سنة سبع وسبعين غزا أُميّة بن عبد الله ما وراء النهر فبلغ بُخَارى، وخالف عليه بكير بن وَسَّاج، فصالح أَهْلَ بُخَارى على فِدْيَةٍ قليلة، ورجع لقتال بكر.

---

(١) بست: بالضم: مدينة بين سجستان وغزنين وهراة.

(٢) الشعاب: جمع الشعب: وهو انفراج بين الجبلين؛ أو الطريق.

(٣) مرعش: بالفتح ثم السكون، والعين مهملة مفتوحة، وشين معجمة: مدينة في الثغور بين الشام وبلاد الروم لها سوران وخندق وفي وسطها حصن عليه سور يعرف بالمرواني بناه مروان بن محمد الشهير بمروان الحمار. . . (معجم البلدان).

وفيها غزا أُميّة أيضًا، وَعَبَرَ نهر بَلْخ، فحُوصر حتى جهد هو وأصحابُه، ثم نَجَوْا بعدما أشْرفُوا على الهلاك، ورجعوا إلى مَرْو.

وغزا الوليد بن عبد الملك الصائفة.

ذكر غزو عبيد الله بن أبي بكرة رتبيل

وفي سنة تسع وسبعين غزا عبيد الله بن أبي بكرة بلاد رُتْبِيل، وكان الحجاج قد استعمله على سجستان، وكان رُتْبيل يُؤَدِّي الخراجَ، وربما امتنع منه، فبعث الحجاج إلى عُبَيْد الله بن أبي بكرة يأْمُره بمُنَاجَزَتِه[1]، وألاَّ يرجع حتى يسْتَبيحَ بلادَه، ويهدم قلاَعهُ، ويقتل رجاله.

فسار عُبَيْد الله في أهْلِ البصرة والكوفة، وعلى أهل الكوفة شُريح بن هانىء؛ فمضى عُبيد الله حتى دخل بلادَ رُتبِيل، فأصاب من الغنائِم ما شاء، وهدم حُصُونًا، وغلب على أرض مِنْ أراضيهم، وأصحابُ رُتْبيل من الترك يُخْلُونَ للمسلمين أرضًا بَعْدَ أرْضٍ، حتى أمْعنُوا في بلادِهم، ودَنَوا من مدينتهم، وكانوا منها على ثمانية عشر فرسخًا، فأخذ الترك عليهم الشِّعَابَ والعقاب[2]، فصالحهم عُبيْد الله على سبعمائة ألف يوصلها إلى رُتْبِيل ليمكِّن المسلمين من الخروج، فلقيه شريح فقال: إنكم لا تصالحون على شيء إلاَّ حسبه السلطانُ مِنْ أعطياتكم، ثم قال: يا أهل الإسلام، تَعَاوَنُوا على عدُوِّكم، فقال له ابن أبي بكرة: إنك شيخ قد خَرِفْتَ. فقال شريح: يا أهل الإسلام، مَنْ أراد منكم الشهادة فإليّ، فاتّبعه نَاسٌ من المطَّوِّعَة[3] غير كثير، وفُرسان الناس، وأهل الحفاظ، فقاتلُوا حتى أُصيبوا إلا قليلاً، وجعل شريح يرتجز ويقول: [من الرجز]

أصْبَحْتُ ذا بَثٍّ أُقَاسِي الكِبَرا قد عِشتُ بيْنَ المشركين أعْصُرا
ثُمَّتَ أدركْتُ النبيَّ المُنْذِرا وبعده صِدِّيقَه وعمَرا
ويوْمَ مِهْرَان ويوم تُسْتَرا والجَمْعَ في صِفِّينِهم والنَّهَرا[4]
* هيهاتَ ما أطول هذا العُمرا *

(١) تناجز القوم: تقاتلوا وتسافكوا الدماء.
(٢) العقاب: جمع العقبة، وهو المرقى الصعب من الجبال.
(٣) المطوعة: الذين يتطوعون للجهاد ونحوه.
(٤) مهران، وتسترا، صفين، والنهر: مواضع معروفة كانت فيها معارك مشهورة.

وقاتَل حتى قُتِل في ناس مِن أصحابه، ونجا مَنْ نجا منهم، وخرجا مِنْ بِلاَدِ رُتْبِيل، فاستقبلهم الناسُ بالأطعمة، فكان أحدهم إذا أكل وشبع مات، فحذر الناس وجعلوا يطعمونهم السمن قليلاً قليلاً حتى استمرءُوا.

وفيها أصاب الروم أهل أنطاكية وظفروا بهم، وكان قد أصاب أهل الشام طاعونٌ شديد فلم يَغْزُ تلك السنة أحَدٌ منهم.

ذكر مسير عبد الرحمٰن بن محمد بن الأشعث إلى رُتبِيل وما مَلَكه مِنْ بِلاده

كان مسيره في سنة ثمانين؛ وذلك أنه لما رجع عُبيد الله بن أبي بَكْرة ومَنْ معه من بلاد رُتْبِيل على الحال التي ذكرنا كتَب الحجاجُ إلى عَبْدِ الملك بخبَرِهم، ويُخْبِرُه أنه قد جَهَّز من أهل الكوفة والبَصْرةِ جيشًا كثيفًا ويستأذنُه في إرسالهِ إلى بلادِ رُتْبِيل، فأذِنَ له في ذلك، فجَهَّزَ من أهل الكوفة عشرين ألف فارس ومن أهل البصْرَة مثلها، وأنفق فيها ألْفَيْ ألْفِ سِوَى أعطياتهم، وأعطى كلَّ رجل يوصف بشجاعة وغَناء[1]، وبعث عليهم عَبْد الرحمٰن بن محمد بن الأشعث.

ولما أراد أن يبعثَه على الجيش أتاه إسماعيلُ بن الأشعث، فقال: لا تَبْعَثْه، والله ما جاز جِسْرَ الفُرات فرأى لوالٍ عليه طاعة، وإني أخاف خِلاَفَه.

فقال الحجاج: هو أهْيبُ لي من أن يخالِفَ أمري. وسيَّره على الجيش، فسار حتى قدم سجستان، فجمع أهْلَها فخطبهم ثم قال: إن الحجاج وَلأني ثَغْركم، وأمرني بجهادِ عدُوِّكم الذي استباح بِلاَدَكم، فإياكم أن يتخلَّف منكم أحد فتَسِمه العقوبة. فعسكروا مع الناس، وساروا بأجمعهم، وبلغ الخبرُ رُتْبِيل، فأرسل يعتذر ويَبْذُلُ الخراج، فلم يقبَلْ منه، وسار إليه، ودخل بلاده، فترك له رُتْبِيل أرضًا أرضًا ورُستاقًا[2] رُستاقًا وحِصْنًا حصنًا، وعبْدُ الرحمٰن يحْوي ذلك؛ وكلما حَوى بلدًا بعث إليه عَامِلاً، وجعل معه أعْوَانًا، وجعل الأرْصَاد على العِقَاب والشِّعاب، ووضع المسَالحَ[3] بكل مكان مخُوف، حتى جاز من أرضه أرضًا عظيمة، وملأ الناسُ أيديهم من الغنائم العظيمة، ومنع الناسَ من التوغّل، وقال: نكتفي بما قد أصبناه العام من بلادهم حتى نجبئها ونَعْرِفَها، ويجترىء المسلمون على طرقها، وفي العام المقبل

---

(١) الغناء: النفع والكفاية.

(٢) الرستاق، أو الرزداق: موضع فيه مزدرع، وقرى، أو بيوت مجتمعة.

(٣) المسلح: القوم المسلحون في ثغر أو مخفر للمحافظة.

نأْخذُ ما رواءها إنْ شاء اللّهُ تعالى حتى نقاتلَهم في آخر ذلك على كنوزِهم وذَراريهم في أقصى بلادهم حتى يهلكهم اللّهُ تعالى.

وكتب إلى الحجاج بما فتح اللّهُ عليه وبما يُريد. فكتب الحجاج إليه يُنْكِر فِعْلَه، ويأْمره بالمناجَزَةِ، فأدّى ذلك إلى خروج عبد الرحمٰن على الحجاج على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر غزو المهلب بن أبي صفرة ما وراء النهر

وفي سنة ثمانين قطع المهلَّب نهر بَلْخ ونزل على كَشّ[١]، وكان الحجاجُ قد استعمله على خُرَاسان حين ضَمّها عبْدُ الملك إلى عَمَلِه، فسار وعلى مقدمته أبو الأدهم الزماني في ثلاثة آلاف، وهم في خمسة آلاف، ولما نزل المهلَّب على كَشّ أتاه ابن عم ملك الخُتَّل[٢] فدعاه إلى غَزْو الخُتّل، فوجّهَ معه ابْنَه يزيد، وكان اسم ملك الخُتَّل السَّبل، فسار يزيد وابن عمّ الملك حتى نازَلُوه، ونزل كلُّ واحدٍ منهما ناحية، فبيّت الملك ابْنَ عَمِّه، وأخذه فقتله، فحصر يزيد القَلْعة، فصالحوه على فِدْيةٍ حُملت إليه، ورجع يزيد عنهم. ووجَّه المهلَّبُ ابْنَه حبيبًا، فوافَى صاحِب بُخارى في أربعين ألفًا، فنزل جماعة من العدوّ قريةً، فسار إليهم حَبيب في أربعة آلاف فقتلهم وأحرق القرية فسمّيت المُحْتَرِقَة. ورجع حبيب إلى أبيه، وأقام المهلَّب بكَشّ سنتين، فقيل له: لو تقدّمْتَ إلى ما وراء ذلك! فقال: ليت حَظِّي من هذه الغَزْوة سلامةُ هذا الجند، وَعَوْدهم سالمين، ثم صالح أَهْل كَشّ على فِدْيةٍ يأْخذها منهم.

وفي سنة إحدى وثمانين سيَّر عبد الملك ابنه عُبيد الله ففتح قَالِيْقَلا.

ذكر دخول الديلم[٣] قزوين[٤] وقتلهم

كانت قَزْوين ثَغْرًا للمسلمين من ناحيةِ الدَّيْلَم، فكانت العساكِرُ لا تَبْرَحُ مرابطةً بها، يتحارَسُونَ ليلاً ونهارًا، فلما كان في سنة إحدى وثمانين كان في جملة من رابطَ بها محمد بن أبي سبْرة الجعفي، وكان فارِسًا شجاعًا، فرأى النّاسَ يتحارسون فلا

---

(١) كش: قرية على ثلاثة فراسخ من جرجان على الجبل، أو قرية من قرى أصبهان.

(٢) ختل: كورة بما وراء النهر.

(٣) الديلم: جيل سموا بأرضهم في قول بعض أهل الأثر وليس باسم لأب لهم... (معجم البلدان).

(٤) قزوين: بالفتح ثم السكون، وكسر الواو، وياء مثناة من تحت ساكنة، ونون: مدينة مشهورة بينها وبين الري سبعة وعشرون فرسخًا... (معجم البلدان).

ينامُونَ الليل، فقال: أتخافونَ أنْ يدخُل عليكم العدُو مدينتكم؟ قالوا: نعم. قال: لقد أنْصفُوكم إنْ فَعلوا، افتَحُوا الأبواب، ولا بأس عليكم. ففتحوها، وبلغ ذلك الدَّيلَم، فسارُوا إليهم وبيَّتُوهم، وهجموا إلى البلد؛ فقال ابن أبي سبْرة: أغْلِقوا أبواب المدينَةِ علينا وعليهم، فقد أنصفونا، وقاتِلُوهم.

فغلَّقُوا الأبواب وقاتَلُوهم، وأبْلَى ابْنُ أبي سبْرَة بلاءً عظيمًا، وظَفِر بهم المسلمون، فلم يفْلِتْ من الدَّيْلَم أحدٌ، واشتهر اسْمُه بذلك، ولم يُقْدِم الدَّيْلَمُ بعدها على مفارقة أرضهم، فصار محمد فارس ذلك الثغر المشار إليه. والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

ذكر فتح قلعة نيزك بباذغيس[1]

وفي سنة أربع وثمانين فتح يزيد بن المهلب قلعة نَيْزَك، فلما بلغه خروجه عن القَلْعَةِ سار إليها وحاصَرَها. فملكها وما فيها من الأموال والذخائر، وكانت مِنْ أحْصَنِ القِلاَع وأمْنَعها، وكان نَيْزك إذا رآها سجدَ لها تعظيمًا، وفيها يقول كعب بن معْدان الأشقري[2]: [من البسيط]

وبـاذَغِـيـسُ الـتـي مَـنْ حَـلَّ ذرْوَتَـهـا ... عَـزَّ الـمـلـوكَ فـإنْ شَـاء جَـارَ أوْ ظَـلَـمـا
مـنِـيـعـةٌ لـم يَـكِـدْهـا قَـبْـلَـه مَـلِـكٌ ... إلاَّ إذا واجَـهـتْ جَـيْـشًـا لـه وجَـمـا
تُـخَـال نِـيـرانُـهـا من بُـعْـدِ مـنـظـرهـا ... بـعـضَ الـنـجـوم إذا مـا لَـيْـلُـهـا عَـتَـما

وهي أبيات عديدة.

وقال أيضًا يذكر يزيد رحمه الله وفتحها: [من الطويل]

نَـفَـى نَـيْـزكًـا عـن بـاذَغِـيس ونَـيْـزَكٌ ... بـمـنـزلـةٍ أعـيَـا الـمـلـوكَ اغْـتِـصـابُـهـا
مُـحـلِّـقَـة دون الـسـمـاءِ كـأنـهـا ... غَـمَـامَـةُ صيْـفٍ زَلَّ عـنـهـا سَـحَـابُـهـا
ولا يـبْـلُـغُ الأرْوى شـمـارِيـخَـها الـعُـلاَ ... ولا الـطَّـيـر إلاَّ نَـسـرُهـا وعُـقَـابُـهـا[3]
ومـا خُـوِّفَـتْ بـالـذِّئـب وِلْـدانُ أهْـلِـهـا ... ولا نَـبـحَـت إلاَّ الـنـجـومَ كِـلاَبُـهـا

---

(١) باذغيس: ناحية من أعمال هراة ومرو الروذ.

(٢) هو كعب بن معدان الأشقري. والأشاقر: حي من الأزد. وهو ن شعراء خراسان، وقد استفرغ شعره في مدح المهلب وولده. وروي عن الفرزدق أنه كاني قول: «شعراء الإسلام أربعة: أنا وجرير والأخطل وكعب الأشعري»... (معجم المرزباني).

(٣) الأروى: اسم جمع للأراوي، والأراوي: جمع الأروية، وهي أنثى الوعول. والشمراخ: العثكال عليه بسر؛ أو غصن دقيق رخص ينبت في أعلى الغصن الغليظ، خرج في سننه رخصًا.

ذكر فتح المصيصة[١]

وفي سنة أربع وثمانين أيضًا غزا عبْدُ الله بن عبد الملك الرُّومَ، ففتح المصِّيصة وبنَى حِصْنها، وجعل فيها ثلاثمائة مقاتل من ذوي البأس، ولم يكن المسلمون سكنوها قبل ذلك، وبنى مسْجدها.

وغزا محمد بن مَرْوَان أرمينية.

وفي سنة خمس وثمانين غَزَا المفضل بن المهلب باذَغِيس ففتَحها وأصاب مغْنَمًا فقسمه، فأصاب كلَّ رجل ثمانمائة، ثم غزا أخْرُون وشُومان[٢]، فغنم وقَسَّم ما أصاب.

وفيها غزا محمد بن مَرْوان أرمينية، فصاف فيها وشتَا. انتهى ذكر الغزوات والفتوحات.

ذكر الحوادث الكائنة في أيام عَبْد الملك بن مروان منذ استقلَّ بالأمر خلاف ما ذكرناه، وذلك على حُكم السنين

قد ذكرنا حوادث السنين في أخبار عبْد الله بن الزبير رضي الله عنهما إلى أنْ قُتِل في سنة ثلاث وسبعين، وذكرنا ما هو متعلِّقٌ بهذه الدولة الأُموية في أثناء أخبار عبد الملك، فلنذْكُرْ خلاف ذلك.

سنة ثلاث وسبعين:

ذكر ولاية محمد بن مروان الجزيرة[٣] وأرْمِينِيَة

في هذه السنة استعمل عَبْدُ الملك أخاه محمدًا على الجزيرة، وكانت بُحيْرةُ

---

(١) المصيصة: مدينة على شاطىء جيحان من ثغور الشام.

(٢) شومان: بالضم والسكون، وآخره نون: بلد بالصغانيان من وراء نهر جيحون وهو من الثغور الإسلامية وفي أهله قوة وامتناع عن السلطان، ينبت في أراضيها الزعفران... (معجم البلدان).

(٣) الجزيرة: هذا الاسم أطلقه أهل الأندلس أرادوا بلاد مجاهد بن عبد الله العامري: وهي جزيرة متورقة وجزيرة ميورقة... أو الجزيرة: موضع باليمامة فيه نخل لقوم من تغلب... (معجم البلدان).

أَرْمِينِيَة مُباحةً لم يعْرِضْ لها أحَد، بل يَأْخُذُ منها منْ شاء، فمنع من صَيْدا وجعل عليه منْ يأْخذه ويبيعه ويأْخذ ثمنَه، ثم صارت بعْده لابنه مرْوَان، واستمرّ ذلك بعده.

وفيها عزل عبْدُ الملك خالد بن عبْد الله عن البصرة، واستعمل عليها أخاه بِشْر بن مروان، فاجتمع له المِصْران: الكوفة، والبصرة، فسار بِشْر إلى البصرة، واستعمل على الكوفة عَمْرو بن حُريث.

وحجَّ بالناس في هذه السنة الحجاج وهو على مَكَّة واليمن واليمامة، وكان على قضاءِ الكوفة شُريح بن الحارث[1]، وعلى قضاء البصرة هشام بن هُبيرة، وكان على خراسان بُكير بن وسّاج.

وفيها مات عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما بمكة وكان سبب وفاته أنَّ الحجاج أمر بعْضَ أصحابه، فضرب ظَهْر قَدمِه بزُجّ رُمْح مسموم، فمات منها، وعاده الحجاجُ في مرضِه، فقال: منْ فعل بك هذا؟ فقال: أَنت، لأنك أمرْت بحمْلِ السلاح في بَلَدٍ لا يحلُّ حمْلُهُ فيه. وكانت وفاتُه بعد قَتْل ابن الزبير بثلاثة أشهر، وكان عمره سبعًا وثمانين سنة، ومات غيره من الصحابة رضي الله عنهم.

سنة أربع وسبعين:

في هذه السنة عزل عَبدُ الملك طارقًا عن المدينة، واستعمل عليها الحجاج، ففعل ما قدَّمْنَا ذكره.

وفيها استقضى عبد الملك أبا إدريس الخَوْلاني.

وفيها استعمل عبد الملك أُميّة بن عَبْد الله بن خالد بن أسِيد، على خُرَاسان، وعزل عنها بُكير بن وسّاج، فسار أُميّة إليها، فلقيه بَحِير بن وَرْقاء بنيسابور، وأخبره عن خراسان وما يحسن به طاعةُ أهلها، ورفع على بُكير أموالاً أخذها وحذره غَدْرَه، وسار معه حتى قدم مرو، وكان أُميَّةُ كريمًا فلم يعرض لبُكير ولا لعُمَّاله، وعرض عليه شُرطته، فأبى فولاَّها بَحِير بن وَرْقاء، ثم خَيَّرَ بُكيرًا أن يولِّيه ما شاء مِنْ خُراسان، فاختار طخارستان[2].

قال: فتجهَّزَ لها، فأنفق مالاً كثيرًا؛ فقال بحِير لأمية: إنْ أَتَى طخارستان خَلَعك، وحَذَّره فلم يُولّه.

---

(١) هو أبو أمية شريح بن الحارث بن قيس بن الجهم بن معاوية بن عامر بن الرئاش بن الحارث بن معاوية بن ثور بن مرتع. . . كان من كبار التابعين، وأدرك الجاهلية، واستقضاه عمر بن الخطاب رضي الله عنه على الكوفة. . . (وفيات الأعيان ٢: ٤٦٠).

(٢) طخارستان: هي ولاية واسعة كبيرة تشتمل على عدة بلاد، وهي من نواحي خراسان.

وفيها استعمل عبْدُ الملك حَسَّانَ بن النعمان الغَسَّاني على إفريقية، وسيذكر ذلك إن شاء الله في أخْبَار إفريقية.

وحجَّ بالناس في هذه السنةِ الحجاج بن يوسف.

وفيها توفي بشر بن مروان بالبصرة، واستخلف قبل وفاته خالد بن عبْد الله بن خالد على البصْرة، وكان خليفته على الكوفة عَمْرو بن حُريث؛ فكانوا على ذلك إلى أن قدم الحجاجُ بن يوسف الثقفي أميرًا سنة خمس وسبعين.

ذكر ولاية الحجاج بن يوسف العراق وما فعله عند مقدمه

وفي هذه السنة استعمل عَبْدُ الملك بن مَرْوان الحجاج بن يوسف الثقفي على العراق دون خراسان وسجستان، وأرسل إليه بعهده وهو بالمدينة، فسار في اثني عشر راكبًا على النَّجَائبِ[١] حتى دخل الكوفة حين انتشر النهارُ، فبدأ بالمسجد، فصعد المنبر وهو متلثم بعمامة خَزٍّ حمراء، فقال: عليّ بالناس، فحسبوه خارجيًا، فهمُّوا به وهو جالس على المنبر ينتظِرُ اجتماعَهم، فاجتمع الناسُ وهو ساكت قد أطال السكوت، فتناول عُمَير بن ضابِىء البرجمي حَصًى وقال: ألا أحْصِبُه[٢] لكم! فقالوا: أمْهِل حتى ننظر. وقيل: إن الذي همّ بحَصْبه محمد بن عُمير وقال: قاتله الله ما أعياه وأدمّه[٣]، والله إني لأحسب خبْرهُ كرؤياه.

فلما تكلم الحجاجُ جعل الحصى ينتثر من يَدِهِ وهو لا يَعْقِل، فلما رأى عيونَ الناسِ إليه حسر اللثامَ عن وجْهه ونهض فقال: [من الوافر]

أنــا ابــن جَــلا وطــلاعُ الــثــنــايــا متى أضع الـعـمـامـة تـعْـرِفـونـي[٤]

أما والله إني لأحمل الشر محْمله، فآخذهُ بفِعْله، وأجزيه بمثله، وإني لأرى رؤوسًا قد أينعَتْ وحان قِطافها، وإني لصاحبها، وإني لأنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى، قد شمرَتْ عن ساقها تشميرًا. [من الرجز]

هــذا أوَانُ الــشــدِّ فــاشْــتــدِّي زِيَــمْ قــد لـفَّـهـا الـلـيـلُ بـسـوَّاقٍ حُـطَـم[٥]

---

(١) نجائب الإبل: خيارها.

(٢) أحصبه لكم: أي أرميه بالحصباء ونحوها.

(٣) أدم: أتى فعلاً قبيحًا؛ أو ولد ولدًا دميم الخلقة.

(٤) ابن جلا: أي الصبح؛ والثنايا: ما صغر من الجبال.

(٥) الزيم: جمع الزيمة، وهي القطعة من الإبل. واشتدي: أي أسرعي.

لَـيـس بـراعـي إبـلٍ ولا غَـنَـم ولا بـجـزَّارٍ عـلـى ظَـهْـرِ وَضَـم[١]
قـد لـفَّـهـا الـلَّـيْـلُ يَـعْـصْـلَـبِـيّ أرْوع خَـــرَّاج مِـــن الـــدوِّيّ[٢]
* مـهـاجـرٍ لـيـس بـأعْـرابـي *
قـد شـمّـرت عـن سـاقـهـا فـشُـدُّوا وجـدّت الـحـرْبُ بِـكـم فـجِـدُّوا
والـقَـوْسُ فـيـهـا وَتَـرٌ عُـرُدُّ مـثـل ذراع الـبَـكْـرِ أو أشـدُّ[٣]
لـيـس أوان يـكـره الـخـلاطُ جـاءت بـه والـقُـلُـصُ الأعـلاط[٤]
* يـهـوى هُـوِيّ سـابِـق الـغُـطَـاط[٥] *

إني والله يا أهل العراق ما يُقَعْقَع لي بالشِّنان[٦]، ولا يُغمز جانبي تَغْماز التين، ولقد فُرِرْتُ[٧] عن ذَكَاءٍ، وفُتِّشت عن تَجْربَةٍ، وجريْتُ إلى الغايةِ القُصْوَى. ثم قرأ: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [النحل: ١١٢]. فأنتم أولئك وأشباه أولئك. إنَّ أمير المؤمنين عبد الملك نَثر كِنَانَتَهُ فَعَجَم[٨] عِيْدَانَها عُودًا عودًا، فوجدني أمرَّها[٩] عُودًا، وأصلبها مكسرًا، فوجَّهني إليكم، ورَمى بي في نُحوركم، فإنكم أهْلُ بغْي وخِلاَف وشقاق ونِفَاق، طالما أوضعتم في الشرّ، واضطجعْتُم في الضلالة، وسنَنْتُم سُنَن الغيّ، فاستوثقوا واستقيموا، فوالله لأُذِيقَنَّكم الهَوَان ولأمْرِينّكم[١٠] حتى تَدِرّوا، ولألحوَنَّكم[١١] لَحْو العُودِ، ولأعصبنّكم عصْبَ السَّلَم[١٢] حتى تذِلُّوا، ولأضربنّكم ضَرْبَ غَرائِب الإبلِ حتى تَذَرُوا العِصْيان وتنقادُوا، ولأقرعنَّكم قَرعَ المَرْوة[١٣] حتى تلينوا. إني والله ما أعِدُ إلاَّ وفَيْت، ولا أهمُّ إلا أمضيت، ولا أخلُقُ[١٤] إلاَّ فَرَيْت، فإياي وهذه الجماعات، فلا يركبنَّ رجلٌ إلاَّ

---

(١) الوضم: ما وقى به اللحم عن الأرض.
(٢) الدوية: الفلاة.
(٣) عرد: شديد.
(٤) الأعلاط: وهي من الإبل التي لا أرسان لها.
(٥) الغطاط: ضرب من الطير.
(٦) الشنان: جمع الشنة، وهي القربة البالية اليابسة.
(٧) فُرّ: جُرّب واختير.
(٨) عجم عيدانها: عضها واختبرها.
(٩) أمرها عودًا: أصلبها وأقواها.
(١٠) يقال: مرى الناقة مريًا: أي مسح ضرعها لتدر.
(١١) لحى العصا: قشرها.
(١٢) العصب: القطع. والسلم: شجر من العضاه.
(١٣) المروة: حجارة بيض براقة رقاق تقدح منها النار.
(١٤) الخلق: التقدير.

وحده، أُقسم بالله لتُقْبِلُنَّ على الإنصاف، ولتَدعُنَّ الإرجاف[١]، وقيلاً وقالاً، وما يقول فلان، وأخبرني فلان، أو لأدعنَّ لكلِّ رجُلٍ منكم شُغلاً في جسدِهِ، فيم أنتم وذاك، والله لتستقيمُنَّ على الحقِّ أو لأضربنَّكم بالسيف ضَرْبًا يدعُ النساء أيامى والوِلْدَان يتَامى، وحتى تذَرُوا السُّمَّهَى[٢] وتُقْلِعُوا عن هاوها، ألا إنه لو ساغ لأهْلِ المعصية معصيتهم ما جُبِي فَيءٌ ولا قُوتِل عَدُوّ، ولعطِّلت الثغورُ، ولولا أنهم يغزون كرهًا ما غزوا طَوْعًا، ولقد بلغني رَفْضُكم المهلَّب وإقبالكم على مِصْركم عاصِين مخالفين وإني أُقسم باللّهِ لا أجدُ أحدًا من عسكره بعد ثالثةٍ إلاَّ ضربْتُ عُنقه، وأنهبتُ داره.

ثم أمر بكتاب عَبْدِ الملك فقُرِىء، فلما قال القارىء: بسم الله الرحمٰن الرحيم. مِن عبد الملك بن مرْوان أمير المؤمنين إلى مَنْ بالكوفة من المسلمين: سلامٌ عليكم، فإني أحمد الله إليكم ـ فلم يقُلْ أحد شيئًا، فقال: اكفف، ثم قال: يا عبيد العصا، يُسلِّم عليكم أميرُ المؤمنين فلا يردّ رادّ منكم السلام. هذا أدَبُ ابْن نُهيَّة[٣]، أدَّبكم به، والله لأُؤَدبنكم غير هذا الأدَب، أو لتستقيمُنَّ. ثم قال للقارىء: اقرأْ. فلما بلغ سلام عليكم قالوا بأجمعهم: وعلى أمير المؤمنين السلام ورحمة الله. ثم نزل ودخل منزله، ودَعا العُرفاء وقال: ألْحِقُوا الناسَ بالمهلَّب، وائتوني بالبراءات[٤] بمُوافَاتهم، ولا تُغْلقُنّ أبواب الجسر ليلاً ولا نهارًا حتى تَنْقَضِي هذه المدة.

قال: فلما كان في اليوم الثالث سمع تكبيرًا في السوقِ، فخرج وجلس على المنبر، فقال: يا أهل العراق، يا أهل الشقاق والنِّفَاقِ ومساوىء الأخلاق، إني سمعْتُ تكبيرًا ليس بالتَكْبِيرِ الذي يُرَاد به وجْهُ اللّهِ، ولكنه التكبيرُ الذي يُرادُ به الترهيب، وقد عرفْتُ أنها عجاجةٌ[٥] تحتها قَصْفٌ[٦]، يا بني اللَّكِيعة[٧]، وعبِيد العصا، وأبناء الأيامى، ألا يرْبع رجل منكم على ظَلْعِهِ[٨] ويُحسن حَقْن دمِه، ويعرف موضع قَدَمه، فأُقسم بالله لَأُوشِكُ أن أُوقِع بكم وقعةً تكون نَكَالاً لما قَبْلها وأدبًا لما بعْدها.

فقام إليه عُمير بن ضابىء الحنظلي التميمي، فقال: أصلح اللّهُ الأمير، أنا في هذا البعْثِ وأنا شيخٌ كبِير علِيل، وابْنِي هذا هو أقْوى مني على الأسفار أفَتَقْبلُه مِنِّي

(١) الإرجاف: الخبر الكاذب المثير للفتن والاضطراب.
(٢) المسهى: الباطل والكذب.
(٣) ابن نهيّة: قيل: إنه رجل كان على الشرطة بالبصرة قبل الحجاج.
(٤) البراءة: الإعذار والإنذار.
(٥) العجاج: الغبار، أو الدخان؛ وواحده عجاجة.
(٦) القصف: شدة الريح. (٧) اللكيعة: الحمقاء من الإماء.
(٨) يقال: اربع على ظلعك: أي ارفق على نفسك فيما تحاوله.

بدِيلاً؟ فقال: نَفْعَل. ثم قال: ومن أنت؟ قال: أنا عُمير بن ضَابىء. قال: أسمعْتَ كلامَنا بالأمْس! قال: نعمْ. قال: ألسْت الذي غَزَا عُثمانَ بْنَ عفّان؟ قال: بلى. قال: يا عدوَّ الله، أفلا بعثت بدِيلاً إلى أمير المؤمنين، وما حمَلَكَ على ذلك؟ قال: إنه حبس أبي، وكان شيخًا كبيرًا. قال: أولست القائل: [من الطويل]

همَمْتُ ولم أفعلْ وكِدْتُ وليتني ... تركتُ على عُثمانَ تَبْكِي حلائلُه

إني لأحسب أنَّ في قتلك صلاحَ المِصْرين، وأمر به فضُربت رقَبتُه، وأنهب ماله، وأمر مناديًا فنادى: ألا إنّ عُمَير بن ضابىء أتى بعد ثالثة، وكان قد سمع النداءَ، فأمَرْنَا بقَتْله، ألا وإن ذِمَّةَ اللّهِ بريئةٌ ممَّنْ بات الليلة من جُنْدِ المهلب.

فخرج الناس فازدحموا على الجِسْرِ، وخرج العُرَفاء إلى المهلَّب وهو برامَهُرْمُز[١]، فأخذوا كتُبه بالموافاةِ، فقال المهلَّب: قدم العراق اليوم رجل ذكر، اليَوْم فويل العدو.

وقال: ولما قَتَل الحجاج عُميْرًا لقي إبراهيمُ بن عامر الأسدي عبْد الله بن الزَّبير رضي الله عنهما في السوق، فسأله عن الخبر، فقال: [من الطويل]

أقولُ لإبراهيم لَمّا لقِيتُه ... أرعى الأمْرَ أضْحَى مُنْصِبًا مُتَشَعِّبا

تَجهَّزْ فأسْرِعْ والحقِ الجيْشَ لا أرى ... سِوى الجيش إلا في المهالك مذْهَبا

تخيَّرْ فإمَّا أن تزورَ ابْنَ ضَابىءٍ ... عُميْرًا وإما أن تَزُورَ المُهلَّبا

هما خُطَّتا خَسْفٍ نَجاؤُكَ مِنْهُمَا ... ركوبُك حَوْليًا من الثلج أشْهَبا[٢]

فحال ولو كانت خُراسَان دُونَه ... رآها مَكانَ السُّوقِ أوْ هِي أقْربا

قال: وكان الحجاجُ أولَ منْ عاقب بالقَتْلِ على التخلُّف عن الوجْهِ الذي يُكتب إليه.

قال الشعبي[٣]: كان الرجل إذا أخَلَّ بوَجْهِه الذي يكتب إليه زَمن عمر وعثمان وعليّ رضي الله عنهم نُزِعت عِمامتُه ويُقام للناس، ويُشهر أمره، فلما ولي مصعب قال: ما هذا بشيء، وأضاف إليه حلْق الرؤوس واللِّحى، فلما ولي بِشْر بن مروان زاد

---

(١) رامهرمز: مدينة مشهورة بنواحي خوزستان، وهي من بين مدن خوزستان التي تجمع النخل والجوز والأترنج، وليس ذلك يجتمع بغيرها من مدن خوزستان. . . (معجم البلدان).

(٢) الحولي: المهر أتى عليه الحول. والأشهب: ما يخالطه بياض.

(٣) الشعبي: هو أبو عمرو عامر بن شراحيل بن عدي بن ذي كبار، الشعبي، وهو من حمير وعداده في همذان؛ وهو كوفي تابعي جليل القدر وافر العلم. . . (وفيات الأعيان ٣: ١٢).

فيه، فصار يُرْفَع الرجلُ عن الأرض ويسمَّر في يديه مسماران في حائط، فربما مات، وربما خَرق المسمار يدَه، فسلم.

فلما ولي الحجاج قال: كلُّ هذا لعِب، أضْربُ عُنُقَ من يُخِلّ بمكانه من الثغر.

قال: وكان قدوم الحجاج في شهر رمضان، فوجَّه الحكم بن أيوب الثقفي على البصْرة أميرًا، وأمرَه أنْ يشتدَّ على خالد بن عبْد الله، فبلغ الخبر خالدًا فخرج عن البَصْرَةِ فَنَزَلَ الجَلْحاء[١] وشيّعه أهْل البصْرة فقسم فيهم ألف ألف.

ذكر وثوب أهل البصرة بالحجاج

قال: ثم خرج الحجاج من الكوفة إلى البصْرة، واستخلف على الكوفة عرْوةَ بن المغيرة بن شُعْبة. فلما قدم البصرة خطبهم بمِثْلِ خطبته بالكوفة، وتوعَّد منْ رآه منهم بعد ثالثة، ولم يلحق بالمهلَّب، فأتاه شَرِيك بن عَمْرو اليَشْكري وكان به فتْق[٢]، فقال: أصلح اللّهُ الأمير، إن بي فَتْقًا، وقد رآه بِشْر بن مروان فعذرني، وهذا عطائي مرْدُودٌ في بيْتِ المال، فأمر به فضُرِبت عُنقه، فلم يَبْقَ بالبصرة أحَدٌ من عسْكر المهلب إلاّ لحق به.

ثم سار الحجاج إلى رُسْتَقُباذ[٣]، وبينها وبين المهلب ثمانية عشر فرسخًا، وقال حين نزل بها: يا أهل المِصْرَيْن، هذا المكان والله كانكم شهرًا بعْد شهر، وسنةً بعد سنةٍ، حتى يُهْلِكَ اللّهُ عدوَّكم، هؤلاء الخوارج المُطِلين عليكم.

ثم خطب يومًا فقال: إن الزيادة التي زادكم إياها ابْنُ الزبير إنما هي زيادةُ مُلْحِد فاسقٍ منافقٍ، ولسنا نُجيزها ـ وكان مصعب قد زاد الناسَ في العطاء مائة مائة ـ فقال عَبْدُ الله بن الجارود: إنها ليست زيادة ابن الزبير، إنما هي زيادة أمير المؤمنين عبْد الملك قد أنفذها وأجازها على يَدِ أخيهِ بِشر.

فقال له الحجاج: ما أنت والكلام! لتُحْسِنَنَّ حَمْل رَأْسِك أو لأسْلُبَنَّك إيّاه. فقال: ولِم؟ إني لك لَنَاصِحٌ، وإن هذا لقول مَنْ وَرائي.

فنزل الحجاج ومكث أشهرًا لا يذكر الزيادةَ، ثم أعدا القول فيها، فردَّ عليه ابن الجارُود مِثْل رده الأول، فقام مصْقَلة بن كرب العَبْدِي، فقال: إنه ليس للرعيَّةِ أن تردَّ

---

(١) الجلحاء: موضع على ستة أميال من الغوير المعروف بالزبيدية بين العقبة والقاع.
(٢) الفتق: بروز جزء من الأمعاء من فتحة في جدار البطن.
(٣) رستقباذ: موضع من أرض دستوا.

على راعِيها، وقد سمِعْنا ما قال الأمير، فسمْعًا وطاعةً فيما أحبّ وكرِهْنَا. فسبّه ابن الجارود وقام فأتاه وجوهُ الناسِ فصوّبوا رأْيه وقولَه، وقال الهذيل بن عمران البُرْجُمِي وعبد الله بن حكيم بن زِياد المجاشعي وغيرهما: نحن معك وأعوانك، إن هذا الرجل غير كافٍ حتى ينقصنا هذه الزيادة فهلمّ نبايعْكَ على إخراجه من العراق، ثم نكتب إلى عبْد الملك أن يُولِّي علينا غَيْره، فإنْ أبى خلعناه، فإنه هائب لنا ما دامت الخوارج.

فبايعه الناسُ سِرًّا، وأعطَوْه المواثيقَ على الوفاء، وبلغ الحجاج ما هم فيه، فأحرز بيْتَ المال.

فلما تَمَّ لهم أمْرُهم أظهروه، وذلك في شهر ربيع الآخر سنة ست وسبعين، واجتمع الناسُ على ابْن الجارود حتى لم يبْقَ مع الحجاج إلاَّ خاصَّتُه وأهل بيته، وأرسل الحجاج أعينَ صاحب حَمَّام أعْيَن[١] إلى ابن الجَارُود يَسْتَدعِيه، فقال: لا كرامةَ لابْنِ أبي رِغَال، ولكن ليخرج عَنَّا مذمومًا مَدْحُورًا، وإلا قاتلناه. قال أعْين: فإنه يقولُ لك: أتَطِيب نفسًا بقَتْلك وقَتْلِ بيتك وعشيرتك! والذي نفسي بيده لئن لم تَأْتِ لأدعنَّ قَوْمَك وأهلك خاصة حديثًا للغابرين.

وكان الحجاجُ قد حمَّل أعْين هذه الرسالةَ؛ فقال ابْنُ الجارود: لولا أنك رسولٌ لقتلتُك يا ابْنَ الخبيثة، وأمَر فَوُجِىء[٢] في عُنُقِه، وأُخْرِج. وأقبل ابْنُ الجارود بالناس زَحْفًا نحو الحجَّاج، وكان رأيهم أن يُخْرِجُوه عنهم ولا يقاتلوه. فلما صاروا إليه نَهبُوا مَا في فُسْطَاطه، وأخذوا ما قَدرُوا عليه مِنْ مَتَاعِه ودَوابّه، وجاء أهْلُ اليمن فأخذوا امرأتَه ابنة النعمان بن بشير، وجاءت مُضَر فأخذوا امرأتَه الأخرى أم سلمة بنت عبد الرحمٰن بن عمرو أخي سُهيل بن عمرو.

ثم إن القوم انصرفوا عن الحجاج وتركوه. فأتاه قَوْمٌ من أهلِ البصْرَةِ فصاروا معه خوفًا من مُحَاربةِ الخليفة، فجعل الغَضْبان بن القَبَعْثَرى الشيباني يقول لابْنِ الجارود: تَعَشَّ بالجدْي قبل أن يتغدَّى بك. أما ترى مَن قد أتاه منكم؟ ولئن أصبح ليكثرنّ ناصره، ولتضعُفَنَّ مُنّتكم[٣].

فقال: قد قَرُب السماء، ولكنا نُعَاجِله بالغَدَاة، وكان مع الحجاج عثمان بن قَطَن، وزياد بن عمرو العَتَكي، وكان زياد على شرطته بالبصرة، فقال لهما: ما تريان؟

(١) حمام أعين: بتشديد الميم: بالكوفة.
(٢) وجأه: دفعه بجمع كفه في الصدر أو العنق.
(٣) المنة: القوة.

فقال زياد: أرى أنْ آخُذَ لك من القوم أمَانًا وتخرج حتى تلحقَ بأمير المؤمنين، فقد ارفضَّ أكْثَرُ الناس عنك، ولا أرى لك أن تُقَاتِل بمن معك.

فقال عثمان بن قَطَن الحارثي: لكني لا أرَى ذلك، إنَّ أمير المؤمنين قد شركك في أمْرِه، وخلطك بنفسه، واستنصحك وسلَّطك، فسرتَ إلى ابْنِ الزبير وهو أعظَمُ الناسِ خَطَرًا فقتلته، فولاَّكَ اللّهُ شرفَ ذلك وسَنَاءَه، وولاَّكَ أمير المؤمنين العِراقَيْن، فحيث جريت إلى المَدَى وأصبْتَ الغرضَ الأقصى تخرج على قَعُودٍ[1] إلى الشام، والله لئن فعلْت لا نِلْت من عبد الملك مثل الذي أنْتَ فيه من السلطان أبدًا، ولكني أرى أن نمشي بسيوفنا معك فنقاتل حتى نَلْقَى ظفَرًا أو نموت كرامًا.

فقال له الحجاج: الرّأْيُ ما رأيتَ، وحفظ هذه لعثمان، وحقدها على زياد، وجاء عامر بن مِسمع إلى الحجاج فقال: إني قد أخَذْتُ لك أمانًا من الناس، فجعل الحجاج يرفَعُ صوْتَه ليسمع الناس ويقول: والله لا أُؤَمِّنهم أبدًا حتى يأْتوا بالهُذَيْل وعبد الله بن حكيم. ومرّ عباد بن الحصين الحَبطِيّ بابن الجارُود وابن الهُذَيل وابن حكيم وهم يتناجَون، فقال: أشركونا في نَجْوَاكم. فقالوا: هيهات أن يدخل في نَجْوَانا[2] أحد من الحَبَط، فغضب وسار إلى الحجاج في مائةِ رجل، فقال له الحجاج: ما أبالي منْ تخلَّفَ بَعْدك. وأتاه قُتيبة بن مسلم في قومه من بني أعصُر، وكان الحجاج قد يئس من الحياة، فلما جاءه هؤلاء اطمأنَّ، ثم جاءه سَبْرة بن علي الكلابي، وسعيد بن أسلم بن زُرْعة، وجعفر بن عبد الرحمٰن بن مِخْنَف الأزدي، وأرسل إليه مسمع بن مالك بن مسمع يقول: إن شئتَ أتيْتُكَ، وإن شئتَ أقمْتُ وثبطت الناس عنك. فقال: أقم وثَبِّط الناس عني.

فلما اجتمع للحجاج عددٌ يُمْنَع بمثلهم خرج، وعَبَّأ أصحابه، وتلاحق الناسُ به، فلما أصبح إذا حَوْله ستة آلاف، فقال ابن الجارود لعُبَيْد الله بن زياد بن ظبيان: ما الرأْيُ؟ قال: تركْتُ الرأْيَ أمس حين قال لك الغضبان: تَعَشَّ بالجدي قبل أن يتغدّى بك. وقد ذهب الرَأْيُ وَبقِي الصبر.

فحرَّضَ ابْنُ الجارود الناس، وزحف بهم وعلى ميمنته الهُذَيل بن عمران، وعلى ميْسرته عُبيْد الله بن زياد بن ظبيان، وتقدم الحجاج وعلى ميمنته قُتَيبة بن مسلم، ويقال عَبَّاد بن الحصين، وعلى ميسرته سعيد بن أسْلَم، فحمل ابْنُ الجارود في

---

(١) القعود: البكر إلى أن يصير في السادسة.

(٢) النجوى: القوم المتناجون، والنجوة: المرتفع من الأرض.

أصحابِه حتى جاوز أصحاب الحجاج، فعطف الحجاج عليه، ثم اقتتلوا ساعةً وعاد ابْنُ الجارُود بظَفَرٍ، فأتاه سَهْمٌ غَرْبٌ[١] فقتَلَه، ونادى منادِي الحجاج بأمانِ الناسِ إلا الهذيل وعبد الله بن حكيم، وأمر ألاَّ يُتبع المنهزمون. فانهزم عُبَيد الله بن زياد بن ظبيان، فأتى سعيد بن عباد الجُلَنْدَى الأزدي بعمان، فقيل لسعيد: إنه رجل فاتك فاحذره، فلما جاء البطيخ بعث إليه بنصف بطيخة مسمومة، وقال: هذا أوّل شيء جاءنا منه، وقد أكلْتُ نِصْف هذه، وبعثْتُ إليك بنصفها؛ فأكلها عُبَيْد الله فأحَسَّ بالشر، فقال: أردْتُ أنْ أقتُلَه فقتلني.

قال: وحُمل رأْس ابن الجارود وثمانيةَ عشر من وجوه أصحابه إلى المهلب، فنُصبت ليراها الخوارجُ وييأسوا من الاختلاف.

وحبَس الحجاج عُبيد بن كَعْب النميري ومحمد بن عمير بن عطارد، فإنه كان قد بعث إلى كلٍّ منهما يقول: هلُمَّ إليّ فامْنَعْنِي، فقال: إن أتيْتنِي منعْتُك. وحبس الغضبان وقال: أنْت القائل: تعَشَّ بالجَدْي قبل أن يتغدَّى بك! فقال: ما نفعَتْ مَنْ قيلتْ له ولا ضرَّتْ مَنْ قيلتْ فيه! فكتب عبد الملك إلى الحجاج بإطلاقه.

ذكر ما كلم به الحجاج أنس بن مالك رضي الله عنه وشكواه إياه وما كتب به عبد الملك من الإنكار على الحجاج وسبِّه بسببه

قال: كان عَبْدُ الله بن أنس بن مالك الأنصاري رضي الله عنه ممن قُتِل مع ابْنِ الجارود، فلما دخل الحجاجُ البَصْرَة أخذ ماله، فدخل عليه أنس بن مالك رضي الله عنه، فحين رَآه الحجاج قال له: لا مَرْحَبًا ولا أهلاً، إيه يا خِبْثة[٢]؛ شيخُ ضلالةٍ، جوّال في الفِتن، مرَّةً مع أبي تُرَاب[٣]، ومرَّةً مع ابنِ الزُّبَيْرِ، ومرَّةً مع ابن الجارُودِ؛ أما واللّهِ لأجْردنَّك جَرْدَ القضِيب، ولأعْصِبَنَّك عَصب السَّلمة[٤]، ولأقلعنَّك قلْع الصّمغة[٥].

فقال أَنس: مَنْ يَعْنِي الأمير؟ فقال: إياك أعْنِي، أصمَّ اللّهُ صدَاك.

فرجع أَنس، فكتب إلى عبد الملك كتابًا يشكو فيه الحجاج وما صنع به.

---

(١) السهم الغرب: الذي لا يدرى راميه. (٢) يا خبثة: أي يا خبيث.

(٣) أبو تراب: كنية علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٤) السلمة: شجر من العضاه يدبغ به.

(٥) الصمغة: القطعة من الصمغ، وهو معروف.

فكتب عَبْدُ الملك إلى الحجّاج: أما بَعْدُ يا بْن أمّ الحجاج فإنك عبْدٌ طمَتْ بك الأُمور فغلوْت فيها حتى عدَوْت طوْرَك، وتجاوَزْتَ قدْرَك، يا بن المستفْرِمَة[١] بعَجم[٢] الزبيب لأغمزنّك غمْزةً كبعض غمزات الليوث الثعالب، ولأخبطنّك خبْطةً تودُّ لها لو أنك رجعْتَ في مخرجك مِنْ بطن أُمك. أما تذكر حَالَ آبائِك بالطائف حيث كانوا يَنْقُلون الحجارة على ظهورهم، ويحفرون الآبار بأيديهم في أوديتهم ومِيَاههم؛ أم نسيت حالَ آبائك في اللؤم والدناءة في المروءة والخلق.

وقد بلغ أمِيرَ المؤمنين الذي كان منك إلى أَنس بن مالك جُرأة وإقدامًا، وأظنُّك أردْتَ أن تسْبُرَ ما عِنْدَ أمير المؤمنين في أمْرِهِ فتعلم إنكاره ذلك وإغضاءه عنك، فإن سَوَّغك ما كان منك مضيْت عليه قُدُمًا، فعليك لعنة الله من عَبْد أخْفش[٣] العَيْنين، أصَكّ[٤] الرجلين، ممسوح الجاعِرَتيْن[٥]، ولولا أنَّ أمير المؤمنين ظنَّ أن الكاتب كثَّر في الكتابة عن الشيخ إلى أمير المؤمنين فيك لأتاك مَنْ يسحبك ظهْرًا لبَطْنٍ حتى يأْتي بك أنَسًا فيحكم فيك، فَأكْرِمْ أنَسًا وأهْلَ بيته، واعْرِفْ له حَقَّه وخِدْمَته رسولَ الله ﷺ، ولا تقصّرنَّ في شيء من حوائجه، ولا يبلغَنَّ أمير المؤمنين عنك خِلاَفُ ما تقدّم فيه إليك من أمْرِ أنَس وبِرِّه وإكرامه، فيبعث إليك مَنْ يضرب ظَهْرَك، ويهتكُ سترك، ويُشمت بك عَدُوَّكَ، والْقهُ في منزله متنصِّلاً إليه، وليكتُبْ إلى أميرِ المؤمنين برِضَاه عنك، إن شاء الله. والسلام.

وبعث بالكتاب مع إسماعيل بن عَبْد الله مولى بني مخزوم، فأتى إسماعيلُ أنسًا بكتابِ عبد الملك فقرَأَهُ، وأتى الحجاج بالكتاب فجعل يقرؤه ووَجْهُه يتغيّر ويتمعّر[٦]، وجبينه يَرْشَحُ عَرَقًا، ثم قال: يغفر اللّهُ لأمير المؤمنين.

ثم اجتمع بأَنَس فرحَّبَ به الحجاج، وأدْنَاهُ، واعتذر إليه، وقال: أردْتُ أن يعلَمَ أهلُ العراق إذ كان من ابنك ما كان وإذ بلغتُ منك ما بلغتُ أني إليهم بالعقوبةِ أُسرع.

فقال أَنَس: ما شكوت حتى بلغَ مني الجهد، وقد زعمتَ أنّا الأشرار، وقد سمَّانا اللّهُ الأنصار، وزعمْتَ أنّا أهلُ النفاق، ونحن الذين تبوَّءُوا الدَّارَ والإيمانَ،

---

(١) المستفرمة: التي تضع دواء تضيق به فرجها.
(٢) العجم: نوى كل شيء.
(٣) الأخفش: الذي صغرت عينه وضعف بصره.
(٤) الأصك: مضطرب الركبتين والعرقوبين.
(٥) الجاعرة: حرف الورك المشرف على الفخذ.
(٦) معر وجهه: غيره غيظًا.

وسيحْكُمُ اللّهُ بيننا وبينك، فهو أقْدَرُ على التغيير، لا يشبه الحق عنده الباطل، ولا الصدق الكذب، وزعمْتَ أنكَ اتخذْتني ذريعةً وسلمًا إلى مساءَة أهل العراق باسْتِحْلاَل ما حرَّمَ الله عليك مني، ولم يكن لي عليك قوة، فوكلْتُك إلى الله ثم إلى أمير المؤمنين، فحفظ من حَقِّي ما لم تحفظ، فوالله لو أنَّ النصارى على كُفْرِهم رَأَوْا رجلاً خَدم عيسى ابن مريم يومًا واحدًا لعَرَفُوا مِنْ حقِّه ما لم تَعْرِفْ أنْت من حقي، وقد خدمْتُ رسولَ الله ﷺ عَشْر سنين. وبعد فإنْ رأيْنَا خيرًا حمدنا الله عليه، وأثنينا، وإن رأينا غير ذلك صبرنا. والله المستعان.

وردّ عليه الحجاج ما كان أخذ منه.

ذكر ولاية سعيد بن أسلم السند وقتله ووِلايةُ مُجّاعَة بن سِعْرٍ التميمي ووفاته

وفي هذه السنة استعمل الحجاج على السنْدِ سعيد بن أسلم بن زُرعة، فخرج عليه معاوية ومحمد ابنا الحارث العلاقيان. فقتلاه وغلَبا على البلاد، فأرسل الحجاجُ مُجَّاعَة بن سِعْر التميمي إلى السند، فغلب على ذلك الثَّغْرِ، وغَزَا وفتح أماكن من قَنْدَابيل[١]، ومات مُجّاعة بعد سنة بمُكْرَان[٢]. والله أعلم.

ذكر خبر الزنج بالبصرة

قال: كان الزنج قد اجتمعوا بفُرات البَصْرَة في آخر أيام مُصْعب، ولم يكونوا بالكثير، فأفسدوا. فلما ولي خالد بن عَبْد الله البَصْرة كَثُروا، فشكا الناسُ إليه ما يَنَالُهم منهم، فجمع لهم جَيْشًا، فلما بلغهم ذلك تفرَّقُوا، وأخذ بَعْضَهم فقتلهم وصلَبهم، فلما كان من أمرِ ابن الجارُود ما ذكَرْنَاه اجتمع من الزنج خَلْقٌ كثير بالفُرَات، وجعلوا عليهم رجلاً منهم اسمه رباح ويلقّب شيرزنجي يعني أسد الزنج، فأفسدوا، فأمر الحجاج زياد بن عَمْرو وهو على شرطة البَصْرَة أن يُرسِلَ إليهم جيشًا، فندَب ابْنَه حَفْص بن زياد فقتلوه، وهزموا أصحابه، فسيَّر إليهم جيشًا آخر فهزم الزنج وقتلهم، واستقامت البصرة.

وفي هذه السنة حَجَّ عبد الملك بالناس فخطبَ الناسَ بالمدينة، فقال بعد حمد الله والثناء عليه:

---

(١) قنديبل: مدينة بالسند، وهي قصبة لولاية.

(٢) مكران: ولاية واسعة تشتمل على مدن وقرى.

أما بعد فإني لستُ بالخليفة المستضعف ـ يعني عثمان، ولا بالخليفة المداهن ـ يعني معاوية، ولا بالخليفة المَأفون ـ يعني يزيد، ألاَ وإني لا أُداوي هذه الأُمة إلاّ بالسيف حتى تستقيم لي قَنَاتُكم، وإنكم تكلِّفُونا أعمالَ المهاجرين الأولين ولا تعملونَ مِثْلَ أعمالهم. وإنكم تأْمروننا بتَقْوَى الله وتَنْسَوْنَ ذلك من أنفسكم، واللّهِ لا يَأْمرُني أحَدٌ بتقوى الله بعد مقامي هذا إلاّ ضَرَبْتُ عُنُقَه، ثم نزل.

سنة ست وسبعين:

ذكر ضرب[1] الدنانير والدراهم الإسلامية

وفي هذه السنة ضَرَب عَبْدُ الملك بن مَرْوَان الدنانير والدراهم الإسلامية، وهو أوّل مَنْ أحْدث ضَرْبَها في الإسلام؛ وكان سبب ذلك أنه كتبَ في صُدُور الكتبِ إلى الروم: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ وذكر النبيَّ ﷺ مع التاريخ. فكتب إليه ملِكُ الروم: إنكم قد أحدثْتُم هذا فاتركوه، وإلا أتاكم في دنانيرنا من ذِكْرِ نبيكم ما تكرهون.

فعَظُمَ ذلك على عَبْدِ الملك، واستشار خالد بن يزيد بن معاوية، فقال: حَرّمْ دَنانيرهم، واضرِبْ للناس سِكة فيها ذِكرُ الله تعالى. فضرب الدنانيرَ والدراهمَ ونقش عليها: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ فكرِهَ الناس ذلك لمكانِ القرآن؛ لأن الجُنُبَ والحائضَ تمسّها، ثم ضربها الحجاج.

وقد قيل: إن مصعب بن الزبير ضربَ دَرَاهِمَ قليلة أيامَ أخيه عبد الله، ثم كُسرت بعد ذلك في أيام عبد الملك. والصحيحُ أنَّ عَبْد الملك أول مَنْ ضرب الدنانير والدراهم في الإسلام.

* * *

وفيها استعمل عبد الملك أبان بن عثمان على المدينة.

وفيها وُلد مرْوان بن محمد بن مَرْوان.

وحجّ بالناس في هذه السنة أبَان بن عثمان وهو أميرُ المدينة.

وكان على العراق الحجاج، وعلى خراسان أُمَيَّة بن عبْد الله، وعلى قضاء الكوفة شُريح، وعلى قضاء البصرة زُرارة بن أوفى.

---

(١) ضرب الدرهم ونحوه: سكه وطبعه.

سنة سبع وسبعين:

ذكر مقتل بكير بن وساج

وفي هذه السنة قَتَلَ أُمَيَّة بْنُ عَبْد الله أمير خراسان بُكَيْر بن وسَّاج، وسبب ذلك أن أُمية أَمَر بُكيرًا أن يتجهَّزَ لغَزْوِ ما وراء النَّهر، فتجهَّزَ وأنفق نفقةً كَبيرةً، فقال بَحِير بن ورْقَاء لأُمية: إن صار بينك وبينه النَّهْرُ خلع الخليفة. فأرسل إليه أُميَّة يقول: أَقِمْ لعلِّي أغْزُو فتكون معي، فغَضِب بُكَير، وكان قبل ذلك قد ولاَّه طَخَارستان، وأنفق نفقةً عظيمة، فحذَّره بَحِير منه فمنعه منها، ثم إن أُمية تجهَّزَ للغَزْو إلى بُخَارى وتجهَّزَ معه الناس، وفيهم بُكَيْر بن وَسَّاج، فلما بلغوا النَّهْر وأرادوا قَطْعَ قال أُمية لبُكَير: إني قد استخلفتُ ابني على خراسان وأخاف أنه لا يضبطها، لأنه غلام حَدث، فارجع إلى مرْو فاكفنيها، فقد ولَّيتكها، فقُمْ بأمْر ابني.

فانتخب بُكير فُرْسانًا كان قد عرفهم ووثق بهم، ورجع. ومضى أُميَّة إلى بُخَارى فقال عُقَاب الغُداني لبُكَير: إنَّا طلبْنَا أميرًا مِن قريش، فجاءنا أمِيرٌ يلعب بنا، يحوِّلُنا من سجن إلى سجن، وإني أرى أنْ نَحرِق هذه السفن، ونَمْضي إلى مَرْو، ونخلع أُمية ونُقِيم بمَرْو، نأْكلها إلى يوم مَّا، ووافقه الأحنف بن عبد الله العَنْبَرِي على هذا، فقال بُكير: أخاف أنْ يهلك هؤلاء الفرسان الذين معي. قال: إن هلك هؤلاء أنا آتيك مِنْ أهل مرْو بما شئت. قال: يهلك المسلمون. قال: إنما يكفيك أنْ يُنَادِي منادٍ: مَنْ أسلم رَفَعْنَا عنه الخراج، فيأْتيك خمسون ألفًا أَسْمَعُ من هؤلاء وأطوع. قال: فيهلك أُميَّة ومنْ معه. قال: ولِمَ يهلكون ولهم عَددٌ وعُدَّة وَنَجدة وسلاح ظاهر، ليقاتِلُوا عن أنفسهم حتى بلغوا الصين.

فأحرَق بُكَيْر السفُنَ، ورجع إلى مَرْو، فحبس ابن أُميّة وخلع أُمية، وبلغ أُمية الخبر، فصالح أهل بخَارى على فِدْيةٍ قليلة، ورجع وأمر باتخاذ السفن، وعبر، وذكر للناس إحسانَه إلى بُكَيْر مرةً بعد أُخرى، وأنه كافأه بالعِصْيان.

وسار إلى مَرْو، وأرسل شَمَّاس بن دِثَار في ثمانمائة، فسار بُكير إليهم، فانهزم شَمّاس، وأمر أصحابه ألاَّ يَقْتُلوا منهم أحدًا، فكانوا يأْخذون سِلاَحَهم ويطلقونهم. وقدم أُميَّةُ فتلقَّاه شماس، فقدم ثابت بن قُطبة فلَقِيَه بُكَيْر فأسَرَه، وفرَّقَ جَمْعه، ثم أطلقه ليَدٍ كانت لثابت عنده. وأقبل أُميَّةُ وقاتله بُكَيْر فكان بينهم وقعات في أيام، فانكشف أصحابُ بُكير في بعضها، فاتبعه حُريث بن قُطبة حتى بلغ القَنْطَرة وناداه إلَى أين يا بُكَيْر! فرجع فضربه حُرَيث على رأسه فقطع المِغْفَر[1]، وعَضَّ السيفُ برأسه فقطع فصُرع، واحتمله أصحابُه فأدخلوه البلد.

---

(١) المغفر: زرد ينسج من الدروع على قدر الرأس يلبس تحت القلنسوة.

وكان أصحاب بُكير يغدون في الثياب المصبَّغة فيجلسون يتحدثون. وينادي مُنَاديهم منْ رمى بسهْمٍ رمَيْنا إليه برأسِ رجل مِنْ ولده وأهله، فلا يرميهم أحَد.

وخاف بكَيْر إن طَال الحصار أن يَخْذُلَه الناس، فطلب الصلح؛ وأحبَّ ذلك أيضًا أصحابُ أُميّة، فاصطلحوا على أنْ يقضِي عنه أُمية أربعمائة ألف، ويصل أصحابَه ويوليه أيَّ كُورِ خراسان شاء، ولا يسمع قَوْلَ بَحِير فيه، وإن رَابَه رَيْبٌ فهو آمنٌ أربعين يومًا.

ودخل أُمية مدينةَ مَرْو، ووفَّى لبُكَير، وعاد إلى ما كان مِن الكرامة، وأعطى أُمية عُقَابًا عشرين ألفًا، وكان أُمية سهلاً ليِّنًا سخِيًا، وكان مع ذلك ثقيلاً على أهل خُرَاسان، وكان فيه زهد.

وعزل أُمية بَحِيرًا عن شرطته وولاَّها عطاء بن أبي السائب، وطالب أُميَّةُ الناس بالخراج واشتدّ عليهم، فجلس بُكير في المسجد وعنده الناس، فذكروا شِدَّةَ أُمية فذَمُّوه وبَحير، وضرار بن حصن، وعبد العزيز بن جارية بن قُدَامة في المسجد، فنقل بحِير ذلك إلى أُميّة فكذَّبه، فادَّعى شهادة هؤلاء، فشهد مُزَاحم بن أبي المُجشِّر السلمي أنه كان يَمْزَح، فتركه أُميّة، ثم إن بحِيرًا أتى أُميَّة وقال: والله إن بُكَيْرًا قد دعَاني إلى خَلْعِك، وقال: لولا مكانُك لقتلْتُ هذا القُرشي، وأكلْتُ خراسان. فلم يصدّقه أُمية، فاستشهد جماعةً ذَكر بُكَيْرٌ أنهم أعداؤُه. فقبض أُمية على بُكَيْر وعلى ابنَي أخيه: بدلٍ، وشَمَرْدل، ثم أمر بعْضَ الرؤساء بقتل بُكَيْر، فامتنعوا فأمر بَحِيرًا بقَتْلِهِ فقتَلَه، وقتل أُمية ابني أخي بُكير.

وحجّ بالناس في هذه السنة أبان بن عثمان.

وفيها مات جابر بن عبد الله بن عمْرو الأنصاري.

سنة ثمان وسبعين:

في هذه السنة عزل عَبْدُ الملك بن مَرْوان أُميَّةَ بن عبد الله عن خراسان وسجِسْتَان؛ وضمهما إلى أعمال الحجاج، فاستعمل الحجاجُ المهلَّبَ بن أبي صُفْرَة على خراسان وعُبيد الله بن أبي بكرة على سجستان، فبعث المهلب ابنه حَبيبًا إلى خُرَاسان، فلما ودَّع الحجاج أعطاه بغْلَةً خَضْرَاء، فسار عليها وأصحابه على البريد، فوصل خُراسان في عشرين يومًا، فلما دخل باب مَرو لقيه حِمْلُ حَطَب، فنفرت البَغْلَةُ فعجبوا مِنْ نِفَارِها بعد ذلك التعب وشدَّة السير، ولم يعرض لأُمية ولا لعماله، وأقام عشرة أشهر حتى قدم عليه المهلَّب في سنة تسع وسبعين.

وحجَّ بالناس في هذه السنة أبان بن عثمان، وكان العمال مَنْ ذَكَرْنَا، وعلى قضاء الكوفة شُرَيْح، وعلى قضاء البَصْرَة موسى بن أَنس.

سنة تسع وسبعين:

في هذه السنة استعفى شُرَيح بن الجارث من القضاء فأعفاه الحجّاج، واستعمل على القضاء أبَا بُرْدَة بن أبي موسى.

وحجّ بالناس أبان بن عثمان وهو أمير المدينة.

سنة ثمانين:

في هذه السنة حَجّ بالناس أبان بن عثمان، وفيها توفي أبو إدريس الخولاني، عبْد الله بن جعفر بن أبي طالب. وقيل سنة أربع وثمانين، وقيل سنة خمس. وقيل سنة ستّ. وقيل سنة تسعين. والله أعلم.

وفيها توفي محمد بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، وهو ابْنُ الحنفيَّة، ومات جماعةٌ من الصحابة رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

سنة إحدى وثمانين:

ذكر مقتل بحير بن ورقاء

في هذه السنة قتل بحهير بن وَرْقَاء الصُّرَيْمِي. وكان سبب قتله أنه لما قتل بُكَيْر بن وسّاج وكلاهما كان تميميًا ـ قال عثمان بن رجاء بن جابر أحد بني عَوْف بن سعد من الأبناء، والأبناء عدة بطون من تميم، يُحَرِّض بعض آل بُكَيْر من الأبناء على الطلب بثأره: [من الطويل]

لعَمْري لقد أغْضَيْتَ عَيْنًا على القَذَى ... وبِتَّ بَطينًا مِنْ رَحيقٍ مُرَوَّقِ[1]

وخَلَّيْتَ ثأرًا طُلَّ واخترت نومةً ... ومَنْ شربَ الصَّهْبَاء بالوِتْرِ يُسْبَقِ[2]

فلو كنْتَ مِنْ عَوْف بن سَعد ذؤابةً ... تركت بَحِيرًا في دَم مُتَرَقْرِقِ[3]

فقل لبَحِيرٍ نَمْ ولا تَشَ ثائرًا ... ببَكْرٍ فعوفٌ أهْلُ شَاءٍ حَبَلَّقِ[4]

دَع الضَّأنَ يومًا قد سُبِقْتُم بوِتْركم ... وصرتُم حديثًا بين غَرْبٍ ومشرِقِ

(١) البطين: الملآن؛ والمروق: المعجب. (٢) الصهباء: الخمر.
(٣) المترقرق: ما جرى جريًا سهلاً وتسلسل. (٤) الحبلق: صغار الغنم.

وهُبُّوا فلو أمْسَى بُكَيْر كعَهْدِهِ لغَاداهُمو زَحْفًا بجأْواء فَيْلَق[١]

وقال أيضًا: [من الطويل]

فلو كان بكرٌ بارِزًا في أدَاتِه وذي العَرْش لم يُقْدِم عليه بحِيرُ
ففي الدهر إن أبْقَاني الدَّهْرُ مَطْلَب وفي اللَّهِ طَلاَّب بذاك جدِيرُ

فبلغ بحيرًا أن رهْط بُكَير من الأبناءِ يتوعَّدونه، فقال: [من الطويل]

تَوعَّدَني الأبْنَاءُ جَهْلاً كأنما يَرَوْنَ فِنَائي مُقْفِرًا من بني كعبِ
رفعْتُ له كَفِّي بعَضْبٍ مُهَنَّد حُسامٍ كلون المِلْحِ ذي رَوْنَقٍ عَضْبِ[٢]

فتعاقد سبعة عشر من بني عَوْف على الطلب بدَم بُكَيْر، فخرج فَتًى منهم يقال له شَمرْدَل من البادِية حتى قدم خُراسان، فرأى بَحِيرًا واقفًا، فحمل عليه فطعَنَه فصَرَعه، وظنَّ أنه قتَله، وركض، فعثر به فرسُه فسقط عنه فقُتل. وخرج صَعْصَعة بن حرب العوفي من البادية، ومضى إلى سجستان، فجاور قرابةً لبَحيْر مدةً، وادّعى أنه من بني حنيفة من اليمامة، وأطال مُجالستَهم حتى أنِسُوا به، ثم قال لهم: إن لي بخراسان مِيراثًا فاكتُبوا لي إلى بَحِير كتابًا ليُعينني عَلَى حَقِّي. فكتبوا له، وسار فقدم على بَحِير فأخبره أنَّه من بني حَنِيفة وأنَّ له مالاً بسجستان وميراثًا بمَرْو، وقدم ليبيعه ويعود إلى اليَمَامة. فأنزله بَحِير، وأمر له بنفَقَةٍ، ووعده المساعدة.

وكان بَحِير قد حَذِر، فلما قال له: إنه من بني حنيفة أمِنَه، وكان إذ ذاك في الغَزْو مع المهلب. فقال له: أُقيم معك حتى ترجَعَ إلى مَرْو، فأقام شهرًا يحضر معه باب المهلَّب، فجاء صعصعة يومًا وبَحير عند بابِ المهلب وعليه قميص ورِدَاء، فقعد خلفه، ودنا منه كأنه يكلِّمه، فوَجَأه بخَنْجر معه في خاصِرَته، فغيَّبه في جَوْفه، ونادى يا لثارات بكير! فأُخِذَ وأُتِي به المهلب، فقال له: بؤسًا لك! ما أدرَكْتَ بثأرك، وقتلت نَفْسك، وما على بَحِير بأس! فقال: لقد طعنْتُه طعنةً لو قُسِّمَت بين الناس لماتوا. ولقد وجدت رِيح بطْنِهِ في يَدِي.

فحبسه المهلَّب، ومات بَحِير من الغدِ، فقال صعصعة: اصنعوا الآن ما شئتم، أليس قد خلَتْ خدور[٣] نساء بني عوف، وأدركت بثَأْرِي. والله لقد أمكنني منه ما صنعت خاليًا غير مرة، فكرهت أنْ أقتله سِرًّا.

---

(١) الجأواء: التي ضربت حمرتها إلى الكدرة. والكتيبة الجأواء: الكدراء اللون في حمرة. والفيلق: الكتيبة العظيمة من الجيش.
(٢) العضب: القاطع. ورونق السيف: ماؤه وصفاؤه وحسنه.
(٣) الخدر: ستر يمد للمرأة في ناحية البيت.

فقال المهلب: ما رأيْتُ رجلاً أسْخَى نفسًا بالموت مِنْ هذا، وأمَر بقَتْله، فقُتِل.

وقيل: إنه بعثه إلى بَحِير قبل أن يموتَ فقتله، وغضبت عوْف والأبناء وقالوا: علاَمَ قُتِل صاحِبُنا، وإنما أخذَ بثأره، فنازعتهم مُقَاعِس والبطون، وكلُّهم بطون من تميم، حتى خاف الناسُ أن يعظم الأمر، فقال أهْلُ الحِجَا[١]: احملوا دَمَ صعصعة، واجعلوا دَمَ بحِير [بواءً][٢] ببُكير، فودَوْا[٣] صعصعة، فقال رجل من الأبناء يمدح صعصعة: [من الطويل]

لِلّهِ دَرُّ فَتًى تجاوز هَمُّهُ   دون العِرَاق مَفَاوِزًا وبُحُورا[٤]

ما زالَ يُدْئِبُ نفسه ورِكابَه   حتى تناول في الحُزُون بَحِيرا[٥]

ذكر خلاف عبد الرحمٰن بن محمد بن الأشعث على الحجاج وما كان بينهما من الحروب

كان ابتداء خلافِهِ على الحجاج في هذه السنة، واستمرت الوقائع التي نذكرها بينهما إلى سنة ثلاث وثمانين، وقد رأينا أنْ نجمَع أخباره بجملتها في هذا الموضع، ولا نَقْطَعها بغيرها، ونميّز كل وَقْعَةٍ منها بتاريخها.

وكان سبب خلافِهِ أنَّ الحجاج لما بعثه في الجنود إلى بلاد رُتْبِيل في سنة ثمانين كما ذكرنا في الغزوات، وملك ما ملَك من حصون رُتْبِيل، واستولى على ما اسْتَوْلَى عليه من بلادِهِ، وأقام، وكتب إلى الحجاج يُعرِّفُه أنه رأى تَرْكَ التوغُّلِ في بلاد رُتْبِيل حتى يعرفوا طُرُقَها ويَجْبُوا خراجها.

فلما وردَ كتابه على الحجّاج كتب إليه: إنّ كتابَك كتابُ امرىء يحبُّ الهُدْنة، ويستريح إلى الموادعة، فامض إلى ما أمرتك من الوُغول في أرضهم، والهَدْم لحصونهم، وقَتْل مقاتلتهم، وسَبْي ذراريّهم، ثم أردفه كتابًا آخر بنَحْو ذلك، وفيه:

أما بعد فمُرْ مَنْ قِبَلك من المسلمين فلْيَحْرثوا ويقيموا بها، فإنها دارُهم حتى يَفْتَحَها اللّهُ عليهم.

---

(١) الحجا: العقل.
(٢) البواء: الكفؤ والنظير في القصاص.
(٣) ودى القاتل القتيل: أعطى وليه ديته.
(٤) المفاوز: جمع المفازة: وهي الصحراء.
(٥) الحزون: جمع الحزن، وهو من الأرض ما غلظ.

ثم كتب إليه كتابًا ثالثًا كذلك، ويقول: إن مضيت إلى ما أمرتك وإلاَّ فأخوك إسحاق بن محمد أمِيرُ الناس. فدعا عبْدُ الرحمٰن الناسَ وقال لهم: أيها الناس، إنِّي لكم ناصح ولِصَلاحكم مُحِبٌّ، ولكم في كل ما يُحيط به نفعكم ناظر، وقد كان رأيي فيما بيني وبين عدوي. ما رَضِيَه ذوو أحلامكم وأولو التجربةِ منكم، وكتبْت بذلك إلى أميرِكم الحجاج، فأتاني كتابه يعجّزني ويضعّفني ويأمُرُني بتعجيل الوغُول بكم في أرْضِ العدوّ، وهي البلادُ التي هلك فيها إخوانكم بالأمس، وإنما أنا رجُلٌ منكم أمْضِي إذا مضيْتُم، وآبي إذا أبيتم.

فثار إليه الناسُ وقالوا: بل، نَأْبَى على عدوّ الله، ولا نسمعُ له ولا نطيع.

فكان أول من تكلم أبو الطُّفَيْل عامر بن واثلة الكناني، وله صُحْبة، فقال ـ بعد حمد الله: أما بعْدُ فإنَّ الحجاج يرى بكم ما رأى القائل الأول إذ قال لأخيه: احمل عَبْدك على الفَرَس، إن هلَك هلك، وإن نَجَا فلك. إنَّ الحجاج لا يُبَالي أن يخاطِرَ بكم فيُقحمكم بَلايا كثيرة، ويغْشَى بكم اللهوب[١] واللُّصُوب[٢]، فإن ظفرتم وغنِمتم أكَلَ البلاد وحازَ المال، وكان ذلك زيادة في سُلْطَانه؛ وإن ظفر عدوُّكم كُنْتم أنتم الأعداء البغضاء الذين لا يبالي عنَتَهم، ولا يُبْقي عليهم، اخلعوا عَدُوَّ اللّهِ الحجاج، وبَايِعُوا الأمير عبْد الرحمٰن، فإني أشهدكم أنّي أوَّلُ خالع.

فنادى الناس من كل جانب: فَعَلْنَا فَعَلْنَا، قد خلعنا عَدُوَّ اللّهِ.

وقام عبد المؤمن بن شَبث بن رِبْعي ثانيًا فتكلَّم، ونَدَب الناسَ إلى مُبَايعة عبد الرحمٰن، فبايعوه على خَلْع الحجاج ونَفْيه من العراق، ولم يذكر عَبْد الملك، فوثب الناسُ إلى عبد الرحمٰن فبايعوه على خَلْعِ الحجاج ونَفْيِه وعلى النُّصْرة له، فصالح عبد الرحمٰن رُتْبِيل على أنه إن ظهر فلا خراج على رُتْبِيل أبدًا، وإن هُزِم فأراده منعه.

ثم جعل عَبْدُ الرحمٰن على بُسْت[٣] عياضَ بن هميان الشَّيبَاني وعلى زَرَنْج[٤] عبد الله بن عامر التميمي، وعلى كِرْمَان[٥] خَرَشَة بن عمرو التميمي، ورجع إلى العراق، وجعل على مقدّمته عطية بن عَمْرو العنبري.

---

(١) اللهوب: جمع لهب، وهو وجه من الجبل لا يمكن ارتقاؤه.

(٢) اللصب: مضيق الوادي، جمع لصوب.

(٣) بست: مدينة بين سجستان وغزنين وهراة.

(٤) زرنج: مدينة هي قصبة سجستان.

(٥) كرمان: بالفتح ثم السكون، وآخره نون، وربما كسرت والفتح أشهر بالصحة: هي ولاية مشهورة وناحية كبيرة معمورة ذات بلاد وقرى ومدن واسعة بين فارس ومكران وسجستان وخراسان... (معجم البلدان لياقوت).

فلما بلغ فارس اجتمع الناسُ بعضهم إلى بعض، وقالوا: إذا خلَعْنَا الحجاجَ عامل عبد الملك فقد خلعنا عبْدَ الملك، فاجتمعوا إلى عبْدِ الرحمٰن، فكان أول الناس خلع عبد الملك تيجان بن أبجر بن تَيْم الله بن ثعلبة، قام فقال: أيها الناس، إني خلعت أبا ذِبّان[١] كخلعي خاتمي، فخلعه الناسُ إلاّ قليلاً منهم، وبايعوا عبْدَ الرحمٰن. وكانت بيعته يبايعون على كتاب الله وسنَّة نبيه ﷺ، وعلى جهادِ أهل الضَّلالَة، وخَلْعهم، وجهاد المحلِّين.

فلما بلغ الحجاج خَلْعُه كتبَ إلى عَبْدِ الملك بالخبر، ويسأله أن يعجِّل بعثة الجنود إليه. وسار الحجاج حتى بلغ البصرة.

ولما وصل كتابُ الحجاج إلى عبد الملك هالَه، ودعا خالد بن يزيد فأقرأه الكتاب، فقال: يا أمير المؤمنين، إن كان هذا الحدث من سجستان فلا تخَفْه، وإن كان من خراسان فإني أتخوَّف.

فجهَّز عبد الملك الجُنْدَ على الْبَرِيد، فكانوا يَصلون من مائة ومن خمسين وأقل من ذلك وأكثر، وسار الحجاج من البصْرة إلى تُسْتَر[٢]، وقدم مقدمته إلى دُجَيْل، فلقوا خَيْلاً لعبد الرحمٰن، فانهزم أصحابُ الحجاج بعد قتالٍ، وذلك يوم الأضحى سنة إحدى وثمانين، وقتِل منهم جمع كثير.

فلما أتى خَبَرُ الهزيمة إلى الحجاج رجع إلى البَصْرَة وتبعَه أصحابُ عبد الرحمٰن، فقتلوا من أصحابِه وأصابوا بَعْض أثقالِهم. وأقبل الحجاج حتى نزل الزَّاوية[٣]، وجمع عنده الطعام، وفرّق في الناس مائةَ وخمسين ألف درهم، وأقبل عبْدُ الرحمٰن حتى دخل البصْرَة فبايعَه جمِيعُ أهلها.

وكان السبب في سرعة إجابتهم إلى بَيْعَتِه أنَّ عُمّال الحجاج كتبوا إليه إنّ الخراجَ قد انكسر، وإن أهل الذمَّة قد أسلموا ولحقوا بالأمصار.

فكتب إلى البَصْرَة وغيرها: إنّ مَنْ كان له أصل في قَرْيَةٍ فليخرُج إليها، فأخرج الناس لتؤخذ منهم الجِزية، فجعلوا يبْكُون وينادُون: يا محمداه! يا محمداه! وجعل قُرّاء البصرة يبكون.

فلما قدم ابْنُ الأشعث إثر ذلك بايَعُوه على حرْبِ الحجاج، وخَلْع عبد الملك؛ وخَنْدَق الحجاجُ على نفسه، وخَنْدَق عبد الرحمٰن على البصْرَة، وكان دخوله البصرة في آخر ذي الحجة.

---

(١) أبو ذبان: كنية عبد الملك بن مروان. (٢) تستر: مدينة بخوزستان.

(٣) الزاوية: عدة مواضع، منها قرية بالموصل، وموضع قرب البصرة.

ذكر الحرب بين الحجاج وابن الأشعث وانهزام ابن الأشعث من البَصْرَة إلى الكوفة

وفي المحرم سنة اثنتين وثمانين اقتتل عَسْكَرُ الحجاج وعسكر ابن الأشعث قتالاً شديدًا، وكان بينهم عِدَّةُ وقعات، فلما كان آخر يَوْم من المحرم اشتدَّ القتال، فانهزم أصحابُ الحجاج حتى انتهوا إليه، وقاتلوا على خَنادِقِهم، ثم تزاحفوا فتقوَّض أصحابُ الحجاج، فجثا على رُكْبَتَيْه، وقال: للّهِ دَرُّ مصعب! ما كان أكرمه حين نزل به ما نزَل، وعزم على أنه لا يفِر.

فحمل سفيان بن الأبرد على ميْمَنَة ابن الأشعث فهزمها، وانهزم أهْلُ العراق، وأقبلوا نحو الكوفة مع عَبْدِ الرحمٰن، وقُتل منهم خَلْقٌ كثير، منم: عقبة بن عبد الغافر الأزْدِي وجماعة من القرَّاء.

ولما بلغ ابْنُ الأشعث الكوفة تَبعه أهْلُ القوَّة وأصحابُ الخيل من البصرة، واجتمع منْ بَقي بالبصرة مع عبْد الرحمٰن بن عباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، فبايعوه، فقاتل بهم الحجَّاج خَمْسَ ليال أشدَّ قتال آره الناسُ، ثم انصرف فلحق بابن الأشعث ومعه طائفة من أهل البصرة، وهذه الوقعةُ تُسَمَّى وقْعَةَ الزَّاوِية.

وقَتل الحجاجُ في هذا اليوم بعد الهزيمة أحدَ عشر ألفًا خدعهم بالأمان، أمر مُنَادِيًا فَنَادى: الأمان لفلان وفلان، سمَّى رجالاً، فقال العامَّة: قد أمن الناس، فحضروا عنده، فأمر بهم فقُتِلوا.

قال: وكان الحجَّاجُ عند مسيره من الكوفة إلى البَصْرة استعمل عليها عبْد الرحمٰن بن عبد الرحمٰن بن عبد الله بن عامر الحضرمي حليف بني أُمية، فقصده مَطَر بن نَاجية اليَرْبُوعي، فتحصَّن منه ابن الحضرميّ في القَصْر، فوثب أهْلُ الكوفة مع مطَر، فأخرج ابن الحَضْرمي ومنْ معه مِنْ أهل الشامِ، وكانوا أربعةَ آلافِ، واستولى مَطَر على القَصْر، واجتمع إليه الناس، ففرّق فيهم لكلِّ إنسان مائتي درهم.

فلما وصل ابنُ الأشعث إلى الكوفة كان مَطَر بالقَصْر، فخرج أهْلُ الكوفة يستقبلونه، فدخل الكوفة، وقد سبق إليه هَمْدان فكانوا حوْله، فأتى القصر فمنعه مطَر بن ناجية ومَنْ معه من بني تميم، فأصعد عبد الرحمٰن الناس في السلاليم إلى القَصْر فأخذوه، وأتى عبد الرحمٰن بمطر فحبسه ثم أطلقه.

ذكر وقعة دير الجماجم[١] وانهزام أصحاب ابْن الأشعث وعَوْد الحجاج إلى الكوفة

كانت وَقْعةُ دَيْر الجماجم في شعبان سنة اثنتين وثمانين، وقيل: كانت في سنة ثلاث وثمانين. والذي يقول؛ إنها في سنة ثلاث يقول: كان نزولهم بدَيْر الجَمَاجم لليلةٍ مضَتْ من شهر ربيع الأول سنة ثلاث وثمانين، والهزيمة لأربع عشرة ليلة مضت من جمادى الآخرة منها، فكانت مائة يوم وثلاثة أيام. والله أعلم.

وكان سبب هذه الوقْعة أنَّ الحجاجَ سار من البصْرةِ إلى الكوفةِ لقتال عبْد الرحمٰن بن الأشعث، ونزل دَيْر قُرَّة[٢]، وخرج عَبْدُ الرحمٰن من الكوفة فنزل دَيْر الجمَاجِم، واجتمع لعَبْدِ الرحمٰن أهْلُ الكوفة وأهلُ البَصْرة وأهلُ الثغورِ والمَسَالح والقراء، وكانوا مائة ألْفٍ ممن يأْخذ العطاء ومعهم مِثلهم، وجاءت الحجاجَ أمْدَادُ الشام قبل نزوله بدَيْرِ قُرَّة، وخَنْدَق كل منهما على نفسه، وكان الناس يقتتلون كل يوم، ولا يزال أحَدُهما يُدْنِي خَنْدَقَه من الآخر.

فبعث عبْدُ الملك ابْنَه عَبْدَ الله وأخاه محمد بن مَرْوان ـ وكان محمد بأرْض الموصل ـ في جُنْدٍ كَثِيف إلى الحجاج، وأمرهما أن يَعْرِضا على أهْلِ العراق عَزْل الحجاج، وأن يُجْرِي عليهم أعطياتهم، كما يُجْرِي على أهل الشام، وأنْ ينْزِل عبد الرحمٰن بن الأشعث أي بلد شاء من العراق، فإذا نزل كان واليًا عليها ما دام حيًّا، وعبد الملك خليفة. فإنْ أجاب أهْلُ العراق إلى ذلك عَزَلاَ الحجاج عنهم، وصار محمدُ بْنُ مروان أمِير العراق، وإنْ أبى أهْلُ العراق ذلك فالحجاجُ أميرُ الجماعة ووالي القتال، ومحمد وعبد الله في طاعته، فلم يأْتِ الحجاج أمْرٌ قطّ كان أشدَّ عليه ولا أوْجَع لقَلْبِه منه، وخشي أنْ يقْبَلَ أهْلُ العراق عَزْله فيعزل عنهم، فكتب إلى عبْدِ الملك: واللّهِ لو أعطيْت أهْل العراق عزْلي لم يلبثوا إلاّ قليلاً حتى يخالِفُوكَ ويَسِيروا إليك، ولا يزيدهم ذلك إلاّ جراءةً عليك، ألم تر ويبلغك وثوبُ أهل العراق مع الأشتر على عُثمان بن عَفَّان وسؤالهم نَزْع سعِيد بن العاص، فلما نزعه لم تتمّ لهم السنة حتى سارُوا إلى عثمان فقتلوه؛ وإن الحديد بالحديدِ يُفْلَح.

---

(١) دير الجماجم: على سبعة فراسخ من الكوفة على طرف البر للسالك إلى البصرة.

(٢) دير قرة: بإزاء دير الجماجم مما يلي الكوفة. وقرة الذي نسب إليه رجل من لخم بناه على طرف من البر أيام المنذر بن ماء السماء. . . (معجم البلدان).

فأبى عَبْدُ الملك إلاَّ عرْض عَزْلِهِ على أهلِ العراق، وقال: عزْلُه أيْسَر من حَرْب أهلِ العراق، ويَحْقِن الدماء.

فخرج عبْد الله بن عبد الملك وقال: يا أهل العراق، أنا ابْن أميرِ المؤمنين، وهو يُعطيكم كذا وكذا.

وخرج محمد بن مرْوان، وقال: أنا رسول أمير المؤمنين، وهو يَعْرض عليكم كذا وكذا.

فقالوا: نَرْجع للعشيَّةِ. ورجعوا، واجتمعوا عند ابْن الأشعث، فقال لهم: قد أُعطيتم أمْرًا انْتِهَازُكم إياه اليوم فُرصة، وإنكم اليوم على النَّصف؛ فإن كانوا اعتدُّوا عليكم بيوم الزَّاوِية فأنتم تعتدون عليهم بيوم تُسْتَر، فاقْبَلُوا ما عرَض عليكم، وأنتم أعزَّاء أقوياء.

فوثبوا وقالوا: لا واللّهه لا نَقْبلُ. وأعادوا خَلْعَ عبد الملك ثانيًا؛ وكان أول مَنْ قام بخَلْعه بديْرِ الجماجم عبد الله بن ذؤاب السلمي وعمير بن تيحان، وكان اجتماعهم على خَلْعِه بالجماجم أجْمع من الخَلْع بفارس.

فقال عبْدُ الله ومحمدٌ للحجاج: شَأْنَك بعسْكرك وجُنْدك، واعْملْ برأْيك، فإنا قد أمِرْنَا أنْ نَسمع لك ونُطِيع، وكانا يسلمان عليه بالإمرة ويسلّم عليهما بالإمرة.

قال: ولما اجتمع أهْلُ العراق على خَلْع عبد الملك قال ابنُ الأشعث: ألاَ إنَّ بني مروان يعيَّرُون بالزَّرْقاء، والله ما لهم نَسب أصحّ منه، إلاَّ أنّ بني العاص أعْلاج من أهْلِ صَفُورِيَة[1]، فإن يكن هذا الأمْرُ في قريش فعَنِّي تقَوَّبت[2] بيْضةُ قريش، وإنْ يك في العرب فأنا ابْنُ الأشعث، ومدّ بها صوْته حتى سمعه الناس.

وبرزُوا للقتال، فجعل الحجاجُ على ميْمنته عبد الرحمْن بن سليم الكَلْبي، وعلى ميسرته عُمارة بن تميم اللخمي، وعلى خَيْلِهِ سُفيان بن الأبْرَد الكلبي، وعلى رجاله عبد الله بن حبيب الحكمي، وجعل ابْنُ الأشعث على ميمنته الحجاج بن جارية الخثعمي، وعلى ميسرته الأبرد بن قرَّة التميمي، وعلى خيله عبد الرحمْن بن العباس بن ربيعة الهاشمي، وعلى رجاله محمد بن سَعْد بن أبي وقاص، وعلى مُجنَّبته عبد الله بن رِزَام الحارثي، وجعل على القرَّاء زَحْر بن قيس الجعفي، وفيهم سعِيد بن جُبير بن

(١) صفورية: كورة وبلد من نواحي الأردن بالشام قرب طبرية.

(٢) تقوبت البيضة: انفلقت عن فرخها.

هشام الشعبي، واسمُه عامر بن شراحيل، وأبو البَخْتَري[1] الطائي، وعبْد الرحمٰن بن أبي لَيْلَى.

وأخذوا في القتال في كل يوم، وأهل العراق تأْتيهم موادُّهم من الكوفةِ وسَوَادِها، وهم في خصْبٍ. وأهل الشام في ضيق شديد، قد غَلَتْ عندهم الأسعار، وفُقِد اللحم، حتى كأنهم في حصارٍ، وهم على ذلك يُغادُون القتال ويراوحون.

فعبأ الحجاج في بعض الأيام لكتيبة القُرَّاء ثلاث كتائب، وبعث عليها الجرّاح بن عبد الله الحكمي؛ فقام جبَلة بن زَحْر في القراء، وحرضهم على القتال، وذَمّ أهل الشام، وسمَّاهم المحلّين المحدثين المبتدعين الذين جهلوا الحقَّ فلا يعرفونه، وعملوا بالعُدْوَان فلا ينكرونه في كلام كثير قاله. وقال أبو البَخْتَري: أيها الناسُ، قاتِلوهم على دِينكم ودُنْيَاكم.

وقال الشعبي: أيُها الناس قاتلوهم قاتلوهم ولا يأْخذكم حَرَج من قتالِهم: فوالله ما أعلم على بسيط الأرض أعْمل بظُلْم ولا أجوَر في حُكم منهم.

وقال سعِيد بن جُبير نحو ذلك.

وقال جَبَلة: احملوا حَمْلَةً صادقةً ولا تردّوا وجوهكم عنهم.

فحملوا عليهم فأزالوا الكتائب عن مواقفها وفَرَّقوها وتقدَّمُوا حتى واقعوا صفَّهم، فأزالوه عن مكانه؛ ثم رجعوا فوجدوا جبَلَةَ بن زَحْر قتيلاً.

وكان سبب قَتْلِه أنَّ أصحابه لَمَّا حملوا على أهْلِ الشام وفرَّقوهم وقف لأصحابِه ليرْجِعُوا إليه، فافترقت فِرْقَة من أهل الشام، فنظروا إليه، فقال بعضُهم لبعض: احملوا عليه ما دام أصحابه مشاغيل بالقِتَال، فحملوا عليه فلم يَزُل، وحمل عليهم فقُتل؛ قتله الوليد بن نُحيْت الكلبي، وجِيء برأْسِه إلى الحجاج، فبشَّر أصحابه بقَتْله، فلما رجع أصحاب جبلَة ورأوْه قتيلاً سُقط في أيديهم، وظهر الفشل في القراء وناداهم أهل الشام: يا أعداء الله، قد هلكتم وقتل طاغيتكم - وقدم عليهم بِسْطام بن مصْقَلة بن هُبيْرة الشيباني، ففرحوا به، وقالوا: تقوم مقام جبلة، وكان قدومه مِن الريّ، فجعله عبْد الرحمٰن على ربيعة، فدخل عسْكَر الحجاج، فأخذ مِنْ نساءِ أصحابِه ثلاثين امرأةً فأطلقهن، فقال الحجاج: منعوا نساءَهم لو لم يردّوهنّ لسبيْتُ نساءهم إذا ظهرْتُ عليهم.

---

(١) أبو البختري: هو وهب بن وهب بن وهب بن كثير بن عبد الله بن زمة بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب، القرشي الأسدي المدني... كان فقيهًا أخباريًا ناسبًا جوادًا سريًا يحب المديح ويثيب عليه العطاء الجزيل... (وفيات الأعيان ٦: ٣٧).

قال: وخرج عبد الله بن رِزَام الحارثي يطلب المُبارزَةَ، فخرج إليه رجل مِنْ عَسْكر الحجاج فقتله عبْد الله، فعل ذلك ثلاثة أيام. فلما كان في اليوم الرابع خرج فقالوا: جاء لا جاء الله به! فقال الحجاج للجرّاح: اخرُجْ إليه. فخرج، فقال له عبْد الله: ما جاء بك؟ ويْحك يا جرّاح! وكان له صديقًا. فقال: ابتُليتُ بك. قال: فهل لك في خير؟ قال الجرَّاح: ما هو؟ قال: أنْهزِم لكَ فترجع إلى الحجَّاج وقد أحسنت عنده وحمِدك، وأحْتَمِلُ أنا مقالةَ الناس في انهزامي حُبًّا لسلامتك، فإني لا أُحب قَتْل مثلك من قومي. قال: افعل.

فحمل الجرَّاحُ عليه فاستطرد له، وحمل على الجرَّاح بجدّ يريدُ قَتْلَه، فصاح بعَبْد الله غلامُه وقال: إنّ الرجل يُريد قَتْلَك. فعطف عبْدُ الله على الجرّاح فضربه بعمودٍ على رأسه فصرعه، وقال له: يا جراح، بئسما جزَيْتَني! أرَدْتُ بك العافية، وأرَدْتُ قَتْلي. انطلق فقد تركتُك للقرابة والعشيرة.

قال: ودام القتالُ بينهم بدَيْرِ الجماجم إلى آخر المدة التي ذكرناها، فلما كان يوم الهزيمة اقتتلوا أشدَّ قتالٍ، واستظهر أصحابُ عبْد الرحمٰن على أصحابِ الحجاج، واستعلَوْا عليهم، وهم آمِنون أنْ ينهزموا، فبنيما هم كذلك إذ حمل سُفْيان بن الأبْرد وهو على مَيْمنَةِ الحجاج على الأبرد بن قُرّة التميمي، وهو على مَيْسرة ابن الأشعث، فانهزم الأبْردُ بالناس من غَيْر قتالٍ، فظنَّ الناس أنَّ الأبرد قد صُولِح على أن ينهزِمَ بالناس، فلما انهزم تقوّضَت الصفوف، وركب الناس بعضهم بعضًا، وصعد عبد الرحمٰن بن محمد المنبر ينادِي الناس: إليّ عبادَ الله؛ فاجتمع إليه جماعة، فثبت حتى دَنا أهلُ الشام، فقاتل مَنْ معه، ودخل أهْلُ الشام العَسْكر، فأتاه عبْدُ الله بن يزيد بن المغفل الأزدي، فقال له: انزل، فإني أخاف عليك أن تؤسر، ولعلك إذا انصرفت أن يجتمع لك جَمْعٌ يُهلكهم اللّهُ به.

فنزل وانهزم هو ومَنْ معه لا يَلوُون على شيء. ودخل الحجاجُ الكوفة، وعاد محمد بن مرْوان إلى الموصل، وعبد الله بن عبد الملك إلى الشام، وأخذ الحجاج يُبَايع الناس، وكان لا يبايع أحدًا إلا قال له: أتشهد أنك كفرْتَ، فإن قال نعم بايعه، وإلا قتله. فأتاه رجل من خثعم كان قد اعتزل الناسَ جميعًا، فسأله عن حالِه فأخبره باعتزاله، فقال له: أنت متربِّص، أتشهد أنك كافر! فقال: بئس الرجل أنا إذًا؛ أعْبُدُ الله ثمانين سنة ثم أشهد على نَفْسِي بالكُفْر.

قال: إذًا أقتلك، قال: وإن قتلتني، فقتله. فما بقي أحدٌ من أهل الشام والعراق إلاَّ رحمه.

وقتل كُميْل بن زياد وكان خصيصًا بعليّ بن أبي طالب رضي الله عنهما، وأُتِي بآخر بعده، فقال الحجاج: أرى رجلاً ما أظنُّه يَشْهَدُ على نَفْسِه بالكفر، فقال له الرجل: أتخدعني عن نفسي، أنا أكْفَرُ أهْلِ الأرض وأكْفَرُ من فِرْعون. فضحك الحجاج وخَلَّى سبيله.

قال: وأقام الحجاجُ بالكوفةِ شَهْرًا، وأنزل أهْل الشام بيوتَ أهلِ الكوفة مع أهلِها، وهو أوّل مَنْ أنزل الجُند في بيوتِ غيرهم، واستمرت هذه القاعدة بعده.

قال: وكان الحجاج لما انهزم الناسُ أمر مناديًا فنادى: مَنْ لحق بقُتَيْبَة بن مسلم فهو أمَانُهُ. وكان قد ولاَّه الرَّيَّ، فلحق به ناسٌ كثير منهم الشعبي، فذكره الحجاج يومًا بعد الفراغ من أمرِ ابن الأشعث، فقيل له: إنه لحق بقُتَيْبة بالرَّيّ؛ فكتب إلى قُتَيْبَة يأْمرُه بإرساله.

قال الشعبي: فلما قدمْتُ على الحجاج لقيت يَزِيدَ بن أبي مسلم وكان صديقًا لي، فقال: اعتذر مهما استطعت. وأشار بمِثْل ذلك إخواني ونُصَحَائي.

فلما دخلْتُ على الحجّاج رأيتُ غير ما ذكروا، فسلمت عليه بالإمْرة، وقلت: أيها الأمِير، إن الناسَ قد أمَرُوني أن أعتَذرَ بما يعلمُ اللّهُ أنه غَيْرُ الحق، وايْمُ اللّهِ لا أقولُ في هذا المقام إلاَّ الحق: قد والله تَمَرَدْنا عليك وحَرَّضنا عليك، وجهدنا، فما كُنَّا بالأقوياء الفَجَرَة ولا بالأتقياء البَرَرَة، ولقد نصرك اللّهُ علينا، وأظفركَ بنا، فإنْ سَطَوْتَ فبذُنُوبِنَا، وما جرت إليه أيدينا، وإن عَفَوْتَ عنَّا فبِحلمك. وبعد فالحجةُ لك علينا.

فقال الحجاج: أنت واللّهُ أحبُّ إليّ قولاً ممن يدخلُ علينا يقْطُر سَيْفُه مِن دمائنا ثم يقول: ما قلْتُ ولا شَهدْتُ، قد أمنْتَ يا شَعْبِي. كيف وجَدْتَ الناس بَعْدَنا، فقلت: أصلح الله الأمير، اكتحلْتُ بَعْدَكَ السهر، واستوعرْتُ الجَنَابَ[1]، وفقدْتُ صالح الإخْوان، ولم أجِدْ من الأمير خَلَفًا. قال: انصرف يا شعبيّ. فانصرفت.

نعود إلى بقية أخبار عبد الرحمٰن بن الأشعث:

---

(١) الجناب: الناحية، أو فناء الدار أو المحلة.

ذكر الوقعة بمسكن[١]

قال: ولما انهزم عَبْدُ الرحمٰن من دَيْر الجماجم أتى البصْرَة، فاجتمع إليه مِن المنهزمين جَمْعٌ كثير، فاجتمعوا بمسْكن، وبايَعُوه على الموت، وخَنْدَق عبْدُ الرحمٰن على أصحابه، وجعل القتال من وجْه واحد، وقدم إليه خالد بن جرير بن عَبْد الله من خُرَاسان، وأتاه الحجاجُ، فاقتتلوا خمسة عشر يومًا من شعبان أشدَّ قِتَال، وبات الحجاجُ يحرِّضُ أصحابَه، فلما أصبحوا باكَرُوا القِتَال، واشتدَّت الحرْبُ، فانهزم ابن الأشْعث ومَنْ معه، وقُتل عبد الرحمٰن بن أبي ليلى الفقيه، وأبو البَخْتَرِي الطائي، ومشى بِسْطام بن مَصْقلة بن هُبَيرة في أربعةِ آلاف فارس من شُجْعَانِ أهلِ الكوفةِ والبَصْرة، وكسَرُوا جُفُونَ[٢] سيوفِهِم، وحملوا على أهلِ الشام، فكشفوهم مِرَارًا، فدعا الحجاجُ الرُّمَاةَ فَرموهم، وأحاط بهم الناسُ، فقتلوهم إلا قليلاً. ومضى ابْنُ الأشعث إلى سجستان.

وقد قيل في هزيمة ابن الأشعث بمَسْكِن أنه اجتمع هو والحجاج، وكان العَسْكَران بين دِجْلَةَ والسِّيب[٣] والكرخ[٤]، فاقتتلوا شهرًا أو دونه، فأتى شيخ فدلَّ الحجاجَ على طريقٍ من وراء الكَرْخ في أَجَمة وضحضاح[٥] من الماء، فأرسل معهم أربعةَ آلاف، فسار بهم، ثم قاتل الحجاجُ أصحابَ عبد الرحمٰن، فانهزم الحجاجُ فعبر السِّيبَ، ورجع ابْنُ الأشعث إلى عَسْكَرِه آمنًا بعد أن نَهَبَ عسْكَر الحجاج، فأمِنَ أصحابُهُ، وألقوا السلاحَ. فلما كان نصف الليل لم يشعروا إلاَّ وقد أخذهم السيفُ مِن تلك السريّة، فغَرِق من أصحاب عبْدِ الرحمٰن أكْثر مِمّنْ قُتِل، ورجع الحجاجُ على الصوت يقتل مَنْ وَجد، فكان عِدّة من قُتل أربعة آلاف، منهم عبد الله بن شداد بن الهاد، وبِسْطَامِ بن مصْقَلة، وعمر بن ضُبَيْعَة الرقاشي، وبِشْر بن المنذر بن الجَارُود، وغيرهم.

---

(١) مسكن: بالفتح ثم السكون، وكسر الكاف، ونون: هو موضع قريب من أوانا على نهر دجيل عند دير الجاثليق. . . (معجم البلدان لياقوت).

(٢) الجفون: جمع الجفن، وهو غمد السيف ونحوه.

(٣) السيب: نهر بالبصرة.

(٤) الكرخ: بالفتح ثم السكون، وخاء معجمة، وما أظنها عربية إنما هي قبطية. . وهي مواضع عديدة كلها في العراق. . . (معجم ياقوت).

(٥) ماء ضحضاح: قليل لا عمق فيه.

ذكر مسير عبد الرحمٰن إلى رتبيل
وما كان من أمره وأمْرِ أصحابه

قال: ولما انهزم عَبْدُ الرحمٰن من مَسْكن سار إلى سجستان فأتْبعه الحجاج ابْنَه محمدًا وعُمارة بن تميم اللخمي، وعُمَارةُ على الجيش، فأدركه عُمارة بالسُّوس[1]، فقاتله ساعةً، ثم انهزم عبد الرحمٰن ومَنْ معه، وساروا حتى بَلَغُوا نيسابور، واجتمع إليه الأكراد، فقاتلهم عُمارة قتالاً شديدًا على العَقَبة، فجُرِح عمارة وكثيرٌ من أصحابه، فانهزم عُمارة وتَرَكَ لهم العَقَبة، وسار عَبْدُ الرحمٰن حتى أتى كِرْمان وعُمَارة يتْبعُه، فلما وصل عَبْد الرحمٰن إليها لقيه عاملُه وقد هَيَّأ لَه منزلاً، فنزل. ثم رحل إلى سِجستان فأتى زَرَنْج[2] وفيها عامِلُه فأغلق بابها. ومَنَع عبْد الرحمٰن من دخولها، فأقام عليها أيامًا ليفْتَحَها فلم يَصلْ إلى ذلك، فسار إلى بُسْت، وكان قد استعمل عليها عياض بن هِمْيان بن هشام السدوسي الشيباني. فاستقبله فأنزله. فلما غفل عنه أصحابُه قبض عليه عياض، وأوثقه، وأراد أن يأْمنَ به عند الحجاج.

وكان رُتْبِيل مَلِكُ الترك قد سمع بمقدم عَبْدِ الرحمٰن، فسار إليه ليستقبلَه لما كان قد تقرَّر بينهما من العُهود والمواثيق كما تقدم.

فلما بلغه أنَّ عِيَاضًا قد قَبَضَ عليه نزل على بُسْت، وبعث إلى عِياض يتهدَّدُه بالقتل إن هو لم يُطْلقْه، فاستَأْمنه عِيَاض، وأطلق عبد الرحمٰن، ثم سار عبد الرحمٰن مع رُتْبِيل إلى بلادِه، فأنزله وأكرمه وعظَّمه، وكان ناسٌ كثير من أصحاب عبد الرحمٰن ممّن انهزم من الرؤوس وقادة الجيوش الذين لم يقبلوا أمان الحجاج، ونصبُوا له العداوة في كل مَوْطِنٍ قد بعثوا يستَدْعُونَه ويُخْبرونه أنهم على قَصْد خراسان ليَقْوَوْا بمَنْ بها مِنْ عشائرهم، فأتاهم ابْنُ الأشعث. وكان عبْدُ الرحمٰن بن العباس بن ربيعة بن الحارث بن عبْدِ المطلب يُصَلِّي بهم إلى أنْ قدم ابْنُ الأشعث. فلما قدم عليهم سارُوا كلُّهم ففتحوا زَرَنْج، وسار نحوهم عُمارة بن تميم في أهل الشام؛ فقال أصحابُ عبد الرحمٰن له: اخرُجْ بنا عن سجستان إلى خُرَاسان. فقال: إن بها يزيد بن المهلب، وهو رَجُلٌ شُجَاع، لا يترُك لكم سلطانَه، ولو دخلناها لقاتلنا وتتبعنا أهْلُ الشام، فيجتمع علينا أهْلُ خراسان وأهلُ الشام. فقالوا: لو دخلنا خراسان لكان من

---

(١) السوس: بلدة بما وراء النهر.

(٢) زرنج: مدينة هي قصبة سجستان.

يتّبعُنا أكثر مِمّنْ يقاتِلُنا. فسار معهم حتى بلغوا هَرَاة[١]، فهرب من أصحابه عُبيد الله بن عبد الرحمٰن بن سَمُرة القُرَشي في ألْفَيْن. فقال لم عبد الرحمٰن: إني كنْتُ في مأمن ومَلْجأ، فجاءَتْني كتبُكم أنْ أقبل، فإنّ أمْرنا واحد، فلعلنا نُقَاتِل عدوّنا. فأتيتكم فرأيتم أنْ أمضي إلى خراسان، وزعمتم أنكم مجتمعون لي ولا تتفرّقون، وهذا عبيد الله قد صنع ما رأيتُمْ، فاصْنَعُوا ما بَدا لكم، أما أنا فمُنْصرِفٌ إلى صاحبي الذي أتيت من عنده.

فتفرّق منهم طائفةٌ وبقي معه طائفة، وبقي معظم العسكر مع عبد الرحمٰن بن العبّاس فبايعوه، فأتوا هَرَاة، فلقوا بها الرُّقَاد الأزدي فقتلوه، فسار إليهم يزيد بن المهلب.

وقيل: لما انهزم ابْنُ الأشعث من مَسْكِن أتى عُبَيْدُ الله بن عبْد الرحمٰن بن سَمُرة هراة، وأتى عبد الرحمٰن بن عباس سجستان، فاجتمع معه فَل ابن الأشعث، فساروا إلى خُرَاسان في عشرين ألفًا، فنزل هرَاة، ولقي الرُّقَاد بن عبيد العَتَكي بها فقتلوه، فأرسل إليه يزيد بن المهلب وهو عامِلُ خراسان يقول: قد كان لك في البلاد مُتَّسع، مَنْ هو أهون مني شَوْكَة؛ فارتحل إلى بلد ليس لي فيه سلطان، فإني أكره قِتَالَك، وإن أردْتَ مالاً أرسلْتُ إليك. فأعاد الجوابَ: إنا ما نَزَلْنا لمحاربةٍ ولا لمقام، ولكن أردْنَا أن نُريح، ثم نَرْحَل عنك، وليسَتْ بِنَا إلى المالِ حاجة.

ثم أقبل عبد الرحمٰن بن العباس على الجِبَاية، وبلغ ذلك يزيد ابن المهلب، فقال: مَنْ أراد أن يُريح ثم يرحل لم يَجْبِ الخراجَ، وسار نحوه، وأعاد مُراسلَتَه يقول: إنك قد أرَحْت وسمنْتَ وجبيْت الخراج، فلك ما جبَيْتَ وزيادة، فاخْرُجْ عني، فإني أكْرهُ قِتَالَك، فأبى إلاّ القتال.

وكاتَبَ جُنْدَ يزيد يَسْتَمِيلهم ويدعوهم إلى نَفْسه، فعلم يزيد بذلك، فقال: جلّ الأمْرُ عن العِتَاب، ثم تقدَّم إليه فقاتله، فلم يكن بينهما كَثِيرُ قِتَال، حتى تفرَّق أصحاب عَبْدِ الرحمٰن عنه، وصبر وصبَرَتْ معه طائفةٌ، ثم انهزموا.

وأمر يزيدُ أصحابَه بالكفّ عن اتباعهم، وأخْذِ ما كان في عسكرهم، وأسَرُوا منهم أسْرى، منهم محمد بن سَعْد بن أبي وقّاص، وعمر بن موسى بن عُبيد الله بن

(١) هراة: بالفتح: مدينة عظيمة مشهورة من أمهات مدن خراسان... فيها بساتين كثيرة ومياه غزيرة وخيرات كثيرة محشوة بالعلماء ومملوءة بأهل الفضل والثراء... (معجم البلدان لياقوت).

معمر، وعيّاش بن الأسود بن عوْف الزُهري، والهِلْقَام بن نُعَيْم بن القعقاع بن معبد بن زُرارة، وفَيروز بن حصين، وأبو العِلْج مولى عُبَيد الله بن معمر، وسوَّار بن مرْوان، وعبد الرحمٰن بن طلحة بن عبْد الله بن خلف الخُزاعي، وعبد الله بن فَضالة الزَّهْرَاني الأزدي، ولحق عبد الرحمٰن بن العباس بالسِّنْدِ، وأتى ابْن سَمُرة مَرْو، وانصرف يزيد بن المهلب إلى مَرْو، وبعث الأسْرَى إلى الحجاج مع سَبْرَة بن نجدة إلاً عَبد الرحمٰن بن طلحة فإنه أطْلَقه.

وان سبب إطلاقه أن حبيب بن المهلب قال لأخيه يزيد لما أراد أنْ يُسير الأسرى: بأي وَجْهٍ تنظر إلى اليمانية، وقد بعثْت عبد الرحمٰن بن طلحة؟ فقال يزيد: إنه الحجاج، فلا تتعرض إليه. قال: وطِّنْ نَفْسَك على العَزْلِ، ولا ترسِلْ به، فإنَّ له عندنا يَدًا. قال: وما هي؟ قال: أُلزِم المهلَّب في مسجدِ الجماعة بمائة ألف، فأدّاها طَلْحَةُ عنه، فأطلقه يزيد، ولم يرسل أيضًا عَبْد الله بن فَضالة لأنه من الأزد، وأرسل الباقين.

فلما قدموا على الحجاج أحضر فَيْروز، فقال له الحجاج: أبا عثمان، ما أخْرَجَك مع هؤلاء؟ فواللّهِ ما لَحْمُك من لحومهم، ولا دمُك من دِمَائهم. قال: فِتْنَةٌ عَمَّت الناسَ. قال: اكتب لي أموالَك. قال: اكتب يا غلام ألف ألف وألفي ألف، فذكر مالاً كثيرًا. فقال الحجاج: أين هذه الأموال؟ فقال: عندي. قال: فأدِّها. قال: وأنا آمِنٌ على دَمِي؟ قال: والله لتؤدِّيَنَّها ثم لأقتلنَّك. قال: والله لا يجتمعُ دَمِي ومالي. فأمر به فنحي، ثم أحضر محمد بن سعد بن أبي وقاص، فقال: يا ظلَّ الشيطان، أعظم الناس تِيهًا وكبرًا، تَأْبَى بَيْعَةَ يزيد بن معاوية وتتشبه بالحُسين وابن عمر، ثم صِرْت مؤذنًا. وجعل يضربُ رأْسَه بعمود في يده حتى أدْمَاه، ثم أمر به فقُتل.

ثم دعا بعمر بن موسى، فقال: يا عَبْد المرأة، تقوم بالعمود على رأْس ابن الحائك ـ يعني ابن الأشعث وتشربُ معه في الحمام. فقال: أصلح اللّهُ الأمير، كانت فتنة شمِلَت البَرَّ والفاجر، فدخلنا فيها، وقد أمكنك اللّهُ منّا، فإن عَفَوْتَ فبِفَضْلك وحلْمِك، وإن عاقَبْتَ عاقَبْتَ ظلمَةً مُذْنِبين.

فقال الحجاج: إنها شَمِلَت الفجّار وعُوفِي منها الأبرار، أمَّا اعترافُك فعسى أن ينفعك، فرجا الناس السلامة. ثم أمر به فقُتل.

ثم دعا بالهِلْقَام بن نُعيم، فقال له: احْسبْ أن ابْنَ الأشعث طلب ما طلب، ما الذي أمَّلت أنت معه! قال: أمَّلْتُ أنْ يملك فيولِّيني العراقَ كما ولاَّكَ عبْدُ الملك إياه،

فأمر به فقُتل. ودعا عبْد الله بن عامر[١]، فلما أتاه قال له: يا حجاج، لا رأت عينك الجنة إنْ أفلت ابْنُ المهلب بما صنع، قال: وما صنع؟ قال: [من البسيط]

لأنــه كــاس فــي إطــلاقِ أُســرتِــه وقـاد نَـحْـوكَ فـي أغْـلالـهـا مُـضَـرا[٢]

وقَـى بِـقَـومِـكَ وِرْد الـمـوتِ أُسْـرتَـه وكـان قـومُـكَ أدْنَـى عـنـده خَـطـرا

فأطرق الحجاجُ، ووقرتْ في قلبه، وقال: ما أنْت وذاك؟ ثم أمر به فقُتِل.

ثم أمر بفَيْرُوز فعُذِّب، فلما أَحَسَّ بالموت قال للموكَّلِ بعذَابه: إنَّ الناس لا يشكُّون أني قد قُتِلت، ولي ودائعُ وأموالٌ عند الناس لا تؤدَّى إليكم أبدًا؛ فأظهرني للناس ليعلموا أني حي، فيؤدّوا المال.

فأعلم الحجاج بقوله، فقال: أظهروه. فأُخرج إلى بابِ المدينة، فصاح في الناس: منْ عرفني فقد عرفني، ومنْ أنكرني فأنا فيروز بن حُصين، إن لي عند أقوام مالاً، فمنْ كان لي عنده شيء فهُو له، وهو منه في حِلّ، فلا يؤد أحَدًا دِرْهمًا، ليبلغَ الشاهِدُ الغائب، فأمر به الحجاج فقُتِل.

وأمر بقتل عمر بن قرّة الكندي، وكان شريفًا، وقتل أعشى[٣] همدان، وأتى بأسِيرين فأمر بقتلهما، فقال أحدهما: إن لي عندك يدًا. قال: وما هي؟ قال: ذكر عَبْدُ الرحمٰن يومًا أُمكَ بسوءٍ فنهيته. قال: منْ يعلم ذلك؟ قال: هذا الأسير الآخر. فسأله الحجاج فصدقه. فقال له الحجاج: فلم لم تفعل كما فعل؟ قال: وينفعني الصِّدْقُ عندك؟ قال: نعم. قال: منعني البُغْضُ لك ولقومك. قال: خَلُّوا عن هذا لِفِعْله. وعن هذا لِصِدْقِه.

وأما ابن الأشعث فإنه سار إلى رُتبيل، فأقام عنده، فكتب إليه الحجاج: أن ابْعَثْه إليّ وإلاَّ فوالذي لا إلٰه غيره لأُوطِئَنَّ أرْضَك أَلْفَ أَلْفِ مقاتل، وكان مع عبد الرحمٰن رجل من تميم اسمه عُبيد بن سبيع التميمي، وكان رسولَه إلى رُتْبِيل.

---

(١) هو عبد الله بن عامر الحضرمي الذي وجه به معاوية إلى البصرة ينعي قتل عثمان ويستنفر أهل البصرة على قتال علي كرّم الله وجهه.

(٢) الأغلال: جمع غل، وهو طوق من حديد أو جلد يجعل في عنق الأسير أو المجرم أو في أيديهما.

(٣) أعشى همدان: من بني مالك بن زيد بن كهلان، وهو عبد الرحمٰن بن نظام بن جشم بن عمرو بن مالك بن جشم بن حاشد، وكان زوج أخت الشعبي، وكان الشعبي زوج أخته.. كان من القراء، ثم تركه وصار شاعرًا... (الاشتقاق لابن دريد).

فقال القاسم بن محمد بن الأشعث لأخيه عَبْد الرحمٰن: إني لا آمَن غدْرَ هذا التميمي فاقتله. فخافه عُبيد على نفسه، فوشَى به إلى رُتْبيل، وخَوّفه الحجاج، ودعاه إلى الغدْرِ بابْنِ الأشعث، وقال له: أنا آخُذُ لك من الحجاج عهْدًا ليكفَّنَّ عن أرضك سبْع سنين، على أن تدْفَع إليه عبْد الرحمٰن، فأجابه إلى ذلك.

فخرج عُبيد إلى عُمارة سِرًّا فذكر ذلك له، فكتب عُمارة إلى الحجاج بذلك، فأجابه إليه، وبعث رُتبيل برأسِ عبد الرحمٰن، وذلك في سنة خمس وثمانين.

وقيل: إن عبْد الرحمٰن كان قد أصابه السل فمات فقطَع رُتْبيل رأْسه.

وقيل: إن رُتبيل لما صالح عُمارة بن تميم اللخمي عن ابن الأشعث كتب عُمارة إلى الحجاج بذلك، فأطلق له خَراج بلادِهِ عشر سنين، فأرسل رُتْبيل إلى عبْدِ الرحمٰن وثلاثين من أهْلِ بيته، فحضروا عنده، فقيّدهم وأرسلهم إلى عُمارة، فألقى عبْدُ الرحمٰن نَفْسَه من سَطْح قصرٍ فمات، فاحتزَّ رأْسه، وسيَّره إلى الحجاج، وسيَّره الحجاجُ إلى عبد الملك مع عرار بن عَمْرو بن شأْس، وكتب معه كتابًا، فجعل عبْدُ الملك يقْرأُ كتاب الحجاج، فإذا شكَّ في شيء سأل عرارًا عنه فيخبره به، وكان عرار أسْوَدَ اللون، فعجِبَ عَبْدُ الملك من بيَانه وفصاحته مع سواده، وهو لا يعْرِفُه فتمثَّل: [من الطويل]

وإنّ عِـرارًا إن يـكـن غَـيْـر واضـحٍ فإني أُحبُّ الجوْنَ ذا المَنْطِقِ العمم[1]

فضحك عرار، فقال له عبْدُ الملك: ما لك تَضْحك؟ فقال: أتعرف عِرارًا يا أمير المؤمنين؟ قال: لا. قال: فأنا هو. فضَحِك عبْدُ الملك ثم قال: حظّ وافق حكمة. وأحسن جائزته، وسرَّحه.

وروى أبو عمر بن عبد البر بسندٍ رفعه إلى العُتْبِي[2] عن أبيه، قال: كتب الحجاجُ إلى عَبْدِ الملك كتابًا يصِفُ له فيه أهْلَ العراق وما ألْفَاهم عليه من الاختلافِ وما يكرهه منهم، وعَرَّفَه ما يحتاجون إليه مِنَ التقويم والتأْديب، ويستأْذِنه أن يُودِعَ قلوبهم من الرهبة ما يخِفُّون به إلى الطاعة، ودعا رجُلاً مِنْ أصحابه كان يأْنس به،

---

(١) العم: الطويل.

(٢) العتبيّ: هو أبو عبد الرحمٰن محمد بن عبيد الله بن عمرو بن معاوية بن عمرو بن عتبة بن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس القرشي الأموي، المعروف بالعتبيّ، الشاعر البصري المشهور؛ كان أديبًا فاضلاً شاعرًا مجيدًا؛ وكان يروي الأخبار وأيام العرب... (وفيات الأعيان ٤: ٣٩٨).

فقال له: انطلِقْ بهذا الكتاب، ولا يَصِلَنَّ مِنْ يدكِ إلاَّ إلى يدِ أمير المؤمنين، فإذا قبضَه فتكلَّم عليه.

ففعل الرجل ذلك، فجعل عبد الملك كلَّما شكَّ في شيء يستفهمه، فوجده أبلغ من الكاتب، فقال عبد الملك:

وإن عرارًا إن يكن غير واضح. . . البيت.

فقال له الرجل: يا أمير المؤمنين، أتدري مَنْ يخاطبك؟ قال: لا. قال: أنا عرار، وهذا الشّعر لأبِي، وذلك أنَّ أُمي ماتت وأنا مُرْضع، فتزوَّج أبِي امرَأةً فكانت تُسيء ولايتي، فقال أبِي: [من الطويل]

فإن كُنْتِ منّي أوْ تُريدَيْنَ صُحْبتي فكُونِي له كالشَّمْسِ رُبَّت به الأدمْ(١)
وإلاَّ فسِيري سيْرَ راكبِ ناقةٍ تيمَّم خَبْتًا ليس في سيره أَمَم(٢)
أرادتْ عرارًا بالهَوان ومنْ يُرد عرارًا لعمْري بالهَوان لقد ظَلَم(٣)
وإنَّ عرارًا إنْ يكُنْ غَيْر واضحٍ فإنّي أُحِبُّ الجوْنَ ذَا المنْطَق العمم(٤)

ولما جيء بالرأس إلى عَبْدِ الملك أرسله إلى أخيه عبد العزيز بمصر، فقال بعض الشعراء: [من الكامل]

هيهات موضِعُ جُثَّةٍ مِنْ رأسها رأسٌ بمصر جُثَّةٌ بالرُّخَجِ(٥)

وقيل: إن هلاك عبد الرحمٰن كان في سنة أربع وثمانين. ولنرجع إلى تتمة حوادث السنين:

وفي سنة إحدى وثمانين: حجّ بالناس سليمان بن عبد الملك.

سنة اثنتين وثمانين:

في هذه السنة كانت وفاة المغيرة بن المهلَّب بخُراسان في شهر رجَب منها، وكان أبوه قد استخلفه على عَمَلِه.

---

(١) الأدم: اشتداد السمرة.
(٢) الخبت: الوادي العميق، أو ما انخفض واتسع من الأرض.
(٣) العرار: نبات طيب الرائحة.
(٤) الجون: طرف القوس؛ أو النور أو الظلمة، أو الأبيض أو الأسود.
(٥) الرخج: كورة من أعمال سجستان، أو مدينة من نواحي كابل.

ذكر وفاة المهلب بن أبي صفرة ووصيّته لبَنِيه وولاية ابنه يزيد خُراسان

وفي هذه السنة تُوفي المهلَّب بن أبي صُفْرَة بمَرْو الروذ بالشَّوْصَة[1] وقيل بالشَّوْكة، وأوصى إلى حبيب ابنه فصلّى عليه، وقال لبنيه: إني قد استخلفْتُ عليكم يزيد فلا تخالفُوه. فقال ابنه المفضّل: لو لم تقدمه لقدمناه، وأحضر ولده فأوصاهم، وأحضر سِهامًا محْزُومة فقال: أتكسِرُونها مجتمعةً؟ قالوا: لا. قال: أفتكسرونها متفرِّقةً؟ قالوا: نعم. قال: فهكذا الجماعة. ثم قال: أُوصيكم بتَقْوى اللّهِ، وصلة الرحم، فإنها تنسىء[2] في الأجل وتثري المال، وتكثر العدد؛ وأنْهاكُم عن القَطِيعةِ؛ فإنها تُعْقِبُ النار والذلّة والقلّة، وعليكم بالطاعة والجماعة، ولتَكُنْ فعالكم أفْضَل مِنْ مقالكم، واتَّقُوا الجواب وزلّةَ اللسان، فإن الرجل يزلُّ قَدمُه فينتعش، ويزل لسانُه فيهلك، واعْرِفُوا لمنْ يغْشاكم حقَّه، فكفى بِغُدوِّ الرجل ورَوَاحه إليكم تذكرةً له، وآثِرُوا الجُودَ على البخل، وأحبُّوا العرب، واصنعوا المعروف؛ فإن الرجل من العرب تَعِدُه العِدةَ فيموت دونك، فكيف بالصنيعة عنده! وعليكم في الحرب بالتؤدة والمكيدة، فإنهما أنْفَعُ من الشجاعة، وإذا كان اللقاء نزل القضاء، فإن أخَذَ الرجلُ بالحَزْم فظفِرَ قيل: أتى الأمْرَ من وجهه فظفر فمد، فإن لم يظفر بعد الأناة قيل: ما فرَّط ولا ضيَّع، ولكن القضاء غالب. وعليكم بقراءة القرآن وتعليم السنن وآداب الصالحين، وإياكم وكَثْرَةَ الكلام في مجالسكم.

ومات رحمه الله فكتب ابنه يزيد إلى الحجاج يعلمه بوفاته، فأقره على خراسان.

وفيها عزل عَبْدُ الملك أبان بن عثمان عن المدينة في جُمادى الآخرة، واستعمل عليها هشام بن إسماعيل المخزومي.

وحجَّ بالناس أبَان بن عثمان.

سنة ثلاث وثمانين:

ذكر خبر عمر بن أبي الصلت وخَلْعه الحجاج بالريّ وما كان من أمْره

قال: لما ظفر الحجاجُ بابْنِ الأشعث لحق خَلْقٌ كثير من المنهزمين بعُمَر بن أبي

---

(١) الشوصة: وجع في البطن أو ريح تعتقب في الأضلاع، أو ورم في حجاب البطن من داخل.

(٢) النسيء: التأجيل أو التأخير.

الصَّلت، وكان قد غلب على الريّ في تلك الفتنة، فلما اجتمعوا بالرَّيِّ أرادوا أن يحظوا عند الحجاج بأمْرٍ يَمْحُون به عن أنفسهم عَثْرَة الجماجم، فأشاروا على عُمَر بخَلْع الحجاج وقُتَيْبة، فامتنع، فوضعوا عليه أباه؛ أبا الصَّلت، وكان به بارًّا، فأشار بذلك عليه وألْزَمَهُ به، وقال: يا بني، إذا سار هؤلاء تحت لوائك لا أُبالي أنْ تُقْتل غدًا. ففعل. فلما قارب قُتَيْبَة الرَّيَّ استعدّ لقتالِه، فالتقيا، وتقاتلوا، فغَدَر أصحاب عُمر به وأكثرُهُمْ من تميم، فانهزم ولحق بطبرستان، فآواه الإصْبَهْذ[1] وأكْرَمه وأحسن نزله، فقال عُمر لأبيه: إنك أمَرْتَني بخَلْع الحجاج وقُتَيْبَة فأطَعْتُك وكان خلاف رَأْيي، ولم أحمد رَأْيَك، وقد نزلنا بهذا الإصْبَهذ فدَعْنِي حتى أثب إليه فأقتله. وأجلس على مَمْلَكته، فقد علمت الأعَاجم أنّي أشْرفُ منه. فقال أبوه: ما كنت لأفعل هذا برجُلٍ أوَانا وأكْرَمَنا وأنْزَلنا. فقال عمر: أنْتَ أعلم، وسترى.

ودخل قُتَيْبَة الري، وكتب إلى الحجاج بانهزام عُمَر إلى طبرستان. فكتب الحجاج إلى الإصْبَهْذ أنِ ابعث بهم أو برؤوسهم، وإلا فقد بَرِئَتْ منك الذمَّةُ، فصنع لهم الإصْبَهْذ طعامًا وأحضرهم، فقتل عمر، وبعث أباه أسِيرًا. وقيل: قتلهم وبعث برؤوسهم. والله أعلم.

ذكر بناء مدينة واسط[2]

وفيها بَنَى الحجاج مدينة واسط، وسبَبُ ذلك أنَّه ضربَ البَعْثَ على أهل الكوفة إلى خُراسان وعَسْكر بحمَّام عُمر، وكان فتًى من أهل الكوفة حديثَ عهد بعُرْس بابنة عمٍّ له، فانصرف مِنَ العسكر إلى ابنة عمه، فطُرِق عليه الباب طَرْقًا شديدًا، فإذا سكرانُ من أهل الشام، فقالت المرأة لبَعْلِها: لقد لقينا من هذا الشامي شرًّا يفعَلُ بنا كلَّ ليلة ما ترى - يُريد المكروه، وقد شكَوْتُه إلى مشيخة أصحابِه. فقال: ائذني له، فأذِنَتْ له. فلما دخل قَتله زَوْجُها.

فلما أذَّن الفَجْرُ خرج إلى العسكر وقال لابنة عمه: إذا صلّيْت الفَجْر فابعثي إلى الشاميين ليأْخذوا صاحِبَهُم، فإذا أحضروك إلى الحجاج فاصْدُقِيه الخَبَرَ على وجْهه، ففعلَتْ، وأُحضرت إلى الحجاج، فأخبرته فصدَّقها، وقال للشاميين: خُذُوا صاحِبَكم

(١) إصبهذ: الأزهري في الخماسي: إصبهذ: اسم أعجمي. . . (اللسان مادة أذذ).

(٢) واسط: في عدة مواضع: أهمها واسط الحجاج وأعظمها وأشهرها، وهي متوسطة بين البصرة والكوفة لأن منها إلى كل واحدة منهما خمسين فرسخًا. . . (معجم البلدان).

لا قَوَد له ولا عَقْل[١]، فإنه قَبِيل الله إلى النار. ثم نادى منادٍ: لا ينزلنَّ أحَدٌ على أحَدٍ، وبعث روّادًا يرتادُونَ له مَنْزِلاً، وأقبل حتى نزل بموضع واسط، وإذا راهبٌ قد أقْبَلَ على حمارٍ، فلما كان بموضع واسط بَال الحِمارُ، فنزل الراهبُ فاحتفر ذلك البَوْلَ ورماه في دجْلة والحجاجُ ينظرُ إليه، فاستحضره وقال له: ما حَمَلَك على ما صنَعْت؟ قال: نَجِد في كتبنا أنه يُبْنَى في هذا الموضع مسجد يُعْبَدُ الله فيه ما دام في الأرض أحد يوحِّد الله.

فاختطّ الحجاج مدينة واسط وبنى المسجد في ذلك الموضع.

وحجّ بالناس في هذه السنة هشام بن إسماعيل.

سنة أربع وثمانين:

في هذه السنة قتل الحجاج أيوب ابن القِرِّيَّة، وكان مع ابْن الأشعث، فلما هُزِم التحق أيّوب بحوشب بن يزيد عامل الحجاج على الكوفةِ، فاستحضره الحجاج وقتله.

وحجَّ بالناس هشام بن إسماعيل.

سنة خمس وثمانين:

ذكر عزل يزيد بن المهلب عن خراسان ووِلاية أخيه المفضل

وفي هذه السنة عزَل الحجاجُ يزيد بن المهلَّب عن خُرَاسان، وكان سبب عزْلِه أنَّ الحجاج وفد إلى عبد الملك فمرَّ في طريقه براهبٍ، فقيل له: إنّ عنده عِلْمًا، فأحضره الحجاجُ، وسأله: هل تَجِدُون في كتُبكم ما أنتم فيه ونحن؟ قال: نعم. قال: فَمُسمًّى أو موصوفًا؟ قال: كلُّ ذلك نجده موصوفًا بغير اسم ومُسمًّى بغير صفةٍ. قال: فما تَجِدُون صفةَ أمير المؤمنين؟ قال: نجده في زمانِنا ملك أفرع مَنْ يقم لسبيله يُصْرَعْ. قال: ثم مَنْ؟ قال: اسم رجل يقال له الوليد، ثم رجل اسمه اسم نَبيّ يُفْتَح به على الناس. قال: أتعرفني؟ قال: قد أُخْبِرت بك. قال: أفتعلم مآلي؟ قال: نعم. قال: أفتعلم مَنْ يَلِي بَعْدي؟ قال: نعم، رجل يقال له يزيد، قال: أفتعرف صِفَته؟ قال: يَغْدر غَدْرة، لا أعرِف غير هذا.

(١) العقل: الدية.

فوقع في نفسه أنه يزيد بن المهلب، ثم سار وهو وَجِل من قول الراهب. فلما عاد كتب إلى عَبْد الملك يذمُّ يزيد وآل المهلب، ويخبره أنهم زُبَيْرية.

فكتب إليه عبْدُ الملك: إني أرى طاعَتَهم لآل الزبير نَقْصًا لآل المهلب؛ بل وفاؤُهم لهم يدْعُوهم إلى الوَفَاء لي.

فكتب إليه الحجاج يخوِّفُه غَدْره.

فكتب إليه: إنك قد أكثَرْتَ في يزيد وآل المهلب فسمِّ رجُلاً يصلُح لخراسان. فسمَّى له قُتَيْبَة بن مسلم، فكتب إليه أنْ وَلِّه. فكرِهَ الحجاجُ أن يكتب إليه بعزْله، فكتب إليه يأْمره أن يستخلف أخاه المفضّل ويُقْبِلَ إليه.

فاستشار يزيدُ حُضَين بن المنذر الرَقَاشي: فقال له: أَقِمْ واعْتَلّ، واكتب إلى أمير المؤمنين ليقرّك، فإنه حسَنُ الرَّأْي فيك.

فقال له يزيد: نحن أهلٌ قد بُورِكَ لنا في الطاعة، وأنا أكرَهُ الخِلاَفَ. وأخذ يتجهزُ فأبطأ.

فكتب الحجاج إلى المفضّل: إني قد ولَّيْتُك خُرَاسَان، فجعل المفضل يستحثُّ يزيد، فقال له يزيد: إنَّ الحجاج لا يقرُّك بعْدِي، وإنما دعاه إلى ما صنع مخافةُ أنْ أمتنِعَ عليه، وستعلم.

وخرج يزيد في شهر ربيع الآخر سنة خمس وثمانين، وأقَرَّ الحجاجُ أخاه المفضّل تسعة أشهر، ثم عزله، واستعمل قُتَيْبة على ما نذكره، وسار يزيد بن المهلب فكان لا يمرُّ ببلد إلاَّ فرش أهلُها الرياحين.

ذكر أخبار موسى بن عبد الله بن خازم واستيلائه على تِرْمِذ[١] وما كان من حروبه مع العَرَب والترك وخَبَر مَقْتَله

كان موسى بنُ عَبْد الله قد استولى على تِرمذ، وأخرج تِرْمِذ شاه عنها، وسببُ ذلك أن أباه عبد الله لما قَتل مَنْ قَتَل مِنْ بني تميم بخراسان كما تقدَّم ذِكْرُ ذلك في أثناء أخبار عَبْدِ الله بن الزُّبير تَفَرَّق عنه أكثَرُ مَنْ كان مَعه مِنْهم، فخرج إلى نيسابور، وخاف بني تميم على ثَقَلِهِ[٢] بمَرْو، فقال لابنه موسى: خُذْ ثَقَلي واقطع نهْرَ بَلْخ حتى تَلْتَجىء إلى بَعْض الملوك أو إلى حِصْنٍ تكون فيه.

---

(١) ترمذ: هي مدينة من أمهات المدن المشهورة راكبة على جيحون شرقية.

(٢) الثقل: المتاع؛ أو الشيء النفيس الخطير.

فرحل موسى عن مَرْو في عشرين ومائتي فارس، واجتمع إليه تتمةُ أربعمائة، وانضوى إليه قوم من بني سُليم، فأتى زُمّ[١]، فقاتله أهلُها، فظفر بهم، وأصاب مالاً، وقطع النهر. فأتى بُخَارى فسأل صاحبَها أنْ يَلْجأ إليه، فأبى وخافه. وقال: رجل فاتك فلا آمنه، ووصلَه، وسار فلم يَأْت ملكًا يَلْجأُ إليه إلاَّ كره مقامه عنده.

فأتى سمرقند[٢]، فأكرمه ملكها طَرْخُون وأذن له في المقام بها، فأقام بها ما شاء الله. وكان لأهل الصُغْد مائدة تُوضع في كل عام مرةً، عليها خبز ولحم وخَلّ وإبريق شَرَاب، يجعلون ذلك لفارِسِ الصُغد فلا يَقْرَبُه غيره، فإن أكلَ منه بارزَهُ الفارس، فأيّهما قَتَلَ صاحبه كانت المائدةُ له، وكان الفارس المشار إليه، فرآها رجلٌ من أصحاب موسى، فقال: ما هذه؟ فأُخبر، فأكَلَ ما عليها. وجاء الفارسُ مُغْضَبًا، فقال: يا أعرابي، بارِزْني، فبارزَه فقتلَه صاحبُ موسى، فقال ملك الصُغد: أنْزَلْتُكم وأكرمْتُكم فقتلْتُم فارسي، فلولا أني أمنتك وأصحابك لقتلتك، اخرجوا عَنْ بَلَدي.

فخرجوا، فأتى موسى كشّ[٣]، فَضَعُف صاحبُها عنه، فاستنصر طَرْخُون فأتاه، فقاتله موسى وقد اجتمع معه سبعمائة فارس يومًا حتى أمْسوا وتحاجَزُوا، ثم اتفقوا أن يرْتَحِل موسى عن كشّ؛ فسار فأتى تِرْمِذ وبها حصْنٌ يُشْرِفُ على جانب النهر، فنزل موسى خارج الحصن وسأل ترمذ شاه أن يُدْخله الحِصْنَ فأبى، فأهدى له موسى ولاَطَفه حتى أنس به، وصارت بينهما مودَّة، وتصيَّد معه، وصنَع صاحبُ تِرْمِذ طعامًا، وأحضر موسى ليأْكل معه، وشرط ألاَّ يحضر إلاَّ في مائة من أصحابه، فاختار موسى مائة منهم، فدخلوا الحِصْنَ وأكلوا، فلما فرغوا قال له ترمذ شاه: اخرج. قال: لا أَخْرُج حتى يكونَ الحِصْنُ بيْتِي أوْ قَبْرِي، وقاتلهم فقَتَلَ منهم عدّةً وهرب الباقون، واستولى موسى عليها، وأَخْرَج ترمذ شاه منها، ولم يعْرِضْ له، ولا لأصحابه.

فأتوا التُرْكَ يستنصرونَهُمْ على موسى، فلم يَنْصروهم، وقالوا: لا نقاتل هؤلاء.

وأقام موسى بتِرْمِذ، وأتاه جمْعٌ من أصحاب أبيه فقَوِي بهم، فكان يُغير على ما حَوْله.

---

(١) زمّ: قيل: هي بئر لبني سعد؛ وقيل: هي ماء لبني عجل فيما بين أداني طريق الكوفة إلى مكة والبصرة.

(٢) سمرقند: بفتح أوله وثانيه. . .: هو قصبة الصغد مبنية على جنوبي وادي الصغد مرتفعة عليه. . . (معجم البلدان).

(٣) كشّ: بالفتح ثم التشديد: قرية على ثلاثة فراسخ من جرجان على جبل.

وولي بُكَيْر بن وسَّاج خراسان فلم يعرض له، ثم قدم أُمَيّة، فسار يُرِيدُه؛ فخالفه بُكير، فرجع على ما تقدم، ثم وجَّه أُميّة رجلاً من خُزَاعة في جَمْع كثير لقِتَالِ موسى، فجاء إلى تِرْمِذ وحصره، فعاد أهْلُ تِرْمِذ إلى الترك، واستنصروهم وأعلموهم أنه قد غَزَاه قَوْمٌ من العَرَب وحصَرُوه، فسارت التُّرْك في جمْعٍ كثير إلى الخزاعي فأطاف بموسى العرَبُ والترك، فكان يقاتِلُ الخزاعي أول النهار والتُّرك آخر النهار، فقاتلهم شَهْرَين أو ثلاثة.

ثم أراد أن يُبيِّت[1] الخزاعي، فقال له عمرو بن خالد بن حُصَيْن الكِلاَبِي: بَيِّت العجم، فإنَّ العرب أشد حَذَرًا وأجْرأُ على الليل، فوافقه.

وأقام حتى ذهب ثلث الليل، وخرج في أربعمائة، وقال لعمْرو بن خالد: اخرج بَعْدَنا أنت ومن معك منا قريبًا، فإذا سمعْتُم تَكْبِيرنا فكبِّرُوا.

ثم سار حتى ارتفع فَوْقَ عسكر التركِ ورجع إليهم، وجعل أصحابه أرباعًا، وأقبل إليهم، فلما رآهم أصحابُ الأرْصَاد قالوا: مَنْ أنتم؟ قالوا: عابِرُو سبيل. فلما جاوزُوا الرصد حملوا على التُّرْك وكبَّروا فلم يشْعُر الترك إلاَّ بوَقْع السيوف فيهم، فثاروا يَقْتلُ بعضهم بعضًا وولَّوا. فحوى موسى ومنْ معه عَسْكَرهم، وأصابوا سِلاَحًا كثيرًا ومالاً، وأُصيب من أصحابِ موسى ستة عشر رجلاً، وأصبح الخُزَاعي وأصحابُه وقد كسرهم ذلك، وخافُوا مِثْلَها، فقال عَمْرو بن خالد لموسى: إنَّا لا نظْفَرُ إلاَّ بمكيدة، ولهؤلاء أمْدَادٌ تأْتيهم، فدَعْنِي آتِه لَعلِّي أُصِيبُ فُرْصَة فأقتل الخزاعي، فاضربني. فقال موسى: تتعجَّل الضَّرْب، وتتعرَّض للقتل؟ قال: أما التعرضُ للقَتْل فأنا كل يوم متعرِّض له، وأما الضَّرْب فما أيْسره في حُبِّ ما أُرِيد. فضربه موسى خمسين سَوْطًا، فخرج حتى أتى عَسْكر الخزاعي مستَأْمِنًا، وقال: أنا رَجلٌ من أهل اليمن كنْتُ مع عَبْد الله بن خازم، فلما قُتِل أتيتُ ابْنَه فكنْتُ معه، وإنه اتهمني وقال: قد تعصَّبْت لعَدُوِّنا، وأنْتَ عيْنٌ له، ولم آمن القَتْلَ، فهربْتُ منه.

فأمَّنَهُ الخُزَاعِيّ، وأقام معه، فدخل يومًا فلم يرَ عنده أحدًا ولا معه سلاحًا، فقال له كالناصح: أصلح اللّهُ الأمير، إنَّ مثلك في مِثْل هذا الحال لا ينبغي أن يكونَ بغير سِلاَح. قال: إن معي سلاحًا، ورفع طَرف فراشِه، فإذا سيف مُنْتَضى، فأخذه عَمرو فضرب به الخُزاعي حتى قتله، وخرج فركب فَرَسَه وأتى موسى.

---

(١) بيّت العمل ليلاً: دبّره؛ وبيّت القوم: أوقع بهم ليلاً بغتة وهو المراد هنا.

وتَفَرَّق ذلك الجَيْشُ، وأتى بَعْضُهم موسى مستأْمِنًا فأمّنه، ولم يوجّه إليه أُمية أحدًا.

وعزل أُمية، وقدم المهلَّب أميرًا، فلم يعْرِضْ لموسى، وقال لبنيه: إياكم وموسى، فإنكم لا تزالون وُلاَةَ خراسان ما دام هذا الثَّطُّ[١] بمكانه، فإن قُتل فأول طالع عليكم أمِير خراسان مِنْ قَيْس.

فلما مات المهلَّب وولي يزيد لم يعرض إليه أيضًا، وكان المهلب قد ضرب حُرَيْث بن قُطْبة الخزاعي، فخرج هو وأخوه ثابت إلى موسى، فلما ولي يزيد بن المهلَّب أخذ أموالَهما، وقتل أخاهما لأُمهما الحارث بن مُنْقذ، فخرج ثابت إلى طرخون، فشكا إليه ما صنع به يزيد، وكان ثابت محبوبًا إلى الترك بَعيد الصوت فيهم؛ فغضب له طَرْخون، وجمع له نَيْزَك والسَّبَل[٢] وأهْل بخارى والصَّغانيان، فقدمُوا مع ثابت إلى موسى، واجتمع لموسى أيضًا فَلُّ[٣] عبد الرحمٰن بن العباس من هَرَاة وفلُّ عبد الرحمٰن بن الأشعث مِنَ العراق، ومِنْ ناحية كابل[٤]، وقوم من بني تميم ممن كان يقاتل ابن خازم في الفتنة من أهل خراسان، فاجتمع معه ثمانية آلاف.

فقال له ثابت وحُريث: سِرْ بِنَا حتى نقطَعَ النهر ونُخْرِج يزيد عن خراسان ونولِّيك.

فهمَّ أن يفعل، فقال له أصحابه: إنْ أخرجت يزيد عن خُراسان تولَّى ثابت وأخوه خراسان وغَلَبا عليها، فامتنع من المسير، وقال لثابت وحُريث: إنْ أخرجنا يزيد قدِم عاملٌ لعبد الملك، ولكنا نُخرج عُمَّال يزيد من وراء النهر، وتكون هذه الناحية لنا؛ فأخْرَجوا عمالَه، وجَبَوا الأمْوال، وقَوِي أمْرُهم، وانصرف طَرْخون ومنْ معه، واستبدَّ ثابت وحُرَيْث بتدبير الأمر، وليس لموسى إلا اسم الإمرة. فقيل لموسى: اقتل ثابتًا وحُرَيْثًا، واستَقِلّ بالأمر، فإنه ليس لك من الأمر شيء. وألحّ أصحابه عليه في ذلك حتى هَمَّ بِقتْلهما.

---

(١) الثط: الثقيل البطن، والقليل شعر اللحية والحاجبين.

(٢) السبل: موضع في بلاد الرباب قرب اليمامة.

(٣) الفلّ: المنهزمون.

(٤) كابل: أرضها بين الهند ونواحي سجستان في ظهر الغور... وكابل: اسم يشمل الناحية ومدينتها العظمى أو هند... وقيل: كابل من ثغور طخارستان، ولها من المدن واذان، وخواش، وخشك، وجزه... (معجم البلدان لياقوت).

فبينما هم في ذلك إذ خرج عليهم الهيَاطلة[١] والتبَّت[٢] والترك في سبعين ألف مقاتل غَيْر الأتباع ومَنْ ليس هو كامِل السلاح.

فخرج موسى وقاتلَهم فيمنْ معه، ووقف مَلِكُ الترك على تَلٍّ في عشْرةِ آلاف في أكْمَلِ عُدَّةٍ، وقد اشتدّ القِتَالُ، فقال موسى لأصحابه: إن أزَلْتُم هؤلاء فليس الباقون بشيء، فقصدهم حُرِيْث بن قُطْبَة وقاتلهم حتى أزالهم عن التلّ، ورُمي حُريث بنُشَّابة في جَبْهته، وتحاجزُوا وَبَيَّتَهم موسى، فحمل أخوه خازم بن عبْد الله بن خازم حتى وصل إلى شمعةِ مَلِكهم، فوجأ رجُلاً منهم بقَبيعةِ[٣] سيْفه، فطعن فرسَه فاحتمله الفرس فألقاه في نهر بَلْخ فغرق وقُتِل من التُّرْك خَلْقٌ كثير، ونجا منْ نجا منهم بِشَرٍّ، ومات حُريْث بيومين ورجع موسى وحمل معه الرؤُوس، فبنى منها جَوْسَقَيْن[٤]، وقال أصحاب موسى: قد كُفينا أمر حُريث فاكْفِنَا أمْر ثابت، فأبى، وبلغ ثابتًا بعْضُ ذلك فدسَّ محمد بن عبْد الله الخُزَاعي على موسى، وقال: إياك أن تتكلم بالعربية، فإن سألوك فقل: أنا من سبْي البامِيان[٥]، ففعل ذلك، وتلطَّف حتى اتصل بموسى وصار يخدمه وينقل إلى ثابت خبَرهُم، فحذِر ثابت. وألّبَ القوم على موسى، فقال لهم ليلةً: قد أكثرْتُم عليّ؛ وفيم تريدون هلاككم، فعلى أيِّ وَجْهٍ تقتلونه ولا أغدر به. فقال له أخوه نوح: إذا أتاك غَدًا عدلْنَا به إلى بعْضِ الدُّور فضربنا عُنُقَه قبل أنْ يَصِل إليك. فقال: والله إنه لهلاكُكم، وأنتم أعلم.

فخرج الغلام فأخبر ثابتًا فخرج مِنْ ليْلته في عشرين فارسًا ومضى، وأصبحوا فلم يجدوه ولا الغلام، فعلموا أنه كان عينًا له، ونزل ثابت بحشورا، واجتمع إليه خَلْقٌ كثير من العرب والعجم، فأتاه موسى وقاتلَه فتحصن ثابتٌ بالمدينة، وأتى طَرْخون مُعينًا له، فرجع موسى إلى تِرْمِذ، وأقبل ثابت وطَرْخون ومعهما أهْلُ بخارى، ونَسَف وكشّ، فاجتمعوا في ثمانين ألفًا، فحصروا موسى حتى جهد هو وأصحابه، فقال يزيد بن هذيل: والله لأقتلن ثابتًا أو لأموتنَّ، فخرج إلى ثابت فاستأمنه، فقال له

---

(١) الهياطلة: الذين يسكنون هيطل، وهي بلاد بخارى، وسمرقند، وخجند.

(٢) التبت: سكان مملكة التبت، وهي مملكة متاخمة لمملكة الصين ومتاخمة من إحدى جهاتها لأرض الهند ومن جهة الشرق لبلاد الهياطلة ومن جهة المغرب لبلاد الترك... (معجم البلدان).

(٣) قبيعة السيف: ما على طرف مقبضه من فضة أو حديد.

(٤) الجوسق: القصر الصغير؛ أو الحصن.

(٥) الباميان: بلدة وكورة في الجبال بين بلخ وغزنة.

ظهير: أنا أعرَفُ بهذا منك، ما أتاك إلاَّ بغَدْرة، فاحذره. فأخذ ابنيه: قدَامة، والضحاك رَهْنًا، فكانَا في يَدِ ظُهير، وأقام يزيد يلتمس غِرَّة ثابت، فلم يَقْدر على ما يريد حتى مات ابنٌ لزياد القصير الخُزَاعي، فخرج ثابت إليه ليعزيه ومعه ظهير ورهط من أصحابه، وفيهم يزيد بن هذيل وهو بغير سلاح، وقد غابت الشمسُ، فدنا يزيد من ثابت فضربه على رَأْسه فعضّ السيف برأسه، فوصل إلى الدماغ وهرب، فسلِم. فأخذ طرخون قُدامة والضحاك ابني يزيد فقتلهما، وعاش ثابتٌ سبعة أيام، ومات.

وقام بأمْرِ العجم بعد موت ثابت طرخون، وقام ظهير بأمْرِ أصحاب ثابت فقاما قيامًا ضعيفًا، فانتشر أمْرُهم، وأجمع موسى على بَياتهم، فأُخبر طرخون بذلك فضَحك، وقال: موسى يعجز أن يدخلَ متوضّأه فكيف يُبَيّتُنَا، لا يَحْرُس الليلة أحَدٌ.

فخرج موسى في ثمانمائة، وجعلهم أرباعًا، وبيّتهم فكانوا لا يمرُّون بشيء إلاَّ صرعوه من الرجال والدوابّ وغيرها، فأرسل طَرْخون إلى موسى: أنْ كُفّ أصْحَابَك، فإنا نرحَلُ إذا أصبحنا، فرجع موسى وارْتَحَلَ طَرْخون والعَجَم جميعًا.

فلما عزل يزيد بن المهلب وولي المفضّل أراد أن يَحْظَى عند الحجّاج بقِتَال موسى، فسيَّر إليه عثمان بن مسعود في جيشٍ، وكتب إلى أخيه مدرك بن المهلب وهو ببَلْخ يأمره بالمسير معه، فعَبَر النَّهْرَ في خمسة عشر ألفًا، وكتب إلى السَّبَل وإلى طَرْخون فقدموا عليه، فحصروا موسى وضيَّقوا عليه، فمكث شَهرَين في ضيق، وقد خَنْدَق عثمان عليه، وحذر البَيَات، فقال موسى لأصحابه: أخرُجُوا بنا، حتى متى نَصْبِر؟ فاجعلوا يومكم معهم إمَّا ظفرتم وإما قُتلتم، واقْصِدُوا الترك.

فخرجوا وخَلَّف النضر بن سليمان بن عَبْد الله بن خازم في المدينة، وقال له: إن قتلت فلا تدْفَعَنّ المدينةَ إلى عثمان، وادفعها إلى مدرك بن المهلب، وخرج وجعل ثلث أصحابِه بإزاء عثمان، وقال: لا تقاتلوه إلا إن قاتلكم، وقصد طَرْخون وأصحابه فصدقوهم القتال، فانهزم طَرْخون، واستولى موسى على عسكره، وزَحَفت التُركُ والصُغْد، فحالوا بين موسى والحصن، فقاتلهم، فعقروا فرسه فسقط، فقال لمولى له: احملني. فقال: الموت كَريه، ولكن ارتدف، فإنْ نَجَوْنا نجونا جميعًا، وإن هلكنا هلَكْنا جميعًا.

فارتدف، فلما نظر إليه عثمان حين وثب قال: وَثْبَةُ موسى وربّ الكعبة، وقصده وعُقِرَتْ فرَسُه، فسقَطَ هو ومَوْلاه فقتلوه، ونادى منادِي عُثمان: مَنْ لقيتموه فخذُوه أسيرًا، ولا تقتلوا أحَدًا، فقَتَلَ ذلك اليوم من الأسرى خَلْقًا كثيرًا من العرب خاصةً، فكان يقتل العَرِبي ويضرب المولى ويُطْلِقُهُ، وكان الذي أجهز على موسى

واصل بن طَيْسَلة العنبري، وسلَّم النضرُ المدينة إلى مُدْرك فسلمها مُدْرِك إلى عثمان، وكتب المفضل إلى الحجاج بقَتْل موسى فلم يَسُرّه ذلك، لأنه مِنْ قَيْس.

وكان مقتل موسى في سنة [٨٥هـ] خمس وثمانين، وكان مقام موسى بالحصن أربع عشرة سنة. وقيل خمس عشرة سنة.

ذكر وفاة عبد العزيز بن مروان ووِلاية عبد الله بن عبد الملك مصر والبيعة للوليد وسليمان ابني عبد الملك بولاَيَةِ العَهْد

كانت وفاته بمصر في جُمادى الأُولى سنة [٨٥هـ] خمس وثمانين، وكان عبْدُ الملك أراد أنْ يَخْلَعُه مِنْ ولاية العهد، ويُبايع لابنه الوليد، فنهاه قَبِيصة بن ذُؤَيب عَنْ ذلك، وقال: لا تفعَلْ، ولعل الموت يأتيه، فكَفّ عنه عبد الملك ونَفْسُه تُنَازِعه إلى خَلْعه؛ فدخل عليه رَوْح بن زِنْبَاع، وكان أجلَّ الناس عند عَبْد الملك، وقال: يا أمِيرَ المؤمنين، لو خلعْتَه ما انتطح فيها عَنْزَان؛ وأنا أول مَنْ يُجيبك إلى ذلك. قال: نُصبح إنْ شاء الله ونفعل.

ونام رَوْح عنده، فدخل عليهما قَبِيصة بن ذؤَيب وهما نائمان، وكان عَبْدُ الملك قد تقدّم إلى حجّابه ألاّ يحجبُوا قَبِيصة عنه، وكان إليه الخاتم والسكّة[١]، والأخبارُ تأْتيه قَبْل عبد الملك، فلما دخل سَلَّم عليه، وقال: آجرك الله في عبد العزيز أخيك! قال: هل توفي؟ قال: نعم. فاسترجع، ثم أقبل على رَوْح، وقال: كفانا الله ما نريد. وكان هذا مخالفًا لكَ يا قَبِيصة. وضَمّ عبد الملك عَمَل عبد العزيز إلى ابنه عَبْد الله بن عبد الملك، وأمر بالبيعةِ لابْنَيْه: الوليد، وسليمان، فبايعهما الناسُ، وكتب بذلك إلى الأمصار، وكان على المدينةِ هشام بن إسماعيل المخزومي، فدعا الناس إلى البيعة، فأجابوا إلا سَعيد بن المسيّب، فإنه أبى، وقال: لا أبَايع وعَبْدُ الملك حيّ، فضربه هشام ضربًا مبرّحًا، وطاف به وهو في تُبَّانِ[٢] شعرٍ حتى بلغ رأْس الثنية التي يقتلون ويصلبون عندها، ثم ردّه وحبسه.

---

(١) السكة: حديدة منقوشة تضرب عليها النقود.

(٢) تبان: بالضم والتخفيف، من قرى سوبخ من ناحية خزار من بلاد ما وراء النهر من نوايح نسف. . . (معجم البلدان).

فبلغ ذلك عبد الملك، فقال: قَبَّح اللّهُ هِشامًا، إنما كان ينبغي له أنْ يدعوه إلى البيعة، فإن أبى أن يبايع يضرب عنقه أو يكفّ عنه.

وكتب إليه يَلُومُه ويقول: إن سعيدًا ليس عنده شِقَاق ولا خِلاف؛ وقد كان سعيد امتنع أيضًا من بَيْعَة ابْنِ الزبير، وقال: لا أُبايعُ حتى يجتمع الناس، فضربه جابر بن الأسود عاملُ ابن الزبير ستِّين سَوْطًا.

فكتب ابن الزبير إلى جابرٍ يَلومُهُ، وقال: ما لنا ولسعيد! دَعْه، لا تَعْرِض له.

وحجّ بالناس في هذه السنة هشام بن إسماعيل.

سنة ست وثمانين:

ذكر وفاة عبد الملك بن مروان

كانت وفاته بدِمَشْق في منتصف شوال سنة ستّ وثمانين، وكان يقول: أخافُ الموتَ في شهر رمضان، فيه وُلدت، وفيه فُطِمت، وفيه جمعت القرآن، وفيه بايع لي الناسُ، فمات في شوّال حين أمِن المَوْتَ في نفسه، واختلف في عمره من ثلاث وستين سنة إلى سبع وخمسين.

وصلى عليه ابنُه وليُّ عهْده الوليد.

وكانت مدة خلافته إحدى وعشرين سنة وخمسة عشر يومًا، خلص له الأمْرُ منها بعد مَقْتَل عَبْدِ الله بن الزُّبَيْر ثلاث عشرة سنة وأربعة أشهر إلاّ سبع ليال، ودُفِنَ بدمشق خارج باب الجَابِية.

قيل: ولما اشتدّ مَرَضُه نهاه بَعْضُ الأطباءِ أن يشرب الماء، وقال: إن شَرِبَ الماء مات، فاشتدَّ عطَشُه، فقال: يا وليد، اسقني ماء. قال: لا أُعِين عليك. فقال لابنته فاطمة: اسْقِيني، فمنعها الوليد. فقال: لتدعنَّها أو لأخلعنَّك. فقال: لم يَبْقَ بعد هذا شيء، فسقَتْه فمات.

ودخل عليه الوليد وابنتُه فاطمة عند رَأْسه تبكي، فقال: كيف أمير المؤمنين؟ قال: هو أصلح مِمَّا كان. فلما خرج قال عبد الملك: [من الطويل]

ومستخبرٍ عنا يريد بنا الرَّدى ... ومُسْتخبَراتِ والدموعُ سواجم[1]

(١) سجم الدمع: سال قليلاً أو كثيرًا.

ذكر وصيته بنيه عند موته

قال: وأوصى بَنيهِ عند موته، فقال: أُوصيكم بتقوى الله، فإنه أزْيَنُ حِلْية وأحصن كَهْف، ليَعْطِف الكبيرُ منكم على الصغير، وليعرف الصغير حَقَّ الكبير، وانظروا مسْلَمَة فاصْدُروا عن رَأْيِهِ، فإنه نَابُكم الذي تَفِرّون[١]، ومجِنُّكم[٢] الذي عنه تَرْمُون، وأكرِمُوا الحجاج فإنَّه الذي وَطَّأ لكم المنابر ودَوَّخ لكم البلاد، وأذلّ لكم الأعداء، وكونوا بني أُم برَرَة. لا تدبّ بينكم العقارِبُ، وكونوا في الحرْبِ أحرارًا، فإن القتالَ لا يقرِّبُ ميتة، وكونوا للمعروف منارًا؛ فإن المعروف يبقى أجره وذُخْره وذِكْرُه، وضَعُوا معروفكم عند ذوي الأحساب، فإنهم أصْونُ له وأشكر لما يُؤتى إليهم منه، وتغمّدوا[٣] ذنوبَ أهلِ الذنوب، فإن استقالوا فأقيلوا، وإن عادُوا فانتقموا.

ذكر أولاده وأزواجه

كان له: الوليد، وسليمان، ومَرْوان الأكبر ـ دَرجَ[٤]، وعائشة؛ أُم هؤلاء ولادَةُ بنت العباس بن جَزء بن الحارث بن زُهَيْر بن جذيمة، ويزيد ومَرْوان ومعاوية دَرَجَ، وأُم كلثوم، أُمهم عاتكة ابنة يزِيد بن معاوية، وهشام أُمه أم هشام بنت هشام بن إسماعيل بن هشام بن الوليد بن المغيرة المخزومية، واسمها عائشة، وأبو بكر، وهو بكار، أُمّه عائشة بنت موسى بن طَلْحة بن عُبيْد الله، والحكم ـ درج، أُمه أُم أيوب بنت عَمْرو بن عثمان بن عفَّان، وفاطمة، أُمُّها أُم المغيرة بنت المغيرة بن خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة، وعبد الله ومسْلَمة والمنذر وعَنْبَسة ومحمد وسعيد الخير وقبيصة لأُمهات أولاد؛ وكان له من النساء سوى من ذكرناه شَقْراء بنت حلْبس الطائي، وأُم أبيها ابنة عبد الله بن جعفر بن أبي طالب.

ذكر شيء من أخباره وعماله

قالوا: كان عبْدُ الملك بن مرْوَان عاقلاً حازِمًا أديبًا لبيبًا عالمًا، قال أبو الزِّنَاد[٥]: كان فقهاءُ المدينة أربعة: سعِيد بن المُسَيِّب، وعُرْوَة بن الزبير، وقبيصة بن ذؤَيب، وعبد الملك بن مرْوَان. وقال الشعبي رحمه الله: ما ذاكرْتُ أحدًا إلاّ وجدْتُ

---

(١) فرّ الدابة: كشف عن أسنانها ليعرف ما سنها.

(٢) المجن: الترس.

(٣) تغمد الشيء: ستره.

(٤) درج: مات.

(٥) أبو الزناد: هو عبد الله بن ذكوان.

لي الفَضْل عليه، إلاَّ عبد الملك، فإني ما ذاكرته حديثًا إلاَّ زادني فيه، ولا شعرًا إلاَّ زادني فيه، قالوا: وكان محبًّا للفخر والبذخ، وكثرت الشعراء على أيامه، وكان من فحول شعرائه جرير والفرزدق والأخطل وكُثيِّر.

وكان عبْدُ الملك مُقْدِمًا على سَفْك الدماء، وكذلك كانت عمّاله: فكان الحجاج بالعراق، والمهلب بن أبي صُفْرة بخراسان، وهشام بن إسماعيل المخزومي بالمدينة، وعبْد الله ولده بمصر، وموسى بن نُصَير اللَّخْمي بالمغرب، ومحمد بن يوسف أخو الحجاج باليمن، ومحمد بن مَرْوَان بالجزيرة؛ وما منهم إلاَّ منْ هو ظالم غَشُوم جائر.

وكان نَقْش خاتمه: آمنت بالله مخلصًا.

وكُتَّابه: رَوْح بن زِنْبَاع، ثم قبيصة بن ذؤيب، وغيرهما.

قاضيه: أبو بِشْر الخَوْلاَني، وعبد الله بن قيس.

حاجبه: يوسف مولاه.

الأمراء بمصر وقضاتها

أَقَرّ عبْدُ الملك أخاه عبد العزيز على إمارة مصر إلى أن مات، فولَّى ابنه عبد الله. وكان القاضي بمصر عابس إلى أن مات، فولّى عبدُ العزيز بشير بن النَّضْر بن بشير المزني، ثم مات فولاَّها عبد الرحمٰن بن حجر الخولاني. ثم صرفه وولى يونس الحضرمي، ثم صرفه وولى عَبْدَ الرحمٰن بن معاوية بن خديج القضاء والشرطة، فلما ولى عبْد الله بن عبد الملك أَقَرّ عبد الرحمٰن على القضاء ثم صرفه وولى عمران بن عبد الرحمٰن بن شرحبيل ابن حَسَنة ثم عزله، وولى عبد الواحد بن عبد الرحمٰن بن خَدِيج.

قال: وعبد الملك أول من غدر في الإسلام: حين قتل عَمْرو بن سعِيد الأشدق.

وهو أول منْ نَقَل الدواوين من الفارسية والرومية إلى العربية.

وأول مَنْ نهى عن الكَلاَم بحضرة الخلفاء، وكان الناس مِنْ قبله يُرَاجِعُونهم.

وهو أوّل مَنْ نهى عن الأمر بالمعروف، فإنه قال في خطبته بعد قتل ابن الزبير: ولا يأمرني أحَدٌ بتَقْوَى اللهِ تعالى بعد مقامي هذا إلاَّ ضربت عُنُقَه.

ذكر بيعة الوليد بن عبد الملك

هو أبو العباس الوليد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم، وأُمه ولادة بنت العباس بن جزء، وقد تقدم ذِكْرُ نسبه، وهو السادس من ملوك بني أمية. بويع له بالخلافة بعد وفَاةِ أبيه، وذلك في يوم الخميس النصف من شوال سنة ست وثمانين. قال: ولما دُفِنَ أبوه عبد الملك انصرف عن قَبْرِه فدخل المسجد ورقي المنبر فخطب الناس، وقال: إنا لله، وإنا إليه راجعون، والله المستعان على مُصيبتنا بِمَوْتِ أمير المؤمنين، والحمد لله على ما أنْعَم علينا من الخلافة. قُومُوا فبايعُوا، فكان أول مَنْ عزَّى نفسه وهنَّأها، وكانَ أول من قام لبيعته عبد الله بن همام السلولي[1] وهو يقول: [من الرجز]

اللَّهُ أعطاكَ التي لا فَوْقَها ... وقد أرادَ المُلْحِدُون عَوْقَها
عنْكَ، ويأْبَى اللَّهُ إلاَّ سَوْقَها ... إليكَ حتى قَلَّدُوكَ طَوْقَها

وبايعه، وقام الناسُ للبيعة.

وقد قيل: إنَّ الوليد لَمَّا صعد المنبر حمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس، لا مُقَدِّم لما أخَّر اللَّهُ، ولا مؤخِّر لما قدّم، وقد كان من قضاء الله وسابقِ عِلْمه، وما كتب على أنبيائه وحَمَلة عرْشه الموت، وقد صار إلى منازلِ الأبرار وليُّ هذه الأُمة بالذي يحقُّ للّهِ عليه في الشدةِ على المذنب واللين لأهْلِ الحقّ والفَضْل، وإقامة ما أقام الله مِنْ مَنَار الإسلام وأعلامه؛ مِنْ حجّ البيت، وغَزْو الثُّغور، وشنّ الغارةِ على أعداءِ الله، فلم يكن عاجِزًا ولا مُفَرّطًا.

أيها الناس، عليكم بالطاعة ولزومِ الجماعة، فإنَّ الشيطان مع الفرد.

أيها الناس، منْ أبْدى لنا ذَات نَفْسِه ضَربْنَا الذي فيه عيْنَاه، ومن سكت مات بدائه، ثم نزل.

ولنبدأْ من أخبار الوليد بالغزوات والفتوحات، ثم نذكر الحوادث على حكم السنين:

---

(١) هو من بني مرة بن صعصعة أخي عامر بن صعصعة من قيس عيلان، وبنو مرة يعرفون ببني سلول لأنها أمهم، وهي بنت ذهل بن شيبان بن ثعلبة وهم رهط أبي مريم السلولي، وكانت له صحبة. . . (طبقات الشعراء لابن قتيبة).

ذكر الغزوات والفتوحات
التي اتفقت في خلاف الوليد بن عبد الملك

ولْنَبْدأ من ذلك بأخبار قُتَيْبة بن مسلم وما فتحه من البلاد:

ذكر ولاية قتيبة بن مسلم خراسان
وغزواته وفتوحاته

فتح قُتيبة بن مُسلم في مدَّةِ ولايته خُراسان من بلادِ ما وراء النَّهْر: الصَّغَانِيان[١]، وأخرون، وكَاسان[٢]، وأورشت، وهي من فَرْغَانة وأخْسِيكت[٣]، وهي مدينة فَرْغَانة القديمة، وبِيْكَنْد[٤]، وبُخارى، والطالقَان[٥] والفَارياب[٦] والجوزْجَان، وشُومان[٧] وكش، ونَسف، ورام جِرْد[٨]، وسمرْقَنْد، والشاش[٩] وفرْغَانة، ومدينة كَاشْغر.

وكان أول ما بدأ به قُتيبة أنه لما قدم خُرَاسان أميرًا للحجاج، وذلك في سنة ست وثمانين قدمها والمفضّل بن المهلب يحَرض الجند للغَزَاة، فخطب قُتَيْبةُ الناس، وحَثَّهم على الجهاد، ثم عرضهم، وسار بهم.

فلما كان بالطالَقَان تلقَّاهُ دهاقين بلْخ وسارُوا معه، وقَطع النهر فتلقَّاه ملك الصَّغَانِيان بهدايا ومفتاح من ذهب، ودعاهُ إلى بلادِه، فمضى معه فسلَّمها إليه، لأن ملك أخرون وشُومان كان يُسيء جِواره، ثم سار قُتَيبة منها إلى أخرون وشُومان وهما من طخَارِسْتَان، فصالحه ملكها على فِدْيةٍ أدَّاها إليه، فقَبِلها قتَيبة. ثم انصرف إلى مرْو، واستخلف على الجُنْد أخاه صالح بن مسلم ففتح صالح بعد رجوع قُتَيْبة كاشان وأورَشت، وهي من فرْغانة، وفَتَح أخْسِيكت وهي مدينة فَرْغانة القديمة.

---

(١) الصغانيان: ولاية عظيمة بما وراء النهر.
(٢) كاسان: مدينة كبيرة في أول بلاد تركستان وراء نهر سيحون وراء الشاش.
(٣) أخسيكت: مدينة بما وراء النهر، قصبة فرغانة.
(٤) بيكند: بلد بين بخارى وجيحون.
(٥) الطالقان: كورة وبلدة بين قزوين وأبهر.
(٦) الفارياب: مدينة مشهورة بخراسان قرب بلخ.
(٧) شومان: بلدة بالصغانيان، مما وراء جيحون.
(٨) رام جرد: قرية من قرى فارس قتل بها عبد الله بن معمر.
(٩) الشاش: قرية بالريّ؛ أو بلدة بما وراء النهر، ثم وراء سيحون.

وقيل: إن قُتيبة قَدم خُراسان في سنة خمس وثمانين، فعرض الجُنْدَ فغزَا أخرون وشُومان، ثم رجع إلى مرْو.

وقيل: إنه لم يغْزُ في هذه السنة، ولم يقطع النهر بسبب بلْخ، فإنَّ بعضها كان منتقضًا عليه، فحاربهم وسبى منهم، ثم صالحوه فأمر بردّ السَّبْيِ.

ذكر قتيبة ونيزك

قال: لمَّا صالح قُتَيْبة ملك شُومَان كتب إلى نَيْزَك طرخان صاحب باذَغِيس في إطلاق مَنْ عنده مِن أسْرَى المسْلمين، وكتب إليه يتهدَّدُه، فخافه نَيْزَك، فأطلقهم، وبعث بهم إليه، ثم كتب إليه قُتَيبة مع سليم الناصح مولى عبيد الله بن أبي بكْرَة يدعوه إلى الصلح وإلى أن يؤمنه، فصالحه نَيْزَك لأهل باذغِيس على ألا يدخلها قُتَيبة.

ذكر غزوة بيكند وفتحها

وغزا قُتيبة بِيْكَنْد في سنة سبع وثمانين، وهي أدْنى مدائن بُخارى إلى النَّهر، فلما نزل بهم استنصروا الصُّغد[١] واستمدُّوا منْ حولهم، فأتوهم في جَمْع كثير، وأخذوا الطرقَ على قُتَيْبَةَ فقاتلهم شهرين في كل يوم، ثم انهزم الكفَّار إلى المدينة، فتبعهُم المسلمون يقتلُونَ ويأْسِرُون، وتحصَّنَ من دخل المدينة منهم بها، فأمر قُتَيْبةُ بهدْمِ سُورِها، فسألوه الصلح، فصالحهم، واستعمل عليهم عاملاً وارتحل عنهم. فلما سار خمس فراسخ نقضوا الصلح وقتلوا العامل ومَنْ معه. فرجع قُتيبة فنقب السُّور فسقط، فسألوه الصلح فأبى، ودخلها عنوةً، وقتل مَنْ كان بها من المقاتِلة، وكان فيمن أُخذ من المدينة رجلٌ أعور، وهو الذي استجاش التُركَ على المسلمين، فقال لقُتَيبة: أنا أفْدِي نفسي بخمسة آلاف حريرة[٢] قيمتُها ألف ألف، فاستشار قُتيبة الناس، فقالوا: هذا زيادة في الغنائم؛ وما عسى أن يبلغَ من كَيْد هذا؟ قال: والله لا يروَّعُ بك مُسلم أبدًا، وأمر به فقُتِل؛ وأصابوا فيها من الغنائم والسلاحِ وآنِيةِ الذهب والفضَّةِ ما لا يُحصى، ولا أصابوا بخراسان مثله.

ولما فرغ قتيبة من فَتْح بِيكَنْد رجع إلى مرْو.

---

(١) الصغد: بالضم ثم الكسون، وآخره دال مهملة، وقد يقال بالسين مكان الصاد: وهي كورة عجيبة قصبتها سمرقند، وقيل: هما صغدان: صغد سمرقند وصغد بخارى... (معجم البلدان).

(٢) الحريرة: القطعة من الحرير، أو دقيق يطبخ بلبن أو دسم.

ذكر غزو نومشكث وراميثنة[١] وصلح أهلها وقتال التُّرْك والصُّغْد وأهل فَرْغَانة

وفي سنة ثمان وثمانين غزا قتيبة نومُشْكَث، فتلقَّاه أهلُوها، فصالحهم، ثم سار إلى رامِيثَنَة، فصالحه أهلُها، وانصرف عنهم وزحف إليه التُّرْكُ ومعهم الصُّغد وأهل فَرْغانة في مائتي ألف، وملكهم كوربغانو ابن أُخت ملك الصِّين، فاعترضوا المسلمين؛ فلحقوا عبْد الرحمٰن بن مسلم أخا قُتَيْبَة وهو على الساقَةِ وبينه وبي قُتيبة وأوائل العَسْكَرِ ميل، فقاتلهم عبْدُ الرحمٰن ومَنْ معه، وأرسل إلى أخيه، فرجع بالمسلمين، وقد أشرفَ التركُ على الظهور على عَبْدِ الرحمٰن ومَنْ معه، فلما رأى المسلمون قُتيبة طابت نفوسُهم، وقَوِيت، وقاتلوا إلى الظُّهرِ، فانهزم الترك ومنْ معهم وكان نَيْزَكْ يومئذ مع قُتَيْبَة، فأبلى بلاءً حسنًا، ورجع قتيبةُ بعد الهزيمة إلى مَرْو.

ذكر غزو بخارى وفتحها

كانت غَزْوَةَ بخارى في سنة تسع وثمانين، والفتح في سنة تسعين؛ وذلك أن الحجاجَ بن يوسف كتب إلى قُتَيْبَة يأمره بقَصْدِ وَرْدان خُذَاه، فعبَر النَّهر من زُمّ[٢]، فلقي الصُّغد وأهل كِسّ[٣] ونَسَف[٤] في طريق المفَازة، فقاتلوه، فظفِر بهم، ومضى إلى بُخارى، فنزل خَرْقانة السُّفْلى عن يمين وَرْدَان، فلقوه في جمع كثير، فقاتلهم يَوْمَيْن وليلتين، فظفر بهم، وغزا وَرْدَان خُذَاه ملك بُخارى فلم يظْفَرْ منه بشيء، فرجع إلى مَرْو. وكتب إلى الحجاج يُخْبِرُهُ؛ فكتب إليه الحجاجُ أن صَوِّرها. فبعث إليه بِصُورتِها، فكتب إليه أن تُبْ إلى اللّهِ جَلَّ ثناؤه مما كان مِنْك وأْتِها مِنْ مكانِ كذا وكذا.

قيل: وكتب إليه أن كِسْ بكِس، وانسِف نَسفًا، ورِدْ وَرْدَان، وإياك والتحويط، ودعْني من بُنَيَّات الطريق.

---

(١) راميثنة: قرية ببخارى.

(٢) زمّ: موضع ببلاد بني ربيعة وقيل: موضع ببلاد بني قيس بن ثعلبة.

(٣) كس: بكسر أوله وتشديد ثانيه: مدينة تقارب سمرقند.. وقيل: هي مدينة خصيبة تدرك فيها الفواكه أسرع ما تدرك بسائر ما وراء النهر، غير أنها وبئة، وعلى ما يكون عليه بلاد الغور... (معجم البلدان لياقوت).

(٤) نسف: بفتح أوله وثانيه ثم فاء: هي مدينة كبيرة كثيرة الأهل والرستاق بين جيحون وسمرقند، خرج منها جماعة كثيرة من أهل العلم في كل فن... (معجم البلدان).

فخرج قتيبة إلى بُخَارى في سنة تسعين، فاستجاش وَرْدان خُذَاه الصُغْد والترك ومَنْ حوله، فأتوه وقد سبق إليها قُتَيْبة وحصرها. فلما جاءتهم أمْدادُهم خرجوا إلى المسلمين يقاتلونَهم، فقالت الأزد: اجعلُونَا ناحِيَةً، وخَلُّوا بيننا وبين قِتَالهم، فقال قُتيبة: تقدَّمُوا، فتقدّموا، وقاتلوا قتالاً شديدًا، ثم انهزم الأزْدُ، حتى دخلوا العسكر، وركبهم المشركون حتى حطموهم، وقاتلت مُجَنْبتا المسلمين الترك حتى ردُّوهم إلى مواقفهم، فوقفت الترك على نَشَزٍ[1]، فقال قُتيبة: مَنْ يُزيلهم عن هذا الموقف! فلم يقم لهم أحَدٌ من العرب، فأتى بني تميم، فقال لهم: يوم كأيّامكم. فأخذ وَكِيع اللواءَ، وقال: يا بني تميم، أتسلمونني اليوم؟ قالوا: لا، يا أبا المُطَرِّف، وكان هُزيم بن أبي طَحْمَةَ على خَيْلِ تميم، ووَكيع رأسهم. فقال: يا هُزَيم قَدِّم خَيْلَكَ، ورفع إليه الرايةَ، وتقدم هُزَيْم، وتقدّم وكيع في الرَّجّالة، وكان بينهم وبين الترك نَهْر، فأمر وكيع هُزَيمًا بقَطْعه إليهم، فعبره في الخيل، وانتهى وَكِيع إلى النهر، فعمل عليه جسرًا من خَشَب، وقال لأصحابه: مَنْ وطَّن نفسه على الموت فليعبر وإلاّ فليثبتْ مكانَه. فلم يعْبُر معه إلا ثمانمائة رجل. فلما عبر بهم قال لهُزَيم: إني مُطَاعنهم فاشغلهم عَنَّا بالخَيْل، وحمل عليهم حتى خالطهم، وحمل هُزَيم في الخيل فطاعنهم، وقاتلهم المسلمون حتى حَدَرُوهم عن التلّ، ثم عبر الناسُ إليهم بعد انهزام التُّرْكِ، ونادى قُتَيْبَة: منْ أتَى برأسٍ فله مائة، فأُتي برؤُوس كثيرة، وجُرِح خاقان وابنه، وفتح اللّهُ على المسلمين.

قال: ولما أوقع قُتَيْبة بأهل بخارى هابه الصُغْد، فرجع طَرْخون ملكهم ومعه فارسان، فدنا من عسكر قُتيبة، فطلب رجلًا يكلِّمُه، فأرسل إليه قتيبة حَيَّان النبطي، فطلب الصلح على فِدْيَةٍ يؤدّيها إليهم، فأجابه قُتَيْبة إلى ما طلب، وصالحه، ورجع طرخون إلى بلاده، ورجع قتيبة ومعه نَيْزَك.

ذكر غدر نيزك وفتح الطالقان وما كان من خَبَر نَيْزَك إلى أن قُتل

قال: ولما رجع قُتَيْبَة عن بُخارى ومعه نَيْزَك وقد خاف لما رأى من الفتوح، فقال لأصحابه: أنا مع هذا ولست آمنُه، فلو استأْذَنْته ورجعْت كان الرأْي. قالوا:

(١) النشز: ما ارتفع وظهر من الأرض.

افعل. فاستأْذن قُتيبة، فأذِنَ له وهو بآمُل[١]، فرجع يريد طَخَارِسْتان، وأسرع السَّيْرَ حتى أتى النُّوبهار[٢]، وقال لأصحابه: لا شَكَّ أن قتيبة قد ندم على إذْنه لي، وسيبْعثُ إلى المغيرة بن عَبْد الله يأمره بحَبْسِي، فكان كما قال: ندم قُتيبة، وبعث إلى المغيرة يأمره بحبْس نَيْزَك، فتَبِعَهُ المغيرةُ، فوجده قد دخل شِعْب خُلْم[٣]، فرجع المغيرةُ، وأظهر نَيْزَك الخلع، وكتب إلى أصْبَهْذ بَلْخ وإلى باذَان ملك مرْو الرُّوذ وإلى ملك الطالَقَان وإلى ملك الفَارِيَاب وإلى ملك الجوزجان يدْعوهم إلى خَلْع قُتيبة، فأجابوه، وواعدهُم الربيع أنْ يجتمعوا ويغْزوا قتيبة.

وكتب إلى كابُل شاه يستظهر به، وبعث إليه بثقله وماله، وسأله أن يأْذن له إن اضطُرّ أنْ يأْتيه، فأجابه إلى ذلك، وكان خَبْغُويه ملك طخارستان ضعيفًا؛ فأخذه نَيْزَك، فقيَّدَهُ بقَيْدٍ من ذَهب لئلا يخالف عليه، وكان خَبْغويه هو الملك ونَيْزَك عنده، فاستوثق منه، وأخرج عامل قتيبة من بلاد جبْغويه، وبلغ قُتَيْبَة خلْعه، وقد تفرَّقَ الجنْدُ، فبعث أخاه عبد الرحمٰن في اثني عشر ألفًا إلى البرُوقَان[٤]، وقال: أقِمْ بها ولا تُحدِث شيئًا، فإذا انقضى الشتاء فعسكرْ، وسر نحو طَخَارستان، فسار؛ فلما كان آخر الشتاء كتب قُتَيْبَة إلى نَيْسابور وغيرها من البِلاَد لتقدم عليه الجنود، فقدموا. فسار نَحْوَ الطالَقَان، وكان ملِكُها قد خلَع وطابق نَيْزَك على الخَلْع، فأتاه قُتَيبة، فأوقع بأهل الطالَقَان، فقَتَل مِنْ أهلها مقْتَلَةً عظيمة، وصلب منهم سِمَاطَيْن[٥] أربعة فراسخ في نظامٍ واحد، واستعمل أخاه عمرو بن مُسلم.

وقيل: إن ملك الطالَقَان لم يحارب قُتيبة، فكفَّ عنه، وكان بها لصوص، فقتلهم قُتَيبة وصلَبهم، ثم سار قتيبة إلى الفَارِياب في سنة إحدى وتسعين، فخرج إليه مَلِكُها مُقِرًّا مُذْعِنًا، فَقبل منه ولم يقتل بها أحدًا، واستعمل عليها رجلاً من باهِلة، وبلغ ملك الجوزْجَان خَبرُهم، فهرب إلى الجبال، وسار قُتيبة إلى الجوزْجَان، فلقيه أهلها سامِعينَ مُطيعين، فَقبِل منهم ولم يقتل بها أحدًا، واستعمل عليها عامر بن مالك الحمّاني، ثم أتى بَلْخ فلقيه أهلها، فلم يُقم إلاَّ يومًا واحدًا، وسار يتْبع أخاه عَبْدَ الرحمٰن إلى شِعْبِ خُلْم، ومضى نَيْزُك إلى بغْلاَن[٦]، وخلَّف مقاتلته على فَمِ

---

(١) آمل: بضم الميم واللام: اسم أكبر مدينة بطبرستان في السهل، لأن طبرستان سهل وجبل... (معجم البلدان).

(٢) النوبهار: في موضعين، أحدهما قرب الريّ، والآخر ببلخ.

(٣) خلم: بلدة بنواحي بلخ.

(٤) البروقان: قرية من نواحي بلخ.

(٥) السماط: الصف.

(٦) بغلان: بلدة بنواحي بلخ.

الشعْب ومضَايِقِه يَمْنَعُونَه، ووضع مقاتلته في قَلْعةٍ حصينةٍ مِنْ وراءِ الشِّعْب، فأقام قُتَيبة أيامًا لا يَقْدِرُ على دخوله، ولا يعرف طريقًا يَسْلكُه إلى نَيْزَك إلا الشِّعب أو مفَازةً لا تقدِرُ العساكر على قَطْعِها، فأتاه إنسانٌ فاستأْمنه على أنْ يدُلَّه على مدْخَل القلعة التي مِنْ وراء الشِّعْب، فأمّنه قُتَيْبة، وبعث معه رجالاً، فانتهى بهم إلى القلعةِ، فطرقُوهم[1] وهم آمِنُون، فقتلوا منهم، وهرب منْ بقي ومَنْ كان في الشِّعْب، فدخل قُتَيْبة الشِّعْب، فأتى القلعة ومضى إلى سمِنْجان[2]، فأقام بها أيامًا ثم سار إلى نَيْزَك، وقدم أخاه عبد الرحمٰن فارتحل نَيْزَك من مَنْزِله فقطع وادي فَرْغانة، ووجَّه ثَقَله وأمواله إلى كابل شاه، ومضى حتى نزل الكُرز، وعَبْدُ الرحمٰن يتبَعُهُ، ونزل عبْدُ الرحمٰن وأخذ بمضايق الكُرْز، ونزل قُتَيْبة على فرسخين من أخيه، وتحصَّن نيزك بالكُرز، وليس له إلاّ مسلك من وجْهٍ واحد، وهو صعْبٌ لا تُطِيقه الدواب، فحصره قُتيبة شهرين حتى قلّ ما في يَدِ نَيْزَك من الطعام، وأصابهم الجُدْرِي. وخاف قُتَيبة الشتاء، فدعا سُليمًا الناصح، فقال: انطلق إلى نَيْزَك، واحتَلْ لتأْتِيني به بغَيْر أمان، فإن أعياك وأبى فأمِّنْه.

فخرج إليه، وأخذ معه أطعمةً وأخبِصة[3] كثيرة، وأتى نَيْزَك، فقال له: إنك أسأْتَ إلى نفسك وغدَرْت. قال نَيْزَك: فما الرأي؟ قال: أرى أنْ تأْتِيَه، فإنه ليس ببَارحٍ، وقد عزم على أن يشْتُو مكانَه، هلك أو سلم. قال نَيْزَك: فكيف آتيه على غَيْر أمَانٍ. قال: ما أظنُّه يُؤَمّنك لما في نَفْسِه عليك، لأنك قد مَلأْتَه غَيْظًا، ولكني أرى ألاّ يعلم حتى تضع يدك في يدِه، فإني أرجو أن يستحي ويعْفُو. قال: إنَّ نفسي تَأْبَى هذا. فقال سُليم: ما أتيتُك إلا لأُشِير عليك بهذا، ولو فعلتَ لرَجوْتُ أنْ تَسْلَم ويعودَ حالُك عنده، فإذا أبيت فإني أنصرف. وقدم الطعام الذي معه، ولا عَهْد لهم بمثله، فانتهبه أصحابُ نَيْزَك، فساءه ذلك، فقال له سُليم: أنا لك من الناصحين، أرى أصحابَك قد جُهدوا، وإن طال بهم الحصار لم آمَنْهم أنْ يستأْمنوا بك. فأْت قتيبة. فقال: لا آمنه على نَفْسي، ولا آتيه إلا بأمان، وإنَّ ظَنِّي أنه يقتلني، وإن أمنني؛ ولكن الأمان أعْذَر لي. فقال سليم: قد أمنك؛ أفتتهمني؟ قال: لا. وقال له أصحابه: اقبل قَوْل سليم. فخرج معه ومعه خَبْعويه وصُول طرخان خليفة خَبْعُويه، وخنس طرخان صاحب شرطته وشُقْران ابن أخي نَيْزَك، فلما خرجوا من الشِّعْب حالت خَيْلُ قُتَيبة بين

---

(١) طرقه: أتاه ليلاً.

(٢) سمنجان: بلدة من طخارستان وراء بلخ.

(٣) الأخبصة: جمع الخبيص: أي الحلواء المخبوصة من التمر والسمن.

أصحاب نَيْزَك وبين الخروج، فقال نَيْزَك: هذا أوّل الغَدْر. فقال سليم: تخلُّفُ هؤلاء عنك خَيْرٌ لك. وأقبل سُليم ونيزك ومَنْ معه حتى دخلوا على قُتَيْبة، فحبسهم.

وكتب إلى الحجاج يستأذنه في قَتْلِ نَيْزَك، واستخرج قُتيبة ما فِي الكُرْزِ من مَتَاع، وأتاه كتابُ الحجاج بَعْد أربعين يأمره بقتْلِ نَيْزَك، فدعا قُتَيْبَةُ الناس، واستَشارهم، فاختلفوا، فقال ضِرار بن حُصين: إني سمِعْتُك تقول: أعطيْتُ اللّهَ عَهْدًا إن أمكنك منه أن تقتله، فإن لم تَفْعَلْ فلا ينصرك الله عليه أبدًا. فدعا نَيْزَك، فضرب رقَبته بيده، وأمر بقتل صُول وابن أخي نَيْزَك، وقَتَل مِنْ أصحابه سبعمائة. وقيل اثني عشر ألفًا، وصَلَب نَيْزَك وابْنَ أخيه، وبعث برَأْسِه إلى الحجاج، وأخذ الزُّبيْرُ مولى عبّاس الباهلي خُفًّا[1] لنيزك فيه جوْهر، فكان أكثر مَن في بلاده مالاً وعقارًا مِن ذلك الجوهر، وأطلق قتيبة خبعويه ومنّ عليه، وبعث به إلى الوليد، فلم يزل بالشام حتى مات.

ولما قُتِلَ نَيْزَك رجع قُتَيْبة إلى مرْو، وأرسل ملكُ الجوزْجَان يطلب الأمانَ، فأمنه على أنْ يأْتِيَه، فطلب رهنًا يكونون في يده ويعطى رهائن، فأعطاه قُتَيْبَة حَبِيب بن عَبْد الله بن حبيب الباهلي، وأعطى ملك الجوزجان رهائنَ من أهل بَيْتِه، وقدم على قُتَيبة، ثم رجع فمات بالطالَقَان، فقال أهل الجوزجان: إنهم سمُّوه فقتلوا حَبيبًا. وقتل قُتيبة الرهائن الذين كانوا عنده.

ذكر غزوة شومان وكشّ ونَسَف وفتح ذلك

وفي سنة إحدى وتسعين سار قُتَيْبَة إلى شُومان فحصرها، وكان سبب ذلك أنَّ مَلكِها طردَ عامِلَ قُتَيْبَة من عنده، فأرسل إليه قُتَيبة رسولَيْن: أحدهما من العرب اسمه عَيّاش، والآخر من أهل خراسان يدْعُوانه إلى أن يؤدِّي ما كان صالَح عليه، فقدما شُومان، فخرج أهْلُها إليهما، فرموهما. فانصرف الخُراسانيُ وقاتلهم عيّاش فقتلوه، ووجَدُوا به ستِّين جراحةً، وبلغ قُتَيْبة قَتْلُه، فسار إليهم بنفسه، فلما أتاها أرسل صالحُ بن مسلم أخو قُتَيبة إلى ملكها، وكان صديقًا له، يأْمره بالطاعة، ويضْمَنُ له رِضَا قُتَيْبة إن رجع إلى الصلح، فأبى وقال لرسول صالح: أتخوِّفُني من قُتَيْبة وأنا أَمْنَعُ الملوك حِصْنًا؟ فأتاه قُتَيبة وقد تحصَّن ببلده فنصب عليه المجانيقَ، ورمى الحِصْنَ

(١) الخف: ما يلبس في الرجل من جلد رقيق.

فهشمه، فلما خاف الملك أن يَظْهر قُتَيْبَةُ عليه جمع ما كان بالحِصْن مِنْ مالٍ وجوهر، ورمى به في بئر في القلعة لا يُدْرك قَعْرُها، ثم فتح القلعةَ، وخرج، فقاتل حتى قُتِل، وأخذ قُتيبة القلعةَ عنوةً، فقتل المقاتلة وسبى الذريّة، ثم سار إلى كِشّ ونسف، ثم سار إلى بُخَارى.

وقيل: إنه سار إلى الصُّغد، فلما رجع عنهم قالت الصُّغد لطرخون: إنك قد رَضِيْتَ بالذُّل واستطبْتَ الجِزْية، وأنت شيخٌ كبير، فلا حاجةً لنا فيك. فحبسوه وولوا غَوْرَك فقتل طرخون نَفْسه.

ذكر صلح خوارزم شاه وفتح خام جرد

وفي سنة ثلاث وتسعين صالح قُتَيْبة خُوارَزم شاه، وسبب ذلك أن ملك خوارزم كان ضعيفًا، فغلبه أخوه خُرّزاذ على أمْرِه، وكان أصغر منه، فكان إذا بلغه أنَّ عند أحد مِمَّنْ هو منقطع إلى الملك جاريةً أو مالاً أو دابّةً أو بيتًا أو أُختًا أو امرأة جميلة أرسل إليه، وأخذه منه، فلا يمتنع عليه أحد، ولا الملك، فإذا قيل للملك قال: لا أقْوى عليه.

فلما طال عليه ذلك كتب إلى قُتيبة يَدْعُوه إلى أرْضِه ليسلِّمها إليه، واشترط عليه أنْ يَدْفَع إليه أخاه وكلَّ من يُضَادّه ليحكم فيه بما يرى، ولم يطلع أحدًا من مَرازِبته على ذلك. فأجابه قُتيبة إلى ما طلب، وتجهَّز للغزْوِ، وأظهر أنه يريد الصُّغد، وسار مِنْ مَرْو وجمع خُوارزم شاه أجنادَه ودَهاقِنَتَه. فقال: إن قُتَيبة يريد الصغد، وليس بغَازيكم، فهلمُّوا نتنعَّم في رَبيعنا هذا، فأقبلوا على الشرب والتنعُّم فلم يشْعُروا حتى نزل قتيبة في هَزَارَسْب[1]، فقال خُوارزم شاه لأصحابه: ما تَروْن؟ قالوا: نرى أنْ نُقَاتِله. قال: لكني لا أرى ذلك، لأنه قد عجز عنه منْ هو أقوى منا وأشدُّ شَوْكَةً، ولكن أصرفه بشيء أُخرجه إليه.

فأجابوه إلى ذلك، فسار خُوارَزم شاه إلى مدينة الفِيْل مِنْ وراء النهر، وهي أحْصَنُ بِلاده، وقُتَيْبَة لم يَعْبُر النهرَ، فأرسل إليه خُوارزم شاه، فصالحه على عشرة آلاف رأْسٍ، وعيْنٍ ومتاع وعلى أن يعينه على خام جرد، فَقبِل قُتَيبة ذلك.

وقيل: صالحه على مائة ألف رأْس، وبعث قُتيبة أخاه عبد الرحمٰن إلى ملك خام جرْد، وكان يغازِي خوارزم شاه، فقاتله فقَتَلَه عبد الرحمٰن وغَلب على أرْضِه،

---

(١) هزارسب: قلعة حصينة ومدينة جيدة الماء محيط بها كالجزيرة، وهي من نواحي خوارزم.

وقدم بأربعة آلاف أسير، فقتلهم، وسلَّم قُتَيْبَةُ إلى خُوارزم شاه أخَاه ومنْ كان يخالفهم، فقتلهم، ودفع أموالَهم إلى قُتَيبة. والله أعلم.

ذكر فتح سمرقند[١]

قال: فلما قبض قُتَيبة صُلح خُوارزم قام إليه المُجَشِّر بن مُزاحم السلمي فقال له: سر الآن إن أردت الصُّغد يومًا من الدَّهْر، فإنهم آمِنُون مِنْ أن تأتيهم عامَك هذا، وإنما بيْنَك وبينهم عشرة أيام. قال: أشار عليك بهذا أحَد؟ قال: لا. قال: فسمعه مِنْكَ أحد؟ قال: لا. قال: والله لئن تكلم به أحدٌ لأضرِبَنَّ عنقك.

فلما كان الغَدُ من يوم كلامه له أمَر قُتَيْبةُ أخاه عَبْدَ الرحمٰن فسار في الفُرسان والرُّمَاة، وقَدَّم الأثقالَ إلى مَرْو، فسار يوْمه، فلما أمسى كتب إليه قُتَيْبة: إذا أصبحْتَ فوجِّه الأثْقَال إلى مَرْو، وسِرْ في الفُرْسَان والرُّماة نحو الصُّغد، واكتُم الأخبار، فإني بالأثر.

ففعل عبْدُ الرحمٰن ما أمره، وخطب قُتَيْبة الناس، وقال لهم: إن الصُّغد شاغرة[٢] برِجْلها، وقد نقَضُوا العَهْد الذي بيننا، وصنَعُوا ما بَلَغَكُم؛ وإني أرجو أن تكون خُوارزم والصُّغد كقُريظة والنُّضير.

ثم سار فأتى الصُّغد، فبلغها بعْد عبد الرحمٰن بثلاثٍ أو أربع، وقدم معه أهل خُوارزم وبُخارى، فقاتلوا شهرًا من وَجْهٍ واحد وهم محصورون.

وخاف أهْلُ الصُّغد طول الحصارِ، فكتبوا إلى ملك الشاش وأخشاد وخَاقَان وفَرْغَانة: إنَّ العربَ إنْ ظَفِرُوا بنا أتوكم بمثل ما أتونا به. فانظروا لأنفسكم، ومهما كان عندكم من قوة فابْذُلوها. فنظروا وقالوا: إنما نُؤْتى من سِفْلَتِنا وإنهم لا يَجِدُون كوُجْدِنا، فانْتَخَبوا مِنْ أبناءِ الملوكِ وأهْلِ النَّجْدةِ من أبناء المَرازِبة والأساوِرة والأبطال، وأمَرُوهم أنْ يأْتوا عَسْكَر قُتيبة؛ فَيُبيِّتوه، وولَّوا عليهم ابنًا لخاقان، فساروا.

وبلغ قُتَيْبةَ الخَبرُ فانتخب من عَسْكَره مائةً، وقيل ستَّمائة من أهل النَّجْدةِ والشجاعة، وأعلمهم الخبر، وأمرهم بالمسير إليهم، فساروا، وعليهم صالح بن مسلم، فنزلوا على فَرْسَخَيْنِ من العسكر على طريق القَوْمِ، فجعل صالح له كَمِينين.

---

(١) سمرقند: بفتح أوله وثانيه، ويقال لها بالعربية سُمران: بلد معروف مشهور، قيل: هو قصبة الصغد مبنية على جنوبي وادي الصغد مرتفعة عليه. . . (معجم البلدان).

(٢) شاغرة: أي خالية، والمراد تسهل الإغارة عليها.

فلما مضى نِصْفُ الليل جاءهم عدوُّهم، فلما رأوا صالحًا حملوا عليه، واقتتلوا فشدّ الكمينان عن يمينٍ وشمال، فقتلهم المسلمون، وأسرُوا منهم، ولم يُفْلِتْ منهم إلا الشريد، واحتَوَوْا على سِلاَحِهم وأسلابهم. وسُئِل بعْضُ الأسرى عن القَتْلَى فقالوا: ما قتلتم إلا ابْن مَلك أو عظيمًا أو بَطَلاً، إن كان الرجل ليُعدّ بمائة رجل.

ونصب قُتَيْبة المَجَانِيق على سَمرْقَنْد، ورماهم فثلمه ثُلمة(١). ثم أمر قُتيبةُ الناس بالجدّ في القتال، وأن يبلغوا ثُلْمَة المدينة، ففعلوا، وحملوا وقد تترَّسُوا حتى بلغوا الثُّلمةَ، ووقفوا عليها، فرماهم الصُّغد بالنشَّابِ، فلم يبرحوا، فأرسلوا إلى قُتيبة أن انْصَرِفْ عنَّا اليوم حتى نصالحكَ غدًا. فقال: لا نُصالِحُهم إلا ورِجالُنا على الثُّلْمة.

وقيل: بل قال: جزِعَ العبيدُ! انصرفوا على ظَفَرِكم. فانصرفوا، فصالحهم من الغَدِ على ألفي ألفٍ ومائتي ألف مثقال في كل عام، وأن يُعْطُوه تلكَ السنة ثلاثين ألف رأْس، وأن يُخْلُوا المدينةَ لقُتَيبة، فلا يكون لهم فيها مقاتل، فيبني فيها مسجدًا فيصلِّي فيه ويخطب ويتغدَّى ويخرج.

فلما تمَّ الصُّلْحُ بَنَى المسجد ودخلها قُتَيْبةُ في أربعةِ آلاف انتخبهم، فدخل المسجد، فصلَّى فيه، وخطب وأكل طعامًا، ثم أرسل إلى الصُّغد يقول: منْ أراد منكم أن يأْخُذَ متاعه فليأْخذ، فإني لسْتُ خارجًا منها، ولَسْتُ آخُذُ منكم إلاَّ ما صالحْتُكم عليه، غير أنَّ الجُنْد يقيمون فيها.

وقيل: إنه شَرَط عليهم في الصُّلح مائة ألف رأْس وبيوت النيران وحليةَ الأصنام. فقبض ذلك، وأُتي بالأصنام، فأَخَذَ ما عليها، وأمر بها فأُحرقت، فوجد من بقايا مسامير الذهب خمسين ألف مِثْقَال، وأصاب بالصُّغد جاريةً من ولد يزْدجرد، فأرسلها إلى الحجاج، فأرسلها الحجاج إلى الوليد، فولدت له ابْنَه يزيد بن الوليد. ثم رجع قُتَيْبة إلى مرْو، واستعمَل على سمرْقند إياس بن عبْد الله على الحرب، وجعل على الخراج عبيد الله بن أبي عُبيد الله مولى مسلم.

ذكر غزو الشاش وفرغانة

وفي سنة أربع وتسعين قطع قُتَيْبَة النَّهْر وفَرض على أهل بُخارى وكشّ ونَسف عشرين ألف مقاتل، فسارُوا معه، فوجَّههم إلى الشاش، وتوجَّه إلى فَرْغَانة فأتى

(١) الثلمة: الموضع الذي قد انثلم.

خُجَنْدَة[1] فجمع له أهلُها، ولَقُوه، واقتتلوا مِرارًا، كلُّ ذلك يكون الظَّفَرُ للمسلمين. ثم إن قُتيبة أتى كاسان مدينة فَرْغَانة، وأتاه الجنودُ الذين وجَّههم إلى الشاش وقد فتحوها وأحرقوا أكْثَرَها، وانصرف إلى مَرْو.

وقال سَحْبَان[2] يذكر قِتَالَهم بخُجَنْدَة: [من مجزوء الكامل]

وسَلِ الفوارس في خُجنْـ ... ـدةَ تحت مُرْهفَةِ العوالي
هل كنتُ أجمعهم إذا ... هُزوا وأُقْدِمُ في قتالي
أم كنت أضْرِبُ هامةَ الْـ ... ـعاتي وأصْبِرُ للعوَالي[3]
هذا وأنت قريعُ قَيْـ ... ـس كُلِّها ضَخْمُ النَّوالِ
وفَضَلْتَ قَيْسًا في النَّدَى ... وأبوك في الحِجَج الخَوالي[4]
ولقد تَبيَّن عَدْلُ حُكْـ ... ـمِكِ فيهمُو في كلِّ مالِ
تَمَّتْ مروءتكم ونا ... غَى عِزُّكم غُلُبَ الجِبالِ[5]

ذكر فتح مدينة كاشغر[6]

وفي سنة ست وتسعين سار قُتَيبةُ من مَرْو وحمل مع الناسِ عيالاتهم ليضَعهُمْ بسَمرْقَنْد، ومضى إلى فَرْغَانة وبعث جيشًا مع كثير ابن فلان إلى كاشْغَر، فغنم وسبى سَبْيًا، فختم أعناقَهم، وأوْغَل حتى بلغ قُرْب الصِّين، فكتب إليه ملكُ الصين أن ابعَثْ إليّ رجلاً شريفًا يُخْبِرُني عنكم وعنْ دينكم، فانتخب قُتيبة عشرةً لهم جَمالٌ وألسنة وبَأْس وعَقْلٌ وصلاَح، فأمر لهم بعُدَّةٍ حَسنة ومتَاعِ حسَن من الخزِّ والوشْيِ وغير ذلك، وخيول حسَنة، وكانَ عليهم هُبَيرة بن مُشَمْرَج الكِلاَبي، وقال لهم قُتيبة: إذا دخلْتُم عليه فأعلموه أنّي قد حَلَفْتُ أنّي لا أنصرف حتى أطَأَ بلادَهم، وأختم ملوكهم، وأجْبِي خراجَهم.

فساروا وعليهم هبيرة، فلما قدموا دعاهم ملك الصين فلبسوا ثيابًا بياضًا تحتها

(١) خجندة: بلدة مشهورة بما وراء النهر على نهر سيحون... (المراصد).
(٢) سحبان: هو سحبان وائل، من رجالات سعد بن قيس عيلان، كان خطيبًا بليغًا... (الاشتقاق لابن دريد).
(٣) العاتي: الجبار.
(٤) الحجج الخوالي: السنوات الماضية.
(٥) يناغي الشيء: يدانيه كأنه يحادثه أو يجاريه في علوه.
(٦) كاشغر: مدينة وقرى ورساتيق، وهي في وسط بلاد الترك.

الغَلائَل[١]، وتطيّبوا، ولبسوا النِّعالَ والأَرْدِيَة، ودخلوا عليه وعنده عُظَماء قومِه، فجلسوا فلم يكلِّمْهم المَلِكُ ولا أحد ممن عنده، فنهضوا.

فقال الملك لمن حضره: كيف رأيْتُم هؤلاء؟ قالوا: رأيْنَا قومًا ما هُم إلا نساء. ما بقي منا أَحَدٌ إلاَّ انتشر[٢] ما عنده.

فلما كان الغَدُ دعاهم فلبسوا الوشْي وعمائم الخزِّ والمطارف، وغَدَوْا عليه. فلما دخلوا قيل لهم: ارجعوا. وقال لأصحابه: كيف رأيْتُمْ هذه الهيئة؟ قالوا: هذه أشبه بهيئة الرجال مِنْ تلك.

فلما كان اليوم الثالث دعاهم فلبسوا سلاحهم، ولبسوا البَيض والمغافر، وأخذوا السيوف والرماح والقسِيَّ، وركبوا. فنظر إليهم مَلِكُ الصين، فرأى مثل الخيل؛ فلما دنوا ركزوا رماحهم، وأقبلوا مشمِّرين. فقيل لهم: ارجعوا، فركبوا خيولهم وأخذوا رماحهم، ودفعوا خيلهم، كأنهم يتطاردون. فقال الملك لأصحابه: كيف تَرَوْنَهم؟ قالوا: ما رأيْنَا مِثْلَ هؤلاء.

فلما أمسى بعث إليهم أن ابْعَثُوا إليّ زعيمكم، فبعثوا إليه هُبيْرةَ بنَ مُشمْرج، فقال له: قد رأيتمُ عظم مُلْكِي، وأنه ليس أحَدٌ يمنَعُكم مِنّي، وأنتم في يدِي بمنزلة البيضة في كفِّي. وإني سائلكم عن أمْرٍ، فإنْ لم تصدقوني قَتَلْتُكُم. قال: سَلْ. قال: لِمَ صنَعْتم بزيِّكُمْ الأول والثاني والثالث ما صنعتم؟ قال: أما زِيُّنا الأول فلِبَاسُنا في أهلنا. وأما الثاني فزِيُّنَا إذا أتينا أُمَرَاءنا، وأما الثالث فزِيُّنَا لعدُوِّنا. قال: ما أحسن ما دَبَّرْتُم دَهْرَكم، فقولوا لصاحبكم ينصرف، فإني قد عرفْتُ قلّةَ أصحابِه، وإني بعثْتُ إليكم مَنْ يُهلككم. قال: وكيف يكون قَلِيل الأصحابِ مَنْ أولُ خَيْلِه في بلادِك وآخرها في منابت الزيتون. وأما تخويفُك إيّانا بالقتْل فإنّ لَنا آجَالاً إذا حضَرتْ فأكْرَمُها القَتْلُ، ولسنا نكرَهُه ولا نخافه، وقد حلف صاحبُنَا ألاَّ ينصرف حتى يَطَأ أرضكم، ويختم ملوككم، وتُعْطِي الجزية. قال: فإنّا نُخْرِجه من يمينه، ونبعث له بتُرَابٍ من أرضنا، فيطَؤه، ونبعث إليه ببَعْض أبنائنا فيختمهم، ونبعث إليه بجزْيةٍ يرضاها. فبعث إليه بهديَّة وأربعة غِلْمان من أبناء ملوكهم، وبتُرَابٍ من أرْضِه، وأعادهم وَأحْسنَ جوائزهم. فقدموا على قُتَيبة، فقبِل ذلك، ووطىء التراب، وختم الغلمان، وردهم، فقال سَوَادة بن عبد الملك السَّلُولي[٣]: [من الكامل]

---

(١) الغلائل: جمع الغلالة، وهو ثوب رقيق يلبس تحت الدثار.

(٢) انتشر الشيء: انبسط؛ وانتشر العصب: انتفخ.

(٣) سوادة بن عبد الملك السلولي: لم نقف على ترجمته فيما وصل إلينا من المظان.

لاَ عيْبَ في الوَفْدِ الذين بَعثْتَهم للصِّين أنْ سلكوا طريقَ المنْهجِ
كسروا الجفونَ على القَذَى خَوْفَ الرَّدى حاشا الكريم هُبَيْرَة بن مُشَمْرَج
أدّى رسالتَك التي استَرْعيْتَه فأتَاكَ مِنْ حِنثِ اليمين بمخْرَج

هذه غزوات قتيبة وفتوحاته.

وكان قُتَيبة إذا رجع من غَزَاته كلَّ سنة اشتري اثني عشر فرسًا من جياد الخيل واثني عشر هجينًا، فَتُخْدَمُ إلى وقت الغزْو، فإذا تأهّب للغَزْوِ ضَمَّرها، وكان يَحْمِلُ عليها الطلائع، وكان لا يجعل الطلائع إلا فُرْسان الناس وأشرافَهم، ويجعل معه مِنَ العجم مَنْ يستنصحه. وإذا بعث طَلِيعةً أمر بلَوح فنُقِشَ ثم شقَّه نِصْفَيْن، وجعل شِقَّه عنده، وأعطى نِصْفَهُ للطليعة، ويأمرهم أن يَدْفِنُوه في موضع يصفُه لهم مِنْ شجرة أو مَخَاضَةٍ أو غيرها، ثم يبعث بعد الطَّلِيعةِ مَنْ يستخرجه ليَعْلَمَ أصدقَتِ الطليعةُ أم لا.

ولنذكر من الغَزَوات والفتوحات في أيام الوليد خلاف ما ذكرنا:

ذكر فتح السند وقتل ملكها وما يتَّصِلُ بذلك من أخبار العمال عليها

وفي سنة تسع وثمانين قَتل محمد بن القاسم بن محمد بن الحكم بن أبي عقيل الثقفي داهر بن صَصَّة ملِك السند، ومَلَك بلاده، وكان الحجاجُ قد استعمله على ذلك الثَّغْرِ وسيَّر معه ستةَ آلاف مقاتل، وجهَّزه بجميع ما يَحْتَاجُ إليه حتى المسالّ والإبِرِ والخيوط، فسار محمد إلى مُكْران، وأقام بها أيامًا، ثم أتى قَنْزَبُور ففتحها ثم سار إلى أرمائيل فقدمها يوم جُمعة، ووافته سفُنٌ كان حَمل فيها السلاحَ والرجالَ والأداة، فأنزل الناسَ منازِلَهم وخَنْدَقَ ونصب عليها مِنْجَنِيقًا يقال له العروس كان يمدّ به خمسمائة رجل، وكان بالدَّيْبُل بُدٌّ[١] عظيم عليه دقَل[٢] عَظِيم، وعلى الدّقَل رَايَةٌ حمراءُ إذا هبَّت الريحُ أطافتْ بالمدينة، والبُدُّ: صنم في بناء عظيم بأعلاه منارةٌ عظيمة مرتفعة، والدَّقَل في رأْسِ المنَارة. فرمى الدَّقَل بحَجر العروس فكسره فتطيّر الكفَّارُ بذلك وأعظموه، ثم فتحها محمدٌ عنوةً بعد قِتَال، وقَتَلَ فيها ثلاثة أيام، وهرب عاملُ داهَر عنها، وأنزلها محمد أربعةَ آلاف من المسلمين، وبنى جامعها، وسار إلى البيرون، وكان أهلها قد بعَثُوا إلى الحجّاج وصالحوه، فلقوا محمدًا بالمِيْرة، وأدخلوه مدينَتهم، ثم سار عنها،

---

(١) البدّ: الصنم، أو موضع عبادته.

(٢) الدقل: خشبة طويلة تشد في وسط السفينة يمد عليها الشراع.

وجعل لا يمُر بمدينةٍ إلا فتحها حتى عَبَر نهرًا دون مِهْران فصالحه أهل سربيدس، ووظَّف عليهم الخراج، وسار إلى سهبان ففتحها، ثم أتى نهر مِهْرَان فنزل به، وبلغ خبره داهرًا فاستعدَّ لمُحَاربَتِهِ. وبعث محمدٌ جيشًا إلى سدوسان، فطلب أهلُها الأمانَ والصلح فأمَّنهم، ووظَّف عليهم الخراجَ، ثم عبر نهر مِهْران مما يلي بلاد راسل الملك على جسْر عقَده، هذا ودَاهر مستخِفٌّ به، فلقيه محمد ومَنْ معه وهو على فيل، والفِيَل حوله ومعه الذكاكرة، فاقتتلوا قِتالاً شديدًا، وترجل دَاهر، وقاتل فقُتِل عند المساء، وانهزم الكفار وقاتلهم المسلمون كيف شاؤوا، وقال قائلهم: [من الكامل]

الخَيْلُ تشهدُ يوم داهَر والْقَنَا ... ومحمدُ بْنُ القاسم بن مُحمَّدِ
أنّي فرَجْتُ الجَمْعَ غير مُعرِّدٍ ... حتى علوتُ عظيمَهم بمهنَّدِ[١]
فتَركْتُهُ تحت العجاجِ مُجَنْدلا ... متعفِّرَ الخَدَّيْن غير مُوسَّدِ[٢]

قال: ولما قُتلَ داهر تغلَّب محمدٌ على بلاد السند وفتح راوَر[٣] عنوةً، وكان بها امرأة لداهَر، فخافت أن تؤخذ فأحرقت نَفْسها وجوارِيها وجميع مالها. ثم سار إلى برهمناباذ العتيقة، وكان المنهزمون من الكفَّار قد لجئوا إليها، ففتحها عنوة بعد قتال، وقَتَل بها بشَرًا كثيرًا، وسار يريد الرُّور[٤] وبغرور، فلقيه أهل ساونْدعرى، فطَلَبُوا الأمان فأمّنهم واشترط عليهم ضِيَافة المسلمين، ثم أسلم أهلُها بعد ذلك، ثم تقدم إلى بسمد فصالحه أهْلُها، وسار إلى الرُّور، وهي من مدائن السند على جَبَلٍ، فحاصرهم شهورًا فصالحوه، وسار إلى السكة[٥] ففتحها، ثم قطع نهر بَيَاس إلى المُلْتان، فقاتله أهْلُها وانهزموا، فحصرهم، وجاء إنسان فدلَّه على قَطْعِ الماء الذي يدخل المدينة، فقطعه فعطشوا وألْقَوْا بأيديهم، ونزلوا على حُكْمه، فقتل المقاتلة وسبى الذُّريّة وسدَنَةَ البُدِّ، وهم ستةُ آلاف، وأصابُوا ذَهَبًا كثيرًا، فجُمع في بيتٍ طُولُه عشرة أذرع وعرْضُه ثمانية أذرع يُلْقَى إليه من كُوَّة في وسطه، فسمِّيت المُلْتان فَرْج بيت الذهب، والفَرْجُ: الثغر، وكان بُدُّ المُلْتان تُهْدَى إليه الأموالُ من كل مكان ويُحَجُّ إليه من البلاد، ويَحْلِقُون عنده رؤوسَهم ولِحَاهم، ويزعمون أنَّ صنمه هو أيوب النبي عليه الصلاة والسلام.

---

(١) يقال: عرّد عن قرنه: إذا نكل وأحجم، أو هرب.
(٢) العجاج: الغبار. (٣) راور: مدينة كبيرة بالسند.
(٤) الرور: ناحية من نواحي الأهواز. أو ناحية بالسند تقرب من الملتان، وهي على شاطىء نهر مهران.
(٥) السكة: مدينة دون بياص.

وعظُمَتْ فتوحاتُه، فنظر الحجاج في النفقة على ذلك الثغر، فكانت ستين ألف ألف درهم، ونظر إلى الذي حُمِل إليه منه فكان مائة ألف ألف وعشرين ألف ألف، فقال: ربحْنَا ستين ألف ألف، وأدركنا ثأْرَنا ورَأْسَ دَاهَر.

قال: واستمر محمد بن القاسم بالهند إلى أن مات الحجاج في سنة خمس وتسعين، فأتاه الخبر وهو بالمُلْتَان فرجع إلى الرُّور والبغرور، فأعطى الناس، ووجّه إلى البَيْلَمَان[1] جيشًا، فأعطوا الطاعة من غير قتال، وسالمه أهل شرشت، ثم أتى محمد الكيرج، فخرج إليه دَوْهر فقاتله فانهزم دوْهر. وقيل: بل قُتل، فنزل أهْلُ المدينة على حكم محمد، فقتَل المُقَاتلة، وسبَى الذريّة؛ فقال شاعرهم: [من الرجز]

نـحـن قـتـلـنـا داهـرًا ودَوهـرَا والـخـيـل تـردي مـنـسرًا فـمـنـسـرا

قال: ولما مات الوليدُ بن عَبْد الملك ووُلِّي سليمان عزَل مُحَمَّد بْنَ القاسم عن السند، واستعمل يزيد بن أبي كَبْشَة السكسي على السند، فأخذ محمدًا وقيَّدَهُ وحملَه إلى العراق، فقال متمثلًا: [من الوافر]

أضَـاعُـونـي وأيَّ فَـتًـى أضـاعُـوا لـيَـوْمِ كَـرِيـهـةٍ وسِـدادِ ثَـغْـر

فبكى أهْلُ السند.

ولما وصل إلى العراق حبسه صالح بن عبد الرحمٰن بواسط فقال: [من الكامل]

فـلـئِـن ثَـوَيْـتُ بـواسـطٍ وبـأرضـهـا رَهْـن الـحـديـد مُـكـبّـلًا مـغـلـولا
فـلـربّ قَـيْـنَـة فـارسٍ قـد رُعْـتُـهـا ولـرب قِـرْنٍ قـد تـركـتُ قَـتِـيـلا[2]

قال: فعذَّبَهُ صالح في رجالٍ من آل أبي عقيل حتى قتلهم، فقال حمزة بن بيْض يرثي محمدًا: [من الكامل]

إنّ الـمـروءةَ والـسـمـاحـةَ والـنـدَى لـمـحـمـد بـن الـقـاسـم بـن مـحـمـدِ
سَـاسَ الـجـيـوشَ لـسـبْـع عـشـرة حـجـةً يـا قُـرْب ذلـك سُـؤددًا مـن مـولـدِ

قال: وأما يزيد بن أبي كَبْشَة فإنه مات بعد مقدمه إلى السند بثمانية عر يومًا، فاستعمل سليمانُ على السندِ حبِيبَ بن المهلب، فقدم السند وقد رجع الملوكُ إلى ممالكهم، ورجع حيْسَبة بن داهر إلى برهمنا باذ، فنزل حبيب على شاطىء مِهْران، وحارب قومًا فظفر بهم.

---

(١) البيلمان: ناحية من بلاد السند والهند تنسب إليها السيوف البيلمانية.
(٢) القينة: الأمة صانعة أو غير صانعة، وغلب على المغنية.

ثم مات سليمان، وولي عمر بن عبد العزيز، فكتب إلى الملوك يدْعُوهم إلى الإسلام والطاعة على أن يملكهم، ولَهُمْ ما للمسلمين وعليهم ما عليهم، فأسلم حيَسبَةُ والملوك، وتسمَّوْا بأسماء العرب، وكان عمْرو بن مسلم الباهلي عامِل عُمر على ذلك الثغر، فغزا بَعْضَ الهند فظفر بهم، ثم ولّي الجُنَيْد بن عَبْد الرحمٰن السند أيام هشام بن عبد الملك، فأتى شطَّ مِهْرانَ فمنعه حيْسَبة بن داهر من العُبور، وأرسل إليه: إني قد أسلمْتُ وولاَّني الرجلُ الصالح بلادِي، ولست أمكنك. فأعطاه رهنًا، وأخذ منه رهنًا على خراج بلادِه، ثم ترادَّ الرهون وكفر حيسبة، وحارب.

وقيل: لم يحارب، وإنما الجُنَيْد تجنَّى عليه، فأتى الهنْدَ، فجمع جموعًا وأعدّ السفن، واستعدّ للحرب، فسار إليه الجُنَيْد في السفُن، فالتقوا، فأُسر حيْسبة فقتله الجُنَيْد، وهرب صصَّة بن دَاهر، وهو يريدُ أن يمضيَ إلى العراق فيشكو غَدْر الجُنَيْد، فلم يزل الجُنَيْد يُؤْنِسه حتى وضع يده في يده فقتله.

وغزا الجنيد الكيرج؛ وكانوا قد نقضوا، فظَفر ودخل المدينة فغنم وسبى، ووجّه العمالَ إلى المرمَد والمنْدل(١) ودهْنَج(٢)، ووَجَّه جيشًا إلى أزين فأغاروا عليها، وحَرَقوا ربضها، وفَتَح الجُنَيْد البيْلَمان، وحصل عنده سوى ما حِمْله أربعون ألف ألف، وحمل مِثْلَها.

وفي أيامه خرج المسلمون عن بلادِ الهند. ثم ولى الحكم بن عوام الكَلْبي، وقد كفر أهل الهِنْد إلاَّ أهل قَصَّنة، فبنى مدينة سماها المحفوظة، وجعلها مأوى للمسلمين، وكان معه عَمْرو بن محمد بن القاسم فأغْزاه من المحفوظة، فقدم عليه وقد ظهر أمْرُه، فبنى مدينةً وسمَّاها المنصورة، واسترجع ما كان غلب عليه العدوّ، ثم قتِل الحكم، فكان العمال يقاتلون العَدُوّ، ويفتتحون ما تيسر لهم لضَعْفِ الدولةِ الأُموية، ثم جاءت الدولةُ العباسية فكان من أمْرِ السند ما نذكره إن شاء الله تعالى، وإنما ذكَرْنَا أخبار السند ههنا لتكون متَّسِقَةً، فلنرجع إلى تَتِمَّةِ الغَزَوات في أيام الوليد بن عبد الملك:

ذكر الغزوات إلى بلاد الروم وما فتح منها وغزوات الصوائف على حُكم السنين

في سنة ست وثمانين غزا مسلمة بن عبْد الملك أرضَ الروم. وغزا أيضًا في

(١) المندل: بلد بالهند.

(٢) دهنج: بفتح أوله وإسكان ثانيه بعده نون مفتوحة وجيم: من بلاد الهند.

سنة سبع وثمانين، فقتَل منهم عَدَدًا كثيرًا بِسُوسَنة من ناحية المصِّيْصة[1] وفتح حصونًا.

وقيل: إن الذي غَزَا في هذه السنة هشام بن عبْد الملك، ففتح حِصْن بولق، وحصن الأفرم، وحصن بولس وقَمقَم، وقَتَل من المستعربة نحوًا من ألْف مقاتل، وسبى ذرِّيَتَهُم ونساءهُم. والله أعلم.

ذكر فتح طوانة[2] وغيرها من بلد الروم

وفي سنة ثمانٍ وثمانين غزا مسلمة بن عَبْد الملك والعباس بن الوليد بلد الروم، وكان الوليد قد كتب إلى صاحب أرمينية يأمُره أن يكتبَ إلى ملك الروم يعرِّفُه أنّ الخَزَر وغيرهم من ملوك جبال أرمينية قد أجمعوا على قَصْد بلاده ففعلوا ذلك، وقطع الوليدُ البعْثَ على أهل الشام إلى أرمينية، فتجهَّزُوا، وساروا نحو الجزيرة، ثم عطفوا منها إلى بلاد الروم فاقتتلوا هم والروم، فانهزم الرومُ، ثم رجعوا فانهزم المسلمون، وبقي العباس في نفرٍ، فنادى: يا أهل القرآن؛ فأقبلوا جميعًا، فهزم الله الرُّومَ حتى دخلوا طُوَانَة، وحصرهم المسلمون وفتحوها في جُمادى الأُولى منها.

ثم غزا مسلمة والعباس الروم في سنة تسع وثمانين، فافتتح مسلمة حِصْن سوريَة، وافتتح العباس أذروليَة، ولقي من الروم جمْعًا فهزمهم.

وقيل: إن مسلمة قصد عمُّورية، فلقي بها جمعًا كثيرًا من الروم فهزمهم وافتتح هرقْلية وقمولية. وغزا العباس الصائفة من ناحية البُدَنْدُون، وغزا مسلمة الترك من ناحية أذرَبيجان، ففتح حصونًا ومدائن هناك، وذلك في سنة تسع وثمانين أيضًا.

وغزا مسلمة الروم في سنة تسعين، ففتح الحصون الخمسة التي بسورية.

وغزا العباس حتى بلغ أرْزَن[3] وبلغ سورية.

وفي سنة إحدى وتسعين غزا عبد العزيز بن الوليد الصَّائفة، وكان على ذلك الجيش مسلمة بن عبد الملك.

---

(١) المصيصة: بالفتح ثم الكسر، والتشديد، وياء ساكنة، وصاد أخرى: مدينة على شاطىء جيحان من ثغور الشام بين أنطاكية وبلاد الروم تقارب طرسوس... (معجم البلدان).

(٢) طوانة: بضم أوله، وبعد الألف نون: بلد بثغور المصيصة... طولها ست وستون درجة وعرضها ثمان وثلاثون درجة... (معجم البلدان).

(٣) أرزن: مدينة مشهورة قرب خلاط، ولها قلعة حصينة، وكانت من أعمر نواحي أرمينية. وأرزن الروم: بلدة أخرى من بلاد أرمينية... (معجم البلدان).

وغزا مسلمة الترك في هذه السنة من ناحية أذْرَبيجان حتى بلغ الباب، وفتح مدائنَ وحصونًا، ونصب عليها المجانيق. وغزا مسلمة أرض الروم في سنة اثنتين وتسعين، ففتح حصونًا ثلاثة، وجَلاَ أَهْلُ سُوسَنَة إلى بلاد الروم.

وفيها كان فتح الأندلس على يَدِ طارق بن زياد مولى موسى بن نُصير على ما نذكر ذلك إن شاء الله في أخبار المغرب، وغُزِيت جزيرة سرْدَانية وسنذكر ذلك أيضًا إن شاء الله.

وغزا العباس الرومَ في سنة ثلاث وتسعين، ففتح سَبَسْطِيَة[١] المرزبانيين.

وغزا مَرْوان بن الوليد الروم فبلغ خَنْجرة[٢]، وغزا مسلمة ففتح مَاسِيَة وحِصْنَ الحدِيد. وغزالة مِنْ ناحية مَلَطْيَة.

وغزا العباسُ بْنُ الوليد الروم ففتح أنطاكية في سنة أربع وتسعين. وغزا العباس في سنة خمس وتسعين، ففتح هِرَقْلَة وغيرها، وفيها قُتل الوَضَّاحي بأرضِ الروم ونحو أَلْف رَجُل معه.

انتهت الغزوات في أيام الوليد بن عبد الملك. فلنذكر خلاف ذلك من الحوادث على حُكْم السنين:

ذكر الحوادث الكائنة في أيام الوليد بن عبد الملك خلاف ما قدمناه

سنة ست وثمانين:

في هذه السنة حبس الحجاج بن يوسف يزيد بنَ المهلب بن أبي صُفرة، وعزَل حبيب بن المهلب عن كِرْمَان وعبد الملك عن شرطته.

وحَجّ بالناسِ هشام بن إسماعيل المخزومي.

سنة سبع وثمانين:

في هذه السنة عزل الوليدُ بْنُ عبد الملك هشام بنَ إسماعيل عن المدينة لسبع ليالٍ خلَوْن من شهر ربيع الأول، واستعمل عُمَرَ بن عَبْدِ العزيز، فقدمها في الشهر، وثَقَلُه على ثلاثين بعيرًا، فنزل دَار مَرْوَان، وأَحْسَنَ السيرة في الناس، واستعان بفقهاء

(١) سبسطية: مدينة قرب سميساط.
(٢) خنجرة: ناحية من بلاد الروم.

المدينة، وحَرَّضهم على أنْ يبلِّغوه ما يَبْلُغهم من أخبر عُمّاله، وأن يُعِيْنُوه على الحقّ، وقال: إني أُريد ألاَّ أقطع أمْرًا دُونَكم.

وحج عُمر بالناس في هذه السنة، وكان على قضاء المدينة أبو بكر بن عَمْرو بن حَزْم، وعلى قضاء البصرة عبد الله بن أُذينة، وعلى قضاء الكوفة أبو بكر بن أبي موسى الأشعري رضي الله عنهم.

سنة ثمان وثمانين:

ذكر عمارة مسجد النبي ﷺ والزيادة فيه

في هذه السنة كتب الوليدُ إلى عُمرَ بن عبد العزيز في شهر ربيع الأول يأمره بإدخال حُجَر أزواج النبيِّ ﷺ في المسجد، وأن يشتري ما في نواحيه حتى يكونَ مائتي ذراع، ويقول له: قَدِّم القِبْلَةَ إن قدَرْتَ، وأنت تقدرُ لمكان أخوالك؛ فإنهم لا يخالفونك، فمَنْ أَبى منهم فقوِّموا مِلكَه قيمةَ عدْلٍ، واهْدِمْ عليهم، وادفع الأثمانَ إليهم، فإنّ لكَ في عُمر وعثمان رضي الله عنهما أُسوة.

فأحضرهم عمر وأقْرَأهم الكتاب، فأجابوا إلى أخْذِ الثمن؛ فأعطاهم إياه، وهَدَم الحُجر، وأرسل الوليد الفَعَلة من الشام، وبعث إلى ملكِ الروم يُعْلمه أنه قد هدم مَسْجِد النبي ﷺ ليعمُرَهُ، فبعث إليه الروم مائةَ ألفِ مثقال من ذَهَبٍ ومائة عامل، وبعث إليه من الفُسيفساء بأربعين جَمَلاً. فبعث الوليدُ بذلك إلى عُمر بن عبد العزيز، وحضر عُمَرُ ومعه الناس، فوضعوا أساسه.

وكتب الوليد إلى عمر بن عبد العزيز في تسهيل البناء وحَفر الآبار، وأمره أن يعمل الفوّارة بالمدينة، فعملها وأجرى ماءها، وكتب إلى البُلْدَانِ جميعِها بإصلاح الطُّرق وعَمل الآبار.

وفيها منع الوليد المُجذَّمِين[1] من الخروج على الناس، وأجرى لهم الأرزاقَ.

وحجّ بالناس عمر بن عبد العزيز، ووصل جماعةً من قريش، وساق معه بُدْنًا[2]، وأحرم من ذي الحُلَيْفَة[3]، فلما كان بالتَّنْعيم أُخْبِرَ أنَّ مكَّةَ قليلةُ الماء، وأنهم

(١) المجذم: الذي أصابه الجذام، وهي علة تتأكل منها الأعضاء وتتساقط.

(٢) البدن: جمع البدنة: ناقة أو بقرة تنحر بمكة قربانًا.

(٣) ذو الحليفة: قرية بينها وبين المدينة ستة أميال أو سبعة، ومنها ميقات أهل المدينة... (معجم البلدان).

يخافون على الحاجّ العَطَش. فقال عُمَرُ: تعالوا ندْعُوا الله تعالى؛ فدعا ودعا معه الناس، فما وصلوا إلى البيت إلاَّ مع المطر، وسالَ الوادِي، فخاف أهْلُ مكَّةَ مِنْ شِدَّته، ومُطِرت عرفة ومكة، وكثر الخصْبُ. وقيل: إنما حَجّ هذه السنة عمر بن الوليد والله أعلم.

سنة تسع وثمانين:

ذكر ولاية خالد بن عبد الله القسري مكة وما خطب الناس به وقاله

وفي هذه السنة ولّي خالدُ بن عبْد الله القَسْري، فخطب أهلها فقال: أيها الناس، أيهما أعظَمُ، أخليفة الرجل على أهله أو رسوله إليهم؟ والله لو لم تعلموا مِنْ فَضْلِ الخليفة إلاَّ أنَّ إبراهيمَ خليل الرحمٰن عليه الصلاة والسلام استسقاه فسقاه مِلْحًا أُجَاجًا[1]، واستسقاه الخليفة فسقاه عَذْبًا فُراتًا، يعني بالملح زَمْزَم، وبالماء الفُرات بئرًا حفرها الوليد بثنية طُوى في ثنية الحجُون، فكان ماؤها عَذْبًا، وكان ينقل ماءها ويضعه في حوْضٍ إلى جنب زمزم ليُعْرَف فَضْلُه على زمزم، فغارت البئر وذهب ماؤها.

وقيل: كانت ولايةُ خالد في سنة إحدى وتسعين. وقيل سنة أربع.

وحج بالناس في هذه السنة عُمر بن عبد العزيز.

سنة تسعين:

ذكر هرب يزيد بن المهلب وإخوته من سِجْن الحجاج

في هذه السنة هرب يزيدُ بن المهلب وإخوته، وكان الحجاجُ قد خرج إلى رُسْتَقُبَاذ[2] للبعث، لأنَّ الأكْرَاد كانوا قد غَلَبُوا على فارس، وأخرج معه يزيد بن المهلب وإخوته، وجعل عليهم مِثْلَ الخَنْدَق، وجعلهم في فُسْطَاطٍ قريبٍ منه، وجعل عليهم الحَرَس مِنْ أهل الشام، وطلب منهم ستةَ آلافِ ألْفٍ، وعَذَّبهم؛ فكان يزيد يَصْبِرُ صَبْرًا حسنًا، فكان ذلكَ مما يَغيظُ الحجاج، فقيل له: إنه رُمِيَ في ساقه بنُشَّابة

(١) الأجاج: ما يلدغ الفم بمرارته أو ملوحته.

(٢) رستقباذ: بلدة في فارس... وقيل: بالأهواز.

فثبَتَ نَصْلُها فيه فهو لا يمسّها شيء إلاّ صاح، فأمر أن يُعَذَّب في ساقِه، فعذب، فصاح، فسمعَتْه أُخْتُه هِنْد، وكانت عند الحجاج فصاحت، فطلقها الحجاج، ثم كفّ عنهم وجعل يَسْتَأْدِي منهم المال، فصنع يزيد للحرس طعامًا كثيرًا وأمر لهم بشَرَابٍ، فسُقوا، واشتغلوا، فلبِسَ يزيد ثيابَ طبّاخِه وخرج، وقد جعل له لحيةً بيضاء، فرآه بعْضُ الحرس، فقال: كأنَّ هذه مشية يزيد، فلحقه فرأى لِحْيَته بيضاء، فتركه، وعاد وخرج المفضَّلُ ولم يُفطَن له، وكذلك عبد الملك، فجاؤوا إلى سفن مُعَدَّة فركبوها، وساروا ليلتَهم.

ولما أصبح الحجاجُ وعَلِم بهم الحرس رفعوا أمْرَهم إليه ففزع، وظن أنهم قصدوا خراسان لفتْنَةٍ، فبعث إلى قُتيبة يأمُرِ بالجدِّ والاحتياط.

ولما دنا يزيدُ وإخوته من البطائح استقبلَتْهم خَيْلٌ قد ضُمِّرت وأُعِدَّت لهم، فركبوها ومعهم دَلِيلٌ من كلْب، فأخذوا على السَّمَاوة[1] إلى الشام، فأتى الحجاجَ الخبرُ، فكتب إلى الوليد يُعْلِمه. وسار يزيد حتى قدم فلسطين، فنزل على وُهيب بن عبد الرحمٰن الأزْدِي، وكان كريمًا على سليمان بن عبد الملك، فجاء وُهيب إلى سليمان فأعلمه بحال يزِيد وإخوته، وأنهم قد استعاذُوا به من الحجاج. قال: فأْتني بهم، فإنهم آمنون لا يوصل إليهم وأنا حيّ. فجاء بهم إليه فكانوا عنده في مكانٍ آمنٍ.

وكتب الحجاج إلى الوليد: إنَّ آلَ المهلب خانُوا مال الله وهربُوا مِنِّي، ولحقوا بسليمان.

فلما علم أنهم عند أخيه سكنَ بَعْضُ ما بِه، وكتب إليه سليمان: إنَّ يزيدَ عِنْدي وقد أمَّنْتُه، وإنما عليه ثلاثةُ آلافِ ألفٍ، لأن الحجاج أغْرَمه ثلاثة آلاف ألف، والذي بَقِي عليه أنا أُؤَدِّيه.

فكتب الوليدُ: واللّهِ لا أُؤمِّنُه حتى تبعثَ به إليّ...

فكتب سليمان: لئن بعثتُ به إليك لأجيئنَّ معه.

فكتب إليه: والله لئن جئتَني لا أؤمنه. فقال يزِيدُ بن المهلَّب: أرْسِلْني إليه، فوالله ما أُحِبُّ أن أُوقعَ بينك وبينه عَداوة، واكتُبْ معي بألطف ما قدرْتَ عليه. فأرسله، وأرسل معه ابْنَه أيوب.

---

(١) السماوة: بفتح أوله. وبعد الألف واو: بادية السماوة هي بين الكوفة والشام قفرى.. وقيل: سميت السماوة لأنها أرض مستوية لا حجر بها.. والسماوة: ماء بالبادية، وقيل: السماوة: ماء لكلب... (معجم البلدان لياقوت).

وكان الوليدُ قد أمَره أن يَبْعَثَ به مُقَيَّدًا. فقال سليمانُ لابْنِه: إذا دخلْت على أمير المؤمنين فادخُلْ أنتَ ويزيدُ في سلسلةٍ. ففعل ذلك، فلما رأى الوليدُ ابْنَ أخيهِ في سلسلةٍ قال: لقد بلَغْنا من سليمان.

ودفع أيوبُ كتابَ أبيه إلى عَمِّه، وقال: يا أمير المؤمنين، لا تُخْفِر ذمَّةَ أبي، وأنت أحقُّ مَنْ منعها، ولا تَقْطَعْ مِنَّا رجاءَ مَنْ رجا السلامَةَ في جِوارِنا لمكاننا منك، ولا تُذل مَنْ رَجَا العِزَّ في الانقطاع إلينا لعِزِّنا بك.

فقَرَأ الوليدُ كتابَ سليمان فإذا هو يستَعْطِفُه ويشفَع فيه، ويضمَنُ إيصالَ المال.

فقال: لقد شقَقْنَا على سليمان.

وتكلم يزيد واعتذر، فأمَّنهُ الوليدُ، وردّه إلى سليمان، وكتب إلى الحجاج: إني لَم أصِلْ إلى يزيد وأهله لمكانهم مِنْ سليمان، فاكفُفْ عنهم، وكان أبو عُيَيْنَة بن المهلَّب عند الحجاج عليه ألف ألف، فتركها له، وكَفَّ عن حبيب بن المهلب، وكان يُعذَّبُ بالبصرة، وأقام يزيد عند سليمان في أرْغَدِ عيش، وكان لا تَصِلُ إليه هديَّةٌ إلاَّ بعث بنصفها إلى يزيد، ولا تعجبه جارية إلا بعث بها إليه، وكان يزيدُ إذا أتته هدية بعث بها إلى سليمان.

وفي هذه السنة استعمل الوليد قُرَّةَ بْنَ شَريك على مِصْر، وعزل أخاه عَبْدَ الله عنها.

وفيها أسرت الروم خالد بن كيسان صاحب البحْرِ، فأهداه ملكهم إلى الوليد.

وحج بالناس عمر بن عبد العزيز.

وفيها مات أَنَسُ بن مالك رضي الله عنه الأنصاري وقيل: سنة اثنتين وتسعين، وكان عمره سِتًّا وتسعين سنة، وقيل مائة وست سنين.

سنة إحدى وتسعين:

في هذه السنة حَجّ الوليدُ بن عبد الملك بالناس، فلما قدم المدينة دخل المسجد ينظر إلى بنائه، فأخرج الناسَ منه، ولم يبْقَ غَيْر سعيد بن المسيّب، لم يجسر أحد من الحَرس أنْ يخرِجَه، فقيل لهُ رضي الله عنه: لو قُمْتَ. فقال: لا أقوم حتى يأْتي الوقتُ الذي كنتُ أقوم فيه. قيل له: فلو سلَّمْتَ على أمير المؤمنين. قال: لا، والله لا أقوم إليه. قال عمر بن عبد العزيز: فجعلت أعْدِلُ بالولِيدِ في ناحيةِ المسجد لئلا يَراهُ، فالتفت الوليدُ إلى القِبْلَةِ، فقال: منْ ذَلِكَ الشيخ: أهو سعيد؟ قلت: نعم. ومِنْ حاله كذا وكذا، ولو علم بمكانك لقام فسلَّم عليك.

فقال الوليدُ: قد علمت حاله، نحن نأتيه، فأتاه فقال: كيف أنْتَ أيها الشيخ؟ فواللّهِ ما تحرّك سَعيد. فقال: بخير والحمد لله؛ فكيف أمير المؤمنين؟ وكيف حالُهُ؟ فانصرف وهو يقولُ: هذا بقِيَّةُ الناس. وقسم الوليدُ بالمدينة رقيقًا[1] كثيرًا وآنية مِنْ ذهبٍ وفضة وأموالاً، وصَلّى بالمدينة الجمعة، وخطب الخطبة الأُولى جالسًا والثانية قائمًا.

وفيها عزل الوليد عامله محمد بن مرْوَان عن الجزيرة وأرمينية، واستعمل عليها أخاه مسلمة بن عبد الملك، فغَزَا الترك كما تقدم.

سنة اثنتين وتسعين:

في هذه السنة حَجّ بالناس عمر بن عبد العزيز وهو على المدينة وكان من الغزوات والفتوحات ما تقدم ذكره.

سنة ثلاث وتسعين:

ذكر عزل عمر بن عبد العزيز

في هذه السنة عزل الوليدُ عُمَر بن عبد العزيز عن الحجاز والمدينة، وكان سبَبُ ذلك أنَّ عُمر كتب إلى الوليد يُخْبره بعسْفِ الحجّاج وظُلْمِه، فبلغ ذلك الحجاج، فكتب إلى الوليدِ: إن مَنْ عندي منَ المُرّاق[2] وأهل الشقاق قد جَلَوْا عن العِرَاقِ ولحقُوا بالمدينة ومكة، وإن ذلك وَهن.

فكتب إليه الوليدُ يستشيره فيمَنْ يُوَلّيه المدينةَ ومكة، فأشار بخالِدِ بن عَبْد الله القَسْري وعثمان بن حَيّان، فولى خالدًا مكة وعثمانَ المدينة، فلما قدم خالدٌ مكة أخرج مَنْ بها من أهْلِ العراق كرهًا، وتهدَّدَ مَنْ أنزل عِرَاقيًا أو أجره دارًا. وقيل: كان ذلك قبل هذا التاريخ. والله أعلم.

وفيها كتب الوليد إلى عمر قبل عزْله يأمره أن يضرب خُبَيْب بن عبْد الله بن الزُّبير، ويَصُبّ على رأْسه ماءً باردًا، فضربه خمسين سَوْطًا. وصبَّ على رأسه ماءً باردًا في يوم شاتٍ، ووقفه على باب المسجد، فمات من يومه.

وحج بالناس عبد العزيز بن الوليد.

---

(١) الرقيق: الدقيق اللطيف؛ أو المملوك كله أو بعضه.

(٢) المرّاق: جمع المارق وهو الخارج من دينه.

سنة أربع وتسعين:

ذكر مقتل سعيد بن جبير
رضي الله عنه

في هذه السنة قَتَلَ الحجاجُ بن يوسف سَعِيدَ بن جُبير، وهو أبو عبْد الله سعيد بن جُبَيْر بن هشام الأسَدي مولى بني والبة: بطْنٌ من بني أسد بن خزيمة.

وكان سببَ قَتْله خروجُه مع عبْد الرحمٰن بن محمد بن الأشعث، وكان الحجاجُ قد جعله على عطاء الجُنْدِ حين وجّه عبْدَ الرحمٰن لقتال رُتْبيل، فلما خلع عبد الرحمٰن الحجاج وعبد الملك كان سعِيدٌ ممن خلع؛ فلما هزِم عَبد الرحمٰن هرب سَعِيد إلى أصبهان، فكتب الحجاجُ إلى عامِلها يأمره بإرساله، فتحرّج العاملُ من ذلك، وأرسل إلى سَعِيد يُعَرِّفُه أن يفارِقَ البلد، فخرج إلى أذْرَبيجان ثم خرج إلى مكة، فكان بها حتى قدم خالدُ بن عَبْدِ الله مكة، وأخرج أهْلَ العراق إلى الحَجَّاج، فأُخذ سَعِيد فيمن أخذ، وسيره إلى الحجاج مع حَرَسيَّيْن[1]، فانطلق أحَدُهما لحاجته في بعض الطريق وبقي الآخر فنام واستيقظ. فقال لسعيد: إني أبرأُ إلى الله مِنْ دَمِك، إني رأيتُ في منامِي قائلاً يقول لي: ويلك! تَبرأْ إلى الله مِنْ دَم سَعيد بن جُبَيْر، فاذْهبْ حيث شئتَ، فإني لا أطْلُبك، فأبى سَعيد ذلك، ورأى الحَرَسِيُّ ذلك ثلاث مرات وهو يكرِّر القولَ على سَعيد في الذهاب فلا يفعل. ثم قدم الكوفةَ فأُدخل على الحجاج، فلما رآه قال: لعنَ اللّهُ ابْنَ النصرانية ـ يعني خَالد بن عبْد الله ـ أما كنت أعرف مكانه، بلى والله والبيت الذي كان فيه بمكة. ثم أقبل عليه وقال: يا سعيد، ألم أُشركك في أمانتي؟ ألم أستعملك؟ قال: بلى. قال: فما أخْرَجَك عليّ؟ قال: إنما أنا امرؤٌ من المسلمين يُخْطىء مَرَّةً ويُصِيب مرة. فطابت نَفْسُ الحجاج، ثم عاوده في شيء، فقال: إنما كانت بَيْعتُه في عُنقي. فغضب الحجاجُ وانتفخ. وقال: يا سعيد، ألم أقدم مكة فقتلْتُ ابْنَ الزبير وأخَذْتُ بيعَةَ أهلها، وأخذْتُ بيعتَك لأمير المؤمنين عبد الملك؟ قال: بلى. قال: ثم قدمتُ الكوفة واليًا فجدّدْتُ البيعة فأخذت بيْعَتَك ثانيًا؟ قال: بلى. قال: فنكثْتَ بيعَتَيْن لأميرِ المؤمنين، وتُوفي بواحدةٍ للحائك ابن الحائك، والله لأقتلنك. قال: إني إذًا لسعيد كما سمَّتْني أُمي، فأمَر به فضُرِبَتْ رقَبَتُهُ. فلما سقط رأسه هلل ثلاثًا؛ أفصح بِمَرَّة ولم يُفْصح بمرَّتَيْن، والتبس عَقْل الحجاج فجعل يقول:

---

(١) الحرسيّ: واحد الحرس، وهم الجند، يرتبون لحفظ الحاكم وحراسته.

قيودُنا قيودُنا، فظنوا أنه يُريد القيودَ، فعطفوا رِجْلَيْ سعيد من أنصاف ساقيه وأخذوا القيودَ.

وكان الحجاج إذا نَامَ يراه في مَنامه يأْخذ بمجامع ثوبه، فيقول: يا عدوَّ اللّهِ، فيما قتلْتني، فيقول: ما لي ولسعيد بن جُبير! ما لي ولسعيد بن جُبَير! يكررها.

وفيها كانت الزلازلُ بالشام فدَامَتْ أربعين يومًا، فخربت البلاد، وكان معظم ذلك بأنطاكية.

ذكر وفاة زين العابدين علي بن الحسين ابن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم ونبذة من أخباره

كانت وفَاتُه بالمدينة في أول سنة أربع وتسعين. وقيل في سنة اثنتين. وقيل سنة ثلاث. وقيل سنة تسع وتسعين. وقيل سنة مائة. حكى هذا الاختلاف أبو القاسم بن عساكر[١] في تاريخ دِمشق، واقتصر ابْنُ الأثير الجزري على سنة أربع وتسعين دونَ غيرها.

وكان رَحِمه الله يُكْنَى أبا عبد الله، ويقال أبو محمد، ويقال أبو الْحَسَن، ويقال أبو الحُسَين زَيْن العابدين. ومولده سنة ثلاث وثلاثين، وأُمه أُمّ ولد اسمها غَزَالة خلف عليها بعْدَ الحُسَين زُبَيْد مولى الحسين، فولدت له عبد الله بن زُبَيْد.

وقال إسماعيل بن موسى السُّدِّي: عَبْد الرحمٰن بن حبيب أخو عليّ بن الحسين لأبيه، وكان رحمه الله ثقة وَرِعًا مأْمونًا كَثِيرَ الحديث مِنْ أَفْضل أهل بيته وأحسنهم طاعةً.

حكى أبو القاسم بن عساكر في تاريخه عن الزهري، قال: شهدْتُ عليَّ بنَ الحسين يوم حَمَلَهُ عَبْدُ الملك بن مروان من المدينة إلى الشام، فأوثقه حَدِيدًا، ووكل به حُفَّاظًا فاستأْذنتهم في التسليم عليه والتوديع له فأذنوا لي فدخلْتُ عليه، وهو في قُبَّةٍ والقُيودُ في رجليه والغُلُّ في يديه، فسكنت وقلت: وَدِدْتُ أني مكانك وأنْتَ سليم.

---

(١) هو الحافظ أبو القاسم علي بن أبي محمد الحسن بن هبة الله أبي الحسن بن عبد الله بن الحسين المعروف بابن عساكر، الدمشقي الملقب ثقة الدين، كان محدث الشام في وقته، ومن أعيان الفقهاء الشافعية... صنف التاريخ الكبير لدمشق في ثمانين مجلدة، أتى فيه بالعجائب، وهو على نسق «تاريخ بغداد».. كانت ولادته سنة ٤٩٩هـ وتوفي سنة إحدى وسبعين وخمسماية بدمشق... (وفيات الأعيان ٣:٣٠٩).

فقال: يا زُهْرِيّ[١]، أوتظنُّ هذا مما تَرَى عليَّ وفي عنقي. أما إني لو شئْتُ ما كان. ثم أَخْرَجَ يدَيْه من الغُلِّ ورِجْلَيْهِ من القَيْد.

ثم قال: يا زهريّ، جُزْتُ معهم على هذا منزلتين من المدينة. فما لبثنا إلا أرْبع ليالٍ حتى قدم الموكَّلون به يطلبونَه بالمدينة، فما وَجَدُوه، فكنْتُ فيمن سألهم عنه، فقال لي بَعْضُهم: إنا نَراه متبوعًا، إنه لنازِلٌ ـ ونحن حَوْلَه لا ننامُ نَرْصُده ـ إذ أصبحنا، فما وَجَدْنَا إلا حديدَه.

قال الزهري: فقدمْتُ بعد ذلك على عَبْد الملك فسألني عن عليّ بن الحسين، فأخْبَرْتُه، فقال لي: إنه قد جاءني في يوم فَقَدَهُ الأعوان، فدخل عليّ، فقال: أنا وأنت! فقلْتُ: أقِمْ عندي. فقال: لا أُحبُّ، فخرج، فواللّهِ لقد امتلأ ثَوْبِي منه خِيْفَةً.

قال الزهري: فقلت: يا أمِير المؤمنين، ليس عليّ بْنُ الحسين حيثُ تظنُّ، إنه لمشغولٌ بنفسه. فقال: نعم.

وقيل: وقع حريقٌ بالمدينة في بيتٍ فيه عليّ بن الحسين، فجعلوا يقولون: يا ابْنَ رسولِ اللّهِ، النار! فما رفع رَأْسَه حتى أُطفئت، فقيل له: ما الذي ألهاكَ عنها؟ قال: ألهاني عَنْها النارُ الأُخرى..

وقيل: كان إذا مشى لا تجاوِزُ يَدُه فخذيه، ولا يَخْطر بيده. وكان إذا قام إلى الصلاة أخذَتْه رعدة، فقيل له: ما لك؟ فقال: ما تَدْرُون بين يَدَيْ مَنْ أقوم ومَنْ أُناجي.

قيل: وكان إذا توضَّأ اصفرَّ فيقول له أهله: ما هذا الذي يَعْتَادُك عند الوضوء؟ فيقول: تَدْرُونَ بين يَدَي مَنْ أُريد أقوم؟

وعن سُفْيَان بن عُيَيْنة[٢] قال: حَجَّ علي بن الحسين، فلما أَحْرَم واستوَتْ به راحِلَته اصفرَّ لَوْنُه وانتفض، ووقع عليه الرعْدَةُ، ولم يستطع أن يُلَبّي. فقيل له: ما لك لا تُلَبّي؟ فقال: أخْشَى أنْ أقول لَبّيْكَ، فيقول لي: لا لَبّيْك. فقيل له: لا بُدَّ مِنْ هذا. فلما لَبّى غُشِي عليه، وسقَط مِنْ راحلته، فلم يَزَلْ يَعْتَريه ذلك حتى قَضَى حَجَّه.

---

(١) الزهري: هو أبو بكر محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب بن عبد الله بن الحارث بن زهرة الزهري أحد الفقهاء والمحدثين، والأعلام التابعين بالمدينة، رأى عشرة من الصحابة رضوان الله عليهم، وروى عنه جماعة من الأئمة... (وفيات الأعيان ٤:١٧٧).

(٢) هو أبو محمد سفيان بن عيينة بن أبي عمران ميمون الهلالي، مولى امرأة من بني هلال بن عامر رهط ميمونة زوج النبيّ ﷺ وقيل مولى بني هاشم، وقيل مولى الضحاك بن مزاحم، وقيل مولى مسعر بن كدام، وأصله من الكوفة... وكان مولده بالكوفة سنة ١٠٧هـ وتوفي سنة ١٩٨هـ بمكة، ودفن بالحجون... (الوفيات ٢:٣٩١).

وقيل: كان رضي الله عنه يُصَلِّي في كلّ يوم وليلةٍ أَلْفَ ركعة إلى أن مات رضي الله عنه.

وكان يُسَمَّى بالمدينة زَيْن العابدين لعبادته. وقيل: إنه قاسم اللّهَ مالَه مَرَّتَيْن، وكان يحمل الخُبْزَ على ظَهْرِه يتبع به المساكين في ظُلْمَة الليل، ويقول: إن الصَّدَقَة في ظلمة الليل تطفىءُ غَضَبَ الرّبِّ.

وأَعْتَقَ غلامًا أعطاه به عَبْدُ الله بن جعفر عشرةَ آلاف درهم وألف دينار. قيل: وسكبت جاريةٌ عليه الماءَ ليتهيَّأ للصلاة، فسقط الإبريق مِنْ يَدِها على وجهه، فشجَّه، فرفَع رَأْسَه إليها، فقالت: إن الله عزَّ وجل يقول: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]. قال: قد كظَمْت غَيْظِي. قالت: ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٤]. قال: قد عفا الله عنك. قالت: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]. قال: اذهبي فأنْتِ حُرَّة.

قيل: وأذنب له غلام ذنبًا استحقَّ منه العقوبةَ، فأخذ السَّوْطَ. فقال الغلام: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية: ١٤]، وما أنا كذلك، إني لأرْجُو رحْمَةَ الله، وأخاف عَذَابَه، فألقى السَّوْطَ، وقال: أنْتَ عَتِيق.

وقيل: حَجَّ هشام بن عَبْد الملك في زَمَنِ عَبْد الملك أو في زَمن الوليد، فلما طاف جهد أنْ يَسْتَلم الحجرَ فلم يُطِق لزحامِ الناسِ عليه، فنُصِب له مِنْبَرٌ، وجلس ينظُرُ إلى الناس، إذْ أقبل عليُّ بن الحسين رضي الله عنه من أحسن الناس وجْهًا وأطيبهم ريحًا، فطاف بالبيت، فكان كلما بلغ الحجَر تَنَحَّى الناسُ له حتى يستلمه. فقال رجلٌ من أهل الشام: مَنْ هذا الذي قد هَابَه الناسُ هذه المهابة؟ فقال هشام: لا أعرفُه ـ مخافَةَ أنْ يَرْغَبَ الناس فيه، وكان حوله وجوهُ أهل الشام، والفرزدقُ الشاعر، فقال الفرزدق: لكنني أنا أعرفه، فقال أهل الشام: مَنْ هذا يا أبا فِرَاس؟ فزَبَره[1] هشام، وقال: لا أعرفه. فقال الفرزدق: بل تعرِفُه، ثم أنشد مشيرًا إليه: [من البسيط]

هذا سليلُ حُسينٍ وابنُ فاطمةٍ ... بنت الرسول الذي انجابت به الظُّلم

هذا الذي تعرِفُ البَطْحَاءُ وطْأتَه ... والبيتُ يَعْرِفُه والحِلُّ والحرمُ[2]

هذا ابنُ خَيْرِ عبادِ الله كلِّهِمو ... هذا النَّقِي التَّقِيُّ الطاهر العَلَمُ

إذا رأتْه قريشٌ قال قائلُها ... إلى مكارمِ هَذَا يَنْتَهي الكَرَمُ

---

(١) زبره: منعه ونهاه؛ أو انتهره وزجره.
(٢) الحل: ما جاوز الحرم.

يَرْقَى إلى ذِرْوةِ العِزِّ الذي قَصُرَتْ | عن نَيْلِها عَرَبُ الإسلام والعَجَمُ

يكادُ يُمْسِكُهُ عِرْفانَ رَاحَتِهِ | رُكْنُ الحَطِيم إذا ما جاء يَسْتَلِمُ

يُغْضِي حَيَاءً ويُغْضَى من مَهَابَتِه | فلا يُكَلَّم إلا حين يَبْتَسِمُ

بِكَفِّه خَيْزُران ريحها عَبِقٌ | من كَفِّ أرْوَعَ في عِرْنِيْنِه شَمَمُ(١)

مَنْ جَدُّه دَانَ فضلُ الأنبياء له | وفضلُ أُمَّتِه دانت له الأُمَمُ

ينشقُّ نورُ الهُدَى عن نُور غُرَّتِه | كالشمس تَنْجَابُ عن إشراقها الظُّلَمُ

مشتقةٌ من رسول الله نَبْعَتُه | طابت عناصِرُها والخِيْمُ والشِّيَمُ(٢)

هذا ابْنُ فاطمةٍ إن كنتَ جاهِلَه | بجدِّه أنبياءُ الله قد خُتِموا

اللّهُ شرَّفهُ قِدْمًا وفَضَّلهُ | جرى بذاك له في لَوْحِهِ القَلَمُ

فليس قولك مَنْ هذا بضائِرِه | العرب تعرف من أنكرْتَ والعجمُ

كلتا يديه غِيَاثٌ عمَّ نفعهما | يستَوْكِفان ولا يَعْرُوهما عدمُ(٣)

حَمّال أثقال أقوام إذا فُدِحوا | حلْوُ الشمائل تَحْلُو عِنْدَه نَعَمُ

لا يخلف الوَعْدَ ميمونٌ نَقيبَتُه | رَحْبُ الفِنَاء أريب حين يَعْتَزِمُ(٤)

مِنْ مَعْشَرٍ حُبُّهم دين وبَغْضُهمو | كُفْرٌ وقربهمو مَنْجَى ومُعْتَصَمُ

إن عُدّ أهْلُ التُّقَى كانوا أئمتهم | أو قيل مَنْ خير أهل الأرض قيل هُمُو

لا يستطيع جَوَادٌ بُعْدَ غايتهم | ولا يدانيهمُ قَوْمٌ وإن كرمُوا

همُ الغيوثُ إذا ما أزْمَةٌ أزَمَت | والأُسد أُسد الشَّرى والبأْسُ محتدِمُ(٥)

لا ينقص العُسْرُ بَسْطًا من أكُفِّهمُ | سيَّان ذلك إن أثْرَوا وإن عَدِمُوا

يُستَدْفَع السوءُ والبَلْوَى بحبِّهُمو | ويُسْتَرَدُّ به الإحسانُ والنعمُ

مُقَدَّمٌ بَعْدَ ذِكْرِ الله ذِكْرهُمو | في كل أمرٍ ومختومٌ به الكلمُ

يأبى لهم أن يحُلَّ الذُّلُّ ساحتَهم | خِيمٌ كريم وأيْدٍ بالندى هُضُمُ(٦)

أيّ الخلائق ليست في رِقابهمو | لأوَّلِيَّةِ هذا أو لَه نِعَمُ

مَنْ يشكر الله يشكر أوليَّة ذَا | فالدِّيْن من بيت هذا بابه الأمَمُ

---

(١) الأروع: المعجب بحسنه وجهارة منظره، أو بشجاعته. والعرنين: ما صلب من عظم الأنف حيث يكون الشمم.

(٢) الخيم: جمع الخيمة، وهي المنزل.

(٣) استوكف الماء: استقطره واستدعى جريانه.

(٤) الأريب: الماهر البصير، أو الذي يفتقر إليه.

(٥) الأزمة: القحط؛ وأزمت: اشتدت.

(٦) الخيم: الأصل.

قال: فغضب هشام لذلك وتنغَّص عليه يَوْمُه، وأمر بحَبْس الفرزدق بعُسْفَان بين مكة والمدينة، وبلغ ذلك عليّ بن الحُسَين رضي الله عنه، فبعث إليه باثني عشر ألف درهم، وقال: اعذر أبا فِرَاس، لو كان عندنا أكثر من هذا لوصَلْنَاك بها، فردَّها الفرَزْدَق، وقال: ما قلْتُ الذي قلْتُ إلاَّ غضبًا لله ولرسوله، وما كُنْتُ لأُرْزَأ[1] عليها شيئًا، فردّها عليه، وقال: بحَقِّي عليك إلا قَبِلْتَها، فقد علِمْتَ أنَّا أهل بيت إذا أنْفَذْنا أمرًا لا نرجع فيه، وقد رأى الله مكانك، وعلم نِيَّتَك، والجزاءُ عليه تعالى. فقبلها.

وجعل الفرزدق يَهْجُو هشامًا، فكان مما هجاه به: [من الطويل]

أتَحْبِسني بين المدينةِ والتي ... إليها قلوبُ الناس يَهْوَى مُنيبها
يُقَلِّبُ رأْسًا لم يكن رَأْسَ سيِّدٍ ... وعينين حَوْلاَوَيْنِ بادٍ عُيُوبُها

وكان علي بن الحسين يقول: لقد استرقَّكَ بالودّ مَنْ سبقك بالشكر.

ولما حضرته الوفاة أوصى ألاَّ يُؤْذِنُوا به أحدًا، وأن يكفَّن في قُطن، ولا يجعلوا في حَنُوطهِ مِسْكًا، ودُفِنَ بالبَقيع رحمه الله ورضي عنه.

ومات أيضًا في هذه السنة عُرْوة بن الزبير رضي الله عنهما، وسَعِيد بن المُسَيّب[2]، وأبو بكر بن عبد الرحمٰن بن الحارث بن هشام.

وحجّ بالناس مسلمة بن عَبْد الملك. وقيل عبد العزيز بن الوليد.

وفيها استقضى الوليدُ على الشام سليمان بن حبيب.

سنة خمس وتسعين:

ذكر وفاة الحجاج بن يوسف الثقفي وشيء من أخباره

هو أبو محمد الحجّاج بن يوسف بن الحَكم بن أبي عَقيل بن عامر بن مسعود بن مالك بن كعب بن عَمْرو بن سعد بن عوف بن ثَقِيف، كانت وفاتُه في شوال سنة

---

(١) أرزأ عليها: أصيب منها مالاً ونفعًا.

(٢) هو أبو محمد سعيد بن المسيب بن حزن بن أبي وهب بن عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم القرشي المدني؛ أحد الفقهاء السبعة بالمدينة، كان سيد التابعين من الطراز الأول، جمع بين الحديث والفقه والزهد والعبادة والورع... كانت وفاته سنة ٩٥هـ... (وفيات الأعيان ٢: ٣٧٥).

خمس وتسعين، وقيل لخَمْسٍ بقين من شهر رمضان من السنة، وله من العمر أربعٌ وخمسون، وقيل ثلاث وخمسون.

روي أن عُمَر بن عبد العزيز ذُكر عنده ظُلْمُ الحجاج وغيره من وُلاةِ الأمصار في أيام الوليد بن عبد الملك، فقال عُمَر بن العزيز: الحجاجُ بالعراق، والوليدُ بالشام، وقُرَّة بن شريك بمِصْر، وعثمان بالمدينة، وخالد بمكة؛ اللهم قد امتلأتْ ظُلمًا وجَوْرًا، فأرِح الناسَ. فلم يَمْضِ غَيْرُ قليل حتى توفي الحجاج وقُرّة في شهر واحد، ثم تبعهم الوليد، وعُزِل عثمان بن حَيَّان، وخالد بن عَبْد الله القَسْري، واستجاب الله لعمر.

وما أشبه هذه القصة بقصة عَبْدِ الله بن عُمر رضي الله عنهما لما بلغه أنَّ زيادَ ابْنَ أبيه كتب إلى معاوية يقول: إنِّي قد ضبطْتُ العراقَ بشِمَالِي ويَمِيني فارِغَةٌ. فقال ابْنُ عمر: اللهم أرِحْنا من يمين زياد، وأرِحْ أهل العراقِ من شِمَاله. فاستجاب اللّهُ له.

وكان من خَبَر وفاةِ زياد ما ذكرناه.

وكانت ولاية الحجاج العراق عشرين سنة، ولما حضرته الوفاة استخلف على الصلاة ابْنَه عَبْدَ الله، وعلى حَرْبِ الكوفة والبَصْرَة يزيد بن أبي كَبْشَة، وعلى الخراج يزيد بن أبي مسلم، فأقرَّهما الوليد بَعْدَه.

وكان الحجاجُ مِنْ أفْصَح الناس. قال أبو عمرو بن العلاء: ما رأيت أفْصَح مِن الحجاج ومن الحَسَن، وقد ذَكَرْنَا من كلامه عند مَقْدَمه الكوفة ما يدلُّ على فصاحته.

ومن أخباره أنَّ عَبْد الملك كتب إليه يأمره بقَتْل أسلم بن عَبْدِ الله البكري لشيءٍ بلغه عنه، فأحضره الحجاجُ، فقال: أمير المؤمنين غائب وأنتَ حاضر، والله تعالى يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ...﴾ [الحجرات: ٦] الآية. والذي بلغه عنّي فباطل، فاكتُب إلى أمير المؤمنين أني أعُول أربعًا وعشرين امرأة، وهُنَّ بالباب؛ فأحضرهن، وكان في آخرهن جارية قاربَتْ عشر سنين. فقال لها: مَنْ أنتِ منه؟ قالت: ابْنتُه، أصلح الله الأمير، ثم أنشأت: [من الطويل]

أحجاجُ لو تشهد مقام بناته ... وعماته يَنْدُبْنَهُ الليلَ أجمعا
أحجاج لا تقتل به إن قتلته ... ثمانًا وعَشْرًا واثنتين وأربعا
أحجاج مَنْ هذا يقوم مقامَه ... علينا فمهلاً أنْ تَزِدْنا تَضَعْضُعا
أحجاج إمّا أنْ تجُودَ بنِعْمَةٍ ... علينا وإما أن تُقَتِّلَنا مَعا

فبكى الحجاج، وقال: والله لا أعنتُ الدهر عليكنَّ ولا زِدْتُكُنَّ تَضَعْضُعًا.

وكتب إلى عبد الملك بخبرِه وخَبَر الجارية، فكتب إليه: إذا كان الأمْرُ كما ذكرْتَ فأحْسِنْ صِلَتَه وتَفَقَّد الجارية، ففعل.

قال عاصم بن بَهْدَلة: سمعْتُ الحجاج يقول: اتَّقُوا الله ما استطَعْتُم، هذا والله مثنوية، واسمعوا وأطيعوا وأنفِقُوا خيرًا لأنفسكم ليس فيه مَثْنَوية، والله لو أمرتكم أن تَخْرجُوا من هذا الباب فخرجتم من هذا لحلَّتْ لي دِماؤكم، ولا أجد أحدًا يقرَأُ على قراءة ابن أمِّ عبد ـ يعني ابن مسعود ـ إلاّ ضَربْتُ عنقه، ولأحُكَّنَّها من المصحف ولو بضلع خنزير.

قال الأوزاعي[1]: قال عُمر بن عبد العزيز: لو جاءت كلُّ أمَّة بخبيثها وجِئْنَا بالحجاج لغَلَبْنَاهم.

قال الحسن: سمعْتُ عليًا يقول على المنبر: اللهم ائتمنتهم فخانوا، ونصحتهم فغَشُّوني، اللهم فَسلِّط عليهم غلاَمَ ثقيف يَحْكم في دمائهم وأموالهم بحُكم الجاهلية، فوصفه. قال الحسن: هذه والله صِفَة الحجاج.

قال حبيب بن أبي ثابت: قال عليّ رضي الله عنه لرجل: لا تَموت حتى تُدْرِك فَتَى ثقيف. قيل: يا أميرَ المؤمنين؛ ما فَتَى ثقيف؟ قال: ليُقَالَنَّ لَهُ يوم القيامة: اكْفِنَا زاويةً من زَوايا جهنم، رجل يمْلك عشرين سنة أو بِضْعًا وعشرين، فلا يدَعُ للّهِ مَعْصِيَةً إلا ارتكبها، حتى لو لم يبْق إلا معصية واحدة وبينها وبينه بابٌ مُغْلَقٌ لكسره، حتى يرتكبها، يقتل من أطاعه بمن عصاه.

وقيل: أُحصي مَنْ قتله الحجاج صَبْرًا فكانوا مائة ألف وعشرين ألفًا.

وقيل: إن الحجاج مرَّ بخالد بن يزيد بن معاوية وهو يخطر في مشْيَتِه، فقال رجل لخالد: مَنْ هذا؟ فقال خالد: بخ بخ! هذا عمْرو بن العاص. فسمِعَها الحجاجُ فرجع، وقال: والله ما يسرُّني أن العاص والدي، ولكني ابْن الأشياخ من ثقيف، والعقائل من قريش، وأنا الذي ضربت بسيفي هذا مائةَ ألف كلُّهم يشهدُ أنَّ أباك كان يشربُ الخمر ويُضْمِر الكفر. ثم ولَّى، وهو يقول: بَخ بَخ عمرو بن العاص! فقد أقرَّ على نَفْسه بمائةِ ألف قتيل على ذَنْبٍ واحد.

وحجَّ بالناس في هذه السنة بشر بن الوَليد بن عَبْد الملك.

---

(١) الأوزاعي: هو أبو عمرو عبد الرحمٰن بن عمرو بن يحمد الأوزاعي إمام أهل الشام؛ لم يكن بالشام أعلم منه، قيل إنه أجاب في سبعين ألف مسألة، وكان يسكن بيروت... كانت وفاته سنة ١٥٧ هجرية... (وفيات الأعيان ٣: ١٢٧).

سنة ست وتسعين:

ذكر وفاة الوليد بن عبد الملك
وشيءٍ من أخباره وسيرته وأولاده وعماله

كانت وفاته بدَيْر مُرَّان في النصف من جمادى الآخرة من هذه السنة. ودَيْر مُرَّان كان بجَبَل قاسِيُون بظاهر دمشق، وهو الآن مدرسةٌ وتربَةٌ منسوبة إلى الملك المعظَّم شرف الدين عيسى ابن العادل بن أيوب. كانت مدة خلافته تسعَ سنين وثمانية أشهر. ودُفن خارج البابِ الصغير بدمشق. وقيل في مقابر الفَرَادِيس[1]. وصلَّى عليه عُمَرُ بن عبد العزيز. ولما دُلِّيَ في حُفْرته جُمِعتْ ركبتاه إلى عنقه، فقال ابنه: عَاشَ أبي؟ فقال له عمر بن عبد العزيز ـ وكان فيمن دفنه ـ: عُوجِل والله أبوك. وكان عمره اثنتين وأربعين سنة وستة أشهر. وقيل سبعًا وأربعين. وقيل ثمانيًا وأربعين. والله أعلم.

وكان أسمَرَ اللَّوْنِ، جميل الوجه، أفطس الأنف. وقيل: كان سائل الأنف جِدًّا وبوجهه آثار جُدْري.

وكان نَقْش خاتمه: يا وليد، إنك ميت.

وكان له من الأولاد تسعة عشر ذكرًا، وعَدّهم بعْض المؤرخين عشرين، وهم: يزيد، وإبراهيم ـ وليا الخلافة ـ والعباس فارس بني مَرْوان، وعمر فَحْل بني مَرْوان، وعبْد العزيز، وبشر، وصدقة، ومحمد، وتمام، وخالد، وعبد الرحمٰن، ومبشر، ومسرور، وأبو عبيدة، ومنصور، ومروان، وعَنْبَسة، وعمرو، وروح، ويحيى، هؤلاء الذكور، سوى البنات.

كتَّابُه: قرّة بن شريك، ثم قَبِيصة بن ذؤيب، ثم الضحاك بن يزيد، ثم يزيد بن أبي كَبْشَة، ثم عَبْد الله بن بلال.

قُضَاته: عبد الله بن بلال، وسليمان بن حبيب.

حُجَّابه: خالد، وسعيد مولياه.

الأُمراءُ بمصر: أخوه عَبْد الله، ثم قرَّة بن شريك.

قاضيها: عبد الله بن عبد الرحمٰن بن حجيرة، ثم صرفه قرّة وولَّى عياضَ بن عبد الله، ثم وليها عبد الملك بن رِفَاعة بعد وفاة قرّة.

---

(١) الفراديس: موضع بقرب دمشق.

وكان عُمّاله على الأمصار منْ ذَكَرْنَاهم.

قال: وكان الوليد بن عبد الملك عند أهل الشام مِنْ أفضل خلفائهم، وله آثارٌ حسنة ومبان عظيمة، وفتح في أيامه بلاد الأندلس وما وراء النهر وبلاد الهند.

قال: وكان الوليد يمرُّ بالبَقَّال فيقف عليه، ويأُخذ منه حُزمةَ بَقْلٍ، فيقول: بكَمْ هذه؟ فيقول: بفَلْس. فيقول الوليد: زِدْ فيها.

وبنى جامع دمشق في سنة ست وثمانين، وهدم كنيسةَ النصارى التي كانت إلى جانبِه، وتُعْرف بمار يوحنا، وزادَها فيه.

وقيل: كان في الجامع وهو يُبْنى اثنا عشر ألف مرخم. وتوفِّي الوليدُ ولم يتمّ بناؤُه، وكان الفراغ منه في أيام سليمان أخيه.

وقيل: إن جُمْلَةَ ما أُنْفِقَ عليه أربعمائة صندوق، في كل صندوق أربعة عشر ألف دينار، وكان فيه ستمائة سلسلةٍ من الذهب للقناديل، ولم تطِق الناس الصلاة فيه لكَثْرة شعاعه، فدخنت حتى اسودَّتْ، فلما ولي عمر بن عبد العزيز جعلها في بيْتِ المال، وعَوَّضَها بالحديد.

وأمر الوليد ببناءِ جامع البيت المقدس في سنة ثمان وثمانين.

قيل: وحجَّ الوليدُ بالناس ثلاث حجج: سنة ثمان وثمانين، وسنة إحدى وتسعين، وسنة أربع وتسعين.

قال: وكان الوليد أراد أنْ يَخْلَعَ أخاه سليمان، ويبايع لوَلَدِهِ عَبْد العزيز، فأبى سليمان، فكتب إلى عُمَّاله، ودعَا الناسَ إلى خَلْعِه، فلم يُجبْه إلى ذلك إلا الحجاج وقتَيْبة وخَوَاصّ من الناس.

فكتب الوليدُ إلى سليمان يأمره بالقدوم عليه، فأبطأ، فعزَمَ على المسير إليه ليَخْلَعَهُ، وأخرج خيمةً فمات قبل أنْ يَسِيرَ إليه.

قال: وكان الوليدُ لحّانًا لا يُحسِن العربية، فعاتبه أبوه، وقال: إنه لا يلي العَرَب إلاّ مَنْ يُحْسن كلامَهم؛ فجمع النُّحاةَ، ودخل بيتًا فلم يخرج منه ستةَ أشهر، ثم خرج وهو أجْهَلُ منه يَوْمَ دخَل، فقال عبد الملك: قد أعذر. والله سبحانه وتعالى أعلم.

ذكر بيعة سليمان بن عبد الملك

هو أبو أيوب سليمان بن عبد الملك بن مَرْوان بن الحكم، وأُمُّه ولادة أُم أخيه الوليد، وهو السابع مِنْ ملوك بني أُمية. بُويع له يوم السبت للنصف من جُمادى

الآخرة، وهو يوم وفاةِ أخيه الوليد، وكان إذ ذاك بالرَّمْلة[١]، وكان الوليد قد أراد خَلْعه مِنْ ولايةِ العهد، فمات قبل أن يُتِمّ له ما أراد من ذلك.

ولنذكر الحوادث الكائنة في أيامه على حكم السنين:

ذكر قتل قتيبة بن مسلم

وفي هذه السنة قُتِلَ قتَيْبَة بن مسلم الباهلي بخرَاسَان، وكان سبب ذلك أنه أجابَ الوليدَ إلى خَلْع سليمان كما ذكرنا، فلما أفْضَت الخلافة إلى سليمان خَشِي قتَيْبَةُ أنَّ سليمانَ يستعملُ يزيد بن المهلب على خراسان، فكتب قتَيْبَة إلى سليمان كتابًا يهنِّئه بالخلافةِ ويذكر بلاءه وطاعتَه لعبد الملك والوليد، وأنه له على مِثْل ذلك إنْ لم يَعْزِلْه عن خُرَاسان.

وكتب إليه كتابًا آخر يُعْلِمُه فيه بفتوحه ومكانَتِه، وعِظَم قَدْره عند ملوك العجم، وهَيْبَتِهِ في صدورهم، ويذمّ آل المُهَلَّب، وَيَحْلِفُ بالله لئن استعمل يزيد على خراسان ليخلعنَّه.

وكتب كتابًا ثالثًا فيه خَلعُه، وبعث الكتبَ مع رجل من أهله، وقال له: ادفع الكتابَ الأول إليه، فإن كان يَزيدُ حاضرًا فقَرَأَهُ ثم ألقاه إليه فادْفَع إليه هذا الثاني. فإن قرأه ودفعه إلى يزيد فادْفَع إليه الثالث، وإن قرأ الأول ولم يَدْفَعْه إلى يزيد فاحبس الكتابيْن عنه.

فقدم رسولُ قتَيْبَةَ، فدخل على سليمان وعنده يَزِيد بن المهلَّب، فدفع إليه الكتابَ الأوّل، فقرأه وألقاه إلى يزيد، فدفع إليه الثاني، فقرأه وألقاه إليه، فأعطاه الثالث، فقرأه وتغيَّر لونه وختمه وأمسكه بيده. فقيل: كان فيه: لو لم تقرّني على ما كنت عليه وتؤمنني لأخلعنَّك، ولأمْلأنَّها عليك خَيْلاً ورَجْلاً.

ثم أمر سليمان بإنزال رسولِ قتَيْبَة، ثم أحضره ليلاً وأعطاه دنانير وعَهْدَ قتَيْبَةَ على خرَاسان وسيَّر معه رسولاً، فلما كانا بحُلْوان بلغهما خلع قتَيْبَة، فرجع رسولُ سلَيْمان، وكان قتَيْبَةُ لما هَمّ بخلع سليمان استشار إخوته فقال عبد الرحمٰن: اقطع بعْثًا

---

(١) الرملة: واحدة الرمل: مدينة عظيمة بفلسطين وكانت قصبتا قد خربت الآن، وكانت رباطًا للمسلمين. . . وقيل: الرملة: محلة بسرخس، ويقال أيضًا: رملة بني وبر، في أرض نجد. . . (معجم البلدان لياقوت).

فوجّه فيه كلَّ منْ تَخافه، ووجّه قومًا إلى مَرْو، وَسِرْ حتى تَنْزلَ سمَرْقند، وقلْ لمنْ معك: مَنْ أحبَّ المقام فله المواساة، ومَنْ أراد الانصراف فغَيْرُ مستكْره، فإنه لا يُقيم عندك إلاَّ مُناصح. وقال له أخوه عبد الله: اخلعه مكانَك فلا يختلف عليك رَجلان. فوافقه وخلع سليمانَ، ودعا الناس إلى خَلْعه فلم يُجِبْه أحد، فغضب، وقال: لا أعزَّ الله منْ نصرْتُم، والله لو اجتمعْتم على عنز ما كَسرتم قَرْنها، وسبَّهم طائفةً طائفةً وقبيلةً قبيلة، وذكر مساويهم ومعايبهم، ونزل؛ فغضب الناسُ واجتمعوا على خَلع قتيبة وخِلاَفه، وكان أوّل منْ تكلم في ذلك الأزد، فأتوا حُضَين بن المنذر[١]، فقالوا: إنَّ هذا قد خلع الخليفة، وفيه فسادُ الدِّيْنِ والدنيا، وقد شتَمَنَا فما ترى؟ فأشار عليهم أن يأْتوا وَكيع بن أبي سُود التميمي، ويقدِّمُوه لرياسته في قَوْمه، فأتوه وسألوه أنْ يَلِي أمْرَهم، ففعل.

وكان بخرَاسَان يومئذ من أهل البصرة والْعالِيَة من المقاتلة تسعة آلاف، ومن بكْر سبعة آلاف، ورئيسُهم حُضَيْن بن المنذر، ومِنْ تميم عشرة آلاف وعليهم ضِرَار بن حُصَيْن، ومن عَبْد القيس أربعة آلاف وعليهم عبد الله بن حوذان، ومن أهل الكوفة سبعة آلاف وعليهم جَهْم بن زَحْر. ومن الموالي سبعة آلاف وعليهم حَيَّان النبطي مولى بني شَيْبَان، وهو من الدَّيْلَم وقيل من خراسان، وإنما قيل له النبطي للكْنته.

فأرسل حَيّان إلى وَكيع يقول: إنْ أنا كفَفْتُ عنك وأعنْتك تجعل لي الجانبَ الشرقي من نهر بَلْخ آخذ خَرَاجَه ما دمْت حيًا، وما دمْتَ أميرًا! قال: نعم. فقال حيان للعجم: هؤلاء يقاتِلون على غيرِ دِين، فدعُوهم يقْتل بعْضهم بعضًا. ففعلوا.

وقيل لقتيبة: إن وَكِيعًا يبايعُ الناس، فدسّ عليه ضِرار بنَ سنان الضبي، فبايعه سِرًّا، فظهر أمْرُه لقتَيْبة، فأرسل إليه يَدْعُوه، فوجده قد طلى رجليه بمَغْرَة[٢]، وعَلّق على ساقِه خَرزًا، وعنده رجلاَن يَرْقِيان رِجْلَه. فقال للرسول: قد ترى ما بِرجْلي. فرجع إليه فأخبر قُتيبة، فأعاده إليه يقول: لَتأْتينِّي به محمولاً، فأتاه فقال: لا أسْتَطيع. فقال قتَيْبَة لِصاحِب شرطته: انطلق إلى وكيع فأْتِني به، فإنْ أبى فاضْرِبْ عُنقه، ووجّه معه خيلاً.

---

(١) هو الحضين بن المنذر بن الحارث بن وعلة الرقاشي، أحد بني رقاش، فارس شاعر، وكانت معه راية علي بن أبي طالب رضي الله عنه يوم صفين، دفعها إليها وهو ابن تسع عشرة سنة وفيه يقول علي:

لمن راية سوداء يخفق ظلها ... إذا قيل قدمها حضين تقدما

وكان حضين من كبار التابعين، مات على رأس المائة... (الخزانة ٢: ٨٩).

(٢) المغرة: طين أحمر.

وقيل: أرسل إليه شعبة بن ظهير التميمي. فقال له وكيع: يا ابْنَ ظهير، لبِّث قليلاً تلحق الكتائب. ولَبِس سلاحَه، ونادى في الناس، فأتوه، ورَكبَ فرسه، وخرج، فأتاه الناسُ أرسالاً، واجتمع إلى قتَيْبة أهْلُ بيته وخواصّ أصحابه وثقاته، منهم إياس بن بيْهس بن عَمْرو، وهو ابن عَمّ قتَيبة، ودعا قتيبة بِبِرذَوْن له مدرَّب ليركبه، فاستصعب عليه حتى أعْياه، فجلس على سيريره وقال: دعُوه، فإن هذا أمرٌ يراد.

وجاء حيان في العجم وقتَيبة واجِدٌ عليه، فقال عبد الله أخو قتيبة: احمِلْ عليهم. فقال حيَّان: لم يأتِ بَعْدُ. وقال حَيّان لابنه: إذا رأيْتَني قد حوَّلت قلنسوتي ومِلْت نحو عسكر وكيع فمِلْ بمنْ معك من العجم إليّ. فلما حوّل حيان قلنسوته مالت الأعاجِمُ إلى عسكر وكِيع فكبَّرُوا وهاجُوا، فقتل عبْد الرحمٰن أخو قتيبة، وجاء الناس حتى بلغوا فسْطَاط قتَيْبة، فقطعوا أطنابَه، وجُرِح قتَيْبةُ جراحات كثيرة، فقال جَهْم بن زَحْر بن قيس لسعد: انزِلْ فحزَّ رأسه، فنزل وشقَّ الفسْطَاطَ، واحتزَّ رأْسه؛ وقتِل معه مِنْ أهْله وإخوته: عبْدُ الرحمٰن، وعبد الله، وصالح، وحُصَيْن، وعبد الكريم: بنو مسلم. وقُتل كثير ابنه، وكان عِدّة مَنْ قتل مع قتيبة من أهله أحد عشر رجلاً، فأرسل وَكيع إلى سليمان برَأْسِه ورؤُوس أهله.

ولما قتل قال رجل من خراسان: يا معشر العرب، قتلتم قتيبة، والله لو كان منّا فمات لجعلناه في تابوت، فكنا نستفتح به إذا غزونا.

وقال عبد الرحمٰن بن جُمانة الباهلي يَرْثي قتيبة: [من الطويل]

كأنّ أبا حفْصٍ قتيبةَ لم يَسِرْ	بجيْشٍ إلى جَيْش ولم يعْلُ مِنْبرا
ولم تخْفق الرايات والجيشُ حوله	وقوفٌ ولم تشهد له الناس عَسْكرا
دعتْه المنَايا فاستجاب لِربِّه	وراح إلى الجَنَّات عَفًّا مُطَهَّرا
فما رُزىء الإسلامُ بعْدَ محمَّد	بمثْل أبي حَفْصٍ فبكِّيْه عبْهَرا

وعبْهر: أُمُّ ولَد له.

ووصل خَبرُ مَقْتَله إلى الشام في اليوم الثاني من مقْتَلِهِ.

قال شيوخٌ من غسان: كنا بثَنِّية العُقَاب[1] إذا نحن برجُل معه عصا وجراب، فقلنا: منْ أين أقبلْتَ؟ قال: مِنْ خراسان. قلْنَا: هل كان بها من خَبر؟ قال: نعم، قُتل بها قتَيْبة بن مسلم أمْسِ، فعجبْنَا مِنْ قولِه. فلما رأى إنكارنا قال: أين تروني الليلة من إفريقية؟ وتركَنا ومضى، فاتبعنا على خيولنا فإذا به يسبق الطَّرف. وثنيَّة العُقَاب في مرْج دمشق على نصف مرحلة منها.

* * *

---

(١) ثنية العقاب: هي ثنية مشرفة على غوطة دمشق؛ وثنية العقاب بالثغور الشامية قرب المصيصة.

وفي هذه السنة عزَل سليمان بن عبد الملك عثمان بن حيَّان عن المدينة لسبْع بَقين من شهر رمضان، واستعمل عليها أبا بكر بن محمد بن عمْرو بن حَزْم، وكان عثمان قد عزم على أن يجْلدَ أبا بَكْر هذا ويحْلِقَ لحيته من الغد، فلما كان الليل جاء البريدُ إلى أبي بكر بتأْميره وعزْل عثمان وَحْده وتقييده.

وعزل سليمان أيضًا يزيد بن أبي مسلم عن العراق، واستعمل يزيد بن المهلَّب، وجعل صالح بن عبد الرحمٰن على الخَرَاج، وأمره ببسْطِ العذاب على آل أبي عقيل؛ وهم أهْلُ الحجاج، فكان يعذِّبهم، ويلِي عذابَهم عبد الملك بن المهلَّب.

وحجَّ بالناس أبو بكر بن محمد وهو أمير المدينة، وكان على مكة عبْد العزيز بن عَبْد الله بن خالد بن أسِيد وعلى حَرْب العراق وصلاَتها يزيد بن المهلَّب، وعلى خَراجها صالح بن عبد الرحمٰن. وعلى البصْرَةِ سفيان بن عبْد الله الكِنْدِي من قبل يزيد، وعلى قضائها عبد الرحمٰن بن أُذَيْنَة، وعلى قضاء الكوفة أبو بكر بن أبي موسى، وعلى حرّب خراسان وكيع بن أبي سُود.

وفيها مات شُريح القاضي، وقيل سنة سبع وتسعين. وله مائة وعشرون سنة، ومحمود بن لبيد الأنصاري وله صُحْبة.

سنة سبع وتسعين:

ذكر ولاية يزيد بن المهلب خراسان

في هذه السنة استعمل سليمان بن عبْد الملك يزيد بن المهلب على خراسان مضافةً إلى العراق، وكان سبب ذلك أنَّ سليمان لما ولَّى يزيد بن المهلَّب العراقَ فوَّض إليه الحَرْبَ والخراج والصلاةَ بها، فنظر يزيد لنفسه، فرأى أنَّ الحجاجَ قد أخرب العراقَ، وأنه إنْ أخذ الناس بالخراج وعذَّبهم عليه صار عندهم مِثْلَ الحجاج، وأنه متى لم يفعل ذلك ويأْت سليمان بمثْل ما كان الحجاجُ يأْتي به لم يَقْبَلْ منه، فأشار على سليمان أن يُوَلِّي صالح بن عبد الرحمٰن مولى تميم الخراج، فولاه الخراج وسيَّره قَبْلَ يزيد، فنزل واسطًا. ولما قدم يزيد خرج الناسُ يتلقَّوْنه، ولم يخرج صالح حتى قَرُب يزيد، فخرج وبين يديه أربعمائة من أهل الشام، فلقي يزيد وسايرَهُ، ولم يمكنه من شيءٍ، وضَيَّق عليه، فضجر يزيد من ذلك، فدعا عبْدَ الله بن الأهْتَم، وقال له: إني أُريدُك لأمْرِ أهمَّني، وأُحبُّ أن تكفِينيه. قال: أفعل. قال: أنا فيما ترى من الضِّيْقِ، وقد ضجرت منه، وخراسان شاغرةٌ فهل مِنْ حيلة؟ قال: نعم، سرِّحْني إلى أمير المؤمنين.

فكتب يزيد إلى سليمان وأعْلَمهُ بحالِ العراق، وأثنى على ابْنِ الأهْتم وذكر عِلْمه بها، وسيَّره على البريد؛ فأتى ابن الأهتم سليمان فقال له: إن يزيد كتب إليّ يذكر عِلْمَك بالعراق، فكيف عِلْمُك بخراسان؟ قال: أنا أعلمُ الناس بها، وُلِدْت بها ونشأْت، ولي بها وبأهلها خبرٌ. قال: فأشِرْ علي برجُلٍ أُولِّيه خراسان. قال: أمِيرُ المؤمنين أعلم بمنْ يريد، فإنْ ذَكَر منهم أحدًا أخبرته بـرأْيي فيه، فسمَّى رجُلاً من قريش، فقال: ليس مِنْ رجالِ خراسان. قال: فعبْد الملك بن المهلب. فقال: لا يصح، فإنه يضيق عن هذا، وليس له مَكْر أبيه ولا شجاعته، حتى ذَكَر رجالاً، وكان آخر مَنْ ذكر وَكِيع بن أبي سُود، فقال: يا أمير المؤمنين، وكيع رجُلٌ شجاع صارم رئيس مِقْدام، وما أحد أوْجب شكرًا ولا أعظمَ عندي يَدًا مِنْ وكيع، لقد أدرك بثأْري وشَفَاني من عَدُوِّي، ولكنَّ أمير المؤمنين أعظم حقًّا، والنصيحةُ له تلزمني، إنَّ وكيعًا لَمْ يجْتَمِعْ له مائة عِنان قطّ إلا حدَّث نفسه بغَدْرة، خامل في الجماعة، نابِه في الفتنة.

قال: فَمنْ لها ويْحك! قال: رجُلٌ أعْلَمه لم يُسَمِّه أمِيرُ المؤمنين. قال: فَمَنْ هو؟ قال: لا أذكره حتى يَضْمَنَ لي أمير المؤمنين ستْر ذلك، وأن يُجِيرني منه إنْ علم. قال: نعم، قال: يزيد بن المهلب. قال: العراقُ أحبُّ إليه من خراسان؟ قال: قد علمْت يا أمير المؤمنين، ولكن تُكْرِهُه فيستَخْلِفُ على العراق رجلاً ويسير هو إلى خرَاسان. قال: أصبْتَ الرأْي.

فكتب عهْدَ يزيد على خراسان، وسيَّره مع ابن الأهتم، فأتى يزيد، فأمر بالجهاز للمسير مِنْ ساعته، وقدم ابْنه مخلدًا إلى خراسان مِنْ يومه؛ ثم سار يزيد بَعْدَه، واستخلف على واسط الجرّاح بن عَبْد الله الحكمي، وعلى البصرة عبْد الله بن هلال الكلابي، وجعل أخاه مَرْوان بن المهلب على حَوائِجه وأُمورِه بالبصرة، واستخلف على الكوفة حَرْمَلة بن عمير اللخمي أشهرًا، ثم عزله، وولى بشير بن حيان النَّهْدي، وكانت قيس تَزْعُم أن قتَيْبة لم يُخْلَع، فأمر سليمان يزيدًا أنْ يسأل عن ذلك. فإن أقامت قَيْس البيِّنةَ أنَّ قتيبة لم يُخْلَع فنقيد وَكيعًا به، فلما وصل مخلد بن يزيد مَرْو أخَذَهُ وكِيع فحبسه وعذَّبه، وعذَّب أصحابه قَبْلَ قدومِ أبيه، فكانت ولاية وكيع خرَاسان تسعة أشهر أو عشرة أشهر، ثم قدم يزيد خرَاسانَ فآذى أهْلَ الشام وقومًا من أهل خراسان، فقال نَهار[١] ابن تَوسِعة رحمه الله: [من الوافر]

---

(١) هو نهار بن توسعة بن أبي عتبان من بكر بن وائل من بني حنتم، وكان أشعر بكر بن وائل بخراسان. هجا قتيبة بن مسلم، فطلبه فهرب وأتى أم قتيبة فأخذ منها كتابًا إليه في الرضى عنه، وترك مؤاخذته بما كان منه. . . (طبقات الشعراء).

وما كـنَّـا نـؤَمِّـل مِـنْ أمـيـرٍ كـمـا كـنَّـا نـؤَمِّـل مِـنْ يـزيـدِ
فـأخْـطَـأ ظـنُّـنـا فـيـهِ وقِـدْمًـا زَهِـدْنـا فـي مُـعَـاشَـرةِ الـزَّهِـيـدِ
إذا لـم يُـعْـطِـنَـا نَـصَـفًـا أمـيـرٌ مَـشَـيْـنَـا نـحـوه مـشْـي الأُسُـودِ
فـمـهْـلاً يـا يـزيـد أنِـبْ إلـيـنـا ودَعْـنَـا مِـنْ مُـعَـاشَـرَةِ الـعَـبِـيـدِ
نـجـيءُ ولا نَـرى إلاَّ صُـدُودًا عـلـى أنَّـا نـسـلِّـمُ مِـنْ بَـعِـيـدِ
ونَـرجـع خـائِـبِـيْـنَ بـلا نَـوَالٍ فـمـا بـال الـتـجَـهُّـم والـصُّـدُود

* * *

وفي هذه السنة جَهَّزَ سليمان الجيوشَ إلى القسطنطينية، واستعمل ابْنَه داود على الصائِفَة، فافتتح حصن المرأة[١].

وفيها غَزَا مسلمة أرض الوَضّاحية، وفتح الحِصْنَ الذي فتحه الوضّاح.

وغزا عُمر بن هُبيرة الروم في البحر فشَتَا بها. وحجّ سليمان بن عبْد الملك بالناس.

وفيها عُزِل داود بن طلحة الحَضْرمي عن مكة، فكان عمله عليها ستة أشهر، ووَلِي عبْد العزيز بن عبْد الله بن خالد.

سنة ثمان وتسعين:

ذكر محاصرة القسطنطينية

في هذه السنة بعث سُليمان الجيوشَ إلى القسطنطينية مع أخيه مَسْلَمة بعد أنْ سَار سليمان إلى دَابِقَ[٢]، وكان ملك الروم قد مات، فجاء ألْيُون من أذربيجان إلى سليمان، وأخبره بوفاته، وضمن له فَتْحَ الروم، فبعث معه مسلمة، فسار هو وأليون، فلما دنَا من أرْضِ الروم أمر كلَّ فارس أن يحمل معه مُدَّينِ من طَعام، فلما أتاها أمر بإلقاءِ ذلك، فصار مِثْل الجبال، وقال مسلمة لمنْ معه: لا تأكلوا منه شيئًا وأغيرُوا في أرضهم وازرعوا، وعمل بيوتًا من خشَب فشتا فيها وصاف وزَرَع الناسُ، فلما كَثر عندهم الطعام أقام مسلمة قاهرًا للروم معه أعيان الناس، فأرسل الرومُ إلى مسْلَمة

---

(١) المرأة: قرية بني امرىء القيس بن زيد مناة بن تميم باليمامة. بينها وبين ذات غسل مرحلة على طريق النباج.

(٢) دابق: مدينة في أقاصي فارس.

يُعْطونه عن كل رأسٍ دينارًا فلم يقبل، فقالت الروم لأليون: إن صرفْتَ عنا المسلمين مَلَّكْنَاك، فاستوْثَقَ منهم، وأتى مسلمة فقال له: إنَّ الروم قد علموا أنك لا تَصْدُقهم القتالَ، وأنك تطاوِلهم ما دام الطعام عندك، فلو أحرقْتَهُ أعطوا ما بأيديهم، فأمر مسلمة بالطعام فحرق، فقوى الروم وضاق المسلمون حتى كادُوا يهلكون، ودامُوا على ذلك حتى مات سليمان.

وقيل: إن أليون إنما خَدَع مسلمة بأنْ سأله أنْ يُدخل من الطعام إلى الروم ما يعيشون به ليلة واحدة، ليُصَدِّقوا أنَّ أمْره وأمْر مسلمة واحد، وأنهم في أمان من السَّبْيِ والخروج من بلادهم، فأذن له في ذلك. وكان أليون قد أعدّ السُّفنَ والرجال فنقَلوا تلك الليلة الطعام كلَّه، وأصبح أليون محاربًا، ولقي الجند ما لم يلقه أحد، حتى أن كان الرجل ليَخَافُ أن يخرج من العسكَر وحْده، وأكلوا الدواب والجلود وأُصول الشجر والورَق، وسُلَيمانُ مقيم بدابِقَ ووقع الشتاء فلم يقدر أنْ يمدَّهم حتى مات.

وفي هذه السنة بايع سُلَيْمان لابْنِه أيوب بولاية العهد.

وفيها فتحت مدينة الصقالبة.

وفيها غزا الوليد بن هشام وعَمْرو بن قيس، فأُصيب ناسٌ من أهل أنطاكية، وأصاب الوليدُ ناسًا من ضواحي الرُّوم، وأسر بشرًا كثيرًا.

ذكر فتح قهستان وجرجان وطبرستان

في هذه السنة غزا يزيدُ بن المهلَّب جُرجان وطبرِسْتان.

وكان سبب اهتمامِهِ بها أنَّ يَزيد لما كان عند سليمان بالشام في حياة الوليد، فكان كلما فتح قتَيْبة فَتْحًا يقول سُليمان ليزيد: ألا ترى إلى ما يفْتَحُ الله على قتَيْبة! فيقول يزيد: ما فعلَتْ جُرجان التي قطعتِ الطريقَ، وأفسدت قومِس ونَيْسابور، ويقول: هذه الفتوح ليست بشيءٍ، الشأن في جرجان.

وكان سعيد بن العاص قد صالح أهْلَ جُرْجَان، فكان يَجبُون أحيانًا مائة ألف، وأحيانًا مائتي ألف، وأحيانًا ثلاثمائة ألف، وربما منعوا ذلك، ثم أظهروا الامتناع وكفروا فلم يُعْطوا خراجًا، ولم يأْت جُرْجان بعْد سعيد أحد، وقد منعوا ذلك الطريق فلم يكنْ يسلك أحدٌ طريقَ خراسان إلا على فارس وكِرْمان.

فلما ولي سليمان يزيد خراسان لم يكن له هِمَّةٌ غير جُرْجان، فسار إليها في مائةِ ألفٍ سوى الموالي والمتطوعة، ولم تكن جرجان يومئذ مدينة، إنما هي جِبال ومخارم وأبواب يقومُ الرجلُ على بابٍ منها فلا يقْدر عليه أحدٌ، فابتدأ بقهِسْتان فحاصرها، وكان أهلها طائفة من الترك، فقاتلهم قتالاً شديدًا، واشتدت الحَرْبُ، وقطع عنهم الميرة[(١)]، فبعث دهْقَانها، واسمه صَوْل يطلبُ مِنْ يزِيد الأمانَ لنفسه وأهله وماله، ويُسلِّمُ إليه المدينةَ بما فيها، فأمَّنَهُ ووفى له، ودخل المدينةَ فقَتَلَ بها أربعة عشر ألف تركي صَبْرًا، وأخذ ما فيها من الكنوز والسَّبي وغير ذلك، ثم خرج حتى أتى جُرجَان فهابَه أهْلها، وأتوه وصالحوه، فأجابهم إلى ذلك، وصالحهم، فطمع في طَبَرِسْتَان، فسار إليها فصالحه اصبهذها على سبعمائة ألف، وقيل خمسمائة ألف وأربعمائة وقْر[(٢)] زَعْفَران، أو قيمته من العَيْن، وأربعمائة رجل على كل رجل منهم ترى وطَيْلَسان، ومع كل رجل جَامٌ من فِضّة وسَرْقة[(٣)] حرير وكسوة، فأرسل من يَقْبضُ ذلك وانصرف إلى جُرْجَان. والله أعلم.

ذكر فتح جرجان[(٤)] الفتح الثاني وإنشاء مدينتها

قال: ولما سار يزيدُ إلى طَبرِسْتان غَدر أهْلُ جُرْجَان، فعاد إليهم وعاهد الله إنْ ظَفر بهم لا يرفع عنهم السيف حتى يطحن بدمائهم ويأكل من ذلك الطحين، فحصرهم سبعةَ أشهر وهم يخرجون إليه يقاتِلونه ويرجعون، فبينما هم على ذلك إذ خرج رجلٌ من عَجَمِ خراسان يتصيَّدُ، وقيل من طيِّىء، فأبصر وعْلاً في الجبَل فتبِعه فلم يشعُر حتى هجم على عسْكرِهم، فرجع يُرِيدُ أصحابه، وجعل يُخَرِّقُ قَبَاءَه ويعْقِدُ على الشجر علاماتٍ، فأتى يزيد فأخبره فضمن له يزيدُ دِيةً إنْ دَلَّهُمْ على الحِصْن؛ فانتخب معه ثلاثمائة رجل، واستعمل عليهم ابْنَهُ خالدًا، وقال له: إن غلِبت على الحياة فلا تغلَبنَّ على الموت، وإياك أنْ أراكَ عندي مهزومًا، وضمّ إليه جَهْم بن زَحْر، وقال للرجل: متى تصل؟ قال: غدًا العصر. قال يزيد: سأجهد على مناصحتهم عند الظهر.

---

(١) الميرة: الطعام يجمع للسفر ونحوه. (٢) الوقر: الحمل الثقيل.

(٣) السّرق: شقق الحرير، أو أجوده، الواحدة: سرقة.

(٤) جرجان: بالضم وآخره نون: مدينة مشهورة عظيمة بين طبرستان وخراسان... هي أكبر مدينة بنواحيها، وهي أقل ندى ومطرًا من طبرستان وأهلها أحسن وقارًا وأكثر مروءة ويسارًا... (معجم البلدان).

فساروا، فلما كان الغد وقت الظهر أحرق يزيد كلَّ حَطَبٍ كان عندهم، فصار مثل الجبال مِنَ النيران، فنظر العدوّ إلى النار، فهالهُمْ ذلك، فخرجوا إليهم؛ وتقدّم يزيدُ إليهم، ودهمهم ابْنه بمن معه قُبَيْل العصر وهم آمِنون من ذلك الوجْه، ويزِيدُ يقاتلهم مِنْ هذا الوجْهِ، فما شعروا إلا والتكبير مِنْ ورائهم، فانقطعوا جميعًا إلى حِصْنِهم، وركبهم المسلمون؛ فأعطَوْا بأيديهم، ونَزَلوا على حُكْمِ يزيد، فسبى ذراريهم، وقَتَل مقاتلتهم، وصلبهم فرسخَيْن عن يمين الطريق ويسارِهِ، وقاد منهم اثني عشر ألفًا إلى وادِي جُرْجان فقتلهم، وأجْرى الماءَ على الدم، وعليه أرحاء، ليطحن بدمائهم ليبَرَّ يمينه، فطَحن وخَبز وأكلَ.

وقيل: قتل منهم أربعين ألفًا، وبنى مدينةَ جُرْجان، ولم تكن بُنِيتْ قَبْل ذلك مدينة، ورجع إلى خراسان، واستعمل على جرجان جهْم بن زَحْر الجعفي، وكتب إلى سليمان بالفَتْح وعَظَّمه عنده، وأخبره أنه قد حصل عنده من الخُمْس ستمائة ألف ألف، فقال له كاتِبُهُ ـ المغيرة بن أبي قرَّة مولى بني تميم: لا تكتبْ بتسميةِ المالِ، فإنك من ذلك بين أمرين: إما اسْتَكْثَرَهُ فأمرَك بحَمْلِه، وإما سَخَت به نَفْسُه فأعطاكَه فتكلفْتَ الهديةَ؛ فلا يأْتيه من قِبَلك شيء إلاَّ استقلَّه، فكأني بك قد استَغْرقْتَ ما سمَّيْت ولم يقع منه موقعًا، ويبقى المالُ الذي سميتَ مُخَلَّدًا في دَوَاوينهم، فإن ولي وال بعده أخذك به، وإن ولي مَنْ يتحاملُ عليك لم يرْضَ بأضْعافه، ولكن اكتب سلْه القدوم وشَافِهْهُ بما أصبْتَ فهو أسْلَم.

فلم يقبلْ منه، وكتب، فكان من أمره في ذلك ما نذكره في أخبَار عمر بن عبد العزيز.

وقيل: كان المبلغ أربعةَ آلاف ألف، والله تعالى أعلم.

* * *

وفيها توفي أيّوب بن سُلَيْمان بن عبد الملك، وهو وليّ العهد.

وفيها غَزَا داوُد بن سُليمان أرْضَ الروم؛ ففتح حِصْنَ المرأة مما يلي ملَطْية.

وفيها كانت الزلازل في الدنيا كثيرةً، ودامت ستة أشهر.

وحجَّ بالناس عبد العزيز بن عبد الله أمير مكة.

سنة تسع وتسعين:

ذكر وفاة سليمان بن عبد الملك وشيءٍ من أخباره وعماله

كانت وفاتُه يوم الجمعة لعَشْرٍ مضين من صفر من السنة بدَابِقَ من أرض قِنَّسْرِين بذات الجنْب، وله خمس وأربعون سنة. وكانت مدةُ خلافته سنتين وثمانية أشهر إلا خمسة أيام، وصلَّى عليه عُمَر بن عبد العزيز؛ وكان طويلاً أبيضَ، جَمِيلَ الوَجْه، فصِيحَ اللسان، مُعْجبًا بنفسه، يتوقَّى سَفْكَ الدماء. وكان أكُولاً نكاحًا، وكان حَسَن السيرة، وكان الناسُ يقولون: سليمانُ مفتاحُ الخير؛ ذهب عنهم الحجاج، وولي سليمان، فأطلق الأسارى، وأخلى السجون، وأحسن إلى الناس، واستخلف عُمَر بن عبد العزيز. ويقال: إنه فعل في يومٍ واحد أكثر مما فعل عُمَرُ بن عبد العزيز جميع عُمْرِه، وذلك أنه أعتق سبعين ألف مملوك ومملوكة، وكساهم.

ومن أعظم بركاته أنه جعل عُمر بن عبد العزيزَ وليّ عهده. وحكى أنه لبس يومًا حُلَّةً خضراء وعمامةً خضراء، ونظر في المرآة، فقال: أنا الملك الفتى، فما عاش جمعة.

وقيل: كانت له جاريةٌ معها مِرْآة، فدعاها يومًا فجاءته بها، فنظر وجهه، ونظرت الجارية إليه، فقال لها: ما تَنْظرِين؟ قالت: [من الخفيف]

أنْتَ نِعْمَ المتَاعُ لو كنْتَ تَبْقَى ... غيرَ أنْ لا بَقَاءَ للإنسانِ

ليس فيما بدا لنا منك عيْبٌ ... عابَه الناسُ غيْرَ أنّك فانِي

وانصرفت، فاستدعاها فجاءت بالمرآة فسألها عن البيتين، فقالت: والله ما جئتك اليوم؛ فعلم أنه نُعي.

وقيل: إنه شهد جنازةً بدَابقَ فدُفنت في حَقْلٍ، فجعل سليمان يأْخذ من تلك التُّرْبة، ويقول: ما أحسن هذه وأطيبها! فما أتى عليه جمعة حتى دُفِنَ إلى جَنْب ذلك القَبْر.

وقيل: إنه كان له من الأولاد الذكور أربعة عشر.

وكان نقشُ خاتمه: آمنْت بالله مُخْلصًا.

وكتَّابه: يزيد بن المهلب، ثم المفضل بن المهلب عم عبد العزيز بن الحارث بن الحكم.

قاضيه: محمد بن حزم.

حاجبه: أبو عبيدة مولاه.

الأمير بمصر: عبد الله بن رفاعة.

قاضيها من قِبله: عبْد الله بن عبد الرحمٰن، وهو متولِّي بيت المال، ثم رد القضاء إلى عِياض بن عبد الله من قبل سليمان بن عبد الملك.

ذكر بيعة عمر بن عبد العزيز

هو أبو حَفْص عُمر بن عبد العزيز بن مَرْوان بن الحكم؛ وأُمُّه أُم عاصم بنت عاصم بن عُمَر بن الخطاب رضي الله عنه، وهو الثامنُ من ملوك بني أُمية، بويع له بدابِقَ يوم الجمعة بَعْدَ وفاةِ سليمان لعَشْرٍ خَلَوْنَ من صفر سنة تسع وتسعين.

قال: وكان سليمان لما مرض بِدَابِقَ عهد في كتابٍ كتبه لبعض بنيه وهو غلامٌ لم يبلغ الحُلم، فدخل عليه رَجاء بن حيْوَة، فقال له: يا أمير المؤمنين؛ إنه مما يحفظ الخليفة في قَبْره أن يستخلفَ على الناس الرجلَ الصالح. فقال سليمان: أنا أسْتَخِير الله، وأنظر. ومكث يومًا أو يومين ثم حرق الكتاب، ودعا رَجاء، فقال: ما ترى في ولَدِي داود؟ فقال رجاء: هو غائب بالقسطنطينية، ولم يُدْرَ أحيّ هو أم لا؟ قال: فما ترى في عُمر بن عبد العزيز؟ قال رجاء: أعْلَمُهُ واللّهِ خَيِّرًا فاضِلاً مسلمًا. قال سليمان: هو على ذلك، ولئن ولَّيْتُه ولم أُولِّ أحدًا سواه لتكوننَّ فِتْنَةٌ ولا يتركونه أبدًا عليهم إلا أن أجعل أحدَهم بعده.

فأمر سليمان أن يُجْعَل يزيد بن عبد الملك بَعْد عُمَر. وكان يزيد غائبًا في الموسم.

فكتب سليمان: بسم الله الرحمٰن الرحيم، هذا كتابٌ من عبْد الله سليمان أمير المؤمنين لعمر بن عبد العزيز؛ إني قد ولَّيْتك الخلافةَ من بعدي، ومِنْ بعدك يزيد بن عبد الملك؛ فاسمعوا له وأطيعوا، واتَّقوا الله، ولا تختلفوا، فيطمع فيكم.

وختم الكتاب وأرسل إلى كعب بن جابر صاحب شرطته، فقال: ادْعُ أهْل بيتي، فجمعهم كعب، ثم قال سليمان لرجاء بعد اجتماعهم: اذهبْ بكتابي هذا إليهم، ومُرْهم أن يُبايعوا مَنْ ولَّيْت فيه، ففعل، وبايعوا رجلاً رجلاً، ولم يعلموا مَنْ في الكتاب.

قال رجاء: فأتاني عُمَرُ بن عبد العزيز فقال: أخشى أن يكونَ هذا أَسْنَد إليّ مِنْ هذا الأمر شيئًا؛ فأنشدك الله إلاَّ أعلَمْتني إنْ كان قد وقع حتى أستعفي قَبْلَ أنْ يأتي حالٌ لا أقدِرُ على ذلك فيها. قال رَجَاء: فقلت: ما أنا مخبرك. فذهب عَنّي غَضْبان.

ولقيني هشامُ بن عبد الملك فقال: إن لي حرمةً ومودّةً قديمة فأعلمني بهذا الأمر؛ فإن كان إلى غيري تكلَّمْت، ولله عليّ ألاَّ أذكرك. قال: فأبيت أن أُخبره. قال: ودخلْت على سليمان عند موته فغمضته وسجَّيْته، وأغلقْت الباب، وأرسلت إلى كَعْب بن جابر، فجمع أهلَ بيتِ سليمان في مسجد دابِقَ، فقلت: بايِعُوا! فقالوا: قد بايعْنَا مرةً. قلت: وأُخرى، هذا عهْدٌ من أمير المؤمنين، فبايِعُوا الثانية. قال رجاء: فلما بايعُوا بعْد موتِه رأيْت أني قد أحكمْت الأمْر فقلت: قومُوا إلى صاحبِكم فقد مات، فاستَرْجَعوا، وقرأْت الكتابَ، فلما انتهيت إلى ذِكْر عمر بن عبد العزيز قال هشام: لا نبايعه واللّهِ أبدًا. قلت: أضْرِب والله عُنقك. قم وبايع. فقام يجرُّ رجليه.

قال رجاء: وأجلسْت عمر على المنبر وهو يسترجع لما وقع فيه، وهشام يسترجع لما أخطأه، فبايعوه.

قال: ولما دُفِن سليمان أُتي عُمر بمراكب الخلافة، فقال: دابَّتي أرفق لي، وركب دابَّته؛ ثم أقبل سائرًا، فقيل له: منازل الخلافة؟ فقال: فيها عِيَالُ سليمان، وفي فسْطَاطي كفاية حتى يتحوّلوا.

قال: وبلغ عبْدَ العزيز بن الوليد ـ وكان غائبًا ـ وفاةُ سليمان ولم يشعر بعُمَر، فدعا لنفسه، فبلغه بيْعَة عُمر، فأقبل حتى دخل عليه، فقال له عمر: بلغني أنك بايَعْتَ مَنْ قِبَلَك، وأردْتَ دخول دمشق. قال: نعم، وذلك أنه بلغني أنَّ سليمان ما عقد لأحد فخفْتُ على الأموال أن تنْتَهب. فقال له عمر: لو بايعْتَ وقمتَ بالأمر لم أُنازِعكَ فيه. فبايعه عَبْدُ العزيز.

قال: ولما استقرت البيعة لعُمر قال لامرأته فاطمة بنتِ عبد الملك: إن أردتني فرُدِّي ما معك من مالٍ وحليّ وجَوْهَر إلى بيتِ المالِ، فإنه للمسلمين، وإني لا أجتمع أنا وأنت وهو في بيتٍ واحد، فردَّته جميعه. فلما توفي عمر ووُلِّي أخوها يزيد ردّه عليها فلم تأخذه، وقالت: ما كنْت لأُطِيعه حَيًّا وأعصيه ميّتًا، ففرّقه يزيد على أهله.

قال: وكان من أول ما ابتدأ به عُمر بن عبد العزيز أنْ ترك سبَّ عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه على المنابر، وكان يُسَبُّ في أيام بني أُمية إلى أنْ ولي عُمر فترك ذلك، وأبْدله قول الله عز وجل: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [النحل: ٩٠].

فحلّ ذلك عند الناس مَحَلاً حسنًا، وأكثروا مدْح عُمر بسببه، فكان ممن مدحه كثَيِّر عَزَّة[١] بقوله: [من الطويل]

وَلِيت فلم تَشْتم عليًا ولم تخِفْ … بَرِيًّا ولم تتبعْ مقالةَ مُجْرِم
تكلَّمت بالحقّ المبين وإنّما … تَبَيَّن آياتُ الهُدَى بالتكلم
فصدّقت معروف الذي قلْت بالذي … فَعَلْتَ فأضحى راضيًا كلُّ مُسْلم
ألا إن يكفي الفَتَى بعد زَيْغِه … من الأوَد البادِي ثِقَافُ المقوّم[٢]

وفيها وجَّه عمر بن عبد العزيز إلى مسلمة وهو بأرْضِ الروم يأمُرُهُ بالقفول منها بمَنْ معه من المسلمين، ووجَّه لهم خَيْلاً عِتَاقًا وطعامًا كثيرًا.

وفيها أغارت الترك على أذْرَبِيجان. فقتلوا من المسلمين جماعة، فوجّه عمر حاتم بن النعمان الباهلي فقَتَلَ أُولئك الترك، ولم يُفْلِتْ منهم إلا اليسير، وقدم على عمر منهم بخمسين أسيرًا.

وفيها عزَل عمر يزيدَ بن المهلَّب عن أعماله، ووجَّه إلى البصرة عدي بن أرْطَاة الفَزَاري، وجعل على الكوفة عَبْدَ الحميد بن عبد الرحمٰن بن زيد بن الخطاب العدَوِي، وضمَّ إليه أبا الزِّنَاد، واستعمل على خُراسان الجراح بن عَبْدِ الله الحكَمِي.

وحجّ بالناس أبو بكر بن محمد بن عمْرو بن حزْم، وكان عاملَ المدينة، وكان العامل على مكة عبد العزيز بن عبد الله بن خالد، وعلى الكوفة عبد الحميد، وعلى القضاء بها عامر الشعبي[٣]، وكان على البصرة عديّ من أرطاة، وعلى القضاء الحسن بن أبي الحَسَن البصْري، ثم استعفى عدِيًا فأعفاه، واستقضى إياس بن معاوية.

سنة مائة للهجرة:

ذكر خروج شوذب الخارجيّ

في هذه السنة خرج شَوْذَب واسمه بِسْطَام من بني يشْكر في جُوْخَى[٤] وكان في

(١) هو كثير بن عبد الرحمٰن بن أبي جمعة من خزاعة، وكان رافضيًا، وكان أحد عشاق العرب المشهورين بذلك وصاحبته عزة وإليها ينسب، وهي من ضمرة. . . (طبقات الشعراء).
(٢) الأود: الاعجاج؛ والثقاف: أداة من خشب أو حديد تثقف بها الرماح لتستوي وتعتدل.
(٣) الشعبي: هو أبو عمرو عامر بن شراحيل بن عبد بن ذي كبار، الشعبي، وهو من حمير وعداده في همدان؛ وهو كوفي تابعي جليل القدر وافر العلم. . . (الوفيات ٣: ١٢).
(٤) جوخى: اسم نهر عليه كورة واسعة في سواد بغداد بالجانب الشرقي منه الراذانان، وهو بين خانقين وخوزستان. . . (معجم البلدان).

ثمانين رجلاً، فكتب عُمَرُ بن عبد العزيز إلى عبد الحميد عامله بالكوفة ألاَّ يحرِّكهم حتى يسفِكوا الدِّمَاءَ أو يُفْسِدُوا في الأرض، فإنْ فعلوا وجّه إليهم رجُلاً صليبًا حازمًا في جُنْدٍ.

فبعث عبد الحميد محمد بن جرير بن عَبْد الله البجلي في ألفين، وأمره أن يفعل ما كتب به عمر، وكتب عمر إلى بسطام يسأل عن مخرجه، فقدم كتاب عمر عليه، وقد قدم عليه محمد، فكان في كتابِ عمر: بلغني أنك خرجْتَ غَضَبًا للّهِ ولرسولِه، ولستَ بذلك أوْلَى مني، فهلم إليّ أُناظرك، فإن كان الحقُّ بأيدينا دخلْتَ فيما دخل فيه الناسُ، وإن كان في يدكِ نظرْنَا في أمرك.

فكتب إليه بِسْطام: قد أنصفت، وقد بعثْتُ إليك برجُلَيْن يُدارسانك ويناظرَانك. وأرسل إليه موْلًى حبشيًّا لبني شيبان اسْمُهُ عاصم، ورجُلاً من بني يشْكر، فَقَدِما على عمر بخنَاصرة[1]، فقال لهما: ما أخْرجكما هذا المخرج؟ وما الذي نقمتم؟ قال عاصم: ما نقمنا سِيرتَك، إنك للتحرَّى العدْل والإحْسانَ، فَأخْبِرْنَا عن قيامك بهذا الأمر؛ عن رضًا من الناس ومشورة، أم ابتززتم أمرهم؟ فقال عمر: ما سألْتهم الولايةَ عليهم، ولا غلبْتهم عليها، وعهد إليَّ رَجُلٌ كان قبلي، فقمْت، ولم يُنْكِر عليّ أحد، ولم يكرهه غيركم، وأنتم تَرَوْنَ الرِّضا بكل منْ عَدل وأنصف مَنْ كان مِنَ الناس، فأنْزلوني ذلك الرجل، فإن خالفْت الحقَّ وزغْت عنه فلا طاعةَ لي عليكم. قالاَ: بيننا وبينك أمْرٌ واحِدٌ. قال: ما هو؟ قالا: رأيناك خالَفْتَ أعمال أهلِ بيتِك وسمَّيْتَها مَظَالم، فإن كنْتَ على هدى وهم على ضلالة فالْعَنْهم وابرأْ منهم. فقال عمر: قد علمت أنكم لم تخرجوا طلبًا للدنيا، ولكنكم أردْتم الآخرةَ فأخطأْتُم طريقَها، إنَّ الله عزَّ وجل لم يبعث رسولَه لَعانًا. قال إبراهيم الخليل صلوات الله عليه وسلامه: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦]. وقال الله عزّ وجل: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾ [الأنعام: ٩٠]. وقد سميْت أعمالَهم ظلْمًا، وكفى بذلك ذمًّا ونقْصًا، وليس لَعْن أهل الذنوبِ فريضةً لا بدّ منها، فإن قلْتم إنها فريضةٌ فأخْبِرْني متى لعنْتَ فرعون؟ قال: ما أذكر متى لعنْته. قال: أفَيَسعُك ألاَّ تلعن فرعون وهو أخْبَث الخلق وشَرُّهُمْ، ولا يسعني ألاَّ ألْعنَ أهْلَ بيتي وهم مُصلّون صائمون؟

(١) خناصرة: بليدة من أعمال حلب تحاذي قنسرين نحو البادية، وهي قصبة كورة الأحص... قيل: بناها الخناصر بن عمرو خليفة الأشرم صاحب الفيل... (معجم البلدان).

قال عاصم: أَمَا هُمْ كفَّار بظلْمهم؟ قالَ: لا، لأنَّ رسول الله ﷺ دعا الناس إلى الإيمان، فكان من أقرّ به وبشرائعه قبل منه، فإن أحدث حدثًا أقيم عليه الحد. فقال عاصم: إن رسول الله دعا الناس إلى توحيد الله تعالى والإقرار بما أنزل مِنْ عِنده.

قال عمر: فليس أحدٌ منهم يقول: لا أعمل بسنة رسول الله ﷺ، ولكن القَوْم أسرفو على أنفسهم على عِلمهم أنه محرَّمٌ عليهم، ولكن غلب عليهم الشَّقاءُ.

قال عاصم: فابرأ مما خالف عملَكَ ورُدَّ أحكامهم.

قال عمر: أخبراني عن أبي بكْرٍ وعمر رضي الله عنهما، أليسا على الحق؟ قالا: بلى. قال: أتعلمان أنَّ أبا بكْر حين قاتل أهْل الرِّدَّةِ سفك دماءَهم، وسبى الذَّرارِي، وأخذ الأَمْوالَ؟ قالا: نعم. قال: أفتعلمان أن عُمر رضي الله عنه ردّ السبايا بعْده إلى عشائرهم بفِدْية؟ قالا: نعم. قال: فهل بريء عمر من أبِي بكر؟ قالا: لا. قال: أفتبرؤُون أنتم منْ واحد منهما؟ قالا: لا. فأخْبِراني عن أهلِ النَّهْروان وهم أسلافكم، هل تعلمان أنَّ أهْل الكوفة خرجوا فلم يسفِكوا دمًا، ولم يأْخذوا مالاً، وأن منْ خرج إليهم من أهل البصْرةِ قتلوا عبْد الله بن خَبَّاب وجاريتَه وهي حامل؟ قالا: نعم. قال: فهل بريء مَنْ لم يقتل ممَّنْ قَتَل؟ قالا: لا. قال: أفتبرؤُون أنتم من إحدى الطائفتين؟ قالا: لا. قال: أفيَسعُكم أن تتولَّوا أبا بكْر وعمر وأهل الكوفة وأهل البصرة وقد علمتم اختلاف أعمالهم، ولا يسعني إلا البراءة من أهل بيتي، والدِّين واحد؟ فاتقوا الله، فإنكم جُهَّال تقبلون من الناس ما ردَّ عليهم رسولُ الله ﷺ، وتردّون عليهم ما قَبل، ويأْمن عندكم من خاف عنده، ويخافُ عندكم مَنْ أمِنَ عنده، فإنكم يخَافُ عندكم مَنْ يشهد أن لا إله إلا الله وأنَّ محمَّدًا عبْدُه ورسوله، وكان منْ فَعْل ذلك عند رسولِ اللّهِ ﷺ أمِن وحقَن دَمه وماله، وأنتم تقتلونه ويأْمن عندكم سائر أهل الأديانِ، فتحرِّمون دماءهم وأموالَهم.

قال اليشكري: أرأيْتَ رجلاً وَلي قومًا وأموالَهم فعدل فيها ثم صيّرها بَعْده إلى رجلٍ غير مأْمون، أتراه أدَّى الحقَّ الذي يلزمُه لله عزَّ وجل، وتراه قد سلم؟ قال عُمر: لا. قال: أفَتُسْلم هذا الأمرَ إلى يزيد مِنْ بعدك وأنت تعْلَم أنه لا يقوم فيه بالحقِّ. قال: إنما ولاَّه غيري، والمسلمون أوْلَى بما يكون منهم فيه بَعْدِي. قال: أفترى ذلك من صُنع منْ ولاَّهُ حقًّا؟ فبكى عمر، وقال: أنْظِراني ثلاثًا.

فخرجا مِنْ عِنْده ثم عادا إليه، فقال عاصم: أشهد أنكَ على حق. فقال عمر لليشكري: ما تقول أنت؟ قال: ما أحسنَ ما وصَفت، ولكني لا أفْتَات على المسلمين بأمرٍ، أعرض عليهم ما قلت وأعلم ما حجَّتهم. فأما عاصم فأقام عند عُمَر، فأمر له

بالعطاء فتوفي بعد خمسة عشر يومًا، فكان عمر يقول: أهلكني أمْرُ يزيد، وخُصمت فيه، فأستغفر الله. فخاف بنو أُمية أن يخرج ما بأيديهم وأن يُخلع يزيد مِن ولاية العهد؛ فوضعوا على عمر منْ سقاه سُمًّا. فلم يلبثْ بعد ذلك إلاّ ثلاثًا حتى مرض ومات، رحمه الله تعالى.

هذا ومحمد بن جرِير مقابل الخوارج لا يتعرض إليهم ولا يتعرَّضون إليه، فلما مات عمر وَوُلّي يزيد كان ما نذكره في أخبار يزيد.

* * *

وفي هذه السنة عزل عُمَرُ يزيد بن المهلب عن خرَاسان وأحضره وطالبه بالمال الذي كان كتب به إلى سليمان واعتقله بحِصْن حلَب، واستعمل على خراسان الجرّاح بن عبَدْ الله الحَكَمِي، ثم عزله؛ واستعمل عَبْد الرحمٰن بن نعيم القشَيْري.

وفيها كان ابتداءُ خروج شيعة بني العباس على ما نذكره في أخبار الدولة العباسية إن شاء الله تعالى.

وفيها أمر عُمرُ بن عبد العزيز أهل طَرَنْدة[1] بالقفول عنها إلى مَلَطْيَة، وطرنْدَة أوغَلُ في البلاد الرُّومية بثلاث مراحل، وكان عَبْدُ الله بن عبد الملك قد أسكنها المسلمين بعد أن غَزاها سنة ثلاث وثمانين ومَلَطْيَة يومئذ خراب، وكان يأْتيهم جند من الجزيرة يقيمون عندهم إلى أنْ ينزل الثَّلج ويعودون إلى بلادِهم، فلم يزالوا كذلك إلى أنْ ولي عمر، فأمرهم بالعوْد إلى ملَطْيَة وأخلى طُرَنْدَة خوفًا على المسلمين من العدوّ، وأخرب طُرَنْدَة، واستعمل على ملَطْية جعْوَنة بن الحارث أحدَ بني عامر بن صعْصعة.

وفيها كتب عُمر إلى ملوك السند يدْعُوهم إلى الإسلام، فأسلم منْ ذكرنا منهم على ما سبق ذكر ذلك.

وفيها استعمل عُمر بن عبد العزيز عُمَر بن هُبيرة الفَزَاري على الجزيرة.

وفيها مات أبو الطُّفَيْل عامر بنَ واثِلة الليثي[2] بمكة، وهو آخرُ من مات من الصحابة، ومولده عام أُحُد.

وحجّ بالناس أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حَزْم.

---

(١) طرندة: هي من ملطية على ثلاث مراحل داخلة في بلاد الروم، وملطية يومئذ خراب، ثم نقل عمر بن عبد العزيز أهل طرندة إلى ملطية إشفاقًا عليهم، وخربت. . . (معجم البلدان لياقوت).

(٢) عامر بن واثلة الليثي: من رجال بني سعد بن ليث، يُحدث عنه.

سنة إحدى ومائة:

في هذه السنة هرب يزيدُ بن المهلب من حبْس عمر بن عبد العزيز، وذلك أنه لما اشتدَّ مَرَض عمر بن عبد العزيز عمل يزيد في الهرب مخافةَ يزيد بن عبد الملك لإساءةٍ كانت صدرَتْ منه في حَقِّه أيام سليمان، فأرسل ابْن المهلب إلى مواليه فأعدّوا له خَيْلاً وإبلاً، وواعدهم مكانًا يأتيهم فيه، وأرسل إلى عامل حلَب وإلى الحُرَّاس مالاً، وقال: إنَّ أمِير المؤمنين قد ثَقل في مرضه، وليس يُرْجَى، وإنْ ولي يزيد سفَكَ دمي، فأخْرجوه، فهرب وقصد البَصْرة، وكتب إلى عُمر كتابًا يقول: إني والله لو وثقت بحياتك لم أخرج من محبسك ولكني خفْت أنْ يَليَ يزيد فيقتلني شَرَّ قتلة.

فورد الكتاب وبه رَمَقٌ، فقال رضي الله عنه: اللهم إنْ كانَ يَزِيد يريدُ بالمسلمين سوءًا فألْحِقْه به وهِضْهُ[1] فقد هاضني، ثم كان من أمْرِ ابْنِ المهلّب ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر وفاة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وشيء من أخباره وسيرته رحمه الله تعالى

كانت وفاته رحمه الله بخنَاصِرة لستٍّ بقيت من شهر رجب سنة إحدى ومائة، وكانت شَكْواه عشرين يومًا، وقيل له في مرضه: لو تداويْتَ! فقال: لو كان دوائي في مسْحِ أُذنِي ما مسحْتها، نِعْمَ المذهوبُ إليه رَبِّي. ودفن بدَيْرِ سمْعان[2] من أرْضِ حِمْص.

وقيل: به توفي، وكان عمره تسعًا وثلاثين سنة وأشهرًا وقيل أربعين سنة وأشهرًا.

وكانت خلافته سنتين وخمسة أشهر وأربعة عشر يومًا.

وكان أبيض نحيفًا حسن الوجه، وهو أشجّ بني أُمية، رمحتُه دابّة فشجَّته، وهو غلام، فدخل على أُمه فضمَّته إليها ولامَتْ أباه حيث لم يجعل معه حاضنًا. فقال لها عَبْدُ العزيز: اسكتي يا أُمَّ عاصم، فطوبى له إنْ كان أشجّ بني أُميّة.

---

(١) يقال: هاض الحزن فلانًا: أصابه مرة بعد أخرى، ويقال: هاض المرض فلانًا: عاد إليه بعد الإبلال.

(٢) دير سمعان: يقال بكسر السين وفتحها: وهو دير بنواحي دمشق في موضع نزه وبساتين محدقة به وعنده قصور ودور... (معجم البلدان).

وكان عَبْدُ الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما يقول: يا ليت شِعْري، منْ هذا الذي مِنْ ولَد عُمر في وَجْهِهِ علامة يملأُ الدنيا عَدْلاً؛ فكان عُمرَ بْنَ عبد العزيز؛ لأنَّ أُمَّه ابنة عاصم بن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

ذكر نبذة من سيرته رضي الله عنه

كان رَحِمهُ الله ورضي عنه قد بَثَّ العَدْلَ ونَشَرَهُ في الدنيا واقتصر من دُنْيَاهُ على سدّ الخَلَّة[1] حتى إنَّ مسلمةَ بْنَ عبد الملك عادَه في مرضِ مَوْتِهِ، فرأى عليه قميصًا دَنِسًا، فقال لأُخته فاطمة، وهي زَوْجَة عمر: اغسلوا ثيابَ أمير المؤمنين. فقالت: نَفْعَلُ. ثم عاده فرأى الثَّوْبَ بحاله، فقال: ألم آمركم أنْ تغسلوا قميصَه. فقالت: والله ما لَهُ غَيْرُهُ، وكانت نفَقَتُهُ في كل يوم دِرْهَمين.

قال: ولما ولي الخلافة أتاهُ أصحابُ مَرَاكِبِ الخلافة يطلبون عَلَفَهَا، فأمر بها فبِيْعَتْ، وجعل ثمنَها في بيْتِ المال، وقال: بغْلَتِي هذه تكفيني.

قال: ولما ولي صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيُّها الناسُ، منْ صحبنا فليصحبْنَا لخَمس، وإلاَّ فلا يقربنا: يَرْفَعُ إلينا حاجةَ مَنْ لا يستطيعُ رَفْعَها، وَيُعِيننا على الخير بجهْدِهِ، ويدلُّنا على ما لا نَهْتَدِي إليه مِنَ الْخَيْرِ، ولا يغتابَنَّ أحدًا، ولا يعترض فيما لا يَعْنيه.

فانقشع الشعراءُ والْخُطَبَاءُ، وثبت عنده الفقهاء والزُّهَّادُ، وقالوا: ما يَسعُنَا أن نفارقَ هذا الرجلَ حتى يخالفَ قولَه فِعْلُه.

ولما وَلي أحضر قريشًا ووجوهَ الناس فقال: إنَّ فَدَكَ[2] كانت بيَدِ رسولِ الله ﷺ فكان يضَعُهَا حيث أراه الله، ثم وَلِيها أبو بكر كذلك، وعُمر كذلك، ثم أقطعها مرْوان. ثم إنها صارت لي، ولم يكن مِنْ مَالي أعْوَدُ عليّ منها، وإني أُشهدكم أني قد ردَدْتها على ما كانت عليه في عهْدِ رسول الله ﷺ.

قال: فَيَئِسَ الناسُ من الظُّلْمِ.

وأخَذَ مِنْ أهله ما بأيديهم، وسمَّى ذلك مَظَالم، فَفَزِعَ بنو أمية إلى عمَّتِهِ فاطمة بنت مروان فأتته، فقالت له: تكلَّمْ أنْتَ يا أمير المؤمنين. قال: إن الله بعث

---

(١) الخلة: الحاجة.

(٢) فدك: قرية بالحجاز، بينها وبين المدينة يومان، وقيل ثلاثة، أفاءها الله على رسوله في سنة سبع صلحًا. . . (معجم البلدان).

محمدًا ﷺ إلى الناس كافة، ثم اختار له ما عنده، وترك للناس نَهرًا شرْبُهم سواء، ثم ولي أبو بكر فترك النهْر على حاله، ثم ولي عمر فعمل عَمَلَهُمَا، ثم لم يَزَل النهر يستقي منه يزيد ومَرْوان، وعبد الملك ابْنه، والوليد وسليمان ابْنَا عَبْد الملك، حتى أفضى الأمْرُ إليّ، وقد يَبِسَ النهرُ الأعظم، فلن يروي أصحابه حتى يعودَ إلى ما كان عليه.

فقالت: حسبك قد أردت كلامك، فأما إذا كانت مقالتك هذه فلا أذكرُ شيئًا أبدًا، ورجعتْ إليهم فأخبرتهم بكلامه.

وقد قيل: إنها قالت له: إن بني أُميَّة كذا وكذا ـ ذكَرَتْ إنكارهم لفِعْلِه بهم ـ فلما تكلم بهذا قالت له: إنهم يُحَذِّرونك يومًا من أيامهم، فغضب وقال: كل يوم أخافُه غير يوم القيامة؛ فلا أمّنني الله شرَّه.

فرجعت إليهم فأخبرتهم وقالت: أنتم فعلْتُم هذا بأنفسكم، تزوجتم بأولادِ عُمر بن الخطاب، فجاء يُشْبِهُ جَدَّه، فسكَتُوا.

قالت فاطمة امرأة عمر: دخلْتُ عليه في مُصَلاَّهُ ودموعُه تجري على لحيته، فقلت: أحَدَث شيء؟ قال: إني تقلَّدت أمْرَ أُمَّةِ محمد ﷺ، فتفكرت في الفقير الجائع، والمريض الضائع والعاري والمظلوم والمقهور، والغريب والأسير، والشيخ الكبير وذي العِيَال الكثير والمال القليل وأشباههم في أقطار الأرض، فعلمْتُ أنَّ ربي سيسألُني عنهم يَوْمَ القيامة، وأنَّ خَصْمِي دونهم محمد ﷺ، فخشيتُ ألاّ تثبت حُجَّتي عند الخصومة، فرحمت نَفْسي فبكيتُ.

وكتب إلى عمَّاله نسخةً واحدة: أما بعد فإنَّ الله عَزَّ وجل أكرَمَ بالإسلام أهلَه، وشرّفهم وأعزَّهم، وضرب الذِّلَّةَ والصَّغَار[1] على مَنْ خالفهم، وجعلهم خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ للناس، فلا تُوَلِّيَنَّ أمْر المسلمين أحدًا مِنْ أهل ذمتهم وخَرَاجهم، فَتَنْبَسِطَ عليهم أيديهم وألسنتهم فتذلَّهم بعد أنْ أعَزَّهم الله، وتُهينهم بعد أن أكرمهم اللّهُ، وتُعرِّضهم لكَيْدِهم والاستطالة عليهم، ومع هذا فلا يُؤمن غِشُّهم إياهم، فإنَّ الله عزّ وجل يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ﴾ [آل عمران: ١١٨]. وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [المائدة: ٥١] والسلام.

---

(١) الصغار: الذل.

وكتب لما ولي الخلافة إلى يزيد بن المهلب بن أبي صُفْرَة، وهو إذ ذاك يلي العراقَ وخراسان:

أما بَعْدُ فإنَّ سليمان كان عبْدًا من عَبِيد الله، أنعم اللّهُ عليه ثم قَبَضَهُ، واستخلفني ويَزِيدُ بْنُ عَبْدِ الملك مِنْ بَعْدِي إن كان، وإن الذي ولأني اللّهُ من ذلك وقدّر لي ليس عليّ بهيِّن، ولو كانت رَغْبَتي في اتخاذ أزواج واعتقاد أموال لكان في الذي أعطاني اللّهُ من ذلك ما قد بلغ بي أفضلَ ما بلغ بأحَدٍ من خَلْقِهِ، وأنا أخافُ فيما ابتُلِيْتُ به حسابًا شديدًا ومسألة غليظة إلاّ ما عافى الله ورحم، وقد بايع من قِبَلنا فبايع مَنْ قِبَلك.

فلما قرأ الكتاب قيل له: لسْتَ من عُمَّاله، لأن كلامه ليس كلام من مَضَى مِنْ أهله.

وكتب إلى عبد الرحمٰن بن نُعيم:

أمابعد فاعمل عَمَلَ مَنْ يعلم أنَّ الله لا يُصْلح عملَ المفسدين.

وكتب إلى سليمان بن أبي السري: أن اعْمَل خانات، فمَنْ مَرّ بك من المسلمين فاقْرُوه يومًا وليلة، وتعهَّدُوا دوابَّهم. ومن كانت به علةٌ فاقْرُوه يومين وليلتين، وإن كان منقطعًا به فأبْلِغْهُ بلدَه.

فلما أتاه كتاب عمر قال له أهل سَمرْقَنْد: إنَّ قُتيبة ظلمنا وغَدَر بنَا، وأخذ بلادنا، وقد أظْهَرَ اللّهُ العدْل والإنصاف فأْذَنْ لنَا فلْيقْدم منا وَفْدٌ على أمير المؤمنين، فأذِن لهم، فوجَّهُوا وفْدًا إلى عمر، فكتب إلى سليمان: إنَّ أهل سَمَرْقَند شَكَوْا ظُلْمًا وتَحامُلاً من قُتَيْبَة عليهم حتى أخرجهم من أرضهم، فإذا أتاك كِتابِي فأجْلس لهم القاضي فلْيَنْظُر في أمرهم، فإن قضى لهم فأَخرج العرب إلى معسكرهم كما كانوا قبل أن يظهر عليهم قُتَيْبَة.

فأجلس لهم سليمان جُميع بن حاضر القاضي، فقضى أنْ تخرجَ العرَبُ إلى معسكرهم ويُنَابِذُوهم على سواء، فيكون صلحًا جديدًا أو ظَفَرًا عنْوَةً. فقال أهل الصُّغْد: نَرْضَى بما كان ولا نحدث شَيْئًا وتواصوا بذلك.

وكتب إلى عبد الحميد: أما بعد فإنَّ أهل الكوفة أصابهم بلاءٌ وشدةٌ وجَوْرٌ في أحكام الله: وسُنَّةٌ خَبيثة سنَّها عليهم عُمَّالُ السوء، وإنّ قوامَ الدِّين العَدْلُ والإحسان، فلا يكوننَّ شيء أهَمَّ إليكَ مِنْ نفسك؛ فإنه لا قليلَ من الإثم، ولا تَحْمِلْ خَرابًا على عامر، وخُذْ منه ما أطاق؛ وأصْلِحه حتى يَعْمر، ولا يؤخذن من العَامر إلا وظيفة

الخراج في رِفْقٍ وتسكين لأهل الأرض، ولا تأخذنَّ أُجورَ الضرابين ولا هديَّة النوروز[١] والمهرجان[٢]؛ ولا ثمن الصحف ولا أُجور الفُيُوج[٣] ولا أُجورَ البيوت؛ ولا دَراهم النكاح؛ ولا خراجَ على مَن أسلم مِنْ أهل الأرض، فاتَّبعْ في ذلك أمْرِي، فإني قد ولَّيتك من ذلك ما ولاَّني الله، ولا تعجل دُوني بقَطْعٍ ولا صَلْب حتى تراجعني فيه، وانْظُرْ مَنْ أراد من الذريَّة أن يحج فعجِّل له مائة ليحجَّ بها. والسلام.

قال محمد بن علي الباقر: إن لكل قوم نَجيبةً، وإن نجيبةَ بني أُمية عمرَ بن عبد العزيز رحمَه الله، فإنه يُبْعَث يَوْمَ القيامة أُمةً وحْدَه.

وقال مجاهد: أتَيْنَا عمر نعلِّمه؛ فلم نبرح حتى تعلَّمْنَا منه.

وقيل لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: ما كان بدْءُ إنَابتك؟ قال: أردْتُ ضَرْب غلام لي، فقال لي: اذكر ليلةً صبيحتها يوم القيامة.

وقال عمر: ما كذبْتُ منذ علمت أنَّ الكذب يضرُّ أهله.

وأخباره رضي الله عنه في الخير والعَدْلِ كثيرة لو استقصيناها أو أوْردْنا ما طالعْنَاه منها لطال ولخرج عن قاعدة هذا التأليف، وناهِيكَ بها سيرةً ضُرِب بها المَثَلُ في العَدْلِ والإحسان منذ كانت إلى يومنا هذا.

وكان له من الأولاد الذكور أربعة عشر وخمس بنات.

كُتَّابه: رجاء بن حَيْوة الكندي؛ وابن أبي رقَبة.

قاضيه: عبد الله بن سعد الأُبُلِّي.

حجَّابه: جيش، ومزاحم، موْلَياه.

الأمير بمصر: أيوب بن شُرحبيل.

وأقر على القضاء عِيَاض بن عبْدِ اللّهِ؛ ثم صرفه بأبي مسعود عبْد الله بن حُذافة.

وكان نقش خاتمه رضي الله عنه: «عمر بن عبد العزيز يؤمن بالله».

---

(١) النوروز: (بالفارسية) اليوم الجديد، وهو أول يوم من السنة الشمسية الإيرانية، ويوافق اليوم الحادي والعشرين من شهر مارس من السنة الميلادية.

(٢) المهرجان: احتفال الاعتدال الخريفي، وهي كلمة فارسية مركبة من كلمتين: الأولى: مهر، ومن معانيها الشمس. والثانية: جان، ومن معانيها: الحياة أو الروح.

(٣) الفيوج: جمع الفيج: وهو المطمئن من الأرض.

ذكر بيعة يزيد بن عبد الملك

هو أبو خالد يزيد بن عبد الملك بن مَرْوان بن الحكم، وأُمُّه عاتِكَةُ بنت يَزيد بن معاوية، وهو التاسع من ملوك بني أُمية، بويع له يوم الجمعة لخَمْس بقين من شهر رجب سنة إحدى ومائة بعد وفاة عُمرَ بن عبد العزيز؛ وذلك بعَهْدٍ من أخيه سليمان بن عبد الملك على ما تقدَّم ذكْرُ ذلك.

قيل: ولما احتضر عُمَر رضي الله عنه قيل له: اكتُبْ إلى يزيد فأوْصِه بالأُمَّةِ. قال: بماذا أُوصيه؟ إنه مِنْ بني عبد الملك.

ثم كتب إليه: أما بعد فاتَّق يا يزيد الصَّرْعَةَ بعد الغَفْلَة، حين لا تُقَالُ العثْرة، ولا تَقْدِرُ على الرجْعَةِ، إنك تترك ما تترك لمن لا يحمدك، وتصير إلى مَنْ لا يعذرك. والسلام.

فلما ولي يزيد نَزَع أبا بكر محمد بن عمرو بن حزْم عن المدينة، واستعمل عبْدَ الرحمٰن بن الضحاك بن قيس الفِهْري عليها؛ فأراد معارضة ابن حزم فلم يجد عليه سبيلاً حتى شكا عثمانُ بن حَيّان إلى يزيد بن عبد الملك من ابن حَزم، وأنه ضربه حَدَّيْنِ، وطلب منه أن يُقيده منه.

فكتب يزيد إلى عَبْد الرحمٰن كتابًا: أما بعد فانْظُرْ فيم ضَرَب ابنُ حزْم ابْنَ حيان، فإن كان ضربه في أمرٍ بيِّن أو أمرٍ مختلَف فيه فلا تلتفت إليه.

فأرسل ابْنُ الضحاك إلى ابن حَزْم فأحضره؛ وضربَهُ حدَّيْنِ في مقام واحد، ولم يسأله عن شيء، وعمد يزيد إلى كلّ ما فعله عُمرُ بن عبد العزيز رضي الله عنه مما لم يوافق هَوَاهُ، فرده، ولم يَخَفْ شناعةً عاجلة ولا إثْمًا آجلاً.

ذكر مقتل شوذب الخارجي وهزيمته بجيوش يزيد قبل ذلك

واسم شَوْذَب بِسطام.

قد ذكرنا خروجَه في أيام عمر بن عبد العزيز رحمه الله ووصول رُسُلِه إلى عمر، وما كان بينهما من المناظرة، وخروج محمد بن جرير بن عبد الله البَجلي إليهم في ألفين ومُوَادَعتهم إلى أن يعُود رسولاَ شَوْذَب من عند عمر؛ فلما مات عُمَرُ بْنُ عبد العزيز أحبّ عَبْدُ الحميد بن عبد الرحمٰن بن زيد بن الخطّاب، وهو الأمِيرُ على الكوفة، أن يَحْظَى عند يزيد بن عبد الملك؛ فكتب إلى محمد بن جَرير يأمره

بمناجزة(١) شَوْذَب، فلما رآه يستعدُّ للحرب أرسل إليه يقول: ما أعجلكم قبل انقضاء المدَّة.

فأرسل إليه محمد: إنه لا يسَعُنَا ترككم على هذه الحال.

فقال الخوارج: ما فَعَلَ هؤلاء هذا إلاَّ وقد مات الرجلُ الصالح، فاقتتلوا، فأُصيب مِنَ الخوارج نَفَرٌ، وقُتِل أكثر أهلِ الكوفة، وانهزم مَنْ بقِي منهم نحو الكوفة، وتبعهم الخوارِجُ حتى بلغوا الكوفة، ثم رجعوا إلى مكانهم.

ثم وجَّه يزيد بن عبد الملك تميم بن الحباب في ألْفَيْن فقاتلوه، فقتل، وقُتِلَ أكثر أصحابه، ولَجأ مَنْ بَقِي منهم إلى الكوفةِ، والتحق بَعْضُهم بيزيد، فأرسل إليهم يزيد نَجْدة بنَ الحَكَمِ الأزَدِي في جَمْع، فَقَتَلُوه وهزموا أصحابه.

وأقام شَوْذَبَ بمكانه حتى دخل مسلمة بن عَبْد الملك الكوفة، فشكا إليه أهْلُ الكوفة مكان شَوْذب وحذَّرُوه أمْرَه، فأرسل إليه مسلمة سعِيد بن عمرو الْحرَشِيّ. في عشرة آلاف، فقال شَوْذَب لأصحابه: منْ كان منكم يريد الشهادة فقد جاءتْهُ، ومنْ كان يريد الدنيا فقد ذهبت. فكسروا أغمادَ سيوفِهم وحملوا فكشفوا سعِيدًا وأصحابه مِرارًا حتى خاف سعِيد رحمه الله الفضيحة، وكان فارسًا شجاعًا، فوبَّخ أصحابَه، وقَبَّح عليهم الفِرَار، فحملوا فقتلوا بِسْطَامًا ومَنْ معه مِنَ الخوارج.

ذكر الغزوات والفتوحات
في خلافة يزيد بن عبد الملك بن مروان

ذكر غزوة الترك

وفي سنة اثنتين ومائة كانت الحرْبُ بين المسلمين والترك عند قَصْر الباهلي.

وقيل: كان سبب ذلك أنَّ عظيمًا من عظماء الدَّهَاقين أراد أن يتزوَّجَ امرأةً من باهلة كانت في ذلك القَصْر، فأبَتْ فاستجاش التُّرْك، فجمعهم خَاقَان ووجَّهَهُم إلى الصُّغْد، فساروا وعليهم كورصول حتى نزلوا بِقَصْر الباهلي، ورجوا أن يَسْبُوا مَنْ فيه، وكان فيه مائةُ أهلِ بيتٍ بِذَرَارِيهم، وكان على سَمرْقَنْد يومذاك عثمان بن عبْد الله بن مُطَرِّف بن الشِّخِّير من قِبَل سَعِيدِ بن عبد العزيز عامل خُرَاسان، فكتب أهْلُ القصر إليه، وخافوا أن يُبْطىء عنهم المَدَدُ، فصالحوا الترك على أربعين ألفًا وأعطَوْهم سبعة

(١) ناجزه الحرب: نازله وقاتله.

عشر رجلاً رهينة؛ وانتدب عثمان الناس؛ فانتدب المسيب بن بِشْر الرِّياحي، وانتدب معه أربعةَ آلاف من جميع القبائل، وعليهم شُعْبَةُ بن ظُهير، وكان على سمرقند قَبْلَ عثمان، فلما عَسْكَرُوا قال لهم المسيّب: إنكم تُقْدِمون على حَلْبَةِ التُّرْك عليهم خاقان، والعِوَض إنْ صبَرْتُم الجنةُ، والعِقَابُ إن فَرَرْتُم النارُ؛ فمن أراد الغَزْو والصبر فلْيُقْدِم.

فرجع عنه ألفٌ وثلاثمائة، فلما سار فرسخًا[1] آخر، فقال مثل ذلك؛ فاعتزلَه ألفٌ، ثم سار فرسخًا آخر فقال مثل ذلك، فاعتزله ألفٌ، وبقي في سبعمائة؛ فسار حتى بَقِي على فَرْسَخَيْنِ من التُّرْكِ، فأتاه الخَبَرُ أن أهْل القَصْرِ قد صالحوا التُّرْكَ على أربعين ألفًا، وأعْطَوْهم سبعة عشر رجلاً رهينة، وأنه لما بلغهم مَسِيرُ المسلمين قتلوا الرهائنَ وأنهم اتَّعدُوا القتالَ غدًا.

فبعث المسَيّبُ رجلَيْنِ إلى أهل القصر يُعْلمهم بقُرْبِه، ويستمهلهم يومًا وليلة، فأتَيَا القَصرَ في ليلةٍ مظلمة وقد أجرتِ الترْكُ الماء في نواحي القصر، فليس يَصلُ إليه أحَدٌ. فَلما دنَوْا من القصر صاح بهم الرَّبيئة[2] فاستنصتاه، وقالا له: ادْعُ لنا عَبْدَ الملك بن دِثَار، فَدَعَاه، فأعلماه قُرْب المسيَّب، وأمراه بالصَّبْر غدًا، ورجعا إلى المُسَيَّب، فبايع أصحابَه على الموت، فبايعوه، وسار حتى بقي بينه وبين القَصْرِ نِصْفُ فرسخ، فلما أمسى أمرَ أصحابَه بالصَّبْرِ، قال: ليكُنْ شِعَارَكُم: يا محمد، ولا تتبعوا مُوضيًا، وعليكم بالدوابّ فاعقروها فإنها إذا عُقرت كانت أشدَّ عليهم منكم، وسار بهم ليلاً فَوافَى عَسْكَرَ الترك وقْتَ السَّحر، فخالطهم المسلمون، وعَقَرُوا الدواب، فانهزمت التركُ، ونادى منادِي المسيّب، لا تتبعوهم، فإنهم لا يَدْرون من الرُّعْب أتبعتوهم أم لا.

وأمر أصحابه أن يَقْصِدُوا القَصْرَ ويحْمِلُوا ما فيه من المالِ ومَنْ بالقصر؛ ممن يَعْجز عن المشي، ففعلوا، ورجع إلى سَمَرْقَنْد، ورجع التُّرْكُ من الغَد، فلم يروا بالقَصْر أحدًا، ورأوا قَتْلاَهم، فقالوا: لم يكن الذين أتَوْنَا من الإنس. والله أعلم.

ذكر غزو الصغد[3]

وفي سنة اثنتين ومائة أيضًا عبر سعيد النهر، وغزا الصُّغْد، وكانوا نقضوا العهْد،

---

(١) الفرسخ: مقياس قديم من مقاييس الطول يقدر بثلاثة أميال.

(٢) الربيئة: الطليعة الذي يرقب العدو من مكان عال لئلا يدهم قومه.

(٣) الصغد: بالضم ثم الكسون، وآخره دال مهملة، وقد يقال بالسين مكان الصاد: وهي كورة عجيبة قصبتها سمرقند، وقيل: هما صغدان صغد سمرقند وصغد بخارى، وقيل غير ذلك... (معجم البلدان).

وأعانوا التُّرْكَ على المسلمين، فلَقِيه الترك وطائفة من الصُّغْد، فهزمهم المسلمون وساروا حتى انتهوا إلى واد بينهم وبين المرْج، فقطعه بعضُهم وقد أكمن لهم التُّرْكُ، فلما جازهم المسلمون خرجوا عليهم، فانهزم المسلمون حتى انتهوا إلى الوَادِي، ثم جاء الأمير وبقيَّةُ الجيش فانهزم العدوّ.

وفيها غَزَا عُمر بن هُبيْرة الروم من ناحية أرمينية، وهو على الجزيرة قَبْل أن يَلِي العراق، فهزمهم، وأسر منهم خَلْقًا كثيرًا. وقيل سبعمائة أسير.

وغزا عباس بن الوليد بن عبد الملك الروم، فافتتح دلسة، وغزا أيضًا في سنة ثلاث مائة، ففتح مدينة يقال لها رسلة.

ذكر الوقعة بين سعيد الحرشي أمير خراسان وبين الصُّغْد

وفي سنة أربع ومائة غزا سعيد الحرشي، فقطع النَّهْر وسار فنزل قصر الرِّيح على فَرْسخَيْنِ من الدَّبُوسِيَة[1]، وكان الصُّغْد لما بلغهم عَزْل سعِيد بن عبد العزيز عن خُراسَان واستعمال الحرَشي خافُوه على أنفسهم، فأجمع عظماؤُهم على الخُروج من بلادهم، فقال لهم مِلكُهم: أقيموا واحمِلُوا له خَراج ما مضى، واضْمَنُوا له خراج ما يأْتي، وعمارة الأرض، والغَزْو معه إنْ أراد ذلك، واعتذرُوا مما كان منكم، وأعطوه رهائن. قالوا: نخاف ألاَّ يقبَل ذلك منا، ولكنا نأْتي خُجنْدة[2] فنَسْتَجير بملِكِها، ونرسل إلى الأمِير فنسأله الصَّفْح عما كان منَّا. فوافقهم.

فخرجوا إلى خُجَنْدَة، وأرسلوا إلى ملك فَرْغانة يسألونه أنْ يمْنَعهم، ويُنزلهم مدينَتَه، فأراد أنْ يفعلَ فنهَتْه أُمه، وقالت له: فَرِّغ لهم رُسْتاقًا يكونون فيه؛ فأرسل إليهم: سمُّوا رُسْتَاقًا تكونونَ فيه حتى نُفرغه لكم، وأجِّلُوني أربعين يومًا.

فاختاروا شِعْبَ عصام بن عبْد الله الباهلي، فقال: نعم، وليس عليّ عقد ولا جِوار حتى تدخلوه، وإن أتتكم العربُ قبل دخُولِه لم أمنعكم. فرضوا، وفرغ لهم الشِّعْب.

---

(١) الدبوسية: بليدة من أعمال الصغد مما وراء النهر.

(٢) خجندة: بضم أوله وفتح ثانيه ونون ثم دال مهملة: بلدة مشهورة مما وراء النهر على شاطىء جيحون. . . (معجم البلدان).

فلما انتهى الحَرَشي إلى قَصْر الرِّيح أتاه ابْنُ عم ملك فَرْغَانة فقال له: إنَّ أهل الصُّغْد بخُجَنْدَة، وأخبره خَبرهم، وقال: عاجِلْهُمْ قبل أن يصِلُوا إلى الشِّعْبِ، فليس لهم علينا جِوَار حتى يمضِيَ الأجَل.

فوجّه معه عبد الرحمٰن القُشَيْرِي وزياد بن عبد الرحمٰن في جماعة، ثم ندما بعدما فصلوا، وقال: جاءني عِلْج لا أعْلَمُ صَدَق أم كذب؛ فغَرَّرْتُ بجنْد من المسلمين.

فارتحل في أثرهم حتى نزل أُشْرُوسنَة[1]، فصالحهم بشيء يسير، ثم سار مُسْرِعًا حتى لحق القُشَيْري، وسارُوا حتى انْتَهوا إلى خُجَنْدَة، فنزل عليهم وأخذ في التأهُّبِ. وكان الصغد بخُجنْدة قد حَفَرُوا خَنْدَقًا في ربضِهِم وراء الباب، وغطُّوه بقصَب وتُراب، وأرادوا إذا التقوا إن انهزموا دخَلُوا مِنَ الطريق، ويُشكل على المسلمين فيسقطون في الخَنْدَق. فلما خرجوا قاتلوهم فانهزموا وأخطئوا هم الطريقَ فسقطوا في الخَنْدَقِ، فأخرج منهم المسلمون أربعين رجلًا، وحصرهم الحَرَشِيّ، ونصب عليهم المجانيق.

فأرسلوا إلى ملك فَرْغَانة: إنك قد غدرْتَ بنا، وسألوه أن ينصرهم، فقال: قد أتَوْكم قبل انقضاء الأجَل، ولسْتُم في جِوَاري، فطلبوا الصُّلْح، وسألوا الحَرشِيَّ أنْ يؤمنهم ويردَّهم إلى الصُّغْد، فاشترط عليهم أن يردُّوا ما في أيديهم من نساء العرب وذَرَاريهم، وأن يؤدوا ما كَسَرُوا من الخَرَاج، ولا يغتالوا أحدًا، ولا يتخلَّف منهم بخُجَنْدة أحد، فإن أحدثوا حَدَثًا حلَّت دماؤُهم.

فخرج إليهم الملوكُ والتجارُ من الصُّغْد، ونزل عظماءُ الصُّغْد على الجُنْدِ الذين يعرفونهم، ونزل كارزَنْج على أيوب بن حسَّان، وبلغ الحَرشي أنهم قتلوا امرأةً ممن كان في أيديهم، فقال لهم: بلغني أنَّ ثابتًا الإشْتِيخَنِي قَتَل امرأةً؛ فجحدوا. فسأل حتى استصحّ الخبر، فأحضر ثابتًا وقتلَه، فلما بلغ كارزَنْج ذلك خاف أن يُقْتل فأرسل إلى ابن أخيه ليأْتيه بسَرَاوِيل، وكان قد قال لابْنِ أخيه: إذا طلبْتُ سراويل فاعلم أنه القَتْل. فبعث به إليه، وخرج اعترض الناس فقتَل ناسًا، وانتهى إلى ثابت بن عثمان بن مسعود فقتله ثابت، وقتل الصُّغْدُ مائةً وخمسين رجلًا كانوا عندهم مِنْ أسرى المسلمين، فأمر الحرَشيُّ بقَتْلِ الصُّغْد بعد عَزْل التجارِ عنهم، فقاتلهم الصُّغْد بالخشَب، ولم يكن لهم سلاحٌ، فقُتِلوا عن آخرهم، وكانوا ثلاثةَ آلاف، وقيل سبعة

(١) أشروسنة: بالضم ثم السكون وضم الراء، وواو ساكنة، وسين مهملة مفتوحة، ونون وهاء: بلدة بما وراء النهر بين سيحون وسمرقند... (معجم البلدان لياقوت).

آلاف، واصطفى الحَرَشِي أموالَ الصُّغْدِ وذَرارِيهم، وأخذ من ذلك ما أعجبه، وقَسَّم ما بقي، وفتح المسلمون حِصْنًا يُطِيف به وادِي الصُّغْدِ من ثلاث جهات صلحًا على ألاَّ يتعرض لنسائهم وذراريهم، ففعلوا.

وسار الحَرَشي إلى كَسّ[١]، فصالحوه على عشرة آلاف رأس. وقيل: ستة آلاف رأس، ووَلَّى الحَرَشِي نصر بن سيّار قبض صُلْح كَسّ، واستعمل سليمان بن أبي السري على كسّ، ونَسف ـ حَرْبَها وخَراجها. وكانت خُزَارُ[٢] منيعة، فأرسل الحَرَشِيُّ إليها المُسرْبَلَ بنَ الخرِّيت النَّاجي، وكان صديقًا لملكها، واسم ملكها سُبُغْرِي، فأخبر الناجي الملكَ بما صنع الحَرَشِي بأهل خُجنْدَة، وخَوّفه. قال: فما ترى؟ قال: أرى أنْ تنزل بأمَانٍ، فصالحهم فأمنوه وبلاده، ورجع الحَرَشِي إلى مَرْو ومعه سُبُغْرِي فقتله وصلبه ومعه أمَانه.

ذكر ظفر الخزر بالمسلمين

وفي سنة أربع ومائة دخل جَيْشُ المسلمين إلى بلادِ الخَزَر من أرمينية، وعليهم ثُبَيت النَّهْرَاني، فاجتمعت الخَزَر في جَمْع كثيف، وأعانهم قفجلق وغيرهم من التُّرْك، فلقوا المسلمين بمكانٍ يُعْرَفُ بمَرْج الحِجَارة، فاقتتلوا قتالاً شديدًا، فقُتِل من المسلمين خَلْقٌ كثير، واحتوت الخَزَر على عسكرهم، وغنموا ما فيه، وأقبل المنهزمون إلى الشام، فقدموا على يزيد، فوبَّخَهُمْ على الهزيمة، فقال ثَبيتُ: يا أمِيرَ المؤمنين، ما جَبُنْتُ ولا نَكَبْتُ عن لقاء العدو، ولقد لصقت الخَيْل بالخيل والرجل بالرجل، ولقد طاعنْتُ حتى انقصف رُمْحي، وضاربْتُ حتى انقطع سَيْفِي، غير أن الله تبارك وتعالى يفعل ما يشاء.

ذكر فتح بلنجر[٣] وغيرها

قال: لما تمَّت الهزيمةُ المذكورةُ على المسلمين طَمِع الخَزَر في البلادِ. فجمعوا وحشدوا، فاستعمل يَزيدُ بن عَبْد الملك الجرَّاح بن عبْد الله الحَكَمِيّ على أرمينية، وأمده بجيْش كثيفٍ، وأمره بغَزْو الخَزَر وغيرهم من الأعداء وقَصْدِ بلادهم، فسار

(١) كسّ: بكسر أوله وتشديد ثانيه: مدينة تقارب سمرقند.

(٢) خزار: بضم أوله، وآخره راء مهملة: موضع بقرب وخش من نواحي بلخ... وقيل: خزاز موضع بقرب نسف بما وراء النهر... (معجم البلدان).

(٣) بلنجر: مدينة ببلاد الخزار، خلف باب الأبواب.

الجرَّاحُ وتسامعَتْ به الخزَرُ فعادوا حتى نزلوا بالبابِ والأبواب، ووصل الجرَّاحُ إلى بَرْدَعَة[١]، فأقام بها حتى استراح هو ومنْ مَعه، وسار نحو الخَزَر فعبر نهْر الْكُرّ، فبلغه أنَّ بَعْضَ مَنْ معه كتب إلى ملك الخَزَر يُخبِره بمسير الجرّاح إليه، فأمر الجرّاحُ منادِيًا فنادى في الناس: إنَّ الأمير مقيم هاهنا عدةَ أيام، فاستكثرُوا من المِيْرَة.

فكتب ذلك الرجل إلى ملك الخَزَر يُخبِره أن الجرَّاح مقيم، ويُشير عليه بتَرْك الحَركةِ لئلا يطمَعَ المسلمون فيه، ثم أمر الجرَّاح بالرحيل ليلاً، وسار مُجِدًّا حتى انتهى إلى مدينةِ الباب والأبواب، فلم ير الخَزَر، فدخل البلد، وبثَّ سراياهُ للنَّهْب والغارة، فغنموا وعادوا، وسار الخزَرُ إليه، وعليهم ابنُ ملكهم فالتقوا عند نهر الرَّان[٢]، واقتتلوا قتالاً شديدًا، فهزمهم المسلمون وتَبِعوهم يقتلون ويأسرون، فقُتِلَ منهم خَلْق كثير، وغنم المسلمون جميع ما معهم، وساروا حتى نزلوا على حصْن يعرف بالحُصَين، فنزل أهلُه بالأمان على مالٍ يحملونه، فأجابهم ونقلهم عنه، ثم سار إلى مدينة بُرْغَر[٣] فأقام عليها ستةَ أيام، وجَدّ في قتالِ أهلها، فسألوا الأمانَ فأمَّنهم وتسلَّم حِصْنَهُم ونَقَلَهم منه.

ثم سار إلى بَلَنْجر وهو حصْنٌ مشهور مِنْ حُصونهم، فنازَله، وقاتل عليه قتالاً شديدًا، وملك الحِصْن عنوة، وغنم المسلمون ما فيه، فأصاب الفارسَ ثلاثمائة دينار، وكانوا بضعة وثلاثين ألفًا، وأخذ الجراح أولاد صاحب بَلَنْجَر وأهله، وأرسل إليه فأحضره وردّ إليه أموالَه وأهله وحصنه، وجعله عَيْنًا للمسلمين؛ ثم سار عن بلَنْجر فنزل على حصن الوبندر، وبه نحو أربعين ألف بيت من الترك، فصالحوا الجرَّاح على مالٍ يؤدُّونه، ثم تجمّع أهلُ تلك البلاد، وأخذوا الطرق على المسلمين، فكتب صاحب بَلَنْجَر إلى الجرّاح يُخْبِرُه بذلك، فعاد مُجِدًّا حتى وصل إلى رُسْتَاق سِلَّى[٤]، وأدركهم الشتاء، فما قام المسلمون به، وكتب الجراح إلى يزيد بن عبد الملك يخبره بما فتح الله عليه وبجموع الكفارِ، ويسألهُ المدَد، فوعده بإنفاذِ العساكر، فمات قبل ذلك، فأقر هشام الجرَّاح على عمله، ووعده المدد.

---

(١) بردعة: بلد في أقصى أذربيجان.

(٢) الرّان: مدينة بين مراغة وزنجان.. وفي المدينة نهر من شرب منه آمن الحصاة... وقيل: الران ولاية واسعة من نواحي أرمينية.

(٣) برغر: بالغين المعجمة المفتوحة والراء: على ساحل بحر متصل بخليج القسطنطينية... (معجم البلدان).

(٤) سلى: بكسر أوله، وفتح اللام وتشديدها، وقصر الألف: جبل بمناذر من أعمال الأهواز.

هذا ما كان من الغزوات والفتوحات في أيام يزيد بن عبد الملك.

فلنذكر حوادث السنين في أيامه.

ـ تتمة سنة إحدى ومائة:

ذكر استيلاء يزيد بن المهلب بن أبي صفرة على البصْرَةِ وخلعه يَزِيد بن عبد الملك

قد ذكرنا هرب يَزيد بن المهلب مِنْ حَبْس عمر بن عبد العزيز رحمه الله، وأنه إنما هرب خَوْفًا من يزيدَ بنِ عبد الملك لمنافرةٍ كانت بينهما.

وقيل: كان السبب الذي أوْجب كراهة يزيد بن عبد الملك في يزيد بن المهلب أن ابْنَ المهلب خرج يومًا من الحمّام في أيام سليمان وقد تضمَّخ بالغَالِية[1]، فاجتاز بيزيدَ بنِ عبد الملك وهو إلى جانب عُمَر بن عبد العزيز، فقال يَزيدُ بْنُ عبْد الملك: قَبَّح الله الدنيا! لودِدْتُ أنَّ مثقالَ الغاليةِ بألفِ دينار، فلا ينالُه إلا كلّ شريف، فقال ابْنُ المهلّب: بل ودِدْت أنَّ الغالية في جبهةِ الأسد فلا ينالها إلاّ مثلي. فقال له يزيدُ بن عبد الملك: والله لئن وليتُ يومًا لأقتلنَّك. فقال ابْنُ المهلب: والله لئن وليتَ هذا الأمر وأنا حيٌّ لأضربنَّ وَجْهَك بمائة ألْفِ سيف.

وقيل: كان السبب أنَّ يزيد بن المهلب كان قد عذَّب أصهار يَزيد بن عبد الملك، وكان سليمانُ بن عبد الملك لما ولي الخلافة طلب آل عقيل فأخذهم وسلَّمهم إلى ابن المهلب ليخلِّص الأموالَ منهم، فبعث ابن المهلب إلى البلْقَاء من أعمال دمشق وبها خزائنُ الحجاج بن يوسف وعياله، فنقلهم وما معهم إليه، وكان فيمن أتى به أُمُّ الحجاج زوجةُ يزيد بن عبد الملك.

وقيل: بل أُختٌ لها ـ فعذَّبها، فأتى يزيدُ بن عبد الملك إلى ابْنه المهلب في منزله، فشفع فيها، فلم يشفّعه، فقال: الذي قرَّرْتُم عليها أنا أحمله، فلم يقبل منه، فقال لابْنِ المهلب: أما واللّهِ لئن ولِّيتُ من الأمر شيئًا لأقطعنَّ منك عُضوًا. فقال ابْنُ المهلَّب: وأنا والله لئن كان ذلك لأرمينَّك بمائة ألف سيف.

فحمل يزيد بن عبد الملك المال عنها، وكان مائة ألف دينار، وقيل أكثر من ذلك. والله أعلم.

---

(١) الغالية: أخلاط من الطيب كالمسك والعنبر.

قال: فلما ولي يزيد بن عبد الملك كتب إلى عَبْد الحميد بن عبد الرحمٰن، وإلى عدي بن أرْطَاة، يُعَرِّفهُما هرب يزيد، ويأمرهما بالتحرز منه، وأمر عديًا أنْ يأخذ مَنْ بالبصرة مِنْ آل المهلَّب ويحبسهم، فقبض عليهم وفيهم المفضَّل وحبِيب ومرْوان بنو المهلب، وأقبل يزيدُ بن المهلب نَحوَ البصرة، وقد جمع عديُّ بن أرطاة الجموعَ، وخَنْدَقَ على البصرة، وندب الناس، وجاء يزيد في أصحابه، والذين معه، فالتقاه أخوه محمد بن المهلب فيمن اجتمع إليه مِنْ أهله وقومه ومواليه، فمرّ بجموع عدِيّ؛ فجعل لا يمرُّ بخَيلٍ من خَيْل عدِيّ إلا تنَحّوْا عن طريقه، وأقبل حتى نزل داره، واختلف الناسُ إليه، فبعث إلى عَدِيّ أن ابعث إليَّ إخوتي وأنا أُصالِحُكَ على البصرة وأُولِّيك وإياها حتى آخذَ لنفسي مِنْ يزيد ما أُحب. فلم يقبل منه، وأخذ يزيد بن المهلب يُعْطِي من أتاه قِطَع الذهب والفضَّةِ؛ فمال الناسُ إليه؛ وكان عديّ لا يُعْطِي إلاّ درهمين درهمين، ويقول: لا يحلُّ أنْ أُعطيكم مِن بَيْتِ المال درهمًا إلا بأمْرِ يزيد بن عبد الملك، ولكن تَبلَّغوا بهذه حتى يأتي الأمر، فقال الفرزدق: [من الطويل]

أظُنُّ رِّجالَ الدِّرهَمين تقودُهم ... إلى الموت آجالٌ لهم ومصارعُ
وأكيَسَهُمْ مَنْ قَرَّ في قَعْر بيته ... وأيقَنَ أنَّ الموتَ لا بُدَّ واقِعُ

وخرج يزيد حين اجتمع الناسُ له حتى نزل جَبّانَةَ بني يشكُر وهو المَنْصف فيما بينه وبين القصر، فلقيه قعيْس وتميم وأهْلُ الشام، فاقتتلوا هُنَيْهَة وانهزموا، فتبعهم يزيدُ وأصحابُه حتى دنا من القصر، وخرج إليهم عديٌّ بنفسه فقُتل من أصحابه وانهزم هو، وقصد قَتْل آل المهلب الذين في حَبْسه، فأغلقوا البابَ ومنعوا عن أنفسهم حتى أدركهم يزيد، ونزل في دار سالم بن زياد بن أبيه، وهي إلى جنْب القصر، ونصب السلاليم، وفتح القَصْر، وأتى بِعَدِي بن أرْطَاة فحبسه، وقال: لولا حَبْسك إخوتي لما حبسْتُك، وأخرج إخوته وهرب بوجوهِ أهل البصرة، فلحقوا بالكوفة، وكان يزيد قد بعث حُميد بن عبد الملك بن المهلب إلى يزيد بن عبْد الملك في طلب الأمانِ، فعاد بما طلب ومعه خالد القَسْري وعمرو بن يزيد الحَكَمِي، فوجد المغيرةَ بْنَ زياد وقد فَرّ من يزيد بن المهلب، فأخبرهم الخبر، فعادوا إلى يزيد بن عَبْد الملك ومعهم حُميد، وأرسل يزيد بن عبد الملك إلى أهْلِ الكوفة يُثْنِي عليهم ويعِدُهم الزيادَة، وأرسل أخاه مسلمة وابن أخيه العباسَ بن الوليد، في سبْعين ألْف مقاتل مِنْ أهل الشام والجزيرة.

وقيل: كانوا ثمانين ألفًا، فساروا إلى العِراق حتى بلغوا الكوفةَ فنزلوا بالنُّخَيْلة[1]، واستوثق أمْرُ البصْرَةِ لابْن المهلَّب، وبعث عُمَّاله على الأهواز وفارس

---

(١) النخيلة: موضع قرب الكوفة على سمت الشام.

وكَرْمَان، ثم سار يزيدُ من البصْرَة، واستعمل عليها أخاه مَرْوان، وأتى واسِطًا، وأقام عليها أيامًا يسيرةً إلى أن دخلت سنة اثنتين ومائة، فسار عنها.

واستخلف عليها ابْنَه معاوية، ونزَلَ عنده بَيْتَ المال، وقدم أخاه عبد الملك نحو الكوفة، فاستقبله العباسُ بن الوليد واقتتلوا، فظفر عبْدُ الملك أوّلاً، ثم كانت الهزيمة عليه، فعاد بمنْ معه إلى أخيه، وأقبل مسلمة يَسِيرُ على شاطىء الفُرَات إلى الأنبار، وعقد عليها جِسْرًا فعبر وسار حتى نزل على ابْن المهلَّب، والتحق بابن المهلَّب ناسٌ كثيرٌ مِنَ الكوفة والثغور، وأحصى ديوانه مائة ألف وعشرين ألفًا، فقال: لَودِدْت أنَّ لي بهم منْ بخراسان من قومي.

ثم قام في أصحابِه وحَرَّضهم على القِتَالِ، وكان اجتماع ابْنِ المهلب ومسلمة ثمانية أيام، فلما كان يوم الجمعة لأرْبع عشرة ليلة مضَتْ من صفر سنة اثنتين ومائة خرج مسلمةُ في جُنُودِهِ حتى قَرُب من ابْنِ المهلَّب، والْتَقَوْا واقتَتَلُوا؛ فانهزَم أصحابُ ابْنِ المهلبِ، فترجَّل وبقي في جماعةٍ من أصحابه وقد استَقْتَل وهو يتقدَّمُ؛ فكلَّما مَرَّ بخَيْل كشفها أو جماعةٍ من أهل الشام عَدَلُوا عنه؛ وأقبل نحو مسلمة لا يُريدُ غيره، فلما دَنَا منه أدْنَى فَرَسه ليرْكَب، فعطف عليه أهْلُ الشام، فقتل يزيد والسَّمَيْدع[1] ومحمّد بن المهلَّب، وكان رجُلٌ من كَلْب يقال له القَحْل بن عَيَّاش لما نَظَر إلى يزيد قال: هذا والله يزيدُ، والله لأقتلنَّه أو ليقتلني، فمَنْ يحمل معي يكفيني أصحابَه حتى أصِلَ إليه، فحمل معه ناسٌ، فاقتتلوا ساعةً، وانفرج الفريقان عن يزيد قتيلاً وعن القَحْل بآخرِ رَمَقٍ، فأومأ إلى أصحابه يُريهم مكانَ يزيد وأنه هو الذي قَتَلَه، وأنَّ يزيد قتله، وأتى مَوْلى لبني مرّة برأس يزيد إلى مسلمة، فقيل له: أنْتَ قتلْتَه؟ قال: لا، فبعث مسلمة بالرأس إلى يَزِيد بن عبد الملك مع خالد بن الوليد بن عُقْبة بن أبي مُعيط.

وقيل: بل قتله الهذيل بن زُفر بن الحارث الكلابي، ولم ينزل لأخْذِ رأسه أنَفَةً.

قال: ولما قُتِل يزيد كان المفضّل بن المهلَّب يقاتِلُ أهْلَ الشام وهو لا يَدْرِي بقَتْلِ أخيه ولا بهزيمة الناس، فأتاه آتٍ وقال له: ما تصنع وقد قُتل يزيد وحبيب ومحمد، وانهزم الناسُ منذ طويل؟ فتفرَّق الناسُ عنه، ومضى المفضَّل إلى واسط.

وقيل: بل أتاه أخوه عَبْدُ الملك، وكرِهَ أن يُخْبِرَه بقَتْلِ يَزِيد فيستقتل، فقال له: إنَّ الأمِيرَ قد انحدر إلى واسط، فانْحدَرَ المفضَّلُ بمَنْ بقي مِنْ ولَدِ المهلب

---

(١) هو السميدع الكندي، من بني مالك من ربيعة.

إليها، فلما علم بقَتْل يزيد حَلف أنّه لا يُكَلِّم عبْدَ الملك أبدًا، فما كلَّمَه حتى قتل بقَنْدَابِيل[١].

قال: ولما أتت هزيمةُ ابْنُ المهلَّب إلى واسط أخرج ابْنُه معاوية اثنين وثلاثين إنسانًا كانوا عنده، فضرب أعناقَهم، منهم عديّ بن أرْطَاة، وابنُه محمد، ومالك، وعبد الملك ابنا مِسْمَع وغيرهمْ، ثم أقبل حتى أتى البَصْرَةَ بالمال والخزائن، وجاء المفضّل بن المهلب واجتمع إلى المهلَّب بالبصرة، وأعدّوا السفن وتجهَّزُوا للركوب. في البحر إلى جبال كِرْمَان، وحملوا عِيالهم وأموالَهم في السفن الْبَحرِيَّةِ، ولجّجوا حتى أتوا جِبال كَرْمان، فخرجوا مِنْ سفُنِهِمْ، وحملوا ما معهم على الدوابّ.

وكان المقدّم عليهم المفضّل، وكان بكَرْمَانِ فلولٌ كثيرة، فاجتمعوا إلى المفضل، وبعث مسلمة مُدْرك بن ضَب الكَلْبِي في طلبهم وفي أثر الفلّ، فأدْرَكَ المفضَّل ومن اجتمع إليه، فقاتلوه قتالاً شديدًا، فقُتل من أصحاب المفضل جماعةٌ، وطلب بعْضُ مَنْ معه الأمَانَ، ومضى آلُ المهلب إلى قَنْدابِيل، وبعث مسلمة إلى مدرك بن ضَب، فردَّهُ؛ وسيَّر في أثرهم هلال بن أحْوَز التميمي فلحقهم بقَنْدَابِيل، فأراد آلُ المهلب دخولَها فمنعهم أمِيرُها وادعُ بنُ حُميد، وكان يزيد بن المهلب قد استعمله عليها، وأخذ عليه العُهودَ والمواثيق أنه إنْ قتل في حرْبه يلجأُ أهْله إليها ويتحصَّنُوا بها حتى يأْخذوا أمانَ يزيد بن عبد الملك.

وقال له: قد اختَرْتُك لهم من بَيْن قومي فكُنْ عند حُسْن ظَنِّي؛ وعاهده ليُنَاصِحَنَّ أهْل بيته إنْ هم لجَئُوا إليه.

فلما أتوه منعهم من الدخول، وكتب إلى هلال بن أحْوز، فلما التقوا نَصب هلالٌ رايةَ أمان، فتفرَّقَ الناسُ عن آل المهلب، وتقدموا هم بأسيافهم، فقاتلوا حتى قتلوا من عند آخرهم، وهم المفضل، وعبد الملك، وزياد، ومرْوَان بنو المهلب، ومعاوية بن يزيد بن المهلب، والمِنْهال بن أبي عُيَيْنَة بن المهلب، وعمرو والمغيرة ابنا قَبِيصة بن المهلَّب، وحملت رؤُوسهم؛ وفي أُذُنِ كلّ واحد رُقْعَةٌ فيها اسمه، ولحق منهم بِرُتبيل أبو عُيَيْنة بن المهلب، وعمرو بن يزيد، وعثمان بن المفضل؛ وبعث هلال بالرؤوس والنساء الأسرى من آل المهلَّب إلى مسلمة بن عَبْد الملك وهو بالحيرة، فبعثهم إلى يزيد بن عبد الملك، فبعثهم يزيدُ إلى العباس بن الوليد وهو على

---

(١) قنديابيل: بالفتح ثم الكسون، ودال مهملة، وبعد الألف موحدة مكسورة، ثم ياء بنقطتين من تحتها ولام: مدينة بالسند.

حَلَب، فنصب الرؤوس، وأراد مسلمةُ أن يبيع الذريةَ، فاشتراهم منه الجرّاح بن عبْد الله الحكَمي بمائة ألف، وخلى سبيلَهم، ولم يأْخذ مسلمة بن الجرّاح شيئًا، وكانت الأسرى من آل المهلّب ثلاثة عشر رجلاً، فلما جيء بهم إلى يزيد بن عبد الملك كان عنده كثير عزّة فقال: [من الطويل]

حليمٌ إذا ما نال عاقب مُجْمِلاً ... أشدّ العقاب أو عَفَا لم يُثَرّبِ[1]

فعفْوًا أميرَ المؤمنين وحسْبةً ... فما تأْتِه مِنْ صالِح لك يُكتب

أساؤوا فإنْ تصفَحْ فإنك قادرٌ ... وأفْضَلُ حلْمٍ حِسْبَةً حِلْمُ مُغْضَب

فقال يزيد: هيهات يا أبا صخر؛ أطَّتْ[2] بك الرَّحِم، لا سَبيل إلى ذلك، إن الله أقاد منهم بأعمالهم الخبيثة، ثم أمر بهم فقُتِلُوا، وبقِي غلام صغير. فقال: اقتلوني، فما أنا بصغير. فقال: انظروا، أنبت؟ فقال: أنا أعلمُ بنفسي، قد احتلمت ووطئت النساء، فأمر به فقُتِل.

والذين قُتلوا من آلِ المهلَّب بين يدي يزيد بن عبد الملك المُعارِك، وعبد الله، والمُغيرة، والمفضل، ومِنْجاب أولاد يزيد بن المهلب ودُويَّة، والحجاج، وغَسّان، وشبيب، والفَضْل أولاد المفضل بن المهلَّب، والمفضل بن قَبيصة بن المهلب.

قال: وأما أبو عُيينة بن المهلَّب فأرسلت هِنْد بنت المهلب إلى يزيد بن عبد الملك في أمانِه فأمَّنَه، وبقي عمرو وعثمان حتى ولي أسد بن عَبْد الله القَسْرِي خُرَاسَان، فكتب إليهما بأمانهما فَقَدِما خُراسان.

* * *

وحجّ بالناس في هذه السنة عبد الرحمٰن بن الضحاك بن قَيْس، وهو عاملُ المدينة، وكان على مكةَ عبد العزيز بن عبد الله بن خالد بن أسِيد، وعلى الكوفة عبد الحميد، وعلى قضائها الشَّعْبِي، وعلى خراسان عبد الرحمٰن بن نعيم.

سنة اثنتين ومائة:

ذكر ولاية مسلمة بن عبد الملك العراق وخراسان وعَزله وولاية عُمر بن هُبَيْرَة

قال: ولما فرغ مسلمةُ بن عبد الملك من حَرْبِ ابن المهلَّب جمع له أخوه يزيدُ

(١) ثرب فلانًا: لامه وعيّره بذنبه.

(٢) أطت به رحمي: رقت.

ولايةَ الكوفةِ والبصْرَة وخراسان، فأقر محمد بن عمرو بن الوليد على الكوفة، وبعث إلى البصْرةِ عبد الرحمٰن بن سليم الكلبي، وعلى شرطتها عمْرو بن يزيد التميمي، فأراد عبْدُ الرحمٰن أن يستعرضَ أهْل البصرة ويقتلهم، فنهاه عمْرو واستمهله عشرة أيام، وكتب إلى مسلمة بالخبر فعزَلَه، واستعمل على البَصْرةِ عبْد الملك بن بِشْر بن مَرْوَان، واستعمل على خُراسان سَعِيد بن عَبْد العزيز بن الحارث بن الحكَم بن أبي العاص بن أُمية، وهو الذي يُقال له سعيد خُذَيْنَة، وإنما لُقِّبَ بذلك لأنه كان رجلاً ليِّنًا متنعِّمًا، فدخل عليه بعْضُ ملوكِ العجم وسعِيد في ثياب مصبغَة وحوله مَرافق مُصبغة، فلما خرج مِنْ عنده قالوا له: كيف رأيْتَ الأمير. قال: خُذيْنَة. فلقِّب خُذيْنَة، وهي الدِّهْقَانَة رَبَّة البيت.

وكان سعيد زوج ابنة مسلمة، فلذلك استعمله، فغَزَا سعيد الصُّغْد كما تقدم.

قال: ولما ولي مسلمة العراق وخُراسانَ لم يرفع من الخَرَاج شيئًا، فأراد يَزِيدُ عَزْلَه فاستحيى من ذلك، فكتب إليه أن استَخلِفْ على عمَلِك، وأقْبِلْ. فلما قدم لقيه عُمر بن هُبيْرة الفَزَارِي بالطريق على دَوابّ البريد، فسأله عن مَقْدمه، فقال: وَجَّهني أميرُ المؤمنين في حِيازة أموالِ بني المهلَّب. ولم يكن الأمْرُ كذلك، وإنما كان يزيد قد استعمله، فلم يلبث حتى أتاه عزْلُ ابْنِ هُبيْرة عُمّالَه والغِلْظة عليهم، وكان ابْنُ هبيرة قبل ذلك يلِي الجزيرة.

ذكر البيعة لهشام بن عبد الملك والوليد بن يزيد بولاية العهد

وفي هذه السنةِ أراد يزيدُ أن يأْخذ البَيْعةَ لابْنِهِ الوليد، فقال له سلمة بن عبْدِ الملك: إنَّ ابْنَكَ لم يبلغ الحُلم؛ وأشار عليه بالبيْعَة لهشام، ففعل، وبايع لهشام بولايةِ العَهْدِ، ثم مِنْ بعده لابنه الوليد بن يزيد، وعُمْرُه يومئذ إحدى عشرة سنة، ثم عاش يزيدُ حتى بلغ ابْنُه الوليدُ الحُلُمَ، فكان يزيد إذا رآه يقول: الله بيني وبين منْ جعل هشامًا بيني وبينك.

ذكر مقتل يزيد بن أبي مسلم

كان يزِيدُ بنُ عبْدِ الملك قد استعمل يزيدَ بن أبي مُسلم على إفريقية في سنة إحدى ومائة، فقُتِل في هذه السنة.

وكان سبب قتله أنه أراد أنْ يسير في أهل إفريقية بِسيرة الحجاج في أهلِ

الإسلام الذين سَكَنُوا الأمصار ممن كان أصله من السَّواد مِنْ أهل الذِّمة، فإنه ردهم إلى قُرَاهم، ووضع عليهم الجِزْيَة على ما كانوا عليه قبل الإسلام. فلما عزم يَزِيدُ بن مُسلم على ذلك اجتمع رأْيُ أهل إفريقية على قَتْلِهِ، فقتلوه وولَّوا عليهم الوالي الذي كان قَبْله، وهو محمد بن يزيد مولى الأنصار، وكتبوا إلى يزيد بن عبد الملك: إنا لم نخلع أيدينا من طاعة، ولكن يزيد بن أبي مسلم سامَنَا ما لاَ يرْضَاه اللّهُ والمسلمون، فقتلناه، وأعَدْنَا عاملَك.

فكتب إليهم: إنه لم يرْضَ بما صنع. وأقرَّ محمد بن يزيد على عملِهِ.

وحجّ بالناس في هذه السنة عبْد الرحمٰن بن الضحاك، وهو عاملُ المدينة.

سنة ثلاث ومائة:

ذكر استعمال سعيد الحرشي على خراسان وعزْل سعيد خُديْنَة عنها

في هذه السنة عزل عُمَر بن هُبَيْرة سَعِيد خُدَيْنَةَ عن خراسان بشكوى المُجشِّر بْنِ مُزَاحم السلمي، وعبد الله بن عُمير الليثي، واستعمل سَعِيد بن عمرو الحَرشي، من بني الحَرِيش بن كَعْب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة، وكان خُدَيْنَة بباب سَمرْقَند، فبلغه عزْله فرجع وقدم الحَرَشِي خُراسان فلم يعرض لعمال خُدَيْنَةَ، وقرأ رجُلٌ عهْدَه فلحن فيه، فقال: صَه؛ مهما سمعتم فهو من الكاتب، والأمِيرُ منه بَرِيء.

وخطب النَّاس وحثّهم على الجهاد، وقال: إنكم لا تقاتلون بكثرة ولا بعُدَّة، ولكن بنَصْرِ اللّهِ وعِزِّ الإسلام، فقولوا: لا حوْلَ ولا قوَّةَ إلا بالله.

وقال: [من الوافر]

فلست لعامِرٍ إن لم تَروْني ... أمام الخيل أطْعنُ بالعوَالي
وأضرب هامَةَ الجبَّار منهُمْ ... بِعضْب الحدِّ حُودِثَ بالصَّقَالِ[1]
فما أنا في الحروبِ بمسْتَكِينٍ ... ولا أخْشَى مُصاولَة الرِّجالِ
أبي لي والدِي مِن كُلّ ذَمّ ... وخَالِي في الحوادث غيْرُ خالي

فهابه الصُّغد، وكان من قتاله إياهم وقَتْلهم ما ذكرناه.

(١) عَضْب السيف: صار قاطعًا.

ولما ظفر بهم كتب إلى يزيد بن عبد الملك ولم يكتب إلى ابْن هُبيْرة فوجد[1] عليه.

وفيها جُمِعت مكة والمدينة لعبْد الرحمٰن بن الضحاك، وولي عبْد الواحد بن عبد الله النَّضْري الطائف.

سنة أربع ومائة:

ذكر عزل عبد الرحمٰن بن الضحاك عن مكة والمدينة وولاية عَبد الواحد

وفي هذه السنة عزَل يزيدُ بْنُ عبد الملك عَبْدَ الرحمٰن بن الضحّاك عن مَكّة والمدينةَ.

وسبب ذلك أن عبْدَ الرحمٰن خطب فاطمة بنت الحُسَيْن بن عليّ رضي الله عنهما، فقالت: ما أُرِيدُ النكاح، ولقد قعدْتُ على بنِيّ هؤلاء، فألحّ عليها، وقال: لئن لم تَفْعَلِي لأجْلِدَن أكْبَر بنيك في الخمر، يعني عَبْد الله بن الحسن بن الحسَن بن علي، وكان على الديوان بالمدينة ابْنُ هرمز رجل من أهل الشام، وقد رفع حسابه، وهو يريد أنْ يسير إلى يزيد، فدخل على فاطمة يودّعها، فقالت: تُخْبِرُ أميرَ المؤمنين بما ألْقَى من الضحاك.

وبعثَتْ رسولاً بكتابٍ إلى يزيد يُخْبره بذلك. فقدم ابن هُرمز على يزيد، فاستخبره عن المدينة، وقال: هل من مُغَرِّبَةِ خَبر؟ فلم يذكر شَأْنَ فاطمة، فقال الحاجب ليزيد: بالباب رسول من فاطمة بنت الحُسين. فقال ابن هُرْمُز: إنها حملَتْني رسالةً؛ وأخبره الخبر، فنزل عن فِراشِه، وقال: لا أُمَّ لك! عندك هذا وما تخبرنيه! فاعتذر بالنِّسيانِ، فأذِنَ لرسولها، فأُدخل، وقرأ كتابَها، وجعل يضرب بخَيْزُرَان في يده، ويقول: لقد اجترأ ابْنُ الضحّاك، هل مِنْ رجل يُسْمِعُني صَوْته في العذاب؟ قيل له: عبد الواحد بن عبْد الله النَّضْرِي. فكتب إليه بِيدِه:

قد ولَّيتُك المدينةَ، فاهبط إليها، واعزل عنها ابْنَ الضحاك، وأغرمه أربعين ألف دينار، وعَذِّبْه حتى أسْمعَ صوْتَه، وأنا على فِراشي.

---

(١) وجد عليه: غضب.

وسار البرِيدُ بالكتابِ، ولم يدخل على ابْن الضحاك، فأحسَّ وأحضر البريد، وأعطاه ألْف دينار ليُخْبِره الخبر، فأخبره، فسار ابْنُ الضحاك مُجِدًّا فنزل على مسلمة بن عبْد الملك، فاسْتَجَار به، فحضر مسلمة عند يزيد، فطلب إليه حاجةً جاء لها، فقال: كلُّ حاجة هي لك إلا ابْنَ الضحاك. فقال: هي والله ابنُ الضحَّاك. فقال: والله لا أُعْفِيه أبدًا.

ورده إلى عبد الواحد بالمدينة فعذَّبهُ، ولبس جُبَّةَ صوف، فسأل الناس.

وكان قدوم النضْري في شوال سنة أربع ومائة، فأحْسن السيرةَ في الناس، وكان ابْنُ الضحاك قد آذى الأنصار طُرًّا، فأعفاهم اللّهُ منه.

وفيها عزل عُمر بنُ هُبَيرة سعِيدًا الحرشي عن خُراسان وولاَّها مسلم بن سعِيد بن أسلم بن زُرْعة الكِلاَبي، وسببُ ذلك أن الحَرشي كان يستخفُّ بابْنِ هُبَيْرةَ فعزَله وعذَّبه حتى أدَّى الأموال.

وحجّ بالناس في هذه السنة عبْدُ الواحد النَّضْري.

سنة خمس ومائة:

ذكر أخبار الخوارج في أيام يزيد بن عبد الملك

وهؤلاء الخوارج الذين نذكرهم ذكرهم ابنُ الأثير في حوادث هذه السنة، ولم يذكر أنهم خرجوا فيها، فقال:

وفي أيام يزيد خَرج حرُورِي اسمه عُقْفَان في ثلاثين رجُلاً، فأراد يَزيد أن يرسل إليه جُنْدًا يقاتلُونه، فقيل له: إن قُتِل بهذه البلاد اتخذها الخوارجُ دار هِجْرةٍ، والرأْيُ أنْ تبعثَ إلى كلِّ رجل من أصحابه رَجُلاً من قومِه يكلّمه ويردُّه. ففعل ذلك، فرجعوا وبقي عُقْفان وحْده، فبعث إليه يزيد أخاه فاستعطفه ورده.

فلما ولي هشام بن عَبْد الملك ولاَّه أمْر العُصَاة، فقدم ابْنُه من خراسان عاصِيًا، فشدَّه وثاقًا، وبعث به إلى هشام، فأطلقه لأبيه، وقال: لو خانَنَا عُقْفان لكتم أمْر ابنه، واستعمل عُقْفَان على الصدقَة فبقي إلى أن تُوفِّي هشام.

وخرج مسعود بن أبي زينب العبْدي بالبَحْريْن على الأشعث بن عَبْد الله بن الجَارُود، ففارق الأشعث البَحْرَيْن، وسار مسعود إلى اليمامة وعليها سُفيان بن عمْرو العُقَيلي من قِبَل ابْنِ هُبَيرة، فخرج إليه سفيان فاقتَتَلُوا بالخِضْرِمَةِ قِتَالاً شديدًا، فقتل مسعود، وقام بأمْرِ الخوارج بعده هلال بن مُدْلج، فقاتلهم يومه كلَّه، فلما أمسى تفرَّقَ

عنه أصحابُه، وبقي في نَفَرٍ يسير، فدخل قَصْرًا فتحصَّنَ به، فنصبوا عليه السلاليم، وصعدوا إليه فقتلوه.

وقيل: إن مسعودًا غلب على البَحْرين واليمامة تسع عشرة سنة حتى قتله سُفْيان بن عمرو. والله أعلم.

وخرج مصعب بن محمد الوالبي، وكان من رؤساء الخوارج، فطلبه عُمر بن هُبيرة، وطلب معه مالك بن الصَّعْب وجابر بن سَعْد، فخرجوا واجتمعوا بالخَوَرْنَق، وأمَّرُوا عليهم مصعبًا، فاستمر إلى أن ولي خالد القَسْرِي العراقَ في أيام هشام، فبعث إليهم جيشًا، وكانوا قد صاروا بحَزَّة[1] من أعمال الموصل، فالتقوا واقْتتلوا، فقُتل الخوارج.

وقيل: كان قَتْلهم في أيام يزيد. والله أعلم.

ذكر وفاة يزيد بن عبد الملك وشيء من أخباره

كانت وفاته بحَوران[2] لخمسٍ بقين من شعبان سنة خمس ومائة، وله أربعون سنة.

وقيل خمس وثلاثون. وقيل: غير ذلك.

وكانت خلافته أربع سنين وشهرًا. وكان جميلاً أبْيض جسيمًا مدوَّر الوجْه شديد الكِبرِ عاجِزَ الرأْي، وكان صاحِب لهو، وهو أول من اتخذ القِيَان من بني أُمية، وكان يهْوى جاريتَيْن، وهما حبابة وسلاَّمة، وهي سلاَّمة القَس، وقال يومًا وقد طرب: دعوني أطير. فقالت حبابة: على مَنْ تَدع الأُمَّة؟ فقال: عليك. وغَنَّتْ يومًا: [من الكامل]

بين التَّراقِي واللَّهاةِ حرارة ... ما تطمئنُّ وما تَسُوغُ فَتَبْرُدُ[3]

فأهْوَى ليطير، فقالت: يا أمير المؤمنين، إنَّ لنا فيك حاجة. فقال: والله لأطيرنَّ. فقالت: فَعَلَى منْ تخلِّف الأُمَّة والمُلْك؟ فقال: عليكِ والله. وقَبَّل يدها.

---

(١) حزّة: موضع بين نصيبين ورأس عين على الخابور وبليدة قرب إربل من أرض الموصل... (معجم البلدان لياقوت).

(٢) حوران: كورة واسعة من أعمال دمشق.

(٣) اللهاة: اللحمة المشرفة على الحلق، أو الهنة المطبقة في أقصى سقف الفم.

وخرجت معه إلى ناحيةِ الأُرْدُن للتنزه فرماها بحبَّةِ عِنَب فدخلت حلْقَها فشرقت ومرضت وماتت، فتركها ثلاثةَ أيام لا يدْفِنُها حتى أنْتَنَت، وهو يقبِّلُها ويشمُّها وينظر إليها ويبكي، فكُلِّم في أمْرها فدفنها.

وقيل: إنه نبشها بَعْدَ دفْنِهَا، وبقي سبعة أيامِ لا يظهر للناس، وأشار عليه مسلمة بذلك لئلا يَظْهَر منه ما يسفِّهه عندهم.

قال: وكان يزيد قد حجّ أيام أخيه سليمان، فاشترى حبابة بأربعة آلاف دِينار، وكان اسمها الغالية، فقال سليمان: لقد همَمْتُ أنْ أحْجر على يزيد. فردّها يزيدُ فاشتراها رجلٌ من أهل مِصر، فلما أفْضَت الخلافةُ إلى يزيد قالت له امرأتُه سُعْدَة يومًا: هل بَقي من الدنيا شيء تتمنَّاه؟ قال: نعم، حَبَابة، فأرسلت فاشتَرَتْها، وأتت بها فأجلستها مِنْ وراء الستر، وأعادت عليه القَوْل الأول. فقال: قد أعلمْتُك، فرفعت السِتْرَ، وقالت: هذه حَبَابة، وقامت وتركتها، فحظيتْ سُعْدة عنده، وأكرمها.

وهي سُعْدَة بنت عبْد الله بن عمرو بن عثمان بن عفَّان.

قال: وإنما قيل لسلاَّمة القَسّ، لأن عبْد الرحمٰن بن عبد الله بن أبي عمار أحد بني جُشَم بن معاوية بن بَكْر كان فقيهًا عابدًا مجتهدًا في العِبَادةِ، وكان يسمى القَسّ لعبادَتِهِ. مرّ يومًا بمَنزل موْلاَها، فسمع غِنَاءَها، فوقف يسْمَعُهُ فرآه مولاها، فقال له: هل لك أن تَنْظُرَ وتسمع! فأبى، فقال: أنا أُقْعِدُها بمكانٍ لا تراها وتسمع غناءها. فدخل معه فغنَّت، فأعجبه غناؤها. ثم أخرجها مولاها إليه فشُغِفَ بها وأحبها وأحبته. فقالت له يومًا على خَلْوة: أنا والله أُحِبُّك. قال: وأنا واللّهِ. قالت: وأُحِبّ أن أُقَبِّلك. قال: وأنا والله. قالت: وأُحب أنْ أضَع بطْني على بطنك. قال: وأنا والله. قالت: فما يمنعك؟ قال: قوله تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ۝٦٧﴾ [الزخرف: ٦٧]. وأنا أكْرَهُ أن تؤولَ خُلَّتُنَا[1] إلى عداوة، ثم قام وانصرف عنها وعاد إلى عبادتِهِ. وله فيها أشعار كثيرة منها قوله: [من الطويل]

ألم تَرهَا لا يُبْعِدُ اللّهُ دَارَها ... إذا طَرَّبتْ في صوتها كيف تَصْنَع

تمدّ نظام القَوْل ثم ترده ... إلى صَلْصَلٍ من صوتها يترجع

وله فيها غير ذلك.

وأما يزيد فأخباره مع سلاَّمة وحبَابَة كثيرة مشهورة أضربنا عن ذكْر كثير منها.

---

(١) الخلة: الصداقة المختصة لا خلل فيها.

فلنذكر خلافَ ذلك من أخباره:

وكان له من الأولادِ الذكور ثمانية، منهم عَبْد الله، والوليد.

كُتَّابُه: عُمر بن هُبيْرة، ثم إبراهيم بن جبَلة، ثم أُسامة بن زيد السَّلِيحي.

قاضيه: عبْد الرحمٰن بن الحسْحاس وغيره.

حُجَّابه: سعِيد وخالد مؤلياه.

نقش خاتمه: قِنِي السيئاتِ يا عزِيز.

الأمير بمصر: بِشْر بن صَفْوان.

وأقَرَّ أبا مسعود على القضاء، ثم ولَّى إمارةَ مصر حَنْظَلَةَ بن صفوان أخا بشر، وسار بشر إلى إفريقية. وولى مصر أيضًا في خلافته أُسامَة بن زَيْد، والله أعلم.

ذكر بيعة هشام بن عبد الملك

هو أبو الوليد هشام بن عبد الملك بن مَرْوان بن الحكَم، وأُمُّه أُم هشام فاطمة، وقيل: عائشة بنت هشام المخزومي، وهو العاشر من ملوك بني أُميّة.

بويع له لخَمْس بقين من شعبان سنة خمس ومائة بعد وفاة أخيه، أَتَتْهُ الخلافةُ وهو بالرُّصَافة[١]، فجاءه البريد بالخاتم والقَضِيب وسلم عليه بالخلافة، فركب منها، حتى أتى دِمشْق، وكان من أول ما ابتدأ به أنْ عَزَل عُمَر بن هُبَيْرة عن العِرَاق، واستعمل خالد بن عَبْد الله القَسْري، وذلك في شوال من السنة. ولنبدأ بذِكْر الغزَواتِ والفتوحات في أيامه:

ذكر الغزوات والفتوحات
في أيام هشام بن عبد الملك على حكم السنين

في سنة خمس ومائة غزا الجرّاح الحَكَمِيّ اللاّن[٢] حتى جازَ ذلك إلى مدائن وحصون وراء بَلَنْجَر، ففتح بَعْضَ ذلك وأصاب غنائم كثيرة.

(١) الرصافة: المراد رصافة الشام: في مواضع كثيرة؛ منها رصافة هشام بن عبد الملك، وهي في غربي الرق بينهما أربعة فراسخ، بناها هشام لما وقع الطاعون بالشام، وكان يسكنها في الصيف. . . (معجم البلدان).

(٢) اللان: بلاد واسعة في طرف إفريقية بقرب باب الأبواب.

وغزا سعِيدُ بن عَبْد الملك أرْضَ الرُّوم، فبعث سَرِيّة في نحو ألف مقاتل فأُصيبوا جميعًا.

وغَزَا مُسلم بن سَعِيدُ الكِلاَبي أميرُ خُراسان التركَ بما وراء النهر فلم يفتح شيئًا، وقفل فاتبعه الترك فلحقوه، والناس يَعْبُرُونَ جيْحُون، وعلى الساقة عُبَيد الله بن زهير بن حيّان على خيل تميم، فحامُوا حتى عَبر الناس.

وغَزَا مسلم أفْشين[١]، فصالح أهلها على ستة آلاف رأس، ودفع إليه القَلْعَة.

وغَزَا مَرْوَان بن محمد الصائفة اليُمْنَى، فافتتح قُونِيَة من أرض الروم، وكَمْخ. واللّهُ سبحانه وتعالى أعلم.

ذكر غزوة مسلم الترك

وفي سنة ست ومائة غَزَا مسلم بن سعيد بن أسلم بن زُرْعَة الترك، فقطع النهر، فلما بلغ بُخَارى أتاه كتاب خالد القَسْري بولاَيتِه العراق، ويأْمره بإتمام غَزاته، فسار إلى فَرْغَانة[٢]، فلما وصلها بلغه أنَّ خاقان قد أقبل إليه، فارتحل، فسار ثلاثَ مراحل في يوم، وأقبل إليهم خاقان، فلقي طائفةً من المسلمين، فقتل جماعةً منهم، وأصاب دوابَّ لمسلم، ورحل مُسْلم بالناس، فسار ثمانيةَ أيام والترك يُطِيفون بهم، وأحْرَقَ الناسُ ما ثَقُل عليهم من أثقالهم، فحرقوا ما قيمتهُ ألْف ألْف، ونزل مسلم في الليلة التاسعة، وأصبح فسار فوردَ النَّهْرَ وأقام يومًا ثم قطعه من الغَدِ، واتبعهم ابنٌ لخَاقَان، فعطف حُميد بن عبْد الله وهو على السَّاقَةِ على طائفةٍ من الترك نحو المائتين فقاتلهم، فأسر أهلَ الصُّغد وقائدهم وقائد الترك في سبعة، ومضى البقيَّةُ. ورجع حُميد فرُمِيَ بنُشَّابة في ركبته فمات.

وعطش الناس في هذه الغَزْوَةِ عطشًا شديدًا وأتوا خُجَنْدَة وقد أصابتهم مَجَاعةٌ وجهد، فانتشر الناسُ. وجاء عَبْدَ الرحمٰن بن نُعيم عهْدُهُ على خراسان من قبل أسد بْن عَبْد الله أخي خالد القَسْري، فأقرأه عبْدُ الرحمٰن مسلمًا، فقال: سَمْعًا وطاعة.

قال بعض منْ شهد هذه الغزوة: قاتلنا الترك فأحاطوا بنا حتى أيقنًا بالهلاك، فحمل حوْثَرة بن يزيد بن الحُرّ بْنِ الحُنَيْف على الترك في أربعة آلاف، فقاتلهم ساعةً.

---

(١) في معجم ياقوت: أفشنة: بفتح الهمزة، وسكون الفاء، والشين معجمة مفتوحة، ونون وهاء: من قرى بخارى.

(٢) فرغانة: مدينة وكورة واسعة بما وراء النهر متاخمة لبلاد تركستان.

ثم رجع، وأقبل نَصر بن سيّار في ثلاثين فارسًا فقاتلهم حتى أزالهم عن مواقِفِهم، وحمل عليهم الناسُ؛ فانهزم التركُ، وقَفَلَ عَبْدُ الرحمٰن بالناس ومعه مُسلم.

وغزا سعيد بن عبد الملك الصائفةَ في هذه السنة.

وغزا الجرّاح بن عَبْد الله اللاَّنَ، فصالح أهلها وأدّوا الجزية.

ذكر غزاة عنبسة الفرنج بالأندلس

وفي سنة سبع ومائة غزا عَنْبَسة بنُ سُحَيم الكَلْبي عاملُ الأندلس بلدَ الفرنج في جمْعٍ كثير، فنازل مدينة برشلونة[١]، وحصر أهلَها، فصالحوه على نِصف أعمالها، وعلى جميع ما في المدينة من أسْرَى المسلمين وأسْلاَبهم، وأن يعطوا الجِزْيَةَ ويلتزموا بأحكام الذمَّة.

وفيها غزا أسدُ بْنُ عَبْد الله أمير خراسان الغُور؛ وهي جِبال هَراة، فعمد أهْلُهَا إلى أثقالهم فصيَّرُوها في كَهْفٍ ليس إليه طريق، فأمر أسَد باتخاذِ تَوابيت، ووضع فيها الرجال، ودَلاَّها بالسلاسل فاستخرجوا ما قدروا عليه.

وفيها غزا الحارث بن عمْرو الطائي التُّرْكَ من جهة أرمينية فافتتح رُسْتاقًا من بَلَدِ التُّرْك وقُرًى كثيرة وأثَّر أثرًا حسَنًا.

وفي سنة ثمان ومائة قطع أسدَ بن عَبْد الله النَّهْر، وأتاه خاقان، فلم يكن بينهما قِتَال، ثم مضى أسَد إلى غُورِيَان[٢]، فقاتلم يومًا، ثم اقتتلوا من الغَدِ فانهزم المشركون، وحوَى المسلمون عسْكرهم، وظهَرُوا على البلاد، وأسرُوا وسبوْا وغَنِمُوا.

وفيها غَزَا مسلمةُ بنُ عبد الملك الرومَ مما يَلِي الجزيرةَ ففتح قَيْسارية، وهي مدينة مشهورة.

وغزا إبراهيم بن هشام ففتح حِصْنًا من حصونِ الروم.

وفيها سار ابن خاقان ملك الترك إلى أذْرِبيجان، فحصر بعضَ مُدُنها، فسار إليه الحارث بن عمرو الطائي، فالتقوا واقتتلوا فانهزم الترك وتبعهم الحارث حتى عبر نَهْر رُوس، فعاد إليه ابْنُ خاقان فعاودُوا الحَرْب أيضًا، فانهزم ابْنُ خاقان، وقُتل من الترك خَلْق كثير.

---

(١) برشلونة: في معجم ياقوت؛ برشليانة: بسكون اللام، وياء، وألف، ونون: بلدة بالأندلس من أقاليم لبلة.

(٢) غوريان: قرية من قرى مرو.

وغزا معاويةُ بن هشام بن عبد الملك ومعه مَيْمُونُ بن مِهْرَان على أهل الشام فقطعوا البَحْر إلى قُبْرس.

وغزا البرَّ مسلمة بن عَبْد الملك بن مروان.

وفي سنة تسع ومائة غزا عَبْد الله بن عقبة الفهري في البحر، وغزا معاوية بن هشام أرض الروم، ففتح حصنًا يقال له طيبة.

وغزا مسلمة بن عبد الملك الترك من ناحية أذْرَبِيجان فغَنِم وسبَى وعاد.

وغزا بِشْر بن صفْوان عامل إفريقية جزيرةَ صقلية، فغنم شيئًا كثيرًا، ثم رجع إلى القَيْروان فتوفي من سنته. واستعمل هشام عُبيْدة بن عبد الرحمٰن بن أبي الأغَرّ السلمي.

ذكر خبر أشرس بن عبد الله السلمي أمير خراسان وأهل سمَرْقَنْد وغيرها بما وراء النهر وما يتصلُ بذلك من الحروب

في سنة عشرة ومائة أرسل أشرس إلى أهل سَمَرْقَند وغيرها مما وراء النَّهْر يدْعُوهم إلى الإسلام، على أن توضع عنهم الجِزْية، وأرسل في ذلك أبا الصَّيْداء صالح بن طَريف مولى بني ضَبَّة والرَّبيع بن عِمْران التميمي، فقال أبو الصَّيْداءِ: إنما أخْرُج على شرطة أنه منْ أسلم لا يُؤْخَذ منه الجِزْيَة، وإنما خَراجُ خراسان على رُؤوس الرجالِ. فقال أشرس: نَعم. فشخص إلى سمرْقَنْد وعليها الحسن بن أبي العَمَرَّطَة الكِنْدِي، فدعا أبو الصيْداءِ أهْلَ سمرقند ومنْ حولها إلى الإسلام، على أنْ تُوضَع عنهم الجزيةُ، فسارع الناسُ إلى الإسلام، فكتب إلى أشرس: إنَّ الخراج قد انكسر. فكتب أشرسُ إلى ابنه أبي العمرَّطَة: إنَّ في الخراج قوةً للمسلمين، وقد بلغني أنَّ أهلَ الصُّغْد وأشباهَهم إنما أسلموا تعوُّذًا من الجزْيةِ، فانظر من اخْتَتَن وأقام الفرائض، وقرأ سورةً من القرآن فارْفَعْ خَراجه، ثم عزل أشرس ابن أبي العمرَّطَة عن الخراج، وصَيَّره إلى هانىء بن هانىء، فمنعهم أبو الصيداء من أخْذ الجزْية ممن تلفَّظَ بالإسلام، وكتب هانىء إلى أشرس: إنَّ الناس قد أسْلَمُوا وبَنوا المساجد.

فكتب أشرس إليه وإلى العمال: خُذوا الخراج ممَّنْ كُنْتُم تأْخذونه عنه، فأعادُوا الجزيةَ على منْ أسلم، فامتنعوا، واعتزلوا في سبعة آلاف على عِدّة فراسخ مِنْ سَمرْقَنْد، وخرج إليهم أبو الصَّيْداءِ وربيع بن عِمْران، والهيْثَم الشَّيْباني، وأبو فاطمة

الأزدي، وعامر بن قُشَير، وبشير الخُجَنْدِي، وبَيان العَنبري، وإسماعيل بن عُقْبة لِيَنْصُروهم، فعزل أشْرَس ابن أبي العَمَرَّطة عن الحرْب، واستعمل مكانَه المُجشِّر بن مُزَاحم السلمي؛ فكتب المُجَشِّر إلى أبي الصَّيْداءِ في القُدُوم عليه هو وأصحابه، فقدم أبو الصَّيْداءِ وثابت قُطْنَة فحبسهما، واجتمع أصحابُ أبي الصَّيداءِ وولَّوْا أمْرَهم أبا فاطمة ليقاتلوا هانئًا، فقال لهم: كفُّوا حتى نكتب إلى أشرس.

فكتبوا إليه، فكتب أشرس: ضَعُوا عنهم الخراج. فرجع أصحابُ أبي الصَّيْداءِ وضَعُفَ أمْرُهم، فتُتُبِّع الرؤساءُ فأُخذوا وحُمِلوا إلى مرْو. وألحَّ هانىء في الخراج، واستخفُّوا بعظماءِ العَجَم والدَّهَاقين، وأخذوا الجزية ممَّنْ أسلم، فكفَرَت الصُّغْدُ وبُخَارى، واستجاشوا التُّرْك، وخرج أشرس غازيًا، فنزل آمُل، فأقام ثلاثة أشهر.

وقَدِم قَطَن بنُ قُتَيْبة بنِ مسلم، فعبرَ النهْرَ في عشرة آلاف، وأقبل أهْلُ الصُّغد وبُخَارى معهم خاقَان والتُّرْكُ، فحصروا قَطَنًا في خَنْدَقه، وأرسل خاقان مَنْ أغار على سرْحِ الناس، فأخرج أشرس ثابت قُطْنة بكفالة عَبْدِ الله بن بِسْطَام بن مسعود، فوجهه مع عبْد الله بن بسطام في خَيْل، فقاتلا التركَ بِآمُل حتى استَنْقذُوا ما كان بأيديهم، ورجع التركُ.

ثم عبر أشْرس بالناس إلى قَطَن، وبعث سَرِيةً مع مسعود أحد بني حيّان، فلقيهم العدوُّ فقاتلوهم، فقُتِل رجالٌ من المسلمين، وهُزِم مسعود. فرجع إلى أشرس.

وأقبل العدوُّ، فلقيهم المسلمون، فجالوا جوْلَةً، فقُتِل رجالٌ من المسلمين.

ثم رجع المسلمون فصبروا، فهزم اللّهُ المشركين، وسار أشرس بالناسِ حتى نزل بيْكَنْد[1]، فقطع عنهم العدوُّ الماءَ، وأقام المسلمون يومًا وليلة، وعطِشُوا؛ فرحلوا إلى المدينة التي قطع العدوُّ بها الماءَ، وعلى المقدمة قَطَن بن قُتَيْبَة، فلقيهم العدوّ، فقاتلوهم، فَجهِدُوا من العَطَش، فمات منهم سبعمائة، وعجز الناسُ عن القتال؛ فقال الحارث بن سُريج للناس: القَتْل بالسيف أكرمُ في الدنيا وأعظمُ أجْرًا عند الله من الموت عطشًا، وتقدم هو وقَطَن في فوارس من تميم فقاتلوا حتى أزَالُوا التُّرْكَ عن الماءِ، فشرب الناسُ واستقَوا، ثم قاتلوا التركَ قتالاً شديدًا، فقُتِل ثابت قُطْنَة في جماعةٍ من المسلمين بعد أن أبْلَوا أعْظَم بلاءٍ وأحسنه.

---

(١) بيكند: بالكسر، وفتح الكاف، وسكون النون: بلدة بين بخارى وجيحون، على مرحلة من بخارى، لها ذكر في الفتوح، وكانت بلدة كبيرة حسنة كثيرة العلماء، خربت منذ زمان... (معجم البلدان).

ثم اجتمع رجالٌ من المسلمين تَبايعُوا على الموتِ مع قَطَن بن قُتَيْبة، وحملوا على العدوّ فقاتلوهم فكشفُوهم، وركبهم المسلمون يقْتُلونهم حتى حجزَ بينهم اللَّيلُ، وتَفَرَّق العدوُّ، وأتى أشْرس بُخَارى، فحصر أهْلَها فعُزِل وهو يحاصِرُها بالجُنَيْدِ بن عبد الرحمٰن على ما نذكره إنْ شاء الله تعالى.

ذكر وقعة كمرجة[١]

قال: ثم إنَّ خاقانَ حصر گَمْرجة، وهي من أعظم بُلْدان خراسان، وبها جمْعٌ من المسلمين، ومع خاقان أهلُ فَرْغَانه وأفْشِينة، ونَسف، وطوائفُ من أهْل بُخارى، فأغلق المسلمون البابَ، وقطعُوا القَنْطَرةَ التي على الخَنْدق، فأتاهم ابن خسرو بن يزْدجرد، فقال: يا معشر العَرب، لِمَ تَقتلُون أنفُسكم؟ أنا الذي جئْتُ بخاقان ليردَّ عليَّ مملكتي، وأنا آخُذُ لكم الأمانَ، فشتموه، وأتاهم بازغرى، فقال: إنَّ خاقانَ يقولُ لكم: إني أجْعلُ منْ عطاؤه منكم ستمائة ألفًا، ومنْ عطاؤه ثلاثمائة ستمائة، ويُحسن إليكم وتكونون معه، فأبوا ذلك، فأمر خاقانُ بجمْع الحطَب الرطْب، وأنْ يُلْقى في الخَنْدَقِ ليعْبُروا عليه. فجُمع في سبعةِ أيام، فكانوا يُلْقُون الحطَب الرَّطْب، ويُلْقي المسلمون الحطَبَ اليابس حتى سُوِّيَ الخَنْدَقُ بالأرض؛ فأشْعَل المسلمون فيه النيران، وهاجت ريحٌ شديدةٌ، فاحترق الحطَبُ الذي جُمِع في سبعةِ أيام في ساعةٍ واحدة، ثم فَرَّق خاقانُ على الترك أغنامًا، وأمرهم أنْ يأكُلُوها ويَحْشوا جلودها تُرَابًا، ويُلْقُوها في الخَنْدَقِ، ففعلوا ذلك، فأرسل اللّهُ تعالى مطَرًا شديدًا، فاحتمل السيلُ ما في الخَنْدقِ، وألْقاه في النَّهْرِ الأعظم.

ورَماهُم المسلمون بالسهامِ فقُتِل بازغرى وكان داهيةً، وكان خاقان لا يخالِفهُ؛ ففرح المسلمون بقَتْله، وكان عند المشركين مائةٌ من أسْرى المسلمين فيهم أبو الحَوْجَاءِ العَتَكيّ والحجاجُ بن حُميد النضري، وكان عند المسلمين مائتان من أولاد المشركين رهائن فقتلوهم، واستماتوا واشتدَّ القتالُ.

ثم وقع الاتفاقُ بينهم وبين الترك على أنَّ خاقان يَرْحل عن كَمَرْجة، ويرحلوا هم عنها أيضًا إلى سمرقند والدَّبُوسِية[٢]، فأجاب أهْلُ كَمَرْجة إلى ذلك، وأخذ كلٌّ منهم من الطائفتين رهائنَ من الأُخْرى على الوَفَاءِ، وارتحل خاقانُ، ثم رحلوا بعده،

---

(١) كمرجة: بفتح أوله وثانيه، وسكون الراء، وجيم: قرية من قرى الصغد، ينسب إليها محمد بن أحمد بن محمد الإسكاف المؤذن الصغدي، الكمرجي. . . (معجم البلدان).

(٢) الدبوسية: بليدة من أعمال الصغد مما وراء النهر.

وسيَّر معه كور صول التُّركي ليمنَعهم ممن يتعرَّضُ إليهم من الترك، فلما انتَهوْا إلى الدَّبُوسِية، وكان بها عشرةُ آلاف مقاتل من المسلمين، أمنوا وأطْلَقَ كلٌّ من الطائفتين ما بيدِهم من الرهائن، وكانت مدةُ حصارِ كَمرْجَة ثمانية وخمسين يومًا، فيقال: إنهم لم يسقُوا إبلهم خمسةً وثلاثين يومًا.

وفي هذه السنة ارتد أهلُ كَرْدَر[1]، فأرسل إليهم أشْرسُ جُنْدًا فظفِرُوا بهم.

وغزا مسلمة التُّرْكَ من نحو بابِ اللاَّنِ، فلقي خاقان في جُموعِه، فاقتتلوا قريبًا من شَهْرٍ، وأصابهم مطَرٌ شديد، فانهزم خاقان ورجع مسلمة.

وغزا مُعاوية الروم ففتح صَلم.

وغَزا الصائفةَ عبْدُ الله بن عُقْبة الفِهْري.

ذكر عزل أشرس عن خراسان واستعمال الجُنَيْد بن عبد الرحمٰن وقتاله الترك

وفي سنة إحدى عشرة ومائة عزل هشامُ بْنُ عبد الملك أشرسَ بن عبد الله عن خُراسان، واستعمل الجُنَيْد بن عبْد الرحمٰن بن عمْرو بن الحارث بن خارجة بن سِنَان بن أبي حارِثَة المرّي، وحمله على ثمانية من البريد، فقدم خراسان في خمسمائة، وسار إلى ما وراءَ النَّهْرِ، وسار معه الخطاب بن مُحْرز السلمي خليفةُ أشرس بخراسان، فقطَعَا النَّهْرَ، وأرسل الجُنَيدُ إلى أشرسَ، وهو يقاتل أهل بُخَارى والصُّغْد: أن أمِدّني بخَيْلٍ.

وخاف أن يُقْطَع دونه، فوجَّه إليه أشرَسُ عامرَ بن مالك الحمّاني، فلما كان عامرٌ ببَعْضِ الطريق عرض له التُّرْكُ والصغد، فدخل حائطًا حصينًا، وقاتلهم على الثلْمَة، وكان معه ورْد بن زياد بن أدْهم بن كُلْثوم وواصل بن عمْرو القَيْسِي، فخرج واصل وعاصم بن عُمَيْر السمرقندي وغيرهما، فاستَدَارُوا خَلْف الترك فلم يشْعُر خاقان إلاَّ والتكبير مِنْ وَارئه، وحمل المسلمون على التُّرْك، فقاتلوهم، وقتلُوا عظيمًا مِنْ عظماءِ الترك، فانهزم التُّرْك، وسار عامر حتى لقي الجُنَيْد، وأقبل معه وعلى مقدمة الجُنَيْد عمارة بن خُرَيم، فلما صار علَى فَرْسخَيْنِ من بِيْكَنْد تلقَّتْهُ خَيْلُ التُّرْكِ، فقاتلوهم، فكاد الجُنَيْد يهْلِك هو ومنْ معه، ثم أظهره الله، وسار حتى قدم العسكر،

---

(١) كردكر: بفتح أوله وسكون ثانيه، ودال مفتوحة، وآخره راء: ناحية من نواحي خوارزم وما يتاخمها من نواحي الترك.

وظَفِر الجُنَيْد، وقَتل من الترك، ثم زحف إليه خاقان، فالتقوا دُونَ زَرْمان[١] من بلاد سمرْقَنْد، وقَطَن بن قُتَيْبة على ساقَةِ الجُنيد، فأسر الْجُنيد ابنَ أخي خاقان، فبعث به إلى هشام، ورجع الْجُنَيْد بالظَّفر إلى مرْو.

وفيها غزا معاويةُ بن هشام الصائفة اليسرى، وغَزَا سعيد بن هشام الصائفةَ اليمنى، حتى أتى قَيْسارية.

وغزا عبْدُ الله بن أبي مرْيم البَحْرَ.

وفيها سارت التُّرْكُ إلى أذْرَبِيجان، فلقيهم الحارثُ بن عمْرو، فهزمهم.

وفيها استعمل هشام الجرّاح بن عبْد الله الحَكَمِيّ على أرْمينية، وعزل أخاه مسلمة، فدخل بلاد الخزَر من ناحية تَفْلِيس[٢]، ففتح مدينتهم البيضاء، وانصرف سالمًا!.

ذكر مقتل الجراح بن عبد الله الحكمي ووِلاية سَعيد الحَرشي وحروبه مع الخَزَر والتُّرْك وما افتتحه من البلاد

وفي سنة ثنتي عشرة ومائة قُتِل الجرّاحُ بن عبْد الله الحكَمِي. وسبَبُ ذلك أنه لما هزم الخَزَر اجتمعُوا هم والتُّرْك من ناحيةِ اللاَّن، فلقيهم الجرّاحُ فيمَنْ معه من أهل الشام، فاقتتلوا أشَدَّ قتالٍ رآهُ الناسُ، وتكاثر الخَزَر والتّركُ على المسلمين، فاستشهد الجرّاح ومنْ معه بمَرْج أرْدَبِيل[٣]، فلما قتل طمع الخَزَر وأوْغَلُوا في البلادِ حتى قاربُوا الموصل، وعظم الخَطْبُ على المسلمين.

فبلغ الخبرُ هشامَ بن عبد الملك، فاستشار سعيدًا الحَرشي، فقال: أرى أن تبعثني على أربعين دابّة من دَوَابّ البريد، ثم تبعث إليّ كل يوم بأربعين رجلًا، واكتب إلى أمَراء الأجناد أن يُوَافُوني. ففعل ذلك، وسار الحَرَشيّ وهو لا يمرُّ بمدينة إلاَّ استَنْهَضَ أهْلَها، فيجيبه مَنْ يُريد الجهاد.

---

(١) زرمان: بفتح أوله وسكون ثانيه وآخره نون: من قرى صغد سمرقند. . . (معجم البلدان لياقوت).

(٢) تفليس: بلد بأرمينية الأولى.

(٣) أردبيل: بالفتح ثم السكون، وفتح الدال وكسر الباء، وياء ساكنة ولام: من أشهر مدن أذربيجان. . . (معجم البلدان).

ولم يزل كذلك حتى وصل إلى مدينة أرْزَن[١]، فلقِيه جماعة من أصحاب الجرّاح، فردّهم معه، وسار فبلغ خِلاَط[٢]، فحاصرها أيامًا وفتحها، وقسّم غنائِمهَا في أصحابه، ثم سار عنها وفتح الحصونَ والقِلاَع شيئًا بعد شيْءٍ حتى أتى بَرْذَعَة، وكان ابْنُ خاقان يومئذ بأذْرِبيجان يُغِر ويَنْهَب ويَسْبِي ويَقْتُل، وهو يُحاصر مدينةَ وَرْثَان[٣]، فأرسل الحَرشيُّ رجلًا من أصحابه إلى أهلها يُعَرِّفُهم وصولَه، ويأْمرُهم بالصبر، فسار ولقِيَه بعْضُ الخَزَر، فأخذوه وسألوه عن الخبر، فأخبرهم وصدقهم، فقالوا له: إنْ فعلْتَ ما نأْمرُك به أحْسَنَّا إليكَ، وأطلقناك، وإلا قتَلْنَاك. قال: فما الذي تريدون؟ قالوا: تقول لأهل وَرْثَان: إنكم ليس لكم مدَد، ولا منْ يكشف ما بكُم، وتأْمرُهم بتسليم البلَد إلينا. فأجابهم إلى ذلك.

فلما قارب المدينةَ وقف بحيث يَسْمعُ أهْلُها كلامَه، فقال لهم: أتعرفوني؟ قالوا: نعم، أنتَ فلانٌ. قال: فإنَّ الحرشي قَدْ وصل إلى مكان كذا في عساكرَ كثيرة، وهو يأْمركم بحفْظِ البلد، والصَّبْر، ففي هذين اليومين يَصِلُ إليكم.

فرفَعُوا أصواتَهم بالتهليل والتكْبير، وقتلت الخَزَر ذلك الرجلَ، ورحلوا عن مدينة ورْثَان، ووَصَلَها الحَرَشِي، وقد ارتحل الخَزَر إلى أرْدَبِيل[٤]، فسبقهم إليها، فساروا عنها، ونزل سعيد بَاجَرْوَان[٥]، فأتاه فارسٌ على فَرس أبيضَ، فقال له: أيها الأميرُ، هل لك في الجهادِ والغنيمة؟ قال: وكيف لي بذلك؟ قال: هذا عسكَرُ الخَزَر في عشرة آلاف، ومعهم خمسةُ آلاف بنت من المسلمين أسارى وسبَايا، وهم على أربعة فراسخ.

فسار الحَرشيُّ إليهم ليلًا، فوافاهم آخر الليل، وهم نِيَامٌ، فكبسهم مع الفَجْر، ووضع المسلمون فيهم السيفَ، فما بزغت الشمسُ حتى قُتِلوا عن آخرهم غَيْرَ رجل واحد.

---

(١) أرزن: مدينة مشهورة قبل خلاط... وقيل: أرزن الروم: بلدة أخرى من بلاد أرمينيا أيضًا... (معجم البلدن لياقوت).

(٢) خلاط: قصبة أرمينية الوسطى... (المراصد).

(٣) ورثان: بلد هو آخر حدود أذربيجان بينه وبين الرس فرسخان.

(٤) أردبيل: بالفتح ثم السكون، وفتح الدال، وكسر الياء، وياء ساكنة ولام: من أشهر مدن أذربيجان؛ وكانت قبل الإسلام قصبة الناحية... (معجم البلدان).

(٥) باجروان: قرية من ديار مصر بالجزيرة من أعمال البليخ... وقيل: باجروان أيضًا مدينة من نواحي باب الأبواب قرب شروان... (معجم البلدان لياقوت).

ثم أتاه ذلك الفارس الذي أتاه أولاً وقال له: هذا جَيْشُ الخَزَر ومعهم أموال المسلمين وأولادُهم، وحَرَمُ الجرّاح وأولاده، وهم بمكان كذا؛ فسار الحَرشي إليهم، فما شعروا إلاّ والمسلمون معهم، فوضعوا فيهم السيفَ فقتلوهم كيف شاؤُوا، ولم يُفْلت من الخَزَر إلا الشريد، واستنقذوا مَنْ معهم، وغنموا أمْوالَ الخزَر، وحمل الأسارى إلى بَاجرْوان.

وبلغ الخبر ابْنَ ملك الخزر، فجمع أصحابَه من نواحي أذْربِيجان، فاجتمع له عساكر كثيرة، فحرَّضَهم، وسار نحو الحرشيّ، وسار الْحرَشِيُّ إليه، فالتقيا بِزَرَنْد[1]، واقتَتَلُوا أشدَّ قتال، فانحاز المسلمون يَسِيرًا ثم عادُوا إلى القتال، فاشتدّت نكايتُهم في العدوّ، فهزموهم، وتبعهم المسلمون حتى بلَغُوا بهم نهر أوس[2]، وعادوا عنهم وحَووْا ما في عسكرهم من الأمْوال والغنائم، وأطلقوا الأسارى والسَّبايَا، وحملوا الجميع إلى بَاجَرْوَان، ثم جمع ابْنُ ملك الخزر مَنْ لحق له مِنْ عساكره، وعاد بهم نحو الحَرَشي، فنزل على نَهْر الْبَيْلَقَان[3]، فسار الحَرَشي نحوه؛ فوافاهم هناك، والتقوا، فكانت الهزيمةُ على الخَزَرِ، فكان مَنْ غَرِق مِنْهم أكثر ممن قتل، وجمع الحَرَشي الغنائم، وعاد إلى باجَرْوَان وكتب إلى هشام بالفتح، وأرسل إليه الخُمْس. فكتب إليه هشام يشكره، ويُثْني عليه، ويأْمره بالمسير إليه، واستعمل هشام أخاه مسلمة على أرمينية وأذْرَبيجان، فوصل إلى البلاد، وسار إلى الترك حتى جاز البلاد في آثارهم.

ذكر وقعة الجنيد بالشعب

وفي سنة ثنتي عشرة ومائة أيضًا خرج الجُنَيْدُ أمِيرُ خراسان غازِيًا يريد طخارستان؛ فوجه عمارة بن خُرَيم إلى طخَارستان في ثمانية عشر ألفًا، ووجَّه إبراهيم بن بسام الليثي في عشرة آلاف إلى وَجْهِ آخر، وجاشت التُّرْكُ فأتوا سمَرْقَنْد، وعليها سَوْرة بن الحُر؛ فكتب إلى الْجُنَيْد أنَّ خاقان جاشَ بالترك، فخرجتُ إليهم، فلم أطِقْ أن أمنَع حائطَ سمرقند، فالغَوْثَ الغَوْثَ.

فعبر الجُنَيْدُ النهر، وقد فَرّق عساكره، فسار بمَنْ معه حتى نزل كَشَّ[4]، وتأهّب

---

(١) زرند: بليدة بين أصبهان وساوة. (٢) أوس: اسم موضع.

(٣) بيلقان: مدينة قرب الدربند الذي يقال له باب الأبواب تعد في أرمينية الكبرى قريبة من شروان... (معجم البلدان لياقوت).

(٤) كش: أو بالسين: كسّ، وقد تقدم وصفها.

للمسير، وبلغ ذلك الترك؛ فغوَّرُوا الآبارَ التي في طريق كَش، وسار الجُنَيْد يُريد سَمَرْقَنْد، فأخذ طريقَ العَقَبة، وارتقى في الجبل، ثم سار حتى صار بَيْنَه وبين سَمَرْقَنْد أربعة فراسخ، ودخل الشِّعْب فصبَّحه خاقَان في جَمْع عظيم؛ فكانت بينهم وقْعَةٌ عظيمة صَبر الناسُ فيها وقاتلوا حتى كانت السيوفُ لَا تقطَعُ شيئًا، فقطع عَبِيدُهم الخشَبَ يقاتلون به، ثم كانت المعانَقَةُ؛ ثم تحاجَزُوا، فاستشهد من المسلمين جماعةٌ.

فبينما الناس كذلك إذ أقبل رَهَج[1]، وطلعت الفرسان، فنادى مُنَادِي الجُنَيْد: الأرض الأرض! وترجَّل، وترجَّل الناسُ، ثم أمر أن يخندق كلُّ قائد على حِياله، فَخَنْدقُوا وتحاجزُوا وقد أُصيب من الأزْد يومئذ مائة وتسعون رجلاً، وكان قتالهم يوم الجمعة، فلما كان يوم السبت قصدهم خاقان وقْتَ الظهر، فلم يَرَ موضعًا للقتال أسْهَل مِنْ موضع بكْر بن وائل، وعليهم زياد بن الحارث، فقصدهم، فلما قَرَبُوا حملت بَكْرٌ عليهم فأفرجوا لهم، واشتد القتالُ بينهم.

فلما رأى الجُنَيْد شِدَّةَ الأمْر استشار أصحابه، فقال له عُبَيْد الله بن حبيب: اختر إمَّا أنْ تَهْلك أنْتَ أو سورة بن الحر. فقال: هلاكُ سَوْرة أهْوَنُ عليّ. قال: فاكتب إليه فليأْتك في أهل سمرْقَنْد؛ فإنه إذا بلغ التركَ إقبالُه توجَّهُوا إليه فقاتلوه.

فكتب إليه الجُنَيْد يأْمره بالقُدوم، فسار في اثني عشر ألفًا، فأصبح على رأْس جبلٍ، فتلقَّاهُ خاقان، وقد بقي بَيْنَه وبين الجُنَيْد نحو فَرْسَخ فقاتلهم فاشتدّ القتال، وسقط سَوْرة بن الحُرّ، فاندقَّتْ فخذه، وقُتِل وتَفرَّقَ الناس، وقتلهم الترْكُ، ولم يَنْج منهم غَيْرُ أَلْفَيْنِ. ويقال: ألف.

ولما استقَلَّ خاقان بقِتَالِ سَوْرَة خرج الجُنَيْد مبادِرًا يُريد سمرْقَند، فلقيه الترك قَبْلَ وصولهِ إليها، فقاتلهم قتالاً شديدًا. وقال الجُنَيْد: أيُّ عبد قاتَلَ فهو حُر. فقاتل العَبِيدُ قتالاً عجبَتْ منه الناسُ، وهزم الله التركَ.

ومضى الجُنيد إلى سمرقند، وكتب إلى هشام بن عبد الملك بالخبر. فكتب إليه هشام: قد وجَّهْتُ إليك عشرة آلاف من أهل البصرة، وعَشرةَ آلاف من أهْل الكوفة، ومن السلاح ثلاثين ألف رُمْح، ومثلها تِرسَة، فافرض فلا غايةَ لك في الفريضة لخمسة عشر ألفًا.

(١) الرهج: الغبار.

قال: وأقام الجُنَيْد بسمرقند، وتوجَّه خاقان إلى بُخارى، وعليها قَطَن بن قُتَيبة، فسار الجُنيد إليه، وخلّف بسمرقند عثمان بن عبْد الله بن الشِّخِّير في أربعمائة فارس وأربعمائة راجل.

ولما انتهى الجُنيد إلى كَرْمِينِية[١] أتاه خاقَانُ وذلك في مستهلّ رمضان من السنة، فاقتتلوا يومهم؛ ثم ارتحل الجُنَيد وقد قَوِي الساقة بالرجال، فجاءت التركُ فمَالُوا على الساقة فاقتتلوا فاشتدَّ القتالُ بينهم، فقَتَل مسلمُ بن أحْوَزَ عظيمًا من عظماءِ الترك، فتطيَّرُوا من ذلك، وانصرفوا. وسار المسلمون فدخلوا بُخَارى، ثم قدمت الجنودُ من الكوفة والبصرة فسرَّح الجُنَيد معهم حَوْثرة بن زيد العَنْبَرِي فيمن انتدب معه.

وقيل: إنَّ وقعة الشِّعْب كانت في سنة ثلاث عشرة ومائة. والله أعلم.

وفيها غزا معاوية بن هشام الصائفة، فافتتح خَرْشَنَة[٢] والله أعلم.

ذكر غزو مسلمة وعوده

في هذه السنة فَرّق مسلمة الجيوش ببلاد خَاقَان فَفُتحت مدائن وحصونٌ على يَديْه، وقتل منهم وسبى وأسَر وأحرق، ودانَ له مَنْ وراء جبال بلَنْجر، وأقبل ابْنُ خاقان وقد اجتمعت عليه الخَزَرُ وغيرهم من تلك الأُممِ، وصار في جموع عظيمة. فلما بلغ مسلمة الخبرَ أمر أصحابَه فأوقدوا النيران، ثم ترك خيامَهم وأثقالَهم، وعاد بعسكره جريدة، وقدّم الضعفةَ[٣] وأخَّر الشجعان، وطَوَى المراحل كلّ مرحلتين في مرْحلة حتى وصل الباب والأبواب في آخر رَمَق.

وفيها غَزَا معاوية بن هشام أرْضَ الروم فرابطَ من ناحية مرْعش[٤] ثم رجع. والله أعلم.

---

(١) كرمينية: بالفتح ثم السكون، وكسر الميم، وياء مثناة من تحت ساكنة ونون مكسورة، وياء أخرى مفتوحة خفيفة: بلدة من نواحي الصغد... (المراصد).

(٢) خرشنة: بفتح أوله وتسكين ثانيه، وشين معجمة، ونون: بلدة قرب ملطية من بلاد الروم.

(٣) الضعفة: جمع الضعيف: المرأة أو المملوك.

(٤) مرعش: من ثغور أرمينية.

ذكر غزو مروان بن محمد بلاد الترك ودخوله إلى بلاد ملك السَّرير وغيرها من بلادهم وما افتتحه وقرره وصالح عليه الملوك

وفي سنة أربع عشرة استعمل هشام بن عبْد الملك مرْوان بن محمد بن مرْوان على الجزيرة وأذْرَبيجان وأرْمينية. وسببُ ذلك أنه كان في عسْكَر مسلمة بن عبد الملك حين غَزَا الخَزَر، فلما عاد مَسْلمة ـ كما تقدّم ـ سار مرْوان إلى هشام فلم يشعر به حتى دخل عليه، فسأله عن سببِ قدومه، فقال: ضِقْتُ ذَرْعًا بما أذكره، ولم أرَ مَنْ يحْملُه غيري. قال: وما هو؟ قال: يا أمير المؤمنين؛ إنه كان مِنْ دُخول الخَزَر إلى بلادِ الإسلام وقَتْلِ الجراح وغيرِه ما دخل به الوهَنُ على المسلمين. ثم رأى أميرُ المؤمنين أنْ يوجِّه أخاه مسلمة إليهم، فوالله ما وطىءَ مِنْ بلادهم إلاَّ أدنَاها، ثم إنه لما رأى كثرة جمْعِه أعجبَه ذلك، فكتب إلى الخَزَر يُؤْذِنُهم بالحرب، وأقام بعد ذلك ثلاثةَ أشهر، فاستعدّ القَوْمُ وحشَدوا، فلما دخل بلادَهم لم يكن له فيهم نِكَايةٌ، فكان قُصاراهُ السَّلاَمَةَ، وقد أردْتُ أن تَأْذَن لي في غزوة أُذْهِبُ بها عَنَّا العَار، وأنْتقِم من العدو. قال: قد أذنْتُ لك. قال: وتُمِدني بمائة ألف وعشرين ألف مقاتل؟

قال: قد فعلْتُ. قال: وتكتُم هذا الأمْرَ عن كل أحدٍ؟ قال: قد فعلْتُ. وقد استعملْتُكَ على إرْمِينية.

فودَّعه وسار إلى إرْمِينية واليًا عليها وسيَّر إليه هشام الجنود من الشام والعراق والجزيرة، فاجتمع عنده من الجنود والمتطوِّعة مائةُ ألف وعشرون ألفًا، فأظْهَر أنه يُريد غَزْو اللاَّن، وأرسل إلى ملك الخَزَر يطلُبُ منه المُهادنَة، فأجابه إلى ذلك، وأرسل إليه مَنْ يقرر الصلح، فأمسك الرسولَ عنده إلى أن فرغ من جهَازه، وأحضره، ثم أغْلظ لهم في القول وآذَنَهُم بالحرب، وسيَّر الرسولَ إلى صاحبِه بذلك، ووكل به منْ يسيرُ به على طَريق فيه بُعْد، وسار هو في أقرب الطُّرُق، فما وصل الرسولُ إلى صاحبِه إلاَّ ومرْوَان قد وافاهم بالجنود، فاستشار ملكُ الخَزَر أصحابه، فقالوا: إنَّ هذا قد جمع ودخل بلادك، فإن أقَمْتَ إلى أنْ تجمع لم يجتمع جُنْدُك إلى مدَّةٍ، فيبلغ منك ما يريد، وإن أنْت لقيتَه على حالك هذه هزمك وظفِر بك، والرأي أن تتأخَّر إلى أقصى بلادِك، وتَدَعه وما يُريد.

فقبل رأْيهم وسار ودخل مرْوان البلاد، وأوغَل فيها، وأخربها، وغَنِمَ وسبى، وانتهى إلى آخرها، وأقام فيها عِدَّة أيام أذَلَّهم، ودخل بلادَ ملك السَّرير، فأوقع بأهْلها، وفتح قِلاعًا، ودان لَهُ الملك، وصالحه على ألْف رأْس: خمسمائة غلام، وخمسمائة جارية سود الشعور، ومائة ألف مُدي تُحْمَل إلى الباب، وصالح أهل تُومان

على مائة رأس نصفين وعشرين ألف مدي، ثم دخل أرض زَدِيكران، فصالحه ملكها، ثم أتى أرض حمزين، فأبى حمزين أنْ يصالحهُ، فحصرهم، وافتتحَ حصنهم، ثم أتى سُغْدان[١]، فافتتحها صُلْحًا، ووظف على طَبَرْسرانْشاه عشرة آلاف مُدي كلَّ سنة تحمل إلى الباب؛ ثم نزل على قَلْعة صاحب اللَّكز[٢] وقد امتنع مِنْ أداءِ الوظيفة، فخرج مَلِك اللَّكز يُريد ملكَ الخزَر، فقتله راعٍ بِسهم وهو لا يعْرفُه، فصالح أهلُ اللَّكزِ مَرْوان، واستعمل عليهم عامِلاً وسار إلى قَلْعَة شَرْوان[٣] وهي على البحْر، فأذْعنَ له بالطاعة، وسار إلى الدُّوادَانِيَّة، فأوقع بهم، ثم عاد.

وغزا معاوية بن هشام الصائفةَ اليسرى، فأصاب ربَضَ[٤] أقْرُن.

وفيها التقى عَبْدُ الله البطَّال هو وقسطنطين في جموعٍ، فهزمهم البطَّال وأسر قسطنطين.

وغزا سليمان بن هشام الصائفة اليمنى، فبلغ قَيْسارية.

وفي سنة خمس عشرة ومائة غزا معاوية بن هشام أرْضَ الروم.

وغزا أيضًا الصائفةَ في سنة ست عشرة. وفي سنة سبع عشرة غزا معاوية بن هشام الصائفة اليسرى، وسليمانُ بن هشام الصائفةَ اليمنى من نَحْو الجزيرة، وفَرَّقَ سراياه في أرْض الروم.

وبعث مَرْوان بن محمد، وهو على إرْمينية بَعْثَيْن؛ فافتتح أحدُهما حصونًا ثلاثةً من اللاَّن، ونزل الآخر على نُومان شاه، فنزل أهلُها على الصُّلْح.

وفي سنة ثمان عشرة ومائة غَزَا معاوية وسليمان ابنا هشام بن عبْد الملك أرْض الروم.

وغزا مرْوان بن محمد من إرمينية، ودخل أرْضَ ورتيس من ثلاثة أبواب، فهرب ورتيس إلى الخَزَر، وترك حِصْنَه، فحصره مرْوان، ونصب عليه المجانيق، واتفق قَتْل ورتيس، قَتَلَه بعْض من اجْتَازَ به، وأرسل رأْسَه إلى مرْوَان، فنصبه لأهْلِ حِصْنِه، فنزلوا على حُكْمه، فقتَلَ المُقَاتِلَةَ وسبَى الذرّيَّةَ. . .

(١) سغدان: بضم أوله: قرية من نواحي بخارى؛ عن علي بن محمد الخوارزمي. . . (معجم البلدان).

(٢) اللكز: بالفتح ثم الكسون وزاي: بليدة خلف الدربند تتاخم خزران.

(٣) شروان: مدينة من نواحي باب الأبواب.

(٤) الربض: الأمعاء؛ أو أحشاء البطن؛ أو حزام الرحل.

ذكر ظفر المسلمين بالترك
وقتل خاقان ملك الترك

وفي سنة تسع عشرة ومائة كانت الحَرْب بين أسد بن عبْدِ الله القَسْرِي أمير خُراسان وبين خَاقَان ملك التُّرْك.

وسبب ذلك أنَّ الحارثَ بن سُريج كان قد خُلع بخراسان على ما نذكره إن شاء الله تعالى في حوادث السنين، وولي أسَد خراسان على ما نَذْكُره إن شاء الله، فكتب الحارث إلى خَاقَان يُعْلِمُه بضَعْف أسد وقِلَّةِ أصحابه، ويستَدْعيه لحَرْبِه.

فأقبل خاقَان، وقطع النَّهْرَ إلى بلْخ، فلقيه أسد، فاقتتلوا قتالاً شديدًا، فظفر المسلمون بالتُّرْكِ، وهزموهم أقْبَح هزيمة، وغنموا أمْوالَهم وخُيُولَهم وأثْقالَهم، وقَتَلُوا منهم مقْتَلةً عظيمة، وأرَاد خصيّ لخاقان حَمْلَ امرأةِ خاقان فأعجلُوه فقتَلها، ومضى خاقانُ إلى طَخَارسْتَان ثم إلى بلادِهِ. وحمل الحارث وأصحابه على خمسة آلاف برْذَوْن، واستعدَّ لِغَزْو المسلمين، فلاعَب خاقانُ يومًا كورصُولَ بالنَّرْدِ على خَطَر، فتنازعا، فضرب كورصول يدَ خاقان فكسرها وتنحَّى عنه، وجمع جمْعًا، وبلغه أنَّ خاقان قد حلف ليكسرنَّ يَده؛ فبيّت خاقانَ فقتله، وتفرَّقَت التركُ واشتغلوا بأنفسهم، وأرسل أسَد إلى هشام بن عبد الملك يُخْبرهُ بالفتح وبقَتْل خاقان، فلم يصدق ذلك. وأرسل مُبَشّرًا آخر فوقف على باب هشام وكبَّر، فأجابه هشام بالتكبير. فلما انتهى إليه أخبره بالفتح، فسجد شكرًا لله تعالى.

وفيها غزا أسد بن عَبْد الله أمير خراسان الخُتَّل[١]، فقتل بدرُ طرخان ملك الخُتَّل، وغلب على القَلْعَة العظمى، وفرّق عساكره في أوْدية الخُتَّل، فملَئُوا أيديهم من الغنائم والسبي، وهرب أهلُها إلى الصين.

وغزا الوليد بن القَعْقَاع أرْضَ الروم.

وغَزَا مَرْوَان بن محمد من إرمينية فدخل بلادَ اللاَّن، وسار فيها حتى خرج منها إلى بلاد الخَزَر، فمرّ ببَلَنْجر وسَمنْدَر[٢]، وانتهى إلى البَيْضَاءِ التي يكون فيها خاقان، فهرب خاقان منه.

---

(١) الختل: بضم أوله وتشديد ثانيه وفتحه: كورة واسعة كثيرة المدن وهي على تخوم السند. . . (معجم البلدان لياقوت).

(٢) سمندر: بفتح أوله وثانيه ثم سكون ودال مفتوحة وآخره راء: مدينة خلف باب الأبواب من أرض الخزر.

وفي سنة عشرين ومائة غزا سليمانُ بن هشام بن عبْد الملك الصائفة وافتتح سندرة.

وغزا إسحاق بن مسلم العقيلي تُومان شاه وافتتح قِلاَعَه وخرَّب أرْضَه.

ذكر غزوات نصر بن سيار ما وراء النهر

وفي سنة إحدى وعشرين ومائة غزا نصر بن سيّار ما وراء النهر مرّتين: إحداهما من نحو الباب الجديد، فسار من بَلْخ، ثم رجع إلى مَرْو، فخطب الناس، وأخبرهم أنه قد أقام منصور بن عمر بن أبي الخَرْقاءِ على كَشْفِ المظالم، وأنه قد وضع الجِزْيَة عمَّنْ أسلم، وجعلها على منْ كان يخفِّف عنه من المشركين، فلم تمض جُمْعة حتى أتاه ثلاثون ألف مسلم كانوا يؤدُّون الجِزْية عن رؤُوسهم، وثمانون ألفًا من المشركين كانت الجِزْيَةُ قد وُضِعَت عنهم، فحوَّل ما كان على المسلمين عليهم، ثم صنَّف الخراج ووضعه مواضِعَه.

ثم غزا الثانية إلى وَرَغْسَر[1] وسَمَرْقَنْد.

ثم غزا الثالثة إلى شاش مِنْ مَرْو، فحال بينه وبين عُبُور نهر الشاش كورصول في خمسة عشر ألفًا، وكان معهم الحارث بن سُرَيْج، وعبر كورصول في أربعين رجلاً فبيَّت العَسْكَر في ليلةٍ مظلمة، ومع نصر بخارى خذاه في أهْلِ بخارى، ومعه أهل سمرقند وكشّ ونسف، وهم عشرون ألفًا، فنادى نَصْر: ألاَ لا يخرجنَّ أحدٌ، واثْبتُوا على مواضعكم.

فخرج عاصم بن عمير ـ وهو على جُنْدِ سمرقند ـ فمرَّت به خَيْلُ الترك، فحمل على رجُل في آخرهم فأسره، فإذا هو ملكٌ من ملوكهم صاحبُ أربعة آلاف قُبَّة، فأتى به إلى نَصْر، فقال له نصر: منْ أنْت؟ قال: كورصول. قال: الحمد لله الذي أمْكَنَ منك يا عدُوَّ الله. قال: ما ترجو مِنْ قَتْلِ شيخ، وأنا أُعطيك أربعة آلاف بَعِير من إبل الترك وألف بِرْذَوْن تُقَوِّي به جُنْدك، وتطلق سبيلي.

فاستشار نَصْر الناس، فأشاروا بإطلاقه، فسأله عن عُمره قال: لا أدْري. قال: كم غَزَوْت؟ قال: ثنتين وسبعين غَزَاة. قال: أشَهِدْتَ يَوْمَ العطَشِ؟ قال: نعم. قال: لو أعطَيتَني ما طلعَتْ عليه الشمسُ ما أفلَتَّ من يَدِي بعْد ما ذكرت من مشاهِدِك.

---

(١) ورغسر: قرية من قرى سمرقند عندها مقاسم مياه الصغد وغيره.

وقال لعاصم بن عُمير السغدي: قُمْ إلى سلَبه فخُذْه. فقال: مَنْ أسرني؟ قال: نصر ـ وهو يضحك ـ أسرك يزيد بن قِرّان الحنْظَلي، وأشار إليه. قال: هذا لا يستطيعُ أن يغْسل اسْتَه، أو لا يستطيع أن يتم بَوْله، فكيف يَأْسِرني؟ أخْبِرني مَنْ أسَرَني؟ قال: أسرك عاصم بن عمير. قال: لستُ أجِد ألَم القَتْلِ إذا أسَرني فَارسٌ من فُرْسانِ العرب.

فقتله وصَلَبه على شاطىء النهر، فلما قُتل أحرقت الترك أبْنِيتَه، وقطعوا آذانَهم وشعورَهم وأذناب خيولهم.

فلما أراد نَصْر الرجوعَ أحرقه لئلا يحملوا عِظَامه، فكان ذلك أشدَّ عليهم من قَتْلِه.

وارتفع إلى فَرْغانة فسبى منها ألْف رأس. وكتب يوسف بن عمر الثقفي عاهلُ العراقَيْن إلى نَصْر بن سيَّار يأمره بالمسير إلى الشاش[1] لقتالِ الحارث بن سُريج، فاستعمل نصْر يحيى بن حُصين على مقدمته، فسار إلى الشاش، فأتاهم الحارث، وأغار الأخرم، وهو فارسُ الترك، على المسلمين فقتلوه، وألقَوا رأسه إلى الترك، فصاحُوا وانهزموا، وسار نَصْر إلى الشاش فتلقَّاه ملكها بالصلح والهديّة والرُّهن، فاشترط عليه إخراج الحارث بن سُريج من بلده، فأخرجه إلى فَاراب[2]، واستعمل على الشاش نَيْزَك بن صالح مَوْلَى عمْرو بن العاص، ثم سار حتى نزل قُباء من أرض فَرْغَانة، وكانوا قد علموا بمجيئه، فأحرقوا الحشيش، وقطعوا المِيْرة، فوجَّه نَصر إلى ولي عهد صاحب فَرْغانة فحاصره في حِصْنٍ، فخرج وقد غَفَل المسلمون فَغنمَ دوابَّهم، فوجَّه إليهم نَصْرٌ رجالاً من تميم، ومعهم محمد بن المثنى، فكايدهم المسلمون وأهملوا دوابهم وكمنوا لهم، فخرجوا فاستَاقوا بعْضَها، وخرج عليهم المسلمون فهزموهم، وقتلوا الدِّهْقَان وأسروا منهم، فكان فيمن أسر ابن الدّهقَان، فقتله نَصْرٌ.

وأرسل نَصرٌ سليمان بن صول بكتابِ الصُّلْح إلى صاحب فَرْغَانة، فأمر به فأُدْخل الخزائنَ ليراها، ثم رجع إليه، فقال: كيف رأيتَ الطريق فيما بيننا وبينكم؟

---

(١) شاش: بالشين المعجمة: بالريّ قرية يقال لها شاش، النسبة إليها قليلة، ولكن الشاش التي خرج منها العلماء ونسب إليها خلق من الرواة والفصحاء فهي بما وراء النهر ثم ما وراء نهر سيحون متاخمة لبلاد الترك. . . (معجم البلدان لياقوت).

(٢) فاراب: ولاية وراء نهر سيحون في تخوم بلاد الترك.

قال: سَهْلاً كثير الماء والمَرْعَى، فكره ذلك، وقال: ما أعلمك؟ فقال سليمان: قد غَزوت غَرْشِتان[١] وغُور والخُتَّل وطَبِرستان، فكيف لا أعلم؟ قال: فكيف رأيْت ما أعدَدْنَا؟ قال: عُدَّة حَسنة، ولكن أما علمْت أنَّ المحصور لا يسلم من خِصَال؟ قال: وما هن؟ قال: لا يأْمَنُ أقرب الناسِ إليه، وأوثقهم في نفسه، أو يَفنى ما جمع، فيسلم برمته، أو يصيبه داءٌ فيموت.

فكره ما قاله له، وأمره فأحضر كتاب الصلح، فأجاب إليه، وسير أُمَّه معه، وكانت صاحبةَ أمْرِهِ، فقدمت على نَصْر فكلَّمها فكلمَتْه، وكان فيما قالت له: كلُّ مَلِكٍ لا تكون عنده ستة أشياءَ فليس بملك: وزير يُبثُّ إليه ما في نفسه، ويُشاوِره ويثِقُ بنصيحته. وطبّاخ إذا لم يشْتَهِ الطعام اتَّخذ له ما يشتهي، وزوجة إذا دخل عليها مُغْتَمًّا فنظر إلى وجهها زال غمّه، وحصْنٌ إذا فزِع أتاه فأنجاه ـ تعْني البِرْذَون ـ وسيف إذا قاتل لم يَخْشَ خيانته. وذخيرة إذا حملها عاش بها أيْنَ كان من الأرض.

ودخل تميم بن نَصْر في جماعة، فقالت: مَنْ هَذَا؟ قالوا: هذا فتى خُرَاسان تميم بن نصر. قالت: ما له نُبْل الكبير، ولا حلاوة الصغير.

ثم دخل الحجاج بن قُتيبة، فقالت: مَنْ هذا؟ قالوا: الحجاج بن قُتيبة، فحيَّتْه، وسألت عنه، وقالت: يا معشر العرب، ما لكم وفاءٌ، ولا يصلح بعضكُم لبعض، قُتيبة الذي ذلَّل لكم ما أرى، وهذا ابنُه تُقْعده دونك، فَحَقُّه أن تُجلسه أنت هذا المجلس وتجلس أنتَ مجْلسه.

ذكر غزو مروان بن محمد بن مروان

وفي سنة إحدى وعشرين أيضًا غزا مرْوان بن محمد من إرْمِينية وهو وَاليها، فأتى قلعةَ بيت السَّرير فقَتَل وسَبَى، ثم أتى قلعة ثانية فقتل وسَبى، ودخل غرمسك، وهو حصْنٌ فيه بيتُ الملك وسريره، فهرب الملكُ منه إلى حصْن خَيْزَج[٢]، وهو الذي فيه السرير الذهب، فسار إليه مَرْوَان ونازله صيْفَةً وشتوةً، فصالحه الملكُ على ألْفِ رأس في كل سنة، ومائة ألف مُدي، وسار مرْوان فدخل أرض أرْز[٣] وبطران، فصالحه ملكها. ثم سار في أرض تُومان فصالحه وسار حتى أتى حمزين، فأخْرَب بلادَه، وحصَر حِصْنًا له شهرًا فصالحه.

---

(١) غرشتان: بالفتح ثم السكون وشين معجمة مكسورة وسين مهملة وتاء مثناة من فوق، وآخره نون: ناحية واسعة كثيرة القرى.

(٢) خيزج: من رساتيق الجبل.

(٣) أرز: بالفتح ثم السكون وراء: بليدة من أول طبرستان من ناحية الديلم وبها قلعة حصينة.

ثم أتى مرْوان أرض مسدار، فافتتحها على صُلْح، ثم نزل كِيْران(١) فصالحه طبرسران وفِيْلان، وكلُّ هذه الولايات على شاطىء البحر من أرمينية إلى طبرستان.

وفيها غزا مسلمة بن هشام الروم فافتتح بها مطامير.

وفي سنة أربع وعشرين غزا سليمان بن هشام الصائفةَ فلقي أليُون ملك الروم فغنم.

هذا ما أمْكَن إيراده من الغزوات والفتوحات في أيام هشام فلنذكر حوادث السنين في أيامه.

سنة ست ومائة:

ذكر ولاية أسد خراسان

في هذه السنة استعمل خالدُ بن عبْد الله القَسْري أخاه أسَدًا على خُرَاسان، فقدمها ومُسلم بن سعِيد بفَرْغانَة، فلما أتى أسدٌ النهْرَ ليقْطَعه منَعهُ الأشهب بن عُبيدٍ التميمي؛ وكان على السفُن بآمُل، وقال: قد نُهيت عن ذلك، أعطاه ولاطفَه، فأبى. قال: فإني أمير، فأذن له، فقال أسَد: اعرفُوا هذا حتى نشركه في أمَانتنا.

وأتى الصُّغْد فنزل بالمَرْج، وعلى سمَرْقند هانىء بن هانىء، فخرج في الناس للِقَاءِ أسَدِ، فرآه على حجر، فقال الناس: ما عند هذا خير، أسد على حجر، ودخل سَمَرْقند وعزَلَ هانئًا عنها، واستعمل عليها الحسن بن أبي العَمَرَّطَة الكندي، ثم كان مِنْ عزْل أسد ما نذكره إن شاء الله.

وفيها استعمل هشام الحر بن يوسف بن يحيى بن الحَكَم بن أبي العاص بن أُمية على الموصل، وهو الذي عمل النَّهر الذي كان بالموصل.

وسببُ ذلك أنه رأى امرأةً تحمل جَرَّةً فيها ماء، وهي تحملُها ساعةً ثم تستريح قليلاً لبُعْد الماءِ، فكتب بذلك إلى هشام، فأمره أن يحفر نَهرًا إلى البلد، فحفره، وبقي العمل فيه عِدَّة سنين ومات الحرّ سنة ثلاث عشرة ومائة.

وفي سنة ست أيضًا عزل هشام عَبْد الواحد النَّضْري عن مَكَّة والمدينة والطائف، وولَّى ذلك كله إبراهيم بن هشام بن إسماعيل، فقدم المدينة في جمادى الآخرة.

---

(١) كيران: مدينة بأذربيجان، بين تبريز وبيلقان.

وكانت ولاية النَّضْري سنة وثمانية أشهر.

وفيها استقضى إبراهيمُ بنُ هشام على المدينة محمد بن صَفْوَان الجُمحي، ثم عزله، واستقضى الصَّلْت الكِنْديّ، وكان العاملُ على العِرَاق وخُرَاسان خالد بن عَبْد الله القَسْري البَجَلي، وكان عاملَ خالد على البَصْرة عُقْبةُ بن عبد الأعلى على الصلاة. وعلى الشرطة مالك بن المنذر بن الجارُود، وعلى القضاء ثُمَامة بن عَبْد الله بن أَنس.

وحجّ بالناس في هذه السنة هشام بن عبد الملك.

سنة سبع ومائة:

في هذه السنة كان مِنْ خبَرِ دُعَاة بني العباس ما نذكره إن شاء الله في أخبار الدولة العبّاسية.

وفيها عزل هشام الجرّاح بن عَبْدِ الله الحكَمي عن إرمينية وأذْرَبيجانَ، واستعمل عليها أخاه مسلمة بن عَبْد الملك، فاستعمل عليها الحارث بن عمْرو الطائي، فافتتح من بلادِ الترك رُستاقًا وقُرًى كثيرة، وأثّر أثرًا حسنًا.

وفيها نقل أسد منْ كان بالبرُوقَان[1] إلى بلَخْ من الجند، وأقطع من كان بالبَرُوقان بقَدْر مسكنه، ومنْ لم يكن له مسكن أقطعه مسكنًا، وأراد أن يُنْزِلهم على الأخماس، فقيل له: إنهم يتعصَّبُون؛ فخلَّى بينهم، وتولَّى بناء مدينة بَلخ برمك، وهو أبو خالد بن برْمك، وبينها وبين البرُوقان فرسخان.

وحجَّ بالناس في هذه السنة إبراهيم بن هشام.

سنة ثمان ومائة:

في هذه السنة كان مِنْ خبَر شيعة بني العباس ما نذكره إن شاء الله تعالى.

وفيها وقع الحريق بدَابِقَ، فاحترق المرْعَى والدوابّ والرجال.

وفيها خرج عبّاد الرُّعَيني باليمَن مُحكّمًا فقتَلَه أمِيرُها يوسف بن عمرو، وقتل أصحابَه وكانوا ثلاثمائة.

وحجّ بالناس في هذه السنة إبراهيم بن هشام.

وفيها مات محمد بن كعب القُرظي، وقيل سنة سبع عشرة. وقيل: إنه وُلد على عهد رسول الله ﷺ.

---

(١) البروقان: بالقاف، والنون: قرية من نواحي بلخ؛ ينسب إليها محمد بن خاقان البروقاني... (معجم البلدان).

سنة تسع ومائة:

في هذه السنة عُزِل أَسَدُ بن عبْد الله القسري عن خراسان، وسبب ذلك أنه ضرب نَصْر بن سَيار ونَفَرًا بالسياط، منهم عبد الرحمٰن بن نُعيم وسَورة بن الحُرّ والبخْتَري بن أبي دِرْهم، وعامر بن مالك الحِمَّاني، وحَلقهم وسيّرهم هو إلى أخيه، وكتب إليه: إنهم أرادُوا الوُثوب بي.

فلما قدموا على خالد لاَمَ أَسَدًا وعنَّفَه، وقال: ألا بَعثَ إليّ برؤُوسهم.

وخطب أسدٌ يومًا، فقال: قَبَّح اللّهُ هذه الوجوه وجوه أهل الشقاق والنِّفَاق والشَّغب والفَساد، اللهم فَرِّقْ بيني وبينهم، وأخْرجْني إلى مُهَاجري ووطَنِي.

فبلغ فِعْلُه هشام بن عبْد الملك، فكتب إلى خالد: اعْزِل أخاك، فعزله، فرجع إلى العِرَاق في رمضان من السنة، واستخلف على خرَاسان الحَكَم بن عَوانة الكلبي، فأقام الحكَمُ صيفيته فلم يغزُ، ثم استعمل هشام أشرسَ بْنَ عَبْد الله السلمي على خراسان، وأمره أنْ يُكَاتِب خالدًا، وكان أشرسُ فاضلاً خَيِّرًا، وكانوا يسمونه الكامل لفَضْلِه.

فلما قدم خراسان فَرِح الناس به، واستقضى أبا المنازل الكندي، ثم عزله واستقضى محمد بن يزيد.

وحجَّ بالناس في هذه السنة إبراهيم بن هشام، فخطب الناس، فقال: سَلُوني، فإنكم لا تسألونَ أحدًا أعْلَم مني، فسأَلَهُ رجلٌ من أهل العِراق عن الأُضحية أَوَاجبةٌ هي؟ فما دَرى ما يقول: فنزل.

سنة عشرة ومائة:

فيها جمع خالد القَسْرِي الصلاةَ والأحداث والشرط والقضاء بالبصْرَة لبِلال بن أبي بُرْدة، وعزل ثُمامة[1] عن القضاء.

وحجّ بالناس إبراهيم بن إسماعيل.

وفيها مات الفرزدق الشاعر، وله إحدى وتسعون سنة.

ومات جرير بن الخَطَفي الشاعر.

---

(١) هو ثمامة بن أشرس.

سنة إحدى عشرة ومائة:

في هذه السنة كان عَزْل أشرس عن خُرَاسان واستعمال الجُنَيْد بن عبد الرحمٰن؛ وقد تقدم ذكر ذلك في الغَزَوَات.

وفيها استعمل هشام الجرَّاح بن عبْد الله الحَكَمي على إرمينية، وعزل أخاه مسلمة كما تقدم.

وحجّ بالناس إبراهيم بن هشام المخزومي.

سنة ثنتي عشرة ومائة:

حجّ بالناس في هذه السنة إبراهيم بن هشام المخزومي. وقيل سليمان بن هشام بن عبد الملك. والله أعلم.

سنة ثلاث عشرة ومائة:

في هذه السنة قُتِل عَبْد الوهاب بن بُخْت، وكان قد غزا مع البطَّال أرضَ الرُّوم، فانهزم الناسُ عن البطَّال، فحمل عبدْ الوهاب، وهو يقول: ما رأيت فَرَسًا أجبنَ منك، وسفك الله دمي إنْ لم أسفك دَمَك، ثم ألْقَى بيْضَتَه عن رأْسه، وصاح: أنا عبدالوهاب! مِنَ الجنَّةِ تَفرُّون!

ثم تقدم في نحو العدو، فجاء برجل وهو يقول: واعطشاه! فقال: تقدم، الرِّيّ أمامك، وخالط القوم فقُتل وقُتِل فرسه.

وحجّ بالناس في هذه السنة سليمان بن هشام بن عبد الملك، وقيل إبراهيم بن هشام المخزومي، والله أعلم.

سنة أربع عشرة ومائة:

في هذه السنة كانت ولاية مَرْوَان بن محمّد بن مروان إرْمِينية وأذْرَبيجان، وقد تقدم ذكر ذلك في الغزوات.

وفيها عزل هشامٌ إبراهيم بنَ هشام المخزومي عن المدينة، واستعمل عليها خالدَ بْنَ عبد الملك بن الحارث بن الحكم في رَبيع الأول، فكانت إمْرة إبراهيم على المدينة ثماني سنين، وعزَلَه أيضًا عن مكَّةَ والطائف، واستعمل على ذلك محمد بن هشام المخزومي.

وحجّ بالناس خالدُ بْنُ عَبْد الملك بن الحارث وقيل: محمد بن هشام.

وفيها توفي محمد بن علي بن الحُسين البَاقِر. وقيل سنة خمس عشرة.

سنة خمس عشرة ومائة:

حجَّ بالناس في هذه السنة محمد بن هشام المخزومي، وكان الأمير بخُراسان الجُنَيْد. وقيل: بل كان قد مات، واستخلف عمارة بن خُريم المُرّي. والله أعلم.

سنة ست عشرة ومائة:

في هذه السنة عُزل الجنيد عَنْ خُراسان.

وسببُ ذلك أنه تزوج الفاضلة بنت يزيد بن المهلب، فغضب هشام؛ واستعمل عاصم بن عبْد الله بن يزيد الهلالي على خُرَاسان، وكان الجُنَيْد قد سُقِي بطْنُه، فقال هشام لعاصم: إنْ أدْركْتَه وبه رَمق فأزْهقْ نفسه.

فقدم عاصم وقد مات الجُنَيْد، واستخلف عمارة بن خُريم وهو ابْنُ عمه، فعذَّبه عاصم، وعذَّب عمال الجُنَيْد لعَداوةِ كانت بينه وبين الجُنَيْد. . .

ذكر خلع الحارث بن سريج بخراسان وما كان من أمره

وفي هذه السنة خلع الحارثُ بن سُريج وأقبل إلى الفارِياب فأرسل إليه عاصم رسُلاً. منهم مقاتل بن حيّان النَّبطي، والخطاب بن مُحْرز السلمي، فقالا لمن معهما: لا نَلْقى الحارث إلاَّ بأمان، فأبى القومُ عليهما وأتوه، فأخذهم الحارث وحبَسهم، ووكل بهم رجُلاً فأوْثَقُوه، وخرجُوا من السجن، فركبوا وعادُوا إلى عاصم، فأمرهم فخطبوا وذَمُّوا الحارثَ، وذكروا خُبْثَ سِيْرتِهِ وغَدْرَه، وكان الحارث قد لبس السَّواد، ودعا إلى كتابِ الله وسُنَّةِ نبيه والبيْعةِ للرضا، فسار من الفَارِياب، وأتى بلْخ، وعليها نصر بن سيار والتُّجيبي، فلقِياهُ في عشرة آلاف وهو في أربعة آلاف، فقاتلهما، فانهزم أهل بلخ.

وتبعهم الحارث، فدخل مدينة بَلْخ، وخرج نَصْر بن سيّار منها، وأمر الحارث بالكف عنهم، واستعمل عليها رجلاً من ولد عبْد الله بن خازم، وسار إلى الجُوزْجَان[1] فغلب عليها وعلى الطالِقَان ومرْو الرُّوذ. فلما كان بالجُوزْجان استشار

---

(١) الجوزجان والجوزجانان: هما واحد، بعد الزاي جيم، وفي الثانية نونان: اسم كورة واسعة من كور بلخ بخراسان، وهي بين مرو الروذ وبلخ، ويقال لقصبتها اليهودية، ومن مدنها الأنبار وفارياب وكلار. . . (معجم البلدان لياقوت).

أصحابه في أي بلدٍ يقْصِد، فقيل له: مرْوُ بيْضة خُراسان وفُرْسانهم كثير، ولو لم يلقوك إلا بعَبِيدهم لانْتَصفُوا منك، فأقم، فإن أتَوْك فقاتِلْهُمْ، وإن أقاموا قطعْت المادَّة عنهم.

قال: لا أرى ذلك؛ وسار إلى مرْو، فأقبل إليها يُقَالُ في ستين ألفًا، ومعه فُرسان الأزدِ وتميم، منهم محمد بن المثنّى، وحمّاد بن عامر الحِمَّاني، وداود الأعسر، وبشر بن أُنيف الرياحيّ، وعطاء الدبوسي.

ومن الدهاقين دِهْقَان الجُوزْجان، ودِهْقَان الفَارياب، وملك الطالِقَان ودِهقَان مَرْو الرُّوذ في أشباههم، وخرج عاصمٌ في أهل مَرْو وغيرهم، فعسْكَر وقطع القناطر، وأقبل أصحابُ الحارث فأصلحوها، فمال محمد بن المثنّى الفَرَاهِيدي الأزدي إلى عاصم في ألفين، فأتى الأزد، ومال حمّاد بن عامر الحِمَّاني إليه، فأتى بني تميم، وأتى الحارثُ وعاصم فاقتتلوا قتالاً شديدًا، فانهزم أصحابُ الحارث، فغرق منهم بشَرٌ كثير، في أنهار مرْو وفي النَّهر الأعظم؛ ومضت الدهاقِينُ إلى بلادِهم، وغرق خازم بن عَبْد الله بن خازم، وكان مع الحارثِ. وقُتِل أصْحاب الحارِث قَتْلاً ذَرِيعًا، وقطع الحارث وادِي مَرْو، فضرب رواقًا عند منازل الدَّهَاقين، وكَفَّ عنه عاصم؛ واجتمع إلى الحارث زُهَاء ثلاثة آلاف، ثم كان من أمره ما نذكره إن شاء الله تعالى.

وفيها عزل هشامٌ عَبْد الله بن الحبْحاب عنْ ولاية مِصْر، واستعمله على إفريقية.

وقيل: كان ذلك في سنة سبع عشرة ومائة.

وحجّ بالناس في هذه السنة الوليد بن يزيد بن عبد الملك. والله أعلم.

سنة سبع عشرة ومائة:

ذكر عزل عاصم عن خراسان ولاية أسد وخبر الحارث بن سُرَيج

في هذه السنة عزل هشامُ بن عبد الملك عاصم بْنَ عَبْد الله عن خُراسان، وضَمَّها إلى خالد بن عبْد الله القَسْري أمير العراقين، فاستعمل عليها خالدٌ أخاه أسَد بن عبْد الله.

وكان سبب ذلك أنَّ عاصمًا كتب إلى هشام: أما بعد فإن الرائد لا يَكْذِبُ أهْلَه، وإن خُراسان لا تَصْلُح إلاَّ أنْ تُضَمّ إلى العراق وتكون معُونَتها ومَوَادها من قريبٍ، لتباعد أمير المؤمنين عنها وتباطؤ غِياثه عنها، فضمّ هشام خراسان إلى خالد بن عَبْد الله، وكتب إليه: ابعَثْ أخاك يُصلح ما أفسد؛ فإنْ كانت رجية كانَتْ به.

فسيَّر خالد إليها أخاه أسدًا، فلما بلغ عاصمٌ إقبال أسد، وأنه قد بعث على مقدمته محمد بن مالك الهمْداني صالح الحارثَ بن سُريج، وكتبَا بينهما كتابًا، على أن ينزل الحارثُ أيّ كُوَر خُراسان شاء، وأن يكتبا جميعًا إلى هِشَام يسْألاَنه كتابَ الله وسنَّةَ نَبيه، فإنْ أبَى اجتمعا عليه.

فختم على الكتاب بعْضُ الرؤساء، وأبى يَحْيَى بن حُضَيْن بن المنذر[1] أن يختم، وقال: هذا خَلْعٌ لأمير المؤمنين فانفسح ذلك.

وكان عاصم بقَرْيَة بأعلى مَرْو، فأتاه الحارث بن سُريج فالتقوا واقتتلوا قتالاً شديدًا، فانهزم الحارث، وأُسِر جماعةٌ من أصحابه، منهم: عبد الله بن عمْرو المازني رأْسُ أهلِ مرْو الرُّوذ[2]، فقتل عاصمٌ الأسرى، وعَظَّم أهلُ الشام يحيى بن حُضَين لِما صنعَ في نَقْضِ الكتاب، وكتبوا كتابًا بما كان وبهزيمةِ الحارث وبعثوه إلى أسَد، فلقيه بالرَّي وقيل ببيْهَق[3].

فكتب أسد إلى أخيه خالد ينتحلُ أنه هزم الحارثَ، ويُخبره بأمْر يحيى، فأجاز خالد يحْيَى بعشرة آلاف دينار ومائة حُلَّة، وحَبَس أسدٌ عاصمًا وحاسَبهُ وطلَب منه مائة ألف درهم، وقال: إنكَ لم تَغزُ، وأطلق عُمَّال الجُنَيْد، وقدم أسد ولم يكن لعاصم إلا مَرْو ونَيْسابور، والحارث بمَرْو الرُّوذ، وخالد بن عُبَيْدَ الله الهجرِيّ بِآمُل موافقٌ للحارث، فخاف أسد إنْ قصد الحارثَ بمرْو الرُّوذ أنْ يأْتيَ الهجري مَرْو من قِبل آمُل، وإنْ قَصَد الهجَري قصد الحارث مَرْو من قبل مرْو الروذ، فأجمع رأيه على تَوْجيه عبد الرحمٰن بن نُعيم في أهل الكوفة والشام إلى الحارث بمَرْو الروذ، وسار أسَد بالناس إلى آمُل، فلقيه خَيْل آمُل؛ عليهم زِيَاد القُرشي موْلى حَيّان النبطي وغيره، فهُزِموا حتى رجعوا إلى المدينة، فحصرهم أسَد، ونصب عليهم المجَانِيق؛ فطلبوا الأمان، وطلبوا كتاب اللّهِ وسنَّةَ نبيِّه ﷺ، وألاَّ يُؤخذ أهْلُ المدن بجِنَايتهم، فأجابهم أسَد إلى ذلك، واستعمل عليهم يحيى بن نُعيم بن هُبَيْرة الشيباني؛ وسار يرِيد بلْخ، فأُخبر أنَّ أهلَها قد بايعُوا سليمان بن عبْد الله بن خازم، فسار حتى قدمها، واتَّخذَ

(١) الحضين بن المنذر بن الحارث بن وعلة الرقاشي، أحد بني رقاش، فارس شاعر، كانت معه راية علي بن أبي طالب رضي الله عنه يوم صفين.

(٢) مرو الروذ: مدينة قريبة من مرو الشاهجان بينهما خمسة أيام، وهي على نهر عظيم فلهذا سميت بذلك، وهي صغيرة بالنسبة إلى مرو الأخرى. . . (معجم البلدان).

(٣) بيهق: ناحية كبيرة وكورة واسعة من نواحي نيسابور وتشتمل على ثلاثمائة وإحدى وعشرين قرية.

سُفُنًا، وسار منها إلى ترْمذ، فوجد الحارث مُحاصِرًا لها، وبها سِنَان الأعرابي، فنزل أسَد دُونَ النهر، ولم يُطق العُبُورَ إليهم، ولا أنْ يُمِدَّهُم، وخرج أهل تِرْمِذ من المدينة، وقاتلوا الحارث قِتَالاً شديدًا، فاستطرد الحارثُ لهم، وكان قد وضع كَمِينًا، فلما جاوزُوه خرج عليهم، فانهزموا.

ثم ارتحل أسدٌ إلى بَلْخ، ثم خرج أهْلُ تِرْمِذ إلى الحارث، فهزموه، ثم سار أسد إلى سمَرْقَنْد في طريق زُمّ[١]، فلما قدم زُم بعث إلى الهيْثم الشيباني وهو في حِصْنٍ من حصونها ـ وهو من أصحابِ الحارث ـ فأمّنه، ووعده المُواساةَ والكَرَامةَ والأمَانَ لمَنْ مَعه، وأقسم إنه إن ردَّ ذلك ورمى بسهْم ألاَّ يؤمِّنَه أبدًا، وإنه إن جعل له ألْف ألْف أمان لا يَفِي له.

فخرج إليه وسار معه إلى سمرْقَند، ثم ارتفع إلى وَرَغْسرَ[٢] ـ وماء سمرقند منها ـ فسكَرَ[٣] الوادي، وصرفه عن سمرْقَند. ثم رجع إلى بلْخ، فلما استقرّ بها سرَّحَ جُدَيعًا الكرمَاني إلى القَلْعة التي فيها ثَقَلُ الحارث وأصحابه، واسمها التبوشكان من طَخَارستان العليا وفيها بنو بَرْزَى التغلبيُّون أصهار الحارث، فحصرهم الكَرْماني حتى فتحها، وذلك في سنة ثمان عشرة ومائة، فقتل مقاتِلَتَهم، وسبى عامَّةَ أهْلها من العرب والموالي والذَّراري، وباعهم فيمن يزِيد في سوق بَلْخ.

قال: ونَقَم على الحارث أربعمائة وخمسون رجلاً من أصحابه، وكان رئيسهم جرِير بن ميْمون القاضي، فقال لهم الحارث: إن كنْتُم لا بدَّ مُفَارقي فاطلبوا الأمَان، وأنا شاهِدٌ، فإنهم يجيبونكم. وإن ارتحلْتُ قَبْل ذلك لم يعطوا الأمانَ. فقالوا: ارتحل أنْتَ عنا، وخَلِّنَا.

فأرسلوا يطلُبُون الأمانَ، فأُخبر أسَدٌ أنَّ القوم ليس لها طعام ولا ماء، فسرَّح إليهم أسدٌ جُديعًا الكَرْمَاني وستةَ آلاف، فحصرهم في القَلْعةِ وقد عطش أهْلُها، وجاعوا، فسألوا أنْ يَنْزِلُوا على الحكم، ويترك لهم نساءهم وأولادهم، فأجابهم، فنزلوا على حُكْم أسَد.

---

(١) زمّ: قيل: هي بئر لبني سعد بن مالك. وقيل: هي ماء لبني عجل فيما بين أداني طريق الكوفة إلى مكة والبصرة.

(٢) ورغسر: بفتح أوله وثانيه، وغين ساكنة، وسين مهملة مفتوحة، وراء: من قرى سمرقند.

(٣) يقال: سكر النهر: إذا سدّه.

فأرسل أَسَد إلى الكَرْماني يَأْمره أن يُحْمل إليه خمسون رجلاً من وجوههم، فيهم المُهَاجر بن ميمون، فحُمِلوا إليه فقتلهم، وكتب إلى الكَرْمَاني أنْ يجعلَ الذين بَقُوا عنده أثلاثًا، فثُلث يَقْتُلهم، وثلث يقطع أيديهم وأرجلَهم، وثلث يقْطَع أيديهم. ففعل ذلك بهم، وأخرج أثْقَالَهم فباعَها، واتخذ أسعد مدينة بَلْخ دارًا، ونقل إليها الدواوين، ثم غزا طخارستان.

وحجّ بالناس في سنة سبع عشرة ومائة خالد بن عبد الملك.

سنة ثمان عشرة ومائة:

في هذه السنة عزل هشام خالد بن عبْد الملك بن الحارث بن الحكم عن المدينة، واستعمل عليها خالد بن محمد بن هشام بن إسماعيل، وحجَّ بالناس محمد بن هشام بن إسماعيل. وكان أمير المدينة.

سنة تسع عشرة ومائة:

ذكر قتل المغيرة وبيان

في هذه السنة خرج المُغِيرة بن سعِيد وبَيَان في ستَّةِ نَفَر، وكانوا يسمون الوُصفاء، وكان المغيرةُ ساحرًا، وكان يقول: لو أردتُ أنْ أحيي عادًا وثمود وقُرُونًا بين ذلك كثيرًا لفعلتُ. وبلغ خالدَ بنَ عبْد الله القَسْرِي خروجُهم بظَهْر الكوفة، وهو يخطب، فقال: أطعموني ماء، فقال يحيى بن نوفل[١] في ذلك من أبيات: [من الوافر]

وقلتَ لِما أصابكَ أطْعِمُوني ... شرابًا ثم بُلْتَ على السرير

لأعْلاَجٍ ثمانيةٍ وشَيْخٍ ... كبيرِ السنِّ لَيْس بذِي نَصِير

فأرسل خالد فأخذهم وأمر بسريره فأُخرج إلى المسجد الجامع، وأحرقهم بالقَصب والنِّفْط.

وكان مذْهب المُغيرة التجسيم؛ يقول: إن ربَّه على صورةِ رجل على رأْسه تاج، وإنَّ أعضاءه على عدد حُرُوفِ الهجاء، تعالى الله عن ذلك.

---

(١) هو يحيى بن نوفل اليماني، من حمير ويكنى أبا معمر ويقال أنه كان أولاً ينتمي إلى ثقيف فلما ولي الحجاج خالد بن عبد الله القسري العراق ادعى أنه من حمير، وكان أبان بن الوليد البجلي في زمن الحجاج (بن يوسف) في كتاب ديوان الضياع يجري عليه الرزق... وكان يحيى كثير الهجاء ولا يكاد يمدح أحدًا... (طبقات الشعراء).

وكان يقول: إنَّ الله تعالى لما أراد أنْ يخلقَ الْخَلْق تكلَّم باسْمه الأعْظَم، فطار فوقع على تاجه، ثم كتب بإصْبعه على كَفِّه أعمال عبادِه من المعاصي والطاعات، فلما رأى المعاصي ارْفَضَّ عرقًا، فاجتمع مِنْ عرقه بحْرانِ: أحدُهما مِلْحٌ مظلم، والآخر عذْب نيِّر، ثم اطَّلَع في الْبَحْر فرأى ظِلَّهُ فذهب ليأْخذه، فطار فأدْركه فقلع عيْني ذلك الظلِّ ومحقَه، فخلق من عيْنَيْه الشمس وشمسًا أُخرى. وخَلَقَ مِنَ البحر المِلْحِ الكفَّار، وخلق من البحْرِ العذْب المؤمنين.

وكان لَعنَه الله يقول بإلٰهية عليّ وتَكْفِيرِ أبي بكْر وعُمر وسائر الصحابة رضي الله عنهم إلاَّ من ثبت مع عليّ رضي الله عنه.

وكان يقول: إنَّ الأنبياءَ لم يختلفوا في شيء من الشرائع.

وكان يقول بتحريم ماء الفُراتِ وكلِّ نَهْرٍ أو عين أو بئر وقعت فيه نجاسةٌ.

وكان يخرج إلى المقبرةِ فيتكلم فيرى أمثالُ الجراد على القبور.

وأما مذهب بَيَان فإنه كان يقول بإلَٰهِيَّةِ عليّ رضي الله عنه، وإنَّ الحسنَ والحُسيْن إلٰهان، ومحمد ابن الحنفية بعْده، ثم بعده ابْنُه أبو هاشم بن محمد بنوْع من التناسخ.

وكان يقول: إن الله تعالى يفْنَى جميعه إلا وجْهه، ويحتج بقوله تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمٰن: ٢٧]. تعالى الله عما يقول الظالمون عُلُوًّا كبيرًا.

وادَّعى النبوة، وزعم أنه المراد بقوله عزَّ وجلَّ: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٨].

ذكر خبر الخوارج في هذه السنة

وفي هذه السنة خرج بُهْلُول بن بِشْر الملقَّبُ كُثَارة، وهو من الموصل من شيبان، وكان سبب مخْرجه أنه خرج يُريدُ الحجَّ، فأمر غلامه أن يبتاعَ له خَلاًّ بدِرْهم، فأتاهُ بخَمْرٍ فأمرهُ بردِّه فلم يُجبْه صاحبُ الخمر إلى ذلك، فجاء بُهْلُول إلى صاحبِ القَرْيةِ وهي من السَّوادِ، فكلَّمه، فقال العامل: الْخَمْرُ خَيْرٌ منك ومِنْ قومك.

فمضى إلى الحج وقد عزم على الخروجِ، فلقي بمكَّةَ مَنْ كان على مِثْل رأْيه، فاتَّعدُوا قريةً من قُرى الموصل، فاجتمعوا بها - وهم أربعون رجُلاً - وأمَّرُوا عليهم البُهْلول، وكتمُوا أمرهم، وجعلوا لا يمُرُّون بعامل إلا أخبروه أنَّهم قدموا من عند هشام على بعْضِ الأعمال، وأخذوا دوابَّ البريد.

فلما أتوا إلى القرية التي ابْتاع الغلامُ منها الخَمْر قال بُهْلول: نَبْدأُ بهذا العامل، فقال أصحابُهُ: نحن نريد قَتْل خالد، وإنْ بدأْنا بهذا شُهر أمْرُنا، وحذِرنا خالدٌ وغَيْرهُ، فنَشَدْناك الله أن تَقْتُل هذا فيُفْلت منا خالدٌ الذي يهْدِمُ المساجدَ، ويبْنِي البِيع والكنائس، ويولي المجوسَ على المسلمين، ويُنْكح أهْل الذمة المسلماتِ، لعلَّنا نَقْتُله.

قال: والله لا أدعُ ما يلزمني لما بعْده، وأرجو أنْ أقْتُلَ هذا وخالدًا، فأتاه فقتله.

فعلم الناسُ أنهم خوارج، وهَربُوا، وخرجت البُرُدُ[1] إلى خالد فأعلموه بهم، فخرج خالد من وَاسِط، فأتى الحِيرة، وبها جُنْدٌ قد قدموا من الشام مَددًا لعاملِ الهِنْد، فأمرهم خالدٌ بقتَالهم، وقال: منْ قَتَل منهم رجُلاً أعطيْتُه عطاءً سِوَى ما أخذ في الشام، وأعفَيْتُهُ من الدخول إلى الهند.

فسارَعُوا إلى ذلك، فتوجَّه مقدّمهم، وهو من بني القَيْن، ومعه ستمائة منهم، وضمَّ إليه خالد مائتين من الشرط، فالتقوا على الفُرات؛ فقال القَيْني لمَنْ معه من الشّرط: لا تكونوا مَعَنا ليكونَ الظَّفر له ولأصْحابه.

وخرج إليهم بُهلول، فحمل على القَيْني فطعنَه فأنفذه، وانهزم أهْلُ الشام والشرط، وتبعهم بُهْلول وأصحابُه يقْتُلونهم، حتى بلغوا الكوفَةَ، ووجد بُهلول مع القَيْني بَدْرةً فأخذها.

وكان بالكوفة ستة يرون رأي بُهلول، فخرجوا فقتلوا بِصَرِيْفين[2]، فخرج بُهْلول فقال: منْ قَتَل هؤلاء، حتى أُعْطِيَهُ هذه البَدْرة؟ فجاء نَفَرٌ فقالوا: نحن قَتَلْناهم، وهم يظنُّونه من عند خالد، وصدّقهم أهْلُ القرية، فقتلهم، وترك أهْلَ القرية.

وبلغ خالدًا الخبر، فوجَّه إليه قائدًا من شَيْبَان أحد بني حَوْشب بن يزيد بن رُؤيم، فلقيه فيما بين الموصل والكوفة، فانهزم أهْلُ الكوفة، فأتَوْا خالدًا، وارتحل بُهْلول مِنْ يوْمِهِ يُريد الموصل، فكتب عَاملُ الموصل إلى هشام يُخْبِرُهُ بهم، ويسأله جُنْدًا، فكتب إليه هشام: وجِّه إليهم كُثَارة بنَ بشْر.

فكتب إليه: إنَّ الخارج هو كُثَارة.

ثم قال بُهلول لأصْحابه: إنَّا والله ما نصنعُ بابْنِ النصرانيَّةِ شيئًا ـ يعني خالدًا ـ فلم لا نطْلُبُ الرأس الذي سلَّط خالدًا.

---

(١) البرد: جمع البريد وهو معروف.

(٢) صريفون: موضع في سواد العراق.

فسار يريد هشامًا بالاسم، فخاف عُمَّالُ هشام من هشام إنْ تَرَكُوه يجوزُ إلى بلادهم، فسيَّر خالدٌ جُنْدًا من العراق، وسَيَّر عاملُ الجزيرة جُنْدًا من الجزيرة، ووجَّه هشام جُنْدًا من الشام، فاجتمعوا بديْرٍ بين الجزيرة والموصل، وأقبل بُهلول إليهم.

وقيل: التقوا بكُحيْل[1] دون الموصل، ونزل بُهلول على بابِ الدَّيْر، وهو في سبعين، فحمل عليهم فقتل منهم نَفَرًا ستة، وقاتلهم عامَّةَ نهاره، وكانوا عشرين ألفًا، فأكْثَر فيهم القَتْلَ والجِراح.

ثم إنَّ بُهلولاً وأصحابه عقَرُوا دَوابَّهم وترجَّلوا، فقاتلوا قتالاً شديدًا، فقُتل كثير من أصحاب بُهْلُول وطعن فصُرع، فقال أصحابه: ولِّ أمْرنا، فقال: إنْ هلَكْتُ فأمير المؤمنين دِعامة الشيباني، فإن هلك فعمرو اليشكري، ومات بُهلول من ليلته، فلما أصبحوا هرب دِعَامة وتركهم، وخرج عمْرو اليشكري فلم يلبث أن قتل.

وخرج العنزي صاحب الأشهب على خالد في ستين فوجه إليه خالد السِّمْط بن مُسلم البجلي في أربعة آلاف، فالتقوا بناحية الفُرات، فانهزم الخوارجُ، فتلقَّاهم عبِيد أهْلِ الكوفة وسفْلَتُهم فرموهم بالحجارةِ حتى قَتَلُوهم.

ثم خرج وزير السّختياني على خالد بالحيرة في نَفَر، فجعل لا يمرُّ بقرْية إلا أحْرقها، ولا يلْقَى أحدًا إلاَّ قتله، وغلب على ما هنالك وعلى بيْتِ المال؛ فوجَّه إليه خالدٌ جُنْدًا، فقتلوا عامَّةَ أصحابه، وأُثْخن بالجِراحِ وأُتي به خالد، فأقبل على خالد فوعظَه، فأعْجب خالدٌ ما سمِع منه، فلم يقتله وحبسه عنده. وكان يُؤْتي به في الليل فيحادثه، فسُعِيَ بخالد إلى هشام.

وقيل: أخذَ حرُورِيا قد قَتَل وحرقَ وأباح الأموال فجعله سمِيرًا، فغضب هشام، وكتب إليه يأْمُرُهُ بقَتْلِهِ، فأخَّر قَتْله، فكتب إليه ثانيًا يذمُّه ويأْمره بقَتْلِهِ وإحراقه، فقتله وأحرقه ونفَرًا معه، ولم يزل يتْلُو القُرْآنَ حتى مات وهو يقْرأُ: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّاۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة ٨١].

وخرج الصُحاريُّ بن شَبيب بن يزيد بناحية جَبُّل[2]، وكان قد أتى خالدًا يسْأله الفَرِيضة، فقال له: وما يصنَعُ ابْن شبيب بالفَريضة؟ فمضى ونَدِم خالد، وخاف أن يفْتق

---

(١) كحيل: تصغير كحل: موضع بالجزيرة، وكان فيه يوم للعرب.. وقيل: الكحيل: مدينة عظيمة على دجلة بين الزابين فوق تكريت من الجانب الغربي، وقيل: الكحيل في بلاد هذيل... (معجم البلدان لياقوت).

(٢) جبل: بفتح الجيم وتشديد الباء وضمها ولام: بليدة بين النعمانية وواسط في الجانب الشرقي.

عليه فَتْقًا، فطلبه فلم يرجع إليه، وسار حتى أتى جَبُل، وبها نَفَرٌ من بني تَيْم اللات بن ثعلبة، فأخبرهم خَبره، فقالوا: وما كنْتَ ترْجُو من ابْن النصرانِيَّة؟ كنْتَ أوْلَى أنْ تسير إليه بالسيف فتضربه به. فقال: والله ما أردْتُ الفَريضَةَ، وما أردْتُ إلا التوصُّل إليه لئلا يُنْكِرني، ثم أقتله بفُلاَن ـ يعني رجلاً من الصُّفْرِيّة، كان خالد قَتَلَهُ صبْرًا.

ثم دعاهم إلى الخروج معه فتَبِعه منهم ثلاثون رجُلاً، فخرج بهم، فبلغ خَبرُهُ خالدًا، فقال: قد كنْتُ خِفْتُها منه، ثم وجَّه إليه جُنْدًا فلقوه بناحية المَنَاذر[1]، فقاتلهم قتالاً شديدًا، فقتلوه وجميع أصحابه.

وحجَّ بالناس في هذه السنة أبو شَاكِر مسلمة بن هشام.

سنة عشرين ومائة:

في هذه السنة توفي أسد بن عبْد الله القَسْري أمير خراسان في شهر ربيع الأول بمدينة بلْخ، واستخلف جعفر بن حنْظَلَة البهْراني فعمل أربعة أشهر، ثم جاء عهد نَصْر بن سيار في شهر رجب من السنة.

ذكر عزل خالد بن عبد الله القسري وولاية يوسف بن عمر الثَّقفي

وفي هذه السنة عزَل هشام بْنُ عبد الملك خالدًا عن جميع أعمالِهِ. وقد اختُلِف في سبب ذلك، فقيل: إن أبا المثنى فَرُّوخ كان على ضِياع هشام بنهر الرُّمَّان[2] بالعِراقِ فثَقُل على خالد أمْرُه، فقال خالد لحسّان النبطِي: اخْرُجْ إلى هشام وزِد على فَرُّوخ. ففعل حسّان ذلك وتولاَّها، فصار حسَّان أثقل على خالد من فَروخ، فجعل يُؤْذيه، فيقول له حسان: لا تُفسدْني، وأنا صنيعتُك، فأبى إلا أذاه، فلما قدم عليه بثَق[3] البُثُوق على الضياع، ثم خرج حسّان إلى هشام، فقال له: إنَّ خالدًا بثَق البُثوق على ضِياعك، فوجَّه هشام منْ ينْظُر إليها. وقال حسان لخادم منْ خَدم هشام: إنْ تكلَّمت بكلمةٍ أقولُها لك حيث يسمع هشام فلك عندي ألفُ دينارٍ. قال: فعجلها فأعطاه، وقال له: تُبكِّي صبيًا من صِبْيان هشام، فإذا بكَى فقُلْ له: اسكُتْ، فكأنك ابْنَ خالد الذي غَلَّتُه عشرة آلاف ألف.

---

(١) المناذر: هما بلدتان بنواحي خوزستان، مناذر الصغرى، ومناذر الكبرى.

(٢) رمان: بفتح أوله وتشديد ثانيه: هو جبل في بلاد طيء في غربي سلمى، أحد جبلي طيىء، وإليه انتهى فل أهل الردة يوم بزاخة... (معجم البلدان).

(٣) البثق: موضع انبثاق الماء من نهر ونحوه، جمع بثوق.

ففعل الخادم، فسمعها هشام، فسأل حسان عن غَلَّةِ خالد فقال: ثلاثة عشر ألف ألف، فوقَرتْ في نفس هشام.

وقيل: بل كانت غلَّته عشرين ألف ألف، وإنه حفر بالعِراق الأنهار، ومنها نهر خالد وناجُوى وبارمانا، والمُبارك والجامع، وكُورة سابور، والصلح، وكان كثيرًا ما يقول: إنِّي مظلوم ما تحتَ قدمي شيء إلاَّ وهو لي - يعْني أنْ عمر جعل لبجيلة ربع خمس السواد، وأشار عليه العُريان بن الهيْثَم وبِلاَل بن أبي بُرْدة بِعرض أمرِه على هشام ليأْخذَ منها ما أراد، ويضْمنَانِ له الرِّضَا، فإنهما بلغهما تغيُّرُ هشام عليه، فلم يفعل ولم يُجِبْهُم إلى شيء.

وقيل لهشام: إنَّ خالدًا قال لولده: ما أنْتَ بدون مسلمة بن هشام، وقد كان يذكر هشامًا، فيقول: ابن الحمْقَاء.

وكان خالد يخطب فيقول: زعمْتُم أني أُغْلِي أسعاركم فعلى مَنْ يُغْليها لعنةُ الله.

وكان هشام كتب إليه لا تبيعنَّ من الغَلاَّت شيئًا حتى تُباع غلاَّت أمِير المؤمنين.

وكان يقول لابْنِهِ: كيف أنْتَ إذا احتاج إليك ابْنُ أمير المؤمنين؟ فبلغ ذلك كلُّه هشامًا، فتنكَّر له، وبلغه أنه يستقلُّ ولايةَ العراق، فكتب إليه هشام: يا بْنَ أُمِّ خالد، بلغني أنكَ تقول: ما ولايةُ العراق لي بشرف. يا بْنَ اللخناء، كيف لا تكونُ ولايةُ العراق لك شرفًا، وأنت مِنْ بجيلة القليلة الذليلة! أما والله إني لأظنُّ أنَّ أوّل منْ يأْتيك صغير من قريش يشدُّ يديْك إلى عُنُقك.

ولم يزَل يَبْلُغه عنه ما يكْرهُ، فعزم على عزْله وكتم ذلك، وكتب إلى يوسف بن عمر - وهو باليمن يأْمُره أنْ يقْدُم في ثلاثين من أصحابه إلى العراقِ، فقد ولاَّهُ ذلك.

فسار يوسف إلى الكوفةِ فعرَّس[1] قريبًا منها، وقد ختن طارقٌ خليفةُ خالد بالكوفة ولده، فأهْدى إليه ألْف وصيف ووصيفة سِوى الأموال والثياب، فمرّ بيوسف بعْضُ أهلِ العراق فسألوه ما أنتم؟ وأين تريدون؟ قالوا: بعْضَ المواضع؛ فأتوا طارقًا فأخبروه خَبرهم، وأمروه بقَتْلِهم، وقالوا: إنهم خوارج.

وسار يوسف إلى دُور ثَقِيف. فقيل لهم: ما أنتم؟ فكتَمُوا حالَهم. وأمر يوسف فَجُمِع إليه منْ هناك مِن مُضر، فلما اجتمعوا دخل المسجد مع الفَجْر، وأمر المؤذِّنَ فأقام الصلاة. فصلَّى، وأرسل إلى خالد وطارق فأخذهما وإنَّ القدُور لتَغْلِي.

---

(١) عرّس: أقام.

وقيل: لما أراد هشام أن يُولِّي يوسف العراقَ كَتم ذلك، فقدم جُنْدب مولى يوسف بكتابٍ يوسف إلى هشام، فقرأه ثم قال لسالم مولى عَنْبسة ـ وهو على الدِّيوان ـ: أجِبْه عنْ لِسانِك، وأتني بالكتاب.

وكتب هشام بخطِّه كتابًا صغِيرًا إلى يوسف يأْمُره بالمسيرِ إلى العِراق.

فكتب سالم الكتاب وأتاه به، فجعل كتابه في وسطه وختمه، ثم دعا رسولَ يوسف فأمر به فضُرب ومُزِّقَتْ ثيابُه، ودفع إليه الكتاب، فسار وارْتاب بشير بن أبي ثَلْجة وكان خليفةَ سالم، وقال: هذه حيلةٌ، وقد ولي يوسف العراق. فكتب إلى عِياض ـ وهو نائبُ سالم بالعراق ـ: إنَّ أهْلك قد بعثُوا إليك بالثَّوب اليماني: فإذا أتاك فالبسْه، واحمد الله تعالى. وأعْلِم ذلك طارقًا. فأعلم عِياض طارقَ بْنَ أبي زِياد بالكتاب، ثم ندم بشير على كتابِهِ، فكتب إلى عِياض: إنَّ أهْلَك قد بدا لهم في إمساك الثوب.

فأتَى عياض بالكتاب الثاني إلى طارق، فقال طارق: الخبر في الكتاب الأول، ولكن بشيرًا ندم وخاف أنْ يظهر الخبر.

وركب طارقٌ من الكوفةِ إلى خالد وهو بواسط، فرآه داود، وكان على حجابة خالد وديوانه، فأعلم خالدًا فأذِنَ له، فلما رآه قال: ما أقْدمكَ بغير إذْنٍ؟ قال: أمْرٌ كنْتُ أخطأْت فيه، كنتُ قد كتبْتُ إلى الأميرِ أُعزِّيه بأخيه أسد، وإنما كان يجب أنْ آتيه ماشيًا، فرقَّ خالد ودمعتْ عيناه، فقال: ارجع إلى عملك. فأخبره الخبر لمّا غاب داود؛ قال: فما الرَّأْيُ؟ قال: تركبُ إلى أمير المؤمنين فتعتَذِرُ إليه مما بلغه عنك. قال: لا أفْعلُ ذلك بغير إذْن. قال: فترسلني إليه حتى آتِيك بإذْنِهِ. قال: ولا هذا. قال: فاضمن لأمير المؤمنين جَمْع ما انْكسر في هذه السنين وآتيك بعهْدِه. قال: وكم مبْلَغُه؟ قال: مائة ألف ألف. قال: ومن أين أجِدُها؟ والله ما أجِدُ عشرة آلاف ألف درهم. قال: أتَحمَّل أنا وفلان وفلان. قال: إني إذًا للئيم، أن كنْتُ أعطيتكم شيئًا وأعودُ فيه. قال طارق: إنما نَقِيك ونَقِي أنفُسنا بأموالنا، ونستأْنف الدُّنْيا وتَبْقَى النعمةُ عليك وعلينا خَيْرٌ من أن يجيء منْ يطالِبُنَا بالأموال. وهي عند أهل الكوفة فيتربصون فنُقتل ويأْكلون تلك الأموال. فأبى خالد، فودَّعه طارق وبكَى، وقال: هذا آخِرُ ما نلتقي في الدنيا، ومضى إلى الكوفة، وخرج خالد إلى الحَمّة[1]، وقدم رسول يوسف

(١) الحمّة: بالفتح ثم التشديد: في بلاد العرب حمّات كثيرة، منها: حمّة أكيمة في بلاد كلاب، وحمّة الثوير لبني كلاب أيضًا، وحمة البرقة، وحمة خنزر، وحمة المنتضى، وحمة الهودرى، هذه الست في بلاد كلاب، فأما حمة المنتضى فهي حمة فاردة ليس بفرع جبل... (معجم البلدان لياقوت).

عليه اليمن، فقال: أمِيرُ المؤمنين ساخط عليك، وقد ضربني، ولم يكتب جواب كتابك، وهذا كتاب سالم صاحب الديوان، فقرأه، فلما انتهى إلى آخره قرأ كتاب هشام بخطِّه بولاية العِراقِ، ويأمره أن يأْخُذَ ابْنَ النَّصْرانية ـ يعني خالدًا وعُمّاله ـ فيعذِّبهم، فأخذه ليلاً، وسار مِنْ يومه، واستخلف على اليمنِ ابْنَه الصَّلْت، فقدم الكوفةَ في جُمادى الآخرة سنة عشرين ومائة، فنزل النَّجف، وأرسل مولاه كَيْسان، وقال: انطلق فأْتني بطارِق، فإنْ قَبل فاحْمِلْه على إكَاف[1]، وإن لم يقبلْ فأْت به سحْبًا، فأتى كَيْسان الحِيْرة فأخذ معه عبد المسيح سيِّد أهلها إلى طارق، فقال له: إنَّ يوسف قد قدم على العِراق وهو يستَدْعيك. فقال له طارق: إنْ أراد الأمِير المال أعطَيْتُه ما شاء.

وأقْبلُوا به إلى يوسف بالحيرة، فضربه ضَرْبًا مُبرِّحًا يقال خمسمائة سوْط. ودخل الكوفةَ، وأرسل إلى خالد بالحمَّة. فأخذه وحبسه وصالحه عنه أبان بن الوليد على سبعة آلاف ألف، فقيل ليوسف: لو لم تفعلْ لأخَذْتَ منه مائة ألف ألف، فندم، وقال: قد رهنْتُ لساني معه، ولا أرجعُ.

وأخبر أصحابُ خالد خالدًا، فقال: قد أخطأْتم ولا آمن أن يأْخذها ثم يعود. ارجعوا، فرجعوا، فأخْبرُوه أن خالدًا لم يرْضَ. فقال: قد رجعتم؟ قالوا: نعم. قال: والله لا أرْضَى بمثلها ولا مِثْلَيْها، فأخذ أكثرَ من ذلك.

وقيل: أخذ مائة ألف ألف، وحبس خالد بْنَ عبد الله بالحيرة ثمانيةَ عشر شهرًا مع أخيه إسماعيل وابنه يزيد بن خالد وابن أخيه المنذر بن أسد.

وكتب يوسف إلى هشام يستأْذِنُه في تَعْذِيبه، فأذِنَ له مرَّة واحدة، فعذَّبه ثم رده إلى حبْسه.

وقيل: بل عذَّبه عذابًا كثيرًا، وأمر هشامٌ بإطلاقه في شوال سنة إحدى وعشرين ومائة، فأطلقه فأتى القَرْيَةَ التي بإزاء الرُّصافَة، فأقام بها إلى صفر سنة اثنتين وعشرين.

وخرج زيد بن علي بن الحُسيْن رضي الله عنهم على ما نذكره إن شاء الله.

فكتب يوسف إلى هشام: إنَّ بني هاشم كانوا قد هلَكُوا جُوعًا، فكانت هِمَّةُ أحدِهم قوتَ عياله، فلما ولِّي خالدٌ العراقَ أعطاهم الأموال، فطمحت أنفُسهُم إلى الخلافة، وما خرج زَيْدٌ إلاّ عنْ رأيِ خالد.

---

(١) إكاف الحمار: برذعته.

فقال هشام: كذب يوسف، وضرب رسولَه، وقال: لَسْنَا نَتَّهِم خالدًا في طاعةٍ. وسمع خالد، فسار حتى نزل دِمشق، ثم كان من أمره ومقْتَله ما نذكره إن شاء الله في سنة ست وعشرين ومائة في أيام الوليد، وكانت ولايةُ خالد العراقَ في شوال سنة خمس ومائة، وعُزِل في جُمادى الآخرة سنة عشرين.

قال: ولما وُلّي يوسف العراقَ كان الإسلام ذليلاً والحكْمُ إلى أهْلِ الذمَّةِ، فقال يحيى بن نَوْفل فيه: [من الطويل]

أتـانـا وأهْـلُ الـشِّـرْكِ أهـلُ زَكـاتِـنَـا ... وحـكـامُـنَـا فـيـمـا نُـسِـرُّ ونَـجْـهـرُ
فـلـمـا أتـانـا يـوسف الـخَـيْـر أشْـرقَـتْ ... لـه الأرْضُ حـتَّـى كـل وادٍ مُـنَـوّرُ
وحتى رأينا العدْل في الناسِ ظاهرًا ... ومـا كـان مِـنْ قـبـل الـعُـقَـيْـلـيّ يـظْـهـرُ

وحجّ بالناس في هذه السنةِ محمد بن هشام بن إسماعيل المخزومي.

وقيل: حجّ بهم سُلَيمان بن هشام بن عبْد الملك، وقيل: أخوه يزيد بن هاشم، والله أعلم.

سنة إحدى وعشرين ومائة:

في هذه السنة كان ظهور زَيْد بن علي بن الحُسين بن علي رضي الله عنهم على ما نذكر ذلك إن شاء الله في أخبار مَنْ نهض في طلَبِ الخلافة من آل أبي طالب، فقُتل دُونَها وهو في السِّفْر الثالث والعشرين من كتابنا هذا.

وفيها فرغ الوليد بن بكير عامل الموصل مِنْ حفْر النهْرِ الذي أدخله البلد، وكان مبلغ النفقة عليه ثمانية آلاف ألف درهم، وجعل عليه ثمانين حجرًا تطحن. ووقف هشام هذه الأرْحاءَ على عملِ النهر.

وحجّ بالناس في هذه السنة محمد بن هشام بن إسماعيل المخزومي.

سنة اثنتين وعشرين ومائة:

في هذه السنة كان مقتل زَيْد بن علي رضي الله عنه على ما نذكره إنْ شاء الله تعالى.

ذكر قتل البطّال

في هذه السنة قُتِل البطَّال، وهو أبو الحسين عبْد الله الأنطاكي، في جماعة من المسلمين. وقيل: كان مقْتَلُه في سنة ثلاث وعشرين ومائة، وكان كثير الغَزَاة إلى الروم والإغارة على بلادهم، وله عندهم ذِكْرٌ عظيم، وله حكاياتٌ في غزواته يطولُ الشَّرْح بسرْدِها.

حُكي أنه دخل بلادَ الرومِ في بعض غاراته هو وأصحابُه، فدخل قريةً لهم ليلاً وامرأةٌ تقول لصغِير يبْكي: تَسْكُت وإلاَّ سلمتك للبطَّال، ثم رفعتْه بيدها، وقالت: يا بطَّالُ خُذْه، فتناوله مِنْ يدِها. وقد وضع الناس له سيرة.

وحجّ بالناس محمد بن هشام المخزومي.

سنة ثلاث وعشرين ومائة:

ذكر صلح نصر بن سيّار مع الصغد

في هذه السنة صالح نَصْر بن سيّار الصُغْد، وكان خاقان لما قُتِل تفرَّقت التُرْك في غارةِ بعْضِها على بعض، فطمع أهْلُ الصُغْد في الرجعة إليها، وانحاز قَوْمٌ منهم إلى الشاش، فراسلهم نَصْر بن سيَّار، ودعاهم إلى الرجوع إلى بلادهم، وأعطاهم ما أرادُوا، فاشترطوا شروطًا منها ألاَّ يعاقب من كان مسلمًا وارتدَّ عن الإسلام، ولا يعدي عليهم في دَيْن لأحد من الناس، ولا يُؤخذ أسْرى المسلمين مِنْ أيديهم إلاَّ بقضيَّةِ قاضٍ وشهادةِ عدول.

فعاب الناسُ ذلك على نَصْر، فقال: لو عاينتُم شَوْكَتَهم في المسلمين مثل ما عاينْتُ ما أنكرتم ذلك.

وأرسل رسولاً إلى هشام في ذلك، فأجابه إليه.

وحجّ بالناس في هذه السنة يزيد بن هشام بن عبد الملك.

سنة أربع وعشرين ومائة:

في هذه السنة وما قبلها كان من خَبَر شِيْعة بني العباس ما نذكُرُه إنشاء الله في أخبارهم.

وحجّ بالناس في هذه السنة محمد بن هشام بن إسماعيل.

سنة خمس وعشرين ومائة:

ذكر وفاة هشام بن عبد الملك ونبذة من أخباره

كانت وفاته بالرُّصافة لستٌ خَلَوْنَ مِنْ شهر ربيع الآخر منها، وصلَّى عليه ابْنُه مسلم وكان عُمْرُهُ ستًّا وخمسين سنة. وقيل أقلّ من ذلك إلى اثنتين وخمسين. ومدةُ

خلافتِهِ تسع عشرة سنة وسبعة أشهر وأحد عشر يومًا، وكان أحْول أبْيض سمِينًا مُنْقَلِب العينين ربْعة يخضب بالسَّواد، وكان حسنَ السياسة يقِظًا يُباشِرُ الأُمور بنفسه، وكان له من الستور والكُسْوة ما لم يكن لمن قبله.

وذكر صاحب العقد[١]: أنه لما حجّ حُمِلت ثياب لباسه على ستمائة جمل، وكان جمَّاعًا للأموال شديد البخل كأبيه.

قال عَقَّال بن شَبَّة: دخلْتُ على هشام وعليه قَباءٌ أخضر، فجعلْتُ أنْظُر إليه، فقال: ما لك؟ فقلت: رأيتُ عليك قبل أنْ تَلي الخلافة قَباء مثل هذا. فتأمَّلْتُه هل هو هو أم غيره؟ فقال: هو والله هو. وأما ما ترون مِنْ جمع المالِ فهو لكم.

قيل: وكتب له بعْضُ عُمَّاله: قد بعثْتُ إلى أمير المؤمنين بسلة دُراقِن[٢]. فكتب إليه: قد وصل وأعجب أمير المؤمنين فزِدْ منه واستوثق من الوعاء.

وكتب إليه عامل: قد بعثت بكَمْأةٍ[٣]. فأجابه: قد وصلت الكَمْأَةُ وهي أربعون، وقد تَغَيَّر بعْضُها من حَشْوِها، فإذا بعثْتَ شيئًا فأجِد الحشْو في الظَّرف التي تجعلها فيه بالرَّمْل حتى لا يضطرب ولا يصيب بعْضُه بعضًا.

وقيل له: أتطمعُ في الخِلافَة وأنْتَ بَخِيل جَبَان؟ قال: ولـِمَ لا أطمعُ، وأنا عفيف حليم؟

قالوا: وخلَّف من العَيْن أربعةً وأربعين ألف ألف دينار، وما لاَ يُحْصى من الورِق.

ولما مات طلبوا له قُمْقُمًا[٤] من بعْض الخُزَّان يسخِّنُ له الماء فيه، فمنعه عياض كاتب الوليد، فاستعاروا له قُمْقُمًا من بعض الخزان يسخن له فيه.

وفي أيامه بنى سعِيدٌ أخوه قُبَّةَ بيت المقْدِس.

---

(١) هو أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه بن حبيب بن حدير بن سالم القرطبي مولى هشام بن عبد الرحمٰن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم الأموي؛ كان من العلماء المكثرين من المحفوظات والاطلاع على أخبار الناس، وصنف كتابه «العقد» وهو من الكتب الممتعة حوى من كل شيء، وله ديوان شعر جيد... (وفيات الأعيان ١: ١١٠).

(٢) الدراقن: المشمش والخوخ... (القاموس).

(٣) الكمأة: جمع الكمء، وهو فطر من الفصيلة الكمئية، وهي أرضية تنتفخ حاملات أبواغها: فتجنى وتؤكل مطبوخة، ويختلف حجمها بحسب الأنواع.

(٤) القمقم: ما يسخن فيه الماء من نحاس وغيره ويكون ضيق الرأس.

أولاده: كان له عشرة أولاد من الذكور والإناث، منهم: معاوية، وسليمان.

نقش خَاتَمِه: الحكم للحكم الحكيم.

كُتَّابه: سعِيد بن الوليد، والأبرش الكَلْبِي، ومحمد بن عبْد الله بن حارثة.

قاضيه: محمد بن صفْوان الجُمحي.

حاجبه: غالب مولاه.

الأُمراء بمصر: محمد بن عبد الملك أخوه، ثم استعفاه فولاَّها بعْده أنس بن يوسف بن يحيى بن الحكم بن العاص، ثم استعفى فولاها حفْص بن الوليد الحضرمي، ثم صرفه وولاَّها عبْد الملك بن رفاعة، ثم مات فولاَّها أخاه الوليد بن رفاعة، ثم مات فولاَّها عبد الرحمٰن بن خالد التميمي، ثم صرفه وولاَّها حنظلة بن صفوان، ثم سيَّرهُ إلى إفريقية، وولى حَفْصًا.

وكان على قَضَائها من قِبَل هشام يحيى بن ميمون الحَضْرميّ إلى أن وليها الوليد بن رفاعة فصرفه، وولاَّها أبا نَضْلَة الخيار بن خالد، ثم مات فولّى سعيد بن ربيعة الصّدفي، واستعفى، فولّى تَوْبة بن يمين الحضْرمي، ثم مات فولاًّها جَبْر بن نُعيم الحضرمي.

ذكر بيعة الوليد بن يزيد

هو أبو العباس الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان، وأُمه أُمّ الحجاج بنت محمد بن يوسف أخي الحجاج بن يوسف الثقفي، وهو الحادي عشر من ملوك بني أُمية.

بويع له لستٍّ مضين من شهر ربيع الآخر سنة خمس وعشرين ومائة.

قال: وكان يزيد قد جعل ولايةَ العهْدِ لأخيه هشام مِنْ بعده، ثم مِنْ بعده للوليد، وكان عُمْر الوليد إحْدى عشرة سنة، ثم عاش يزيدُ حتى بلغ الوليدُ خمس عشرة سنة، فكان يزيد يقول: الله بيني وبين منْ جعل هشامًا بيْني وبينك.

فلما ولّي هشام أكرم الوليد بن يزيد حتى ظهر من الوليد مجون واشتهر بشُرْب الشراب، وكان يؤدِّبه عبد الصمد بن عبد الأعلى يحْمِلُه على ذلك، واتَّخذَ له نُدماء، فأراد هشام أن يقْطَعهُمْ عنه، فولاَّه الحج سنة ست عشرة ومائة، فحمل معه كِلابًا في صناديق، وعمل قُبَّةً على قَدْرِ الكعبة ليضَعها على الكَعْبةِ، وحمل معه الخمر، وأراد أن ينصب القُبَّةَ على الكعبة ويشرب فيها الخمر، فخوَّفَه أصحابهُ، وقالوا: لا نأْمنُ

الناس عليك وعلينا معك، فلم يفعل. وظهر للناس منه تهاونٌ بالدِّيْن واستخفافٌ، فطمع هشام في البيعة لابنه مسلمة، وخَلع الوليد، وأراد الوليد على ذلك فأبى، فقال له: اجعلْه بعْدك، فأبى؛ فتنكَّر له هشام، وعمل سِرًّا في البيْعةِ لابْنِهِ مسلمة، فأجابه قوم، فكان ممن أجابه خالاه: محمد، وإبراهيم ابنا هشام بن إسماعيل، وبنو القَعْقَاع بن خُليد العبْسي وغيرهم من خاصَّتِهِ. وأفرط الولِيدُ في الشراب، وطلبِ اللذات؛ فقال له هشام: يا وليدُ، والله أدْرِي أعلى الإسْلام أنْتَ أم لا؟ ما تدع شيئًا من المُنْكَر إلاَّ أتَيْتَه غير متحاش؛ فكتب إليه الوليد: [من السّريع]

يـا أيُّـهـا الـسـائِـلُ عـن دِيـنـنـا نـحـن عـلـى دِيْـن أبِـي شـاكـر
نَـشْـربُـهـا صِـرْفًـا ومـمْـزُوجـةً بـالـسُّـخْـنِ أحـيـانًـا وبـالْـفَـاتِـر

فغضب هشامٌ على ابنه مسلمة، وكان يُكْنَى أبا شاكر، وقال له: يُعيرُني الوليد بك، وأنا أرشِّحك للخلافةِ. فألزَمه الأدب، وأحضره الجماعةَ، وولاَّه الموسم سنة تسع عشرة ومائة، فأظْهر النُسك واللِّين، وقَسم بمكة والمدينة أموالاً، فقال مولى لأهل المدينة:

يـا أيُّـهـا الـسـائـلُ عـن دِيـنـنـا نـحـن عـلـى دِيْـن أبـي شَـاكـرِ
الـواهـب الـجُـرْدَ بـأرْسـانِـهـا لـيـس بـزِنْـدِيـقٍ ولا كـافـرِ[١]

يُعرض بالوليد.

وكان هشام ينْتَقص الوليد ويَعِيبه، فخرج الوليد ومعه ناسٌ مِنْ خاصَّته ومواليه، فنزل بالأزْرق[٢] على ماءٍ يقال له الأغْدف، وخلف كاتبه عِياض بن مسلم عند هشام ليُكاتِبه بما عندهم.

وقطع هشام عن الوليد ما كان يجْرِي عليه، وكاتَبه فيه الوليدُ فلم يُجِبْه إلى ردِّهِ، وأمره بإخراج عبد الصمد مِنْ عنده، فأخرجه وسأله أنْ يأْذَنَ لابْن سهيل في الخروج إليه، فضرب هشامٌ ابنَ سهيل وسيَّره إليه، وأخذ عياضَ بن مسلم كاتب الوليد فضربه وحبسه. فقال الوليد: منْ يثقُ بالناس، ومن يصنع المعروف؟ هذا الأحول المشئوم أبي، قدّمه على أهْل بيته فصيَّره وليَّ عهْده، ثم يصنع بي ما ترون، لا يعْلَمُ أنَّ لي في أحدٍ هوًى إلا عبث به.

---

(١) الجرد: جمع أجرد، وهو من الخيل والدواب، القصير الشعر وذلك من علامات العتق والكرم... (اللسان مادة ج ر د).

(٢) الأزرق: وادي الأزرق بالحجاز؛ والأزرق: ماء في طريق حاج الشام دون تيماء... (معجم البلدان).

وكتب إلى هشام في ذلك يُعاتبه، ويسأله أن يردَّ عليه كاتبه. فلم يردّه، فكتب إليه الوليد: [من الطويل]

رأيتُك تَبْنِي دائمًا في قَطِيعتي ... ولو كنتَ ذا حزْمٍ لهدَّمْتَ ما تَبْني

تُثِير علَى الباقين مجْنَى ضَغِينةٍ ... فويلٌ لهم إن متّ مِنْ شَرّ ما تجْنِي

كأني بهم والليتُ أفْضَلُ قولهمْ ... ألا ليْتَنَا والليت إذ ذاك لا يُغْنِي

كفَرْت يدًا مِنْ مُنْعِمٍ لو شكَرْتَها ... جزاكَ بها الرحمٰن ذُو الفَضْل والمنِّ

قال: ولم يزل الوليدُ مُقيمًا بتلك البريَّةِ حتى مات هشام، فلما كان صبيحة اليوم الذي جاءتْهُ فيه الخلافَةُ قال لأبي الزُّبيْر المنذر بن أبي عمْرو: ما أتَتْ عليّ ليلة منذ عقَلْت عقْلي أطول من هذه الليلة، عرضَتْ لي أُمورٌ، وحدَّثْتُ نفسي فيها بأُمورٍ من أمْرِ هذا الرجل ـ يعْني هشامًا ـ قد أولع بي فاركب بنا نتنفَّس، فركبا فسارا مِيْلَين، ووقف على كَثِيبٍ[1]، فنظر إلى رَهْج[2]، فقال: هؤلاء رُسل هشام، نَسْألُ الله من خيرهم؛ إذْ بدا رجُلان على البرِيد: أحدهم مولًى لأبي محمد السُّفياني، فلما قَرُبا نَزلاَ يَعْدُوان حتى دنَوا منه، فسلَّما عليه بالخلافة، فوجم، ثم قال: أمات هشام؟ قالا: نعم والكتاب معنا من سالم بن عبْد الرحمٰن صاحب ديوان الرسائل. فقرأه؛ وسأل مولى أبي محمد السُّفياني عن كاتبه عِياض، فقال: لم يزل محبوسًا حتى نزل بهشام الموت، فأرسل إلى الخُزَّان فقال: احتفظوا بما في أيديكم، فأفاق هشام فطلب شيئًا فمنعوه، فقال: إنا لله، كنا خُزَّانًا للوليد، ومات من ساعته.

وخرج عِياض من السجن، فختم أبوابَ الخزائن، وأنزل هشامًا عن فُرشِه وما وجدُوا له قُمْقُمًا يسخَّنُ فيه الماء حتى استعارُوه، ولا وجدوا له كَفَنًا من الخزائن، فكفَّنه غالب مولاه، فقال الوليد: [من مجزوء الخفيف]

هلكَ الأحْولُ المشُو ... مُ فقد أرسل المطر

وملَكْنا من بعْدِ ذا ... كَ، فقد أوْرق الشجر

فاشكرِ الله إنَّهُ ... زائدٌ كلَّ منْ شَكَر

وقيل: إنَّ هذا الشعر لغير الوليد.

قال: ولما سمع الوليد بموْتِهِ كتب إلى العباس بن عبْد الملك بن مرْوان أنْ يأْتي الرُّصافة فيُحْصي ما فيها من أموال هشام وولده وعماله وحشَمه إلاَّ مسلمة بن هشام

---

(١) الكثيب: الرمل المستطيل المحدودب. (٢) الرهج: الغبار.

فإنه كان يكلم أباه في الرفْقِ بالوليد، فقدم العباس الرُّصافة ففعل ذلك وكتب به إلى الوليد، فقال الوليد: [من السريع]

ليتَ هشامًا كان حيًّا يرى	مِحْلَبَهُ الأوْفَرَ قَدْ أُتْرِعا[1]
ليتَ هِشَامًا عاش حتى يرى	مِكْيالَهُ الأوفرَ قَدْ طُبِّعا
كِلْناهُ بالصَّاعِ الذي كالَهُ	وما ظَلَمْناه به إصْبعا
وما أتَيْنا ذاك عَنْ بِدْعةٍ	أحلَّه الفُرقانُ لي أجْمعا[2]

وضيّق الولِيدُ على أهْلِ هشام وأصحابه، واستعمل العُمّال، وكتب إلى الآفاق بأخْذِ البيْعةِ، فجاءته بيْعتُهم.

قال: ولما ولي الوليد أجرى على زَمْنَى[3] أهل الشام وعُمْيانهم وكَساهم، وأمر لكل إنسان منهم بخادم، وأخرج لِعيالاتِ الناس الكُسْوة والطِّيب، وزادهم؛ وزاد الناس في العطاء عشرات؛ ثم زاد أهْل الشام بعد العشرات عشرةً عشرةً، وزاد الوفود، ولم يقُلْ في شيء يُسأله: لا.

وفي هذه السنة، عقد الوليد البيعةَ لابنيه: الحكَم، وعثمان مِنْ بعده، وكتب بذلك إلى الأمصار، وجعل الحكَم مقدمًا والآخر من بعده.

وفيها استعمل الوليدُ خالد بْنَ يوسف بن محمد بن يوسف الثقفي على المدينة ومكةَ والطائف، ودفع إليه محمدًا وإبراهيم ابني هشام بن إسماعل المخزومي مُوثَقَيْن في عباءتَيْنِ؛ فقدم بهما المدينة في شعبان، فأقامهما للناس، ثم حُمِلا إلى الشام، فأُحضرا عند الوليد، فأمر بجلْدهما، فقال محمد: نسألُكَ القرابةَ. قال: وأيُّ قَرابة بيننا! قال: فقد نهى رسولُ الله ﷺ أنْ يُضْرب بسوط إلاَّ في حد. قال: ففي حدّ أضرِبك وقَوَد، أنت أوّل منْ فعَل بالعرْجي وهو ابْنُ عمي، وابن أمير المؤمنين عثمان - وكان محمد قد أخذه وقَيَّده وأقامه للناس وجلَده، وسجنه إلى أنْ مات بعد تسع سنين لهجاء العَرْجي إياه، ثم أمر به الوليد فجُلد هو وأخوه إبراهيم ثم أوْثقهما، وبعث بهما إلى يوسف بن عمر، وهو على العراق فعذّبهُما حتى ماتا.

وفيها عزل الوليد سعْد بن إبراهيم عن قضاء المدينة، وولّى القضاء يَحْيى بن سعيد الأنصاري.

---

(١) المحلب: الإناء يحلب فيه. (٢) الفرقان: القرآن.
(٣) الزمن: الذي ضعف بكبر سن أو مطاولة علة. جمع زمنى.

وفيها خرجت الرومُ إلى زِبَطْرة[١] وهو حِصْنٌ قديم كان افتتحه حبيب بن مسلمة الفِهْرِي، فأخربه الروم الآن فبُني بناءً غيْر محكم، فعاد الروم وأخربوه أيام مرْوان بن محمد ثم بناه الرشيد وشحنه بالرجال.

فلما كانت خلافةُ المأمون طَرقه الروم فشعَّثُوه، فأمر المأمون بمرمَّته وتحصينه، ثم قصده الرومُ بعد ذلك أيام المعتصم.

وفيها أغزى الوليد أخاه الغَمْر بن يزيد، وأمّر على جيْش البحْرِ الأسود بن بِلاَل المحاربي، وسيَّره إلى قُبْرس ليخيّر أهْلَها بين المسير إلى الشام أو إلى الروم، فاختارت طائفةٌ جوار المسلمين، فسيَّرهم إلى الشام، واختار آخرون الروم فسيَّرهُم إليهم.

وحجّ بالناس في هذه السنة يوسف بن محمد بن يوسف. وغَزَا النعمان بن يزيد بن عبد الملك الصائفةَ.

سنة ست وعشرين ومائة:

ذكر مقتل خالد بن عبد الله القسري وشيء من أخباره

قد ذكرنا من أخباره في سنة عشرين ومائة ما تقدم، وذكرنا أنه لما أُفرج عنه سار من الحِيرة إلى دِمشْق.

قال: ولما قدمها كان العاملُ عليها يومئذ كلثوم بْنَ عِياض القُشَيْري، وكان يُبْغِضُ خالدًا، واتفق أنه ظهر في دُور دمشق حريق في كل ليلة، يُلقيه رجُلٌ من أهل العراق يُقَال له: أبو العمرَّس فإذا وقع الحريق يسرقون.

وكان أولاد خالد وإخوته بالساحل لحدثٍ كان من الروم، فكتب كلثوم إلى هشام: إنَّ موالي خالد يريدونَ الوُثُوب على بيْتِ المال، وإنهم يحرقون البلد كلَّ ليلة.

فكتب هشام إليه يأمُره بحبْس آل خالد: الصغير منهم والكبير ومواليهم، فأنفذ

---

(١) زبطرة: بكسر الزاي، وفتح ثانيه، وسكون الطاء المهملة، وراء مهملة: مدينة بين ملطية وسميساط والحدث في طرف بلد الروم. . . (معجم البلدان لياقوت).

منْ أحضر أولاده وإخوتَه من الساحل في الجوامع[١]، ومعهم مواليهم، وحبس بنات خالد والنساء والصبيان، ثم ظهر على أبي العمرَّس ومنْ كان معه.

فكتب الوليدُ بن عبد الرحمٰن عاملُ الخراج إلى هشام بأخْذِ أبي العمرَّس وأصحابِه بأسمائهم وقبائلهم، ولم يذكر فيهم أحدًا من موالي خالد.

فكتب هشام إلى كلثوم يسبُّه ويأْمُرُه بإطلاق آل خالد، فأطلقهم وترك الموالي رجاء أن يشفع فيهم خالد إذا قدم من الصائفة.

ثم قدم خالد فنزل منْزِله بدمشق، وجاءه الناسُ للسلام عليه، فقال: خَرجْت مُغَازِيًا سميعًا مطيعًا، فخلفت في عقِبي، وأُخِذَ حُرمي وأهل بيتي فحُبسوا مع أهل الجرائم كما يُفْعل بالمشركين، فما منع عصابةً منكم أن تقول: علام حُبِس حرم هذا السامع المطيع؟ أخِفْتُم أن تُقتلوا جميعًا؟ أخافَكم الله.

ثم قال: ما لي ولهشام ليكُفَّنَّ عني أو لأدْعُونَّ إلى عِراقِي الهوى، شامي الدَّار، حجازي الأصل - يعني محمد بن علي بن عبْد الله بن عباس. ولقد أذِنْتُ لكم أنْ تُبلِّغوا هِشَامًا.

فلما بلغه قال: قد خَرِف أبو الهيثم، واسترمَّ خالدٌ مدةَ أيام وهو بدِمشْق ويوسف بن عُمر يطلُبُ ابْنَه يزيد بْنَ خالد، فلم يظفر به، وبذل فيه لهشام خمسين ألف ألف.

فلما هلك هشام وقام الوليدُ بعده كتب إلى خالِدٍ: ما حال الخمسين ألف ألف التي تعلم؟ واستقدمه، فقدم عليه حتى وقف بباب سُرادق[٢] الوليد، فأرسل إليه الوليدُ يقول: أين ابْنُك يزيد؟ فقال: كان قد هرب من هشام، وكنا نراه عند أمير المؤمنين، فلما لم نَره ظنناه ببلاد قومه من الشُّراة. فرجع الرسولُ، فقال: لا، ولكنك خلَّفْتَه طلبًا للفتْنَة. فقال: قد علم أميرُ المؤمنين أنَّا أهل بيت طاعة. فرجع الرسولُ فقال: يقول أمِيرُ المؤمنين: لتأْتينَّ به أو لأُزْهِقَنَّ نَفْسك. فرفع خالدٌ صوْتَه، وقال: قل له: هذا والله أردْت، لو كان تحت قدمي ما رفَعْتُها عنه.

فأمر الوليد بضَرْبِهِ فضُرب، فلم يتكلم، فحبسه حتى قدم يوسف بن عُمر مِنَ العراق بالأموال، فاشتراه من الوليد بخمسين ألف ألف، فأرسل إليه الوليدُ: إنَّ يوسف قد اشتراك بخمسين ألف ألف، فإنْ كنْتَ تضمنُها وإلاَّ دفَعْتُك إليه.

(١) الجوامع: الأغلال.

(٢) السرادق: كل ما أحاط بشيء من حائط أو مضرب؛ أو الفسطاط يجتمع فيه الناس لعرس أو مأتم وغيرهما.

فقال خالد: ما عهدْتُ العرب تُباع، والله لو سألني أنْ أضمنَ عُودًا ما ضمنتُه، فدفعه إلى يوسف، فنزع ثيابه، وحمله على بعِيرٍ بغير وِطَاءٍ، وعذَّبه عذَابًا شديدًا، وهو لا يكلِّمه كلمةً واحدةً، ثم حمله إلى الكوفة فعذَّبه، ووضع المُضَرّسَةَ على صدْره فقتله، ودفنه من الليل بالحيرة في العباءة التي كان فيها، وذلك في المحرم سنة ست وعشرين ومائة.

وقيل: بل أمر يوسف فوُضع على رجْلَيْه عُود، وقام عليه الرِّجالُ حتى تكسَّرت قدماه، وما تكلَّم ولا عبس، ثم على ساقيه وفخذيه، ثم على صدره حتى مات.

وكانت أُمُّ خالد نَصْرانيةً رُوميةً اسْتَلَبها أبوه، فأولدها خالِدًا وأسدًا، ولم تُسْلِم، وبَنَى لها خالد بِيعة فذمَّه الناسُ على ذلك، فقال الفرزدق: [من الطويل]

ألا قطع الرحمٰن ظَهْر مَطِيَّةٍ أتتنا تَهَادى من دِمشْقَ بخَالدِ
فكيف يؤمُّ الناس منْ كانت أمُّه تَدِين بأنَّ الله ليس بواحِدِ
بنى بِيْعةً فيها النصارَى لأمِّه ويهدم منْ كُفْرٍ منار المساجدِ

وكان خالد قد أمر بهدْمه منَارِ المساجد؛ لأنه بلغه أنَّ شاعرًا قال: [من الخفيف]

ليتني في المؤذِّنِين حياتي إنهم يُبْصِرُون منْ في السطوح
ويُشيرون أو تُشير إليهم بالهوى كلُّ ذات دلٍّ مليح

فلما بلغ خالدًا هذا الشِّعر أمر بهدْمِها.

ولما بلغه أنَّ الناس يذمُّونَه لبنائه البيعة لأُمِّه قام يَعْتَذِرُ إليهم، فقال: لعن اللّهُ دِينَهم إن كان شرًّا من دِينكم.

وحُكي عنه أنه كان يقول: إنَّ خليفةَ الرجلِ في أهله أفضلُ مِنْ رسولهِ إليهم - يعني أنَّ هشامًا أفْضَلُ من رسول الله ﷺ، نَبْرأُ إلى الله من ذلك.

وكان خالدٌ يصِلُ الهاشميين في أيام إمارته، ويبرُّهم، إلا أنه كان يبالغ في سبِّ علي رضي الله عنه، ويلْعنُه، فقيل: إنه كان يفْعل ذلك نَفْيًا للتهمة، وتَقَرُّبًا إلى بني أُمية، فأتاه مرةً محمد بن عبْد الله بن عمْرو بن عثمان بن عفَّان يستَمِيحُه، فلم ير مِنْه ما يُحِب، فقال: أمَّا الصِّلَة فللهاشميين، وليس لنا منه إلا أنْ يلعن عليًّا، فبلغ خالدًا كلامه، فقال: إنْ أحبَّ نِلْنَا عثمان بشيء؛ يريد بشيء من اللَّعْنِ أو السب، والله تعالى أعلم.

ذكر مقتل الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان وشيء من أخباره

كان مقْتَلُه يوم الخميس الثامن والعشرين من جُمادى الآخرة سنة ست وعشرين ومائة.

وكان سبب ذلك ما قدَّمْنَاه من اشتهاره باللَّهْو واللَّعِب والخَلاَعة، فلما ولي الخلافةَ ما زاد إلاَّ تماديًا وإصرارًا، واشتهر بمُنَادمةِ القِيان وشُرْب النبيذ، فثَقُل ذلك على رعيَّتِهِ وجُنْدِهِ، وكرهوه؛ فكان من أعظم ما جنَى على نفسه إفسادُ بني عمَّيْه: هشام، والوليد؛ فإنه أخذ سليمان بن هشام فضربه مائة سوط، وحلق رأسه ولحيته وغَرَّبه إلى عمَّان من أرض الشام، فحبسه بها، فلم يزَل محبوسًا حتى قُتل الوليد.

وأخَذَ جاريةً كانت لآلِ الوليد، فكلَّمه عثمانُ بن الوليد في ردِّها، فقال: لا أردُّها. فقال: إذَنْ تكثر الصَّواهِلُ[1] حوْل عسكرك، وحبس الأفقم يزيد بن هشام، وفرَّق بين روح بن الوليد وبين أماته، وحبس عِدَّةً من ولد الوليد، فرماه بنو هاشم وبنو الوليد بالكفر وغِشْيان أُمهات أولادِ أبيه، وقالوا: قد اتخذَ مائة جامِعةٍ[2] لبني أُمية، وكان أشد الناس عليه يزيدُ بن الوليد، وكان الناس إلى قوله أمْيل؛ لأنه كان يُظْهِرُ النُسْك ويتواضع.

وكان سعيد بن بيْهس بن صُهيب قد نهاه عن البيْعةِ لابْنَيْه الحكم وعثمان لصِغَرهما، فحبسه حتى مات، وفعل بخالد القَسْرِي ما ذكرناه ففسدت عليه اليمانيةُ وقُضَاعة، وهم أكْثَر جُنْدِ الشام؛ وكان حُرَيْث وشَبِيب بن أبي مالك الغَسَّاني، ومنصور بن جُمهور الكَلْبي؛ وابن عمه حِبال بن عمْرو، ويعقوب بن عبد الرحمٰن، وحُميد بن نَصْر اللَّخْمِي، والأصبغ بن ذُؤَالة والطُّفَيْل بن حارثة، والسري بن زياد، أتوا خالد بن عبْد الله القَسْري، فدعوْه إلى أمْرِهم، فلم يُجِبْهُم، وأراد الوليدُ الحجَّ، فخاف خالد أنْ يقْتلُوه، فنهاه عن الحج، فقال: ولِم؟ فلم يخبره، فحبسه، وطالبه بأموالِ العراقِ ثم سلَّمه إلى يوسف بن عمر كما تقدم، فقال بعضُ أهل اليمن شِعْرًا على لسان الوليد يحرِّضُ عليه اليمانية.

وقيل: بل قاله الوليد يوبخ اليمن على تَرْك نَصْر خالدٍ: [من الطويل]

ألـم تَـهْـتَـج فـتَـذَّكـرَ الـوِصـالاَ ... وحـبْـلاً كـان مُـتَّـصِـلاً فَـزَالاَ

---

(١) الصواهل: واحدها الصاهل، وهي الفرس.

(٢) الجامعة: الغل.

بلَى فالدَّمْعُ منك إلى انسجامِ … كماء المُزْنِ ينْسجِلُ انْسِجالا[١]
فدعْ عنْكَ ادِّكارك آل سُعْدى … فنحن الأكثرون حصى ومالا[٢]
ونحن المالِكُونَ الناسَ قَسْرًا … نسومُهُمُ المَذَلَّةَ والنَّكالاَ
وطِئْنَا الأشْعرِيّ بعزِّ قَيْسٍ … فيا لكَ وطأةً لن تُسْتَقالاَ
وهذا خالِدٌ فينا أسيرًا … ألاَ منَعُوهُ إنْ كانوا رِجالا
عظيمُهُم وسيِّدُهُمْ قديمًا … جعلنا المُخْزِياتِ له ظِلاَلا
فلو كانت قبائلَ ذاتَ عزٍّ … لما ذهبتْ صنائِعُه ضَلاَلا
ولا تركوه مسلوبًا أسِيرًا … يُعالج مِنْ سلاَسِلنا الثِّقالا
وكِنْدةُ والسَّكُونُ فما استقاموا … ولا برحتْ خُيولُهم الرِّحالاَ
بها سُمْنَا البريَّةَ كلَّ خَسْفٍ … وهدَّمْنَا السهولةَ والجِبالا
ولكنَّ الوقائع ضَعْضَعَتْهُمْ … وجذَّتْهُمْ وردَّتْهُم شِلالا[٣]
فما زالوا لنا أبدًا عبِيدًا … نسومُهُمُ المذَلَّة والسفَالاَ
فأصبحتُ الغداةَ عليَّ تاجٌ … لملك الناسِ لا يبغي انتقالا

فعظم ذلك عليهم، وسعَوْا في قَتْلِه، وازدادُوا حنَقًا، وقال حمْزَةُ[٤] بن بِيض في الوليد: [من الطويل]

وصلْتَ سماءَ الضُّرِّ بالضُّرِّ بعْدما … زَعمْتَ سماءُ الذلِّ عنا ستُقْلعُ
فليت هشامًا كان حيًّا يسُوسُنا … وكنّا كما كُنّا نرجِّي ونَطْمعُ

وقال أيضًا: [من الخفيف]

يا ولِيد الخَنَا تركْتَ الطَّرِيقَا … واضحًا وارتكبت فَجًّا عمِيقا[٥]
وتماديْتَ واعتديتَ وأسرفْـ … ـتَ وأغْويْتَ وانبعثْتَ فُسوقًا

---

(١) المزن: السحاب يحمل الماء. ويقال: انسجل الماء والدمع: انصب.

(٢) المراد بقوله: حصى، المناقب، لأن العرب كانت تجتمع في نواديها، فتعد مفاخرها ومناقبها، فكلما ذكر الرجل منقبة طرح حصاة، فمن كان أكثر حصى كان أكثر مناقب.

(٣) جذه: قطعه، أو كسره.

(٤) حمزة بن بيض الحنفي: شاعر إسلامي من شعراء الدولة الأموية خليع ماجن، وكان منقطعًا إلى المهلب بن أبي صفرة وولده، ثم إلى أبان بن الوليد، وبلال بن أبي بردة، واكتسب بشعره مالاً عظيمًا بلغ ألف ألف درهم. ولم يدرك الدولة العباسية... (الأغاني ١٥: ١٤ ـ ٢٥).

(٥) الفجّ: الطريق الواسع البعيد.

أبـدًا هـات ثـم هـات وهـاتـي ثـم هـاتـي حـتـى تـخـرَّ صـعِـيـقـا
أنـت سـكـرانُ لا تُـفِـيـقُ فـمـا تـر تَـقُ فَـتْـقًـا إلاَّ فـتـقـت فُـتُـوقـا[١]

فأتت اليمانيةُ يزيد بن الوليد بن عبد الملك فأرادُوه على البيْعةِ، فاستشار عمر بن زيد الحكَمِي، فقال له: لا يُبايِعُكَ الناسُ على هذا، وشاوِرْ أخاك العباس؛ فإنْ بايعك لم يخالِفْكَ أحدٌ، وإن أبى كان الناسُ له أطوع؛ فإن أبيتَ إلا المضيَّ على رأيك فأظْهِر أنَّ أخاك العباس قد بايعك.

وكان الشام وبيئًا فخرجوا إلى البوادي، وكان العباس بالقَسْطَل[٢] ويزيدُ بالبادية أيضًا، فأتى يزيدُ العباس فاستشاره فنهاه عن ذلك، فرجع وبايع الناس سِرًّا، وبثَّ دُعاتَه، فدعوا الناس، ثم عاود أخاه العباس أيضًا فاستشاره ودعاه إلى نَفْسه، فَزَبره[٣]، وقال: إن عُدْتَ لمثل هذا لأشدَّنَّك وثَاقًا، وأحْملنَّك إلى أميرِ المؤمنين.

فخرج منْ عنده، فقال العباس: إنِّي لأظُنُّه أشأم مولودٍ في بني مرْوان.

وبلغ الخبرُ مرْوان بن محمد بإرمينية. فكتب إلى سعيد بن عبْد الملك بن مرْوان يأمُره أن ينْهَى الناس ويكفَّهم ويحذرهم الفتنةَ ويخوِّفهم خروج الأمْرِ عنهم. فأعْظَم سعيد ذلك، وبعث الكتاب إلى العباس بن الوليد، فاستدعى العباسُ يزيد وتهدَّده؛ فكتمه يزيدُ أمْره فصدّقه، وقال العباس لأخيه بِشْر بن الوليد: إني أظنُّ الله قد أذِن في هلاككم يا بني أُمية، ثم تمثل: [من البسيط]

إنّـي أعـذيـكُـم بـالله مـنْ فِـتَـنٍ مـثْـلِ الـجِـبـال تَـسامـى ثـم تَـنْـدفِـعُ
إنَّ الـبـريَّـةَ قـد مـلَّـتْ سِـيـاسـتَـكُـمْ فـاسـتـمسكوا بعمُود الدِّين وارتَدِعُوا
لا تُـلْـحِـمُـنَّ ذِئـاب الـنـاس أنـفـسـكُـمْ إن الـذئـاب إذا مـا أُلـحِـمتْ رتَـعُـوا[٤]
لا تَـبْـقَـرُنَّ بـأيـديـكـم بـطـونـكـمُـو فـثَـمَّ لا حـسـرةٌ تُـغْـنِـي ولا جـزَعُ

قال: فلما اجتمع ليزيد أمْرُه وهو بالبادية أقبل إلى دِمشْق، وكان بينه وبينها أربعُ ليال، وجاء متنكرًا في سبعةِ نَفَر على حَمِير، فنزلوا بجَرُود ـ وهي على مرحلة من دِمشْق، ثم سار فدخل دِمشْق ليلاً، وقدْ بايع له أكْثَر أهلِها سِرًّا، وبايع أهل المِزَّة[٥]؛ وكان على دِمشْق عبْد الملك بن محمد بن الحجاج، فخرج منها للوباءِ، فنزل

(١) فتق: شق.
(٢) القسطل: موضع بين حمص ودمشق.
(٣) زبره: نهره ونهاه.
(٤) ألحم القوم: أطعمهم اللحم.
(٥) المزة: قرية كبيرة غنّاء في وسط بساتين دمشق.

قَطَنًا[١]، واستخلف على دِمشق ابْنَه، وعلى شُرطته أبو العاج كثير بن عبْد الله السلمي؛ فأجْمع يزيد على الظُّهور، فقيل للعامل: إنَّ يزيد خارجٌ فلم يصدِّقْ، وراسل يزيد أصحابه بعْد المغرب ليلة الجمعة، فكمنُوا عند باب الفرادِيس حتى أُذِّنَ بالعشاء؛ فدخلوا المسجد فصلُّوا، وللمسجد حرس قد كلوا بإخراج الناس منه بالليل، فلما صلَّى الناس أخرجهم الحرس وتَباطأ أصحابُ يزيد حتى لم يبْقَ في المسجد غيرهم، فأَخَذُوا الحرس، ومضى يزيد بن عَنْبسة إلى يزيد بن الوليد، فأعلمه، وأخذ بيده، فقال: قُمْ يا أمير المؤمنين، وأبْشِرْ بنَصْر اللّهِ وعوْنه. فقام، وأقبل في اثني عشر رجلاً.

فلما كان عند سُوق الحُمُر لقوا أربعين رجُلاً من أصحابهم، ولقيهم زُهاء مائتي رجل، فمضوا إلى المسجد فدخلوه وأتَوْا باب المقصورة فضربوه، وقالوا: رُسُل الوليد؛ ففتح لهم الباب خادمٌ فدخلوا فأخذوا أبا العاج وهو سكْران، وأخذوا خُزَّانَ بيت المال، وأرسل إلى كل منْ كان يحْذره فأُخذ وقُبض محمد بن عُبيدة وهو على بعْلَبك، وأرْسل إلى محمد بن عبد الملك بن الحجاج فأخذه، وكان بالمسجد سِلاَحٌ كثير، فأخذوه.

فلما أصبحُوا جاء أهْلُ المِزَّة وتبايع الناس، وجاءت السكاسِكُ، وأقبل أهلُ داريًّا[٢] ويعقوب بن عُمير بن هانىء العبْسي.

وأقبل عيسى بن شَبيب التغلبي وأهل دُومة وحَرَسْتا[٣]، وأقبل حُميد بن حبيب اللخمي في أهْلِ دير مُرَّان[٤] والأرْزَة وسطْرا[٥] وأقبل أهْلُ جَرَش[٦] وأهْلُ الحدِيثة[٧] ودَيْر زَكى[٨].

---

(١) قطن: من قرى دمشق.

(٢) داريا: قرية كبيرة من قرى دمشق بالغوطة، والنسب إليها داراني على غير قياس، وبها قبر أبي سليمان الداراني. . . (معجم البلدان).

(٣) حرستا: قرية كبيرة عامرة وسط بساتين دمشق على طريق حمص، بينها وبين دمشق أكثر من فرسخ. . . (معجم البلدان).

(٤) دير مران: هذا الدير بالقرب من دمشق على تل مشرف على مزارع الزعفران ورياض حسنة.

(٥) سطرا: من قرى دمشق.

(٦) جرش: شرقي جبل السواد من أرض البلقاء.

(٧) الحدثية: من قرى غوطة دمشق.

(٨) دير زكى: دير بالرها بإزاء تل، وقيل: هو بالرقة قريب من الفرات.

وأقبل رِبْعِيّ بن هاشم الحارثي في الجماعة من بني عُذْرة وسلاَمان، وأقبلت جُهينة ومَنْ والاهم.

ثم وجَّه يزيد بن الوليد عبد الرحمٰن بن مُصاد في مائتي فارس ليأْخذوا عبْد الملك بن محمد بن الحجاج بن يوسف من قَصره، فأَخَذوه بأمانٍ، وأصاب عبد الرحمٰن خُرْجيْن في كل واحد منهما ثلاثون ألف دينار، فقيل له: خُذْ أحد هذين الخُرْجيْن، فقال: لا تتحدث العربُ عني أني أوّلُ منْ خان في هذا الأمْر.

ثم جهَّز يزيد جيْشًا عليهم عبْد العزيز بن الحجاج بن عبْد الملك، وسيَّرهم إلى الوليد. وكان يزيدُ لما ظهر بدِمشْق سار موْلًى للوليد إليه، وأعلمه الخبر وهو بالأغْدف من عمان، فضربه الوليد وحبسه، وسيَّر أبا محمد عبد الله بن يزيد بن معاوية إلى دِمشْق، فسار بعْضَ الطريق، وأقام فأرسل إليه يزيدُ بن الوليد عبْد الرحمٰن بن مُصاد، فبايع يزيد.

ولما أتى الخبَرُ الوليد قال له يزيد بن خالد بن يزيد بن معاوية: سِرْ حتى تنزلَ حِمْص، فإنها حصِينة، ووجِّه الخيولَ إلى يزيد فيقتل أو يُؤْسر.

فقال عبد الله بن عَنْبسة بن سعيد بن العاص: ما ينبغي للخليفة أنْ يدع عسْكره ونساءَه قَبْلَ أن يقاتِل، والله يُؤيِّدُ أمِير المؤمنين بنَصْرِه.

فأخذ بِقَوْل ابن عنبسة، وسار حتى أتى البخْراءَ - قَصْر النعمان بن بشِير - وسار معه من ولَدِ الضحاك بن قيس أربعون رجلاً، فقالوا له: ليس لنا سِلاَح، فلو أمرْتَ لنا بسلاح! فلم يُعْطهم شيئًا، ونازله عبْد العزيز.

وكتب العباس بن الوليد بن عبْد الملك إلى الوليد: إني آتيك؛ فأخْرج الوليدُ سرِيرًا وجلس عليه ينتظر العبَّاس، فقاتلهم عبْدُ العزيز، ومعه منصور بن جُمهور، فبعث إليهم عبد العزيز زياد بن حُصَيْن الكَلْبي، يدْعُوهم إلى كتابِ الله وسُنَّةِ نبيه، فقتله أصحابُ الوليد واقتتلوا قتالاً شديدًا.

وكان الوليدُ قد أخرج لواءَ مرْوان بن الحكم الذي كان قد عقده بالجابية[1].

وبلغ عبد العزيز مسيرُ العباسِ إلى الوليد، فأرسل منصور بن جُمهور إلى

---

(١) الجابية: قرية من أعمال دمشق ثم من عمل الجيدور من ناحية الجولان قرب مرج الصفر في شمالي حوران. . . (معجم البلدان).

طريقه، فأخذه قَهرًا، وأتى به عبْد العزيز، فقال له: بايعْ لأخيك يزيد، فبايع، ووقف ونَصبُوا رايةً، فقالوا: هذه رايةُ العباس قد بايع لأميرِ المؤمنين يزيد، فقال العباس:

إنا لله! خدْعة من خدع الشيطان، هلك والله بنو مروان.

فتفرَّقَ الناسُ عن الوليد، وأتَوا العباس وعبد العزيز، وأرسل الوليدُ إلى عبْد العزيز يبْذل لهُ خمسين ألف دينار وولاية حمص ما بقي، ويُؤمِّنه مِنْ كل حدث، على أنْ ينْصرف عن قتاله، فأبى ولم يُجِبْه، فظاهر الوليد من دِرْعين، وأتوه بفَرسَيْه: السندي، والزائد، فقاتلهم قِتالاً شديدًا، فناداهم رجلٌ: اقْتلوا عدُوَّ الله قِتْلَة قوم لوط، ارجمُوه بالحِجارة، فلما سمع ذلك دخل القصر وأغلق عليه الباب، وقال: [من الطويل]

ادفعُوا لي سُلَيْمى والطِّلاء وقَيْنَةً	وكأْسًا، ألاَ حسْبي بذلك مالا[1]
إذا ما صفا عيْشي برمْلَةِ عالجٍ	وعانَقْتُ سلْمى لا أُريدُ بدالاَ
خذوا مُلكَكم لا ثبَّت الله ملككُمْ	ثَباتًا يساوي ما حييت عِقَالا[2]
وخلُّوا عِنَاني قبل عَيْرٍ وما جرى	ولا تحسُدوني أن أموت هُزالا[3]

قال: وأحاط عبدُ العزيز بالقَصْر، فدنا الوليدُ من الباب، فقال: أما فيكم رجُلٌ شريفٌ له حسبٌ وحياء أُكلِّمُه! قال يزيد بن عنْبسة السكسكي: كلِّمْني. قال: يا أخا السَّكَاسك، ألم أزِدْ في أعطياتكم! ألم أرْفَع المُؤن عنكم! ألم أُعطِ فقَراءكم؛ ألم أخدم زَمْنَاكم؟ فقال: إنا ما نَنْقم عليك في أنفسنا، إنما نَنْقم عليك فيما حرَّم اللّهُ، وشرْب الخمر، ونِكاح أمهات أولادِ أبيك، واستخفافك بأمرِ الله.

قال: حسْبك يا أخا السكاسك، فلعمْرِي لقد أكثَرْتَ، وإن فيما أحلَّ الله سعة عما ذكرت.

ورجع وجلس، وأخذ مُصْحفًا، ونشَره يقْرأُ فيه، وقال: يوْم كيوم عثمان. فصعدوا على الحائط، وكان أول منْ علاَه يزيد بن عنْبسة، فنزل إليه، وأخذ بِيده، وهو يُريد أنْ يحبِسه، ويؤامر فيه، فنزل من الحائط عشرة؛ فيهم: منصور بن جُمهور، وعبد السلام اللخمي، فضربه عبْدُ السلام على رأسه، وضربه السريّ بن زياد بن أبي كَبْشة على وجْهه، واحتزُّوا رأْسه، وبعثوا به إلى يزيد، فأتاه الرأْسُ وهو يتغدى،

---

(١) الطلاء: الخمر. (٢) العقال: الحبل الذي يعقل به البعير.
(٣) العير: الحمار.

فسجد وأمر بنَصْب الرأس. فقال له يزيد بن فَرْوة مولى بني مُرَّة: إنما تنصب رؤُوس الخوارج؛ وهذا رأسُ ابن عمك وخليفة، ولا آمن إنْ نصبْتَه أنْ ترِقَّ له قلوبُ الناس، ويغْضَب له أهل بيته.

فلم يسمع منه، ونصبه على رُمْح، وطاف به دِمشْق؛ ثم أمر به أنْ يُدْفَع إلى أخيه سليمان بن يزيد، فلما نظر إليه سليمان قال: بُعْدًا له! أشْهَدُ أنه كان شَرُوبًا للخمر ماجِنًا فاسقًا، ولقد أرادني على نَفْسي الفاسق ـ وكان سليمان مِمَّنْ سعى في أمره.

وحكى يزيد بن عنْبسة ليزيد بن الوليد أنَّ الوليد قال في آخر كلامه: والله لا يرتق فَتْقكم، ولا يلم شَعثكم، ولا تجتمع كلمتكم.

وكانت مدة خلافة الوليد سنة وشهرين واثنين وعشرين يومًا. وكان عمره اثنتين وأربعين سنة. وقيل: قتِل وهو ابْن ثمان وثلاثين سنة.

وقيل: إحدى وأربعين.

وقيل: ست وأربعين سنة. والله أعلم.

وكان الوليد من فِتْيان بني أُمية وظرفَائهم وشُجعانهم، وأجوادهم، جيِّد الشِّعْر، له أشعارٌ حسنة في الغَزل والعتَاب ووصف الخمر وغير ذلك، إلا أنه كان كثير الانهماك في اللهو والشُّرْب وسماع الغناءِ.

ومن كلامه: المحبة للغناء تزيد الشهْوة، وتهْدِم المروءة، وتنوب عن الخمر، وتفعل ما يفعل السكر، فإنْ كنتم لا بدَّ فاعلين فجنبوه النساءَ، فإن الغناءَ رخيّة الزنى، وإني لأقول ذلك على أنه أحب إليّ من كل لذة، وأشْهى إلى نفسي من الماء إلى ذي الغلَّة[1]، ولكن الحقُّ أحقُّ أنْ يُتَّبع.

ومما اشتهر عنه أنه استفتح المصحف الكريم، فخرج له قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ١٥﴾ [إبراهيم: ١٥]. فألقاه ونَصبه غرَضًا، ورماه بالسهام، وقال: [من الوافر]

تهدِّدُني بجبَّار عنِيد ... فها أنا ذاك جبَّار عنِيد
إذا ما جئْت ربَّك يوْم حشرٍ ... فقلْ يا ربّ مزَّقني الْوليد

فلم يلبث بعد ذلك إلاَّ يسيرًا حتى قُتل. هذا هو المشهور عنه.

---

(١) الغلة: شدة العطش وحرارته.

وروى أبو الفرج الأصفهاني بسنده إلى العلاء البندار، قال: كان الوليد زِنْدِيقًا، وكان رجُلٌ من كلب من أهل الشام يقول مقالةَ الثَّنَوِية، فدخلْتُ على الوليد يومًا وذلك الكَلْبيُّ عنده، وإذا بينهما سفَط[1] قد رفع رأسه عنه، وإذا ما يَبْدُو لي منه حرير أَخْضَر؛ فقال: ادْنُ يا علاء، فدنَوْتُ، فرفع الحريرة فإذا في السفط صورةُ إنسان، وإذا الزئبق والنوشادر قد جُعلا في جفْنِه، فجفْنُه يَطْرِفُ كأنه يتحرَّكُ، فقال: يا علاء، هذا ماني، لم يبعث الله نبيًا قَبْلَه، ولا يبعثُ نبيًا بعده؛ فقلت: يا أَمِير المؤمنين، اتق الله ولا يغرنَّك هذا الذي تَرى مِنْ دينك. فقال الكَلْبِي: يا أمير المؤمنين، قد قلْت لكَ: إن العلاء لا يحتملُ هذا الحديث.

قال العلاء: ومكثتُ أيامًا، ثم جلسْت مع الوليد على بناء كان قد بناه في عسكره يُشْرِفُ منه والكَلْبيُّ عنده إذْ نَزَل من عنده، وقد كان الوليد حملَه على بِرْذَون هِمْلاَج[2] أشقر من أفْخَر ما سُخِر، فخرج على بِرْذَونه، فمضى في الصحراء حتى غاب عن العسْكَر، فما شعر إلا وأعراب قد جاؤُوا به يحملونه من فسحة عُنُقه، وبرذَوْنه يُقاد، حتى أسلموه.

فبلغني ذلك، فخرجْتُ حتى أتيتُ أُولئك الأعراب، وكانت لهم أبياتٌ بالقُرْبِ من أرض البحر لا حجر فيها ولا مدر، فقلت لهم: كيف كانت قِصَّةُ هذا الرجل؟ فقالوا: أَقْبلَ علينا على بِرْذَوْن، فوالله لكأنه دُهْنٌ يسيل على صفَاةٍ من فَراهِيته، فعجبنا لذلك إذ انقضّ رجُلٌ من السماء عليه ثيابٌ بِيضٌ، فأخذ بضَبْعيه[3]، فاحتمله، ثم نكسه، وضرب برأسه الأرْضَ، فدقَّ عُنُقه، ثم غاب عن عُيونِنا فاحتملناه فجئْنَا به.

وقد نَزَّه قوم الوليد عما قيل، وأنكروه ونَفَوْه عنه، وقالوا: إنه اختُلق عليه وأُلصق به، وليس بصحيح.

حكي عن شبيب بن شيْبة أنه قال: كُنَّا جُلُوسًا عند المهدي، فذكروا الوليد، فقال المهدي: كان زِنْدِيقًا، فقام ابن عُلاَثَةَ الفقيه، فقال: يا أمير المؤمنين؛ إنَّ الله عزَّ وجلَّ أعْدلُ من أنْ يُولِّي خلافَة النبوة وأمْر الأُمَّةِ زنديقًا، لقد أخبرني منْ كان يشهده في ملاَبه وشربه عنه بمروءةٍ في طهارتِهِ وصلاتِه؛ فكان إذا حضرت الصلاةُ يطْرحُ الثيابَ التي عليه المطيَّبة المصبَّغة، ثم يتوضَّأُ فيُحْسِنُ الوضوء، ويُؤْتَى بثيابٍ

(١) السفط: وعاء يوضع فيه الطيب ونحوه من أدوات النساء.

(٢) الهملاج: الدابة التي يحسن سيرها في سرعة.

(٣) الضبع: ما بين الإبط إلى نصف العضد من أعلاها. وهما ضبعان.

نِظَاف بِيض فيلبسها، ويصلّي فيها، فإذا فرغ عاد إلى تلك الثياب فلبسها، واشتغل بشُرْبِهِ ولَهْوِه، فهذا فعال منْ لا يؤمن بالله!

فقال المهدي: بارك الله عليك يا بْنَ عُلاَثَة.

وللوليد كلامٌ حسن؛ فمن أحسن كلامه ما قاله لهشام بن عبْد الملك لما مات مسلمة بن عبد الملك وقَعد هشامٌ للعزَاء، فأتاه الوليد وهو نَشْوان يجرُّ مُطْرف خَزّ عليه، فوقف على هشام فقال: يا أمير المؤمنين، إن عُقْبى منْ بقي لُحوقُ منْ مضى، وقد أقْفر بعد مسلمة الصَّيْدُ لمنْ رمى، واختلَّ الثَّغْرُ فَهَوى، وعلى أثر منْ سلف يمضي منْ خَلَف؛ فتزوَّدُوا فإنَّ خَيْر الزَّادِ التَّقْوى.

فأعرض هشام ولم يُحِرْ جوابًا، وسكت القومُ فلم ينْطِقُوا.

والوليد أوّل خليفة عدَّ الشِّعر وأجاز عن كلِّ بيْتٍ ألْف درهم، فإن يزيد بن ضبَّة مولى ثقيف مدحه وهنَّأه بالخلافة فأمر أن تُعدَّ الأبيات ويُعْطَى لكل بيت ألف درهم؛ فعُدَّتْ فكانت خمسين[1] بيتًا فأعطى خمسين ألف درهم.

قال: ودُفن الوليد باب الفَرادِيس بدِمشْق. وقيل: إنه قُتل بأرض حِمْص.

وحكى الدُّولابي أن رأس الوليد نُصِب في مسجد دمشق ولم يزل أثَرُ دمِه على الجِدار إلى أن قدم المأمون دمشق في سنة خمس عشرة ومائتين، فأمر بحكِّه.

وكان الوليد أبيض ربْعة قد وخَطهُ الشَّيْبُ.

وكان نَقْشُ خاتمه: يا وليدُ، احْذَر الموتَ.

وكان له من الأولاد الذكور والإناث ثلاثة عشر.

كاتبه: العباس بن مسلم.

قاضيه: محمد بن صفوان الجُمحي.

حاجبه: قطري مولاه.

الأمير بمصر: حفْص بن الوليد الحضرمي، ثم صرفه عن الخراج.

قاضيها: حسين بن نُعيم والله أعلمُ.

---

(١) وقيل بلغت واحدًا وثلاثين بيتًا رواها أبو الفرج في الأغاني (٦: ١٤٢) وأولها:

سـلـيـمـى تـلـك فـي الـعـيـر ... قـفـي أسـألـك أو سـيـري

ذكر بيعة يزيد بن الوليد الناقص

هو أبو خالد يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مرْوان؛ ولقِّب بالناقص؛ لأنه نقص الزياداتِ التي كان الوليد زادها في أعطيات الناس، وهي عشرة عشرة، وردَّ العطَاء إلى أيام هشام. وقيل: أول منْ لَقَّبهُ بهذا اللقب مرْوان بن محمد.

وأُم يزيد شاه آفريد بنت فيروز بن يزدجر بن شهريار.

بُويع له لليلتين بقِيتَا من جُمادى الآخرة سنة ست وعشرين ومائة.

قال: ولما قُتِل الوليدُ خطب يزيدُ الناس فذَمَّ الوليد، وذكر إلحاده، وأنه قتله لفِعْلِه الخبيث، وقال: أيها الناس، إنَّ لكم عليّ ألاّ أضَع حجرًا على حجر، ولا لبِنَةً على لبنةٍ، ولا أكْرُو[1] نَهرًا، ولا أكْنِز مالاً، ولا أُعطيه زوجةً وولَدًا، ولا أنْقُل مالاً من بلد حتى أسدَّ ثغره وخَصاصة أهلِه بما يُغْنيهم، فما فضل نَقَلْتُه إلى البلد الذي يلِيه، ولا أُجمِّرُكم[2] في ثغوركم فأفتنكم، ولا أُغلق بابي دونكم، ولا أحمل على أهل جزيتكم، ولكم أعطياتُكم كل سنةٍ وأرزاقُكم في كل شهر، حتى يكون أقصاكم كأدناكم؛ فإن وفَّيت بما قُلْت فعليكم السمع والطاعة وحسن المؤازَرة، وإن لم أوف فلكم أنْ تخلعوني، إلاّ أنْ أتُوب، وإن علمْتُم أحدًا ممن يُعرفُ بالصلاح يعطيكم مِثْلَ ما أُعطيكم وأردْتُم أن تبايعوه فأنا أوَّلُ منْ يبايِعُه.

أيها الناس، إنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. والله الموفِّق بمنِّه وكرمه.

ذكر اضطراب أمر بني أمية

وفي سنة ست وعشرين ومائة في أيام يزيد هذا اضْطَرب أمْرُ بني أُمية، وهاجت الفتنةُ، فكان من ذلك وثوبُ سليمان بن هشام بن عبْد الملك بعمان، وكان الوليدُ قد حبسه بها، فلما قتل خرج من الحبس، وأخذ ما كان بها من الأموال، وأقبل إلى دمشق، وجعل يلْعنُ الوليد ويعيبه بالكفر.

ومن ذلك خلاف أهل حمص وفلسطين:

---

(١) كرا الأرض: حفرها؛ وكرا البئر: طواها بالشجر.

(٢) أجمّركم: أحبسكم.

ذكر خلاف أهل حمص

قال: ولما قُتِل الوليد أغْلَقَ أهلُ حِمْص أبوابها، وأقاموا النوائح والبواكي عليه. وقيل لهم: إنَّ العباس بن الوليد بن عبْد الملك أعانَ عبْد العزيز على قَتْله، فهدمُوا داره، وانتهبوها، وسلبوا حريمه، وطلبوه؛ فسار إلى أخيه يزيد، وكاتَب أهْلُ حمص الأجناد، ودعَوْهم إلى الطَّلَبِ بدمِ الوليد، فأجابوهم واتفقوا على ألاَّ يُطِيعوا يزيد، وأمَّرُوا عليهم معاويةَ بن يزيد بن حُصين بن نمير، ووافَقَهُمْ مرْوان بن عبْد الله بن عبْد الملك على ذلك، فراسلهم يزيد، فأخرجوا رُسُلَه، فسيَّر إليهم أخَاهُ مسرورًا في جمْع كثير، فنزلوا حُوَّارِين[1]، ثم قدم على يزيد سليمان بن هشام، فردَّ عليه ما كان الوليدُ أخذَه من أموالهم، وسيَّره إلى أخيه مسرور، وأمرهم بالسَّمْع والطاعة له؛ وكان أهْلُ حمص يُريدونَ السير إلى دمشق، فقال لهم مرْوان بن عبْد الله: أرى أن تَسيروا إلى هذا الجيش فتُقاتلوهم، فإنْ ظَفِرتُم بهم كان ما بعْدهم أهْون عليكم، ولسْتُ أرى المسير إلى دمشق وتَرْك هؤلاء خلفكم.

فقال السِّمْطُ بن ثابت: إنما يريد خلافكم، وهو مائل ليزيد، فقتلوه وقتلوا ابنَه، وولَّوْا عليهم أبا محمد السفياني، وتركوا عسْكَر سليمان ذات اليسار، وساروا إلى دمشق، فخرج سليمان مُجِدًّا في طلبهم، فلحقهم بالسُّلَيْمانية ـ مزرعة كانت لسليمان بن عبد الملك خَلْف عذْراء[2].

وأرسل يزيدُ عبدَ العزيز بن الحجاج في ثلاثة آلاف إلى ثنيَّة العُقَاب، وأرسل هشام بن مُصاد في ألف وخمسمائة إلى عقَبةِ السلامية. وأمرهم أنْ يُمدَّ بعْضهُم بعضًا، ولحقهم سليمان على تَعبِ مقاتلتهم، فانهزمت ميْمنتُه وميْسرتُه، وثبت هو في القَلْب، ثم حمل أصحابُه على أهلِ حِمْص حتى ردُّوهم إلى موضعهم، وحمل بعْضُهم على بعض مِرارًا.

فبينما هم كذلك إذْ أقبل عبْد العزيز مِنْ ثَنِيَّةِ العُقَاب، فحمل على أهل حِمْص حتى دخل عسْكَرهم، وقَتَل فيه منْ عرض له، فانهزموا ونادوْا: يا يزيد بن خالد بن عبْد الله القَسْرِي! الله الله في قَوْمك! فكفَّ الناسُ، وأُخذ أبو محمد السُّفْياني أسيرًا، ويزيد بن خالد بن معاوية، فأُتي بهما سليمان فسيَّرهما إلى يزيد فحبسهما.

---

(١) حوارين: من قرى حلب معروفة... وقيل: حوارين: حصن من ناحية حمص... (معجم البلدان).

(٢) عذراء: قرية بغوطة دمشق.

واجتمع أمرُ أهلِ دمشق ليزيد، وبايعه أهْلُ حمص، فأعطاهم العطاء، وأجاز الأشراف؛ واستعمل عليهم يزيد بن الوليد بن معاوية بن يزيد بن الحُصين.

ذكر خلاف أهل فلسطين

وفي هذه السنة وثب أهلُ فلسطين على عامِلِهم سعِيد بن عبْد الملك فطردُوه، وكان الوليدُ قد استعمله عليهم، فأحضروا يزيد بن سليمان بن عبدِ الملك فجعلوه عليهم، فدعا الناس إلى قِتَال يزيد، فأجابوه إلى ذلك؛ وبلغ أهلُ الأُرْدُن أمر أهلِ فلسطين، فولَّوْا عليهم محمد بن عبد الملك، واجتمعوا معهم على قِتَالِ يزيد بن الوليد، فبعث يزيدُ إليهم سليمانَ بْنَ هشام بن عبد الملك في أهل دمشق وأهْلِ حمص الذين كانوا مع السفياني، وعِدَّتُهم أربعة آلاف ونَيِّف، فبايع الناسُ ليزيد، واستعمل ضِبْعان بن روح على فلسطين وإبراهيم بن الوليد بن عبد الملك على الأُرْدُن.

ذكر عزل يوسف بن عمر عن العراق وما كان من أمره، واستعمال منصور بن جُمْهور

وفي هذه السنة عزل يزيدُ بن الوليد يوسف بن عُمر عن العراق، واستعمل منصور بن جُمهور، وقال له لَمَّا ولاَّه العراق: اتَّقِ الله واعْلَم أني إنما قتلْتُ الوليد لفِسْقِه، ولما أظْهَر من الجوْرِ، فلا تركب مِثْلَ ما قتلْنَاهُ عليه. فسار حتى إذا بلغ عيْنَ التَّمْر[1] كتب إلى منْ بالحيرة مِنْ قُوّادِ أهْل الشام يُخْبرهم بقَتْلِ الوليد وتَأْمِيره على العِراق ويأمرهم بأخْذِ يوسف وعماله، وبعث بالكُتب كلِّها إلى سليمان بن سليم بن كَيْسان ليُفرقها على القُوَّاد، فحبس الكُتُب؛ وحمل كِتَابه فأقرأه يوسف بن عمر، فتحيَّر في أمْره، وقال: ما الرَّأْيُ يا سليمان؟ قال: ليس لكَ إمامٌ تُقَاتِلُ معه، ولا يقاتِلُ أهْلُ الشام معك، ولا آمنُ عليك منصورًا. وما الرأْيُ إلاَّ أنْ تلحق بشَامِك.

قال: فكيف الحِيْلَةُ؟ قال: تُظْهرُ الطاعةَ ليزيد وتَدْعُو له في خُطْبَتك؛ فإذا قَرُب منصور تستَخْفِي عندي وتدعه والعمل.

ثم مضى سليمان إلى عمْرو بن محمد بن سعِيد بن العاص، فأخبره بالأمْر، وسأله أن يؤوي يوسف بن عُمر عنده، ففعل، فانتقل يوسفُ إليه، فلم يُر رجُلٌ كان مِثْل عُتُوِّه خاف مثل خَوْفِه.

---

(١) عين التمر: بلدة في طرف بادية الشام.

وقدم منصور الكوفةَ فحضَّهم وذمَّ الوليد ويوسف، وقامت الخطباء فذمُّوهُما معه، فأتى عَمْرو بن محمد إلى يوسف، فأخبره؛ فجعل لا يذْكرُ له رجلاً ممن ذكره بسوء إلا قال: لله عليَّ أنْ أضربه كذا وكذا سوْطًا؛ فجعل عمرو يتعجَّبُ من طَمعِه في الولاية، وتهديده الناس.

وسار يوسف مِنَ الكوفة سِرًّا إلى الشام، فنزل البلْقَاء[1]، فلما بلغ خَبرهُ يزيد بن الوليد وجَّه إليه خمسين فارِسًا، فعرضَ رجُلٌ من بني نمير ليوسف، وقال: يا بنَ عمر، أنتَ والله مقتولٌ، فأطِعْني وامْتَنِع.

قال: لا، فدعْني أقتلك أنا ولا تقتلك هذه اليمنية فتَغيظنا بقَتْلك.

قال: ما لي فيما عرضْتَ خِيار، فطلبه المسيَّرُون إليه، فلم يروْه، فتهدَّدوا ابنًا له، فقال لهم: انْطَلَقَ إلى مزْرعة له، فسارُوا في طلَبه، فلما أحسَّ بهم هرب وترك نَعْلَيْه، ففتَّشُوا عليه فوجدوه بين نِسْوةٍ قد ألْقَيْن عليه قطيفةَ خَز وجلَسْنَ على حواشيها حاسِرات، فجرُّوا برِجلِهِ، وأخذوه، وأقبلوا به إلى يزيد، فوثب عليه بعْضُ الحرسِ، فأخذ بلحيته ونتَف بعْضَها، وكان من أعظم الناس لحيةً، وأصغرهم قامةً.

فلما أُدخل على يزيد قبض على لحيةِ نفسه، وهي إلى سُرَّتهِ، وجعل يقول: يا أمير المؤمنين؛ نتفت والله لِحْيتي، حتى لم يبْقَ فيها شعرة؛ فأمر به فحبس في الخَضْراء فأتاه إنسان فقال له: أما تخافُ أنْ يطْلُع عليك بعْضُ من وتَرْتَ فيُلْقي عليك حجرًا فيقتلك؟

قال: ما فطنْتُ لهذا، فأرسل إلى يزيد يطلُب منه أن يُحوَّل إلى حبْس غير الخَضْراء، وإنْ كَانَ أضْيق منه، فعجبوا من حُمْقِهِ، فنقله وحبسه مع ابني الوليدِ، فبقي في الحبْسِ ولاية يزيد وشهرين وعشرة أيام من ولاَية إبراهيم.

فلما قرب مرْوان من دِمشْقَ ولّى يزيد بن خالد القسري مولًى لأبيه يقال له أبو الأسد قَتْلَهم، فقتل الحكم وعثمان ويوسف على ما نذكر ذلك إنْ شاء الله تعالى.

وكان يوسفُ بْنُ عُمر يُحمَّقُ، وفيه أشياء متباينَة متناقضة؛ كان طويل الصلاة، مُلاَزِمًا للمسجد، ضابطًا لحشَمه وأهْله عن الناس، لَيِّنَ الكلام، متواضِعًا، حسنَ الملكة كثير التضرُّع والدعاء، فكان يصلّي الصُّبْح، ولا يكلم أحدًا حتى يصلّي الضُّحى، وهو فيما بين ذلك يقْرأُ القرآن ويتضرَّعُ، وكان بصيرًا بالشعر والأدب، وكان

---

(١) البلقاء: أرض بالشام.

شديد العُقوبةِ، مُسْرفًا في ضَرْبِ الأبْشار[١]، وكان يأْخذ الثوب الجيِّد فيُمِر ظفره عليه فإن تعلَّقَ به طاقُه ضرب صاحِبه، وربما قطع يده.

حكي أنه أُتي يومًا بثَوْبٍ فقال لكاتبه: ما تقولُ في هذا الثوب؟ قال: كان ينبغي أنْ تكونَ بيوتُه أصغر مما هي. فقال للحائك: صدق يا بْنَ اللخناء. فقال الحائك: نحن أعلم بهذا. فقال لكاتبه: صدق يا بْنَ اللخناء. فقال الكاتب: هذا يعْملُ في السنةِ ثوبًا أو ثوبين وأنا يمرُّ على يدِي في السنة مائة ثوب مِثْل هذا. فقال للحائك: صدقَ يا بْنَ اللَّخْنَاء، فلم يزل يكذِّبُ هذا مرةً، وهذا مرةً حتى عدّ أبيات الثوب، فوجدها تنقص بيْتًا من أحدِ جانبي الثوب، فضرب الحائك مائةَ سوط.

وقيل: إنه أراد السفر فدعا جواريه، فقال لإحْداهُنَّ: تَخْرُجين معي؟ قالت: نعم. قال: يا خبيثة. كلُّ هذا من حبِّ النكاح، يا خادم، اضربْ رأْسها. وقال لأُخرى: ما تقولين؟ فقالت: أُقِيم على ولَدِي. فقال: يا خبيثةُ، كلُّ هذا زهادة فيّ، اضْربْ رأْسها. وقال لثالثةٍ: ما تقولين؟ قالت: لا أدْرِي ما أقول، إن قلْتُ ما قالت إحداهما لم آمنْ عقوبتك. فقال: يا لخناء وتُنَاقِضين وتحتجِّين، اضْرِبْ رأْسها.

وكان قصيرًا، فكان يحضر الثوب الطويل ليفصِّله ليلبسه، فإن قال له الخياط: إنه يفْضُل منه ضرب رأْسه، وإن قال: لا يكفي إلاَّ بعد التصرُّف في التفصيل سرَّه ذلك، فكانوا يفصِّلُونَ له ويأْخذون ما بقِي. وكان له في ذلك أشياء كثيرة.

فلنرجع إلى أخبار منصور بن جُمهور.

قال: وكان دخول منصور الكوفة لأيام خَلَتْ من شهر رجب سنة ست وعشرين ومائة، فأخذ بيوتَ الأمْوالِ، وأخْرج العطاءَ والأرزاق، وأطلق منْ كان في السجود مِنَ العمَّال وأهْل الخراج، وبايع ليزيد بالعراق، وأقام بقيَّةَ رجب وشعبان ورمضان، وانصرف لأيَّامٍ بقين منه.

وامتنع نَصْر بن سيَّار بخراسان مِنْ تسليم عمله لعامل منصور، فإنَّ يزيد كان قد ضَمَّ خراسان لمنصور مع العراق.

---

(١) البشار: بشار الناس: حثالتهم.

ذكر عزل منصور بن جمهور عن العراق وولاية عبد الله بن عُمر بن عبد العزيز

وفي هذه السنة عزَل يزيدُ بن الوليد منصور بن جُمهور عن العراق، واستعمل عبْد الله بن عُمر بن عبد العزيز، وقال له: سِرْ إلى العراق؛ فإنَّ أهْلَه يميلون إلى أبيك. وخاف ألاَّ يسلم إليه المنصورُ العمل، فانْقَاد له أهْلُ الشام، وسلَّم إليه منصورٌ الولايةَ، وانصرف إلى الشام، ففرَّقَ عبْدُ الله العمال، وأعْطَى الناس أرزاقهم وأعطياتهم، فنازعه قُوَّادُ أهلِ الشام، وقالوا: تَقْسِم على هؤلاء فَيْئنا، وهم عدُوُّنا! فقال لأهلِ العراق: إنِّي أُريدُ أن أرُدَّ عليكم فَيْئَكم، وعلِمْتُ أنكم أحقُّ به، فنازعني هؤلاء.

فاجتمع أهْلُ الكوفة بالجبَّانة، فأرسل إليهم أهلُ الشام يعتذرون، وثار غَوْغَاءُ الناس في الفريقين، فأُصيب منهم رهْطٌ لم يُعْرفوا، واستعمل عبْدُ الله بن عُمر على شرطتِهِ عُمر بن الغَضْبان بن القَبَعْثَرى، وعلى خَراج السواد والمحاسبات أيضًا.

ذكر الاختلاف بين أهل خراسان

وفي سنة ست وعشرين ومائة وقع الاختلافُ بخراسان بين النِّزاريَّة واليمانية، وأظهر الكِرماني الخلاف لنَصْر بن سيَّار.

وكان سبب ذلك أن نَصْرًا رأى الفتنةَ قد ثارت، فرفع حاصِلَ بيْت المال، وأعطى الناس بعْضَ أعطياتهم ورِقًا وذَهبًا، من أوانٍ كان اتَّخَذَها للوليد بن يزيد، فَطَلب الناسُ منه العطَاءَ، وهو يخطبُ؛ فقال نصر: إيَّاي والمعصية، عليكم بالطاعة والجماعة. فوثب أهلُ السوقِ إلى أسواقهم، فغضب نَصْر، وقال: ما لكم عندي عطَاء ثم قال: كأني بكم وقد نَبع مِنْ تحت أرجلكم شَرٌّ لا يُطاق، وكأني بكم مُطَرَّحِين في الأسواق كالجُزُرِ المنحورة، إنه لم تَطُلْ ولايةُ رجل إلاَّ ملُّوها، وأنتم يا أهْل خراسان مسْلَحةٌ في نحور العدو، فإياكم أن يختلف فيكم سيفان؛ إنكم ترِيشون[1] أمرًا وتريدون به الفِتْنَةَ، ولا أبْقَى اللّهُ عليكم، لقد نشرْتُكم وطَويْتُكم، فما عندي منكم عشرة. فاتقوا الله، فوالله لئن اختلف فيكم سيْفَان ليتمنَّيَنَّ أحدُكم أنه ينخلعُ من ماله وولده. يا أهل خُراسان، إنكم قد غمطتم[2] الجماعة، وركنْتُم إلى الفرقة.

(١) راش السهم: ركَّب عليه الريش؛ وراش الأمر: هيأه ودبره.

(٢) غمط فلانًا: استصغره واحتقره.

ثم تمثل بقول النابغة: [من الوافر]

فإنْ يغْلِبْ شَقَاؤكمو عليكمْ ... فإنّي في صلاحكمُو سعيْتُ

وقدم على نصر عهْدُهُ على خُراسان من قِبلِ عَبْد الله بن عُمر بن عبد العزيز؛ فقال الكَرْماني لأصحابه: الناسُ في فتنة فانظُرُوا لأُموركم رجلاً.

والكِرْماني اسْمُه جُديع بن عليّ الأزدي، وإنما سمي الكَرْماني لأنه وُلِد بِكَرْمان[1]، فقالوا له: أنت لنا. وقالت المُضَرِيّة لنَصْر: إن الكَرماني يُفْسِدُ عليك الأُمور، فأرْسِلْ إليه فاقْتُلْه أو احبسه.

قال: لا، ولكن لي أولاد ذكور وإناث، فأُزَوِّج بنيّ من بنَاته، وبناتي من بنيه.

قالوا: لا. قال: فأبْعثُ إليه بمائة ألف درهم، وهو بخيل، فلا يُعْطِي أصحابه شيئًا منها، فيتفرَّقُون عنه. قالوا: لا، هذه قوَّةٌ له، ولم يزالُوا به حتى قالوا له: إنَّ الكَرْماني لو لم يقْدِر على السلطنة والملك إلا بالنصرانية واليهودية لتنصَّر وتَهَوَّد.

وكان نَصْرٌ والكِرماني متصافِيَيْن، وكان الكَرْمانيّ قد أحسنَ إلى نَصْر في ولاية أسد بن عبد الله القَسْرِي. فلما ولّي نَصْر عزَل الكَرْماني عن الرياسة وولأَّها غيره، فتباعد ما بينهما، فلما أكْثَرُوا على نَصْر في أمْرِه عزم على حبْسِه، فأرسل صاحب حرسِه ليأْتيه به، فأرادت الأزْدُ أنْ تُخَلِّصه من يدِهِ، فمنعهم من ذلك، وسار مع صاحب الحرس وهو يضْحك.

فلما دخل على نَصْر قال له: يا كَرْماني، ألم يأْتني كتابُ يوسف بن عُمر بقَتْلك فراجعت وقلتُ: شيخُ خراسان وفارِسُها، فحقَنْتُ دمكَ؟ قال: بلى. قال: ألم أَغرم عنك ما كان لَزِمك من الغُرْم، وقسمْته في أعطيات الناس؟ قال: بلى. قال: ألم أروِّس ابْنَك عليًا على كُرْهٍ من قومك؟ قال: بلى. قال: فبدَّلْتَ ذلك إجماعًا على الفِتْنَة.

قال الكَرْماني: لم يقُل الأميرُ شيئًا إلاَّ وقد كان أكثر منه، وأنا لِذَلك شاكر، وقد كان منّي أيام أَسَد ما قد علمْتَ، ولسْتُ أحِبُّ الفتنةَ.

قال سلْم بن أحْوز: اضرِبْ عُنُقه أيها الأمير، وأشار غَيْرُه بذلك، فقال المقدام وقدامة ابنا عبْد الرحمٰن بن نُعيم العامري: لَجُلَساءُ فرعون خَيْرٌ منكم؛ إذ قالوا: ﴿أَرْجِهْ

(١) كرمان: ولاية مشهورة وناحية كبيرة معمورة ذات بلاد وقرى ومدن واسعة بين فارس ومكران وسجستان وخراسان. . . (معجم البلدان).

وَأَخَاهُ﴾ [الأعراف: ١١١] والله لا يقتل الكرماني بقولكم، فأمر نصر بحبسه في القَهَنْدَز[١]. فحبس وذلك لثلاث بقين من شهر رمضان، فتكلمت الأزد فقال نصر: إني حلفت أن أحبسه، ولا يناله مني سوءٌ، فإن خشيتم عليه فاختاروا رجلاً يكون معه، فاختاروا يزيد النحوي، فكان معه؛ فجاء رجل من أهل نسف، فقال لآل الكرماني: ما تجعلون لي إن أخرجته؟ قالوا: كل ما سألْتَ، فأتى مجرى الماء في القهندز فوسعه، وقال لولد الكرماني: اكتبوا لأبيكم يستعد الليلة للخروج.

فكتبوا إليه، وأدخلوا الكتاب في الطعام، فتعشَّى الكرْماني، ويزيد النحوي، وحُصين بن حكيم؛ وخرجا من عنده.

ودخل الكَرْماني السَّرب[٢]، فانطوت على بطْنِهِ حيَّةٌ فلم تضرّه؛ وخرج من السَّرب، وركب فرسه البشير، والقَيْدُ في رِجْله، فأتَوا به عبْد الملك بن حرْملة فأطلق عنه القَيْد.

وقيل: إنَّ الذي خلَّص الكَرْماني مولى له رأى خَرْقًا فوسَّعه وأخرجه منه، فلم يُصلِّ الصُّبْح حتى اجتمع معه زُهاء ألف، ولم يرتفع النهار حتى بلغُوا ثلاثة آلاف.

وكانت الأزْدُ قد بايعوا عبْد الملك بن حرْمَلَة. فلما خرج الكَرْماني قدمه عبد الملك.

قال: ولما خرج الكَرْماني عسكر نَصْرٌ بباب مرْو الرُّوذ، وخطب الناس، فنال مِنَ الكَرْماني، ثم ذكر الأزْد، فقال: إنْ يَسْتَوْسقُوا[٣] فهم أذَلُّ قَوْمٍ، وإن يأبوا فهم كما قال الأخطل: [من الطويل]

ضفادِع في ظَلْماءِ لَيْلٍ تجاوبتْ ... فدلّ عليها صوْتُها حيّةَ البحر

ثم ندم على ما فَرط منه، فقال: اذكرُوا الله؛ فإنه خَيْرٌ لا شرّ فيه.

واجتمع إلى نَصْر بشَرٌ كثير، فسفَر الناسُ بينه وبين الكَرْمانيّ، وسألوا نَصْرًا أن يؤمِّنَهُ، ولا يحبسه؛ وجاء الكَرْمانيُّ، فوضع يدَهُ في يدِ نَصْر، فأمره بلزوم بيْتِهِ، ثم بلغ الكَرْماني عنِ نَصْر شيء، فخرج إلى قريةٍ له، وخرج نَصْرٌ فَعسْكَر بباب مَرْو، فكلَّمُوه فيه، فأمّنه.

---

(١) القهندز: في الأصل اسم الحصن أو القلعة وسط المدينة.

(٢) السرب: حفير تحت الأرض لا نفذ له؛ أو المسلك في خفية.

(٣) استوسق: انتظم، اجتمع وانضم.

فلما عُزل ابن جُمْهُور عن العراق ووُلّي عبْدُ الله بن عمر في شوَّال من السنة خطب نَصر، وذكره، وقال: قد علمْتُ أنه لم يكن مِنْ عُمّال العراق، وقد عزله اللّهُ، واستعمل الطيِّب ابْنَ الطيِّب.

فغضب الكَرْماني لابن جُمْهور، وعاد في جمْع الرجال واتخاذِ السلاح؛ فكان يحضر الجمعة في ألْف وخمسمائة فيصلِّي خارج المقصورة، ثم يدخل فيسلِّم على نَصْر، ولا يجلس، ثم ترك إتْيان نَصْر وأظْهر الخِلاَف؛ فأرسل إليه مع سَلْم بن أحوز، يقول: إني والله ما أردْتُ بحبسك سُوءًا، ولكن خفْتُ فساد أمْرِ الناس فأْتِني. فقال: لولا أنَّك في منزلي لقتلْتك، ارجع إلى ابْنِ الأقطع، فأبلغه ما شئتَ من خَيْرٍ أو شر.

فرجع إلى نَصْر فأخبره، فلم يزَلْ يُرْسِلُ إليه مرةً بعد أُخرى، فكان آخر ما قال له الكرْماني: إني لا آمنُ أنْ يحملك قوم على غير ما تريد، فتركب مِنا ما لاَ بقيَّةَ بعده، فإن شئْتَ خرجْتُ عنك لا مِنْ هيْبةٍ لك، ولكن أكْرهُ سفْكَ الدماء، فتهيّأ للخروج إلى جُرْجان؛ ثم كان من أمْرِ الكرْماني ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر الحرب بين أهل اليمامة وعاملهم

قال: لما قُتل الوليد بن يزيد كان على اليمامةِ عليُّ بن المهاجر، استعمله عليها يوسف بن عُمر، فقال له المُهَيْر بن سلمى بن هلال أحدُ بني الدؤُل بن حنيفة: اترك لنا بلادنا، فأبى؛ فجمع له المُهَيْر، وسار إليه، وهو بقَصْرِهِ في قاع هَجَر[1]، فالتقوا بالقاع، فانهزم عليّ حتى دخل قَصْرهُ، ثم هرب إلى المدينة، وقتل المُهَيْر ناسًا من أصحابه، وتأمّر المُهَيْر على اليمامة، ثم إنه مات، واستخلف على اليمامة عبْدَ الله بن النعمان أحد بني قيس بن ثعلبة بن الدؤَل، فاستعمل عبْد الله بن النعمان المندَلث بن إدريس الحنفي على الفَلَج ـ وهي قرية من قُرى بني عامر بن صعصعة ـ فجمع له بنو كَعْب بن ربيعة بن عامر ومعهم بنو عقيل، فأتوا الفَلَج[2]، فلقيهم المُنْدَلِث، وقاتلهم، فقُتِل المندلِث وأكْثَرُ أصحابه، ولم يقتل مِنْ بني عامر كثير، وقُتل يومئذ يزيد ابن الطَّثَرِيَّةِ وهي أُمّه، تُنسب إلى طَثْر بن عَنْز بن وائل، وهو يزيد بن المنتشر.

---

(١) هجر: الهجر بلغة حمير والعارب العاربة القرية، فمنها: هجر البحرين، وهجر نجران، وهجر جازان، وهجر حصنة من مخلاف مازن، وهجر: مدينة وهي قاعدة البحرين... (معجم البلدان).

(٢) فلج: مدينة بأرض اليمامة لبني جعدة، وقيل: فلج مدينة قيس بن عيلان بن مضر، ويقال لها فلج الأفلاج... (معجم البلدان).

فلما بلغ عبْد الله بن النعمان قَتْلُ المُنْدلِث جمع ألْفًا من حنيفة وغيرها، وغزا الْفَلَج.

فلما تصافَّ الناسُ انْهزم أبو لطيفة بن مسلم العقيلي، وطارق بن عبْد الله القُشَيري، والجعُونيان، وتجلَّلت بنو جعْدة البراذِع، وولَّوا، فقتل أكثرهم، وقُطعت يدُ زِيادِ بن حيان الجَعْدي؛ ثم قُتل.

ثم إن بني عقيل وقُشَيرًا وجَعْدة ونميرًا تجمَّعُوا وعليهم أبو سهْلَة النُّميري، فقتلوا مَنْ لقوا من بني حنِيفة بمعْدِن الصحراء، وسبَوْا نساءهم، وكفَّتْ بنو نمير عن النساء.

ثم إنَّ عمر بن الوازع الحنفي لَمّا رأى ما فعل عبْدُ الله بن النعمان قال: لَسْتُ بدون عبْد الله وغيره ممن يغير، وهذه فَتْرةٌ يُؤْمن فيها عقوبة السلطان، فجمع خَيْلَه وبثَّها فأغارت وأغار فملأ يده من الغنائم، وأقبل بمن معه حتى أتى النَّشَّاش[1]، وأقبلت بنو عامر، وقد حشدت، فلم يشعر عُمر بن الوازع إلا بِرُغاء الإبل، فجمع النساء في فُسْطَاط، وجعل عليهنَّ حرسًا، ولقي القومَ فقاتلهم، فانهزم هو ومنْ معه، وهرب ابْنُ الوازع، فلحق باليمامةِ، وكفَّت قَيْسٌ يوم النشَّاش عن السَّلَب، فجاءت عُكْل فسلبتهم.

وجمع عُبيد الله بن مسلم الحَنَفي جمْعًا، وأغار على ماءٍ لقُشَير يقال له حَلَبَان، وأغار على عُكْل فقَتَل منهم عشرين رجلاً.

ثم قدم المثنَّى بن يزيد بن عمر بن هُبَيْرة الفزاري والِيًا على اليمامة من قِبل أبيه يزيد بنِ عُمر حين ولّي العراق لمرْوان بن محمد، فوردها وهم سلْم.

وسكنت البِلاَد؛ ولم يزل عُبيد الله بن مسلم الحنفي مستَخْفيًا حتى قدم السريّ بن عبْد الله الهاشمي واليًا على اليمامة لبني العباس، فدلَّ عليه فقتله.

وفي هذه السنة أمر يزِيدُ بن الوليد بالبيعة بولاية العهْد لأخيْه إبراهيم، ومِنْ بعده لعبْد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك بن مرْوان.

وفيها خالف مرْوان بن محمد يزيد بن الوليد وأظهر الخِلاَف، وتجهَّز للمسِير إلى الشام، وعرض جُنْد الجزيرة في نَيّفٍ وعشرني ألْفًا، فكاتبه يزيدُ ليُبايع له ويُوليه ما كان عبْد الملك ولَّى أباه محمدًا من الجزيرة وإرمينية والموصل وأذْربيجان، فبايع له مرْوان، وأعطاه يزيد ولاية ما شرطه له.

---

(١) النشاش: واد لبني نمير كانت به وقعة بين بني عامر وأهل اليمامة.

ذكر وفاة يزيد بن الوليد بن عبد الملك

كانت وفاتُه بدمشق لعشر بقين من ذي الحجة سنة ستّ وعشرين ومائة؛ فكانت مدة ولايته خمسة أشهر واثنين وعشرين يومًا، وقيل ستة أشهر وليلتين، وقيل ستة أشهر؛ وكان عمره ستًّا وأربعين سنة.

واختلف فيه إلى ثلاثين سنة.

وكان أسْمر نحيف البدنِ، رَبْع القامة، خفيف العارِضيْن، فصيحًا شديد العُجْب.

وقيل في صفته: أسمر طويلاً صغير الرأس جميلاً.

وكان نقش خاتمه: يا يزيد، قم بالحق. وقيل: كان نقش خاتمه: العظمةُ لله.

وكان آخر ما تكلَّم به: واحسْرتَاه! واأسفاه! وكان له عقِب كثير.

كاتِبُه: ثابت بن سليمان.

قاضيه: عثمان بن عُمر بن موسى بن معمر التميمي.

حاجبه: قطريّ مولاه. وقيل سلام.

الأمير بمصر: حفْص بن الوليد، ولم يزل عليها إلى أن ولّي مرْوان فاستعفى.

قاضيها: حسين بن نعيم.

ويزيد أوّلُ منْ خرج بالسلاح يوم العيد، وخرج بين صفَّيْن عليهم السلاح. وقيل: إنه كان قَدَرِيًّا. والله أعلم.

ذكر بيعة إبراهيم بن الوليد

هو أبو إسحاق إبراهيم بن الوليد بن عبْد الملك بن مرْوان وأُمُّه أُم ولد اسمها نعمة، وقيل خشَف؛ وهو الثالث عشر من ملوك بني أُمية، قام بالأمْرِ بعد وفاةِ أخيه يزيد في ذي الحجة سنة ست وعشرين ومائة، وكان يسلَّم عليه تارةً بالخلافة، وتارة بالإمارة، وتارة لا يسلم عليه بواحدةٍ منهما؛ فمكث أربعة أشهر، وقيل سبعين يومًا، ثم سار إليه مَرْوان بن محمد، فخلعه على ما نذكر ذلك إنْ شاء الله، ثم لم يزل حيًّا حتى أُصيب في سنة اثنتين وثلاثين ومائة.

- تتمة حوادث سنة ست وعشرين ومائة:

فيها عزَلَ يزيدُ بن الوليد يوسف بن محمد بن يوسف عن المدينة، واستعمل عبْد العزيز بن عمرو بن عثمان، فقدمها في ذي القعدة من السنة.

وحجَّ بالناس عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز، وقيل عُمر بن عبْد الله بن عبد الملك.

سنة سبع وعشرين ومائة:

ذكر مسير مروان بن محمد إلى الشام وخَلْع إبراهيم بن الوليد

في هذه السنة سار مرْوان بن محمد بن مرْوان إلى الشام لمحاربة إبراهيم بن الوليد، فانتهى إلى قنسْرِين، وبها بِشر ومسرورٌ، ابْنَا الوليد أرسلهما أخوه إبراهيم، فتصافَوْا، ودعاهم مرْوان إلى بيْعته فمال إليه يزيد بن عمر بن هُبيرة في القَيْسيّة، وأسلموا بشرًا وأخاه مسرورًا، فحبسهما مرْوان، وسار معه أهْلُ قِنّسرين إلى حِمْص، وكان أهلُ حِمْص قد امتنعوا من بيْعة إبراهيم وعبد العزيز، فوجَّه إليهم إبراهيمُ عبْد العزيز في جُنْدِ أهْلِ دمشق، فحاصرهم في مدينتهم، وأسرع مرْوان السير، فلما دنا من حِمْص رحل عبْدُ العزيز عنها، وخرج أهلُها إلى مرْوان فبايعوه، وسارُوا معه، ووجَّه إبراهيم الجنود مِنْ دمشْقَ مع سليمان بن هشام في مائة وعشرين ألفًا ومرْوانُ في ثمانين ألفًا، فدعاهم مرْوان إلى الكفِّ عن قِتَاله وإطلاق الحكم وعثمان ابني الوليد مِنَ السجن، وضَمِن لهم أنّه لا يطْلُبُ أحدًا من قَتَلَةِ الوليد، فلم يجيبوه وجدُّوا في قتاله فاقتتلوا ما بين ارتفاع النهار إلى العصْر، وكَثُر القَتْلُ بينهم، وكان مرْوان ذَا رأْيٍ ومَكِيدةٍ، فأرسل ثلاثةَ آلاف فارس، وأمرهم أن يأْتُوا عسْكَر سليمان مِنْ خَلْفِه، ففعلوا ذلك، فلم يشعر سليمانُ إلاّ والقَتْلُ في أصحابه مِنْ ورائهم، فانهزموا، ووضع أهْلُ حِمْص السلاح فيهم لحنَقِهم عليهم، فقتلوا منهم سبعة عشر ألفًا، وقيل ثمانية عشر ألفًا، وكفَّ أهْلُ الجزيرة وقِنّسْرين عن قِتَالهم، وأتوْا مرْوان مِنْ أسراهم بمثل القَتْلى، فأخذ مرْوانُ عليهم البيعة لولدي الوليد، وخَلّى عنهم، وهرب يزيد بن عبْد الله بن خالد القَسْري فيمن هرب إلى دمشق، فاجتمعوا مع إبراهيم وعبد العزيز، واتفقُوا على قَتْل الحكَم وعثمان ولَدِي الوليد، فقُتلا؛ وقتل معهما يوسف بن عمر، وأرادوا قَتل محمد السفياني، فدخل بيتًا من بيوت السجن وأغلقه، فلم يقدروا على فتحه، وأرادوا إحراقَه، فقيل لهم: قد دخلَتْ خَيْلُ مرْوان المدينة، فهربوا، وهرب إبراهيم، واختفى، وانتهب سليمانُ بن هشام ما في بيتِ المال، فقسَّمه في أصحابه، وخرج من المدينةِ، وعاش إلى سنة اثنتين وثلاثين ومائة، ثم قتله ابن عوف يوم الزَّاب.

وقيل: إنه غرق في ذلك اليوم.

وقيل: قتله مرْوان بن محمد وصلَبه. وكان إبراهيم عاجزًا ضعيف الرَّأْي، وكان خفيف العارِضَيْن له ضَفِيرتان.

وكان نقش خاتمه: توكَّلْتُ على الحيِّ القيوم.

كاتبه: بكير بن السراج اللخمي.

قاضيه: عثمان بن عُمر التميمي.

حاجبه: قطريّ مولى الوليد، ثم وزْدان مولاه. والله أعلم.

ذكر بيعة مروان بن محمد

هو أبو عبْد الله مرْوان بن محمد بن الحكم بن أبي العاص، وأُمُّه لُبابة جارِية إبراهيم بن الأشْتَر، وكانت كُرْدِية، أخذها محمد من عسْكر إبراهيم، فولدت له مرْوان وعبد العزيز، ولقب بالجعْديّ لأن خاله الجعْد بن دِرهم، فنُسب إليه. ولقب أيضًا حمار الجزيرة.

بُويع له في صفر في سنة سبع وعشرين ومائة، وكان سبب بيْعته أنه لما دخل دِمشْق وهرب إبراهيم بن الوليد وسليمان بن هشام ثار منْ بدمشق مِنْ موالي الوليد بن يزيد بن عبْد الملك إلى دارِ عبد العزيز بن الحجاج بن عبْد الملك، فقتلوه ونَبشُوا قَبْر يزيد بن الوليد، وأخرجوه فصلبوه على باب الجابِيةِ، وأُتي مرْوان بالغُلاَمين، الحكم وعثمان مقْتُولَيْن، وبيوسف بن عمر، فدفَنَهم، وأُتي بأبي محمد السُّفْياني في قُيوده، فسلم على مرْوان بالخلافة، ومرْوان يومئذ يسلِّمُ عليه بالإمرة، فقال له مرْوان: مهْ. فقال: إنهما جعلاها لك بعْدهما، وأنشدا شِعْرًا قاله الحكم في السجن، وكانا قد بلغا ووُلِد لأحدهما، وهو الحكم، فقال: [من الوافر]

ألا مَنْ مُبْلِغٌ مرْوان عنِّي ... وعمِّي الغَمْر طال به حنِيْنَا[1]
بأنِّي قد ظُلِمْتُ وصار قَوْمي ... على قَتْلِ الوليدِ مُشَايِعِينَا
أيذْهبُ كلُّهم بِدمي ومالِي ... فلا غَثًّا أصَبْتُ ولا سَمِينا
ومرْوان بأرْضِ بني نِزارٍ ... كلَيْثِ الغَابِ مُفْتَرِش عرِينا
أتنكُثُ بيْعتي من أجْل أُمِّي ... فقد بايعْتُمو قَبْلي هجِيْنَا[2]
فإنْ أهْلِكْ أنا وولِيُّ عهْدِي ... فمرْوانُ أمِيرُ المُؤْمِنِينَا

---

(١) الغمر: هو الغمر بن يزيد بن عبد الملك بن مروان أخو الوليد بن يزيد.
(٢) الهجين: اللئيم؛ والهجين من الناس: الذي أبوه عربي وأمه أعجمية.

ثم قال: ابْسُطْ يدك أُبايعك، وسمعه منْ مع مرْوان.

وكان أول منْ بايعه معاوية بن يزيد بن حُصيْن بن نمير ورُؤُوسُ أهل حِمْص، والناس بعد. فلما استقرَّ له الأمرُ رجع إلى منْزِله بحرَّان، وطُلب منه الأمان لإبراهيم بن الوليد وسليمان بن هشام فأمَّنهما فقدما عليه، وبايعاهُ.

وفي هذه السنة ظهر عبْدُ الله بن معاوية بن عبْد الله بن جعْفر بن أبي طالب بالكوفة ودعا إلى نفسه؛ وكان من أمره ما نَذْكُره إن شاء الله في أخبارهم.

ذكر رجوع الحارث بن سريج

وفي هذه السنة كان رُجوعُ الحارِثِ بن سُريج إلى مَرْو؛ وكان قدومه في جُمادى الآخرة سنة سبع وعشرين ومائة، وكان ببلاد التُّرْكِ، وكان مقامه عندهم اثْنتي عشرة سنة، وقد قدَّمْنَا من أخباره طَرفًا.

وكان سبب عوْدِهِ أنَّ الفِتْنَةَ لما وقعت بخُراسان بين نَصْرِ بن سيار والكَرْماني في سنة ست وعشرين في خلافةِ يزيد بن الوليد كما ذكرنا ـ خاف نَصرٌ قدومَ الحارثِ عليه في أصحابه، فأرسل مقاتل بن حيّان النَّبطي وغيره ليردُّوه من بلادِ التُّرْكِ، وسار خالد بن زياد البدِّي التِّرْمِذِي وخالد بن عمرو مولى بني عامر إلى يزيد، فأخذوا للحارث منه أمانًا فأمَّنَه، وأمر نَصْر بن سيار أن يُردَّ عليه ما أخذ له، وأمر عبْد الله بن عُمر بن عبد العزيز بذلك، فلما قدم تلقَّاهُ الناسُ بِكُشْمَيْهَن[1]، ولَقِيه نَصْرٌ وأنزله، وأجْرى عليه كلَّ يوم خمسين درهمًا، فكان يقتصِرُ على لَوْن واحد، وأطلق نَصْر أهْلَه وأولاده، وعرض عليه نَصْر أنْ يوليه ويُعْطيه مائة ألف دينار، فلم يقبل.

وأرسل إلى نَصْر: إني لسْتُ من الدنيا واللذاتِ في شيء، إنما أسألُ كتاب الله والعملَ بالسنَّة واستعمالَ أهْلِ الخير، فإنْ فعلْت ساعدتُك على عدُوِّك.

وأرسل الحارثُ إلى الكرْماني إذا أعطاني نَصْرٌ العملَ بالكتاب وما سألْتُه عضَدْتُه وقُمْتُ بأمْرِ الله، وإنْ لم يفعل أعنْتُك إن ضَمِنْتَ لي القيام بالعدْل والسُّنة.

ودعا بني تميم إلى نَفْسه، فأجابه منهم ومِنْ غيرهم جمْعٌ كثير، واجتمع إليه ثلاثةُ آلاف، وقال لنصر: إنما خرجْتُ من هذه البلدة منذ ثلاث عشرة سنة إنكارًا للجور وأنت تُرِيدُني عليه.

---

(١) كشمهين: قرية، كانت عظيمة، من قرى مرو على طرف الرية.

ذكر انتقاض أهل حمص

وفي هذه السنة انتقض أَهْلُ حِمْص بعد عوْدِ مرْوان إلى حرَّان[١] بثلاثة أشهر، وكان الذي دعاهم إلى ذلك ثابت بن نُعيم، وراسل أَهْل حمص مَنْ بتَدْمُر من كَلْب، فأتاهم الأصبغ بن ذُؤالة الكَلْبي وأولاده، ومعاوية السَّكْسكي، وكان فارس أهل الشام وغيرهما في نحو أَلْفٍ مِنْ فُرْسانهم، فدخلوا حِمْص ليلة الفِطْر، فجدَّ مرْوان في السير إليهم ومعه إبراهيم بن الوليد المخلوع، وسليمان بن هشام، فبلغها بعْد الفِطْر بيوْمَيْن، وقد سدَّ أَهْلُها أبوابها، فأحْدق بالمدينة ووقف بإزاءِ بابٍ من أبوابها، فنادى مُنَادِيه: ما دعاكُمْ إلى النَّكْثِ؟ قالوا: إنَّا على طاعتِك لم ننكث. قال: فافتحوا. ففتحوا الباب، فدخله عمْرو بن الوضَّاح في الوضَّاحية في نحو ثلاثة آلاف، فقاتلهم منْ بالبلد فكسرتْهُمْ خَيْلُ مرْوان، فخرج مَنْ بها مِنْ باب تَدْمُر، فقاتلهم مَنْ عليه من أصحابِ مرْوان فقُتِل عامَّةُ مَنْ خرج منه، وأفلت الأصبغ وابْنُه، وقَتَل مرْوان جماعةً من أشرافهم، وصلَب خَمْسمائة من القَتْلى حوْلَ المدينة، وهدم مِنْ سُورِها نحو غَلْوة[٢]. وقيل: كان ذلك سنة ثمان وعشرين ومائة. والله أعلم.

ذكر خلاف أهل الغوطة

وفي هذه السنةِ خالف أَهْلُ الغُوطَة وولَّوْا عليهم يزيد بن خالد القَسْرِي وحصرُوا دِمشْق وأميرها زَامل بن عمْرو، فوجَّه إليهم مرْوان من حِمْص أبا الورْد بن الكوثر بن زُفَر بن الحارث، وعمْرو بن الوضَّاح في عشْرةِ آلاف، فلما دنَوْا من المدينة حملُوا عليهم، وخرج عليهم منْ بالمدينة؛ فانهزموا، واستباح أصحابُ مرْوان عسْكَرهم، وأحرقوا المِزّة[٣] وقُرًى من قُرى اليمانية، وأُخِذَ يزيد بن خالد فقتل، وبعث زَامِل برأسه إلى مرْوان بحِمْص.

ذكر خلاف أهل فلسطين

وفيها خَرج ثابت بن نُعيم بعد هؤلاءِ في أَهْلِ فلسطين، وأتى طَبَرية فحاصرها،

---

(١) حرّان: قصبة ديار مضر، بينها وبين الرها يوم وبين الرقة يومان، وهي على طريق الموصل والشام والروم. . . (معجم البلدان).

(٢) الغلوة: مقدار رمية سهم، وتقدر بثلاث مئة ذراع إلى أربع مئة.

(٣) المزة: قرية كبيرة في وسط بساتين دمشق.

وعليها الوليد بن مُعاوية بن مرْوان بن الحكم، فقاتله أهْلُها أيامًا، فكتب مرْوان بن محمد إلى أبي الورْد يأمُره بالمسير إليهم، فسار فلما قَرُب منهم خرج أهْلُ طَبرِيَّة على ثابت فهزموه واستباحُوا عسْكَره، فانصرف إلى فِلَسْطين مُنْهَزِمًا، فتَبِعه أبو الورْد والتقوا واقتتلوا، فانهزم ثانية وتفرّق عنه أصحابُه وأسر ثلاثةً من أولاده، وبعثَ بهم إلى مرْوان، وتغيَّب ثابت وولدُهُ رِفاعة.

واستعمل مرْوان على فلسطين الرُماحِس بن عبْد العزيز الكناني، فظفر بثابت، فبعثه إلى مرْوان مُوثَقًا بعد شهرين، فأمر به وبأولاده الثلاثة، فقُطعتْ أيديهم وأرجلُهم، وحُمِلوا إلى دِمشْق، فأُلقوا على باب المسجد ثم صُلبُوا على أبوابِ دمشق؛ واستقام أمْرُ الشام لمرْوان إلا تَدْمُر؛ فسار مرْوان إليها، فنزل القَسْطَل[١]، وبعث إليهم فأجابوه إلى الطاعة فبايعهُم، وهدم سُور البلَدِ.

وفيها بايع مرْوان لابنيه عُبيد الله وعبْد الله وزَوَّجهُما ابنتي هشام بن عبد الملك، وجمع لذلك بني أُميّة.

وسار مرْوان إلى الرُّصافَةِ، وندَب يزيد بن عُمر بن هُبيْرة إلى العراق لقتالِ الضحاك الخارجي، وأمر أهْل الشام باللّحاق به.

ولما سار مرْوان استأْذَنَه سُليمان بن هشام ليُقِيم أيّامًا ليقوّي منْ معه وتستريح دوابُّهم، فأذِن له.

وتَقَدَّم مرْوان إلى قَرْقِيسِياء[٢] وبها ابْنُ هبيرة ليُقَدِّمه إلى الضحّاك، فرجع عشرةُ آلاف ممَّنْ كان مرْوانُ أخذ مِنْ أهل الشام لقتالِ الضحاك، فأقاموا بالرُّصافة، ودعوا سليمان إلى خَلْع مرْوان فأجابهم.

ذكر خلع سليمان بن هشام بن عبد الملك مرْوان بن محمد

وفي هذه السنة خَلَع سليمان بن هشام مرْوان، وذلك أنه لما استَأْذَنَه في المقام بعده، وأقام، وقدم عليه الجنودُ الذين ذكرناهم حسَّنُوا له خَلْع مروان وقالوا: أنْتَ

---

(١) القسطل: موضع بين حمص ودمشق، وقيل: موضع قرب البلقاء من أرض دمشق في طريق المدينة.

(٢) قرقيسياء: بلد على نهر الخابور قرب رحبة مالك بن طوق، وعندها مصب الخابور في الفرات.

أرْضَى عند الناس، وأوْلَى من مرْوان بالخلافة؛ فأجابهم إلى ذلك، وسار بإخْوتِهِ ومواليه، فعسكر بقِنَّسْرين[١]، وأتاه أهْلُ الشام مِنْ كلِّ مكان.

وبلغ الخبرُ مرْوانَ، فرجع إليه من قَرْقِيسياء، وكتب إلى ابْنِ هبيرة يأْمُره بالمقام؛ وكان أولادُ هشام وجماعةٌ مِنْ موالي سليمان بحِصْن الكَامِلِ، فمرَّ عليه مرْوانُ فتحصَّنُوا منه، فأرسل إليهم يحذِّرُهم أن يتعرَّضُوا لأحدٍ ممَّنْ يتْبعُه مِنْ جُنْدِه، فإن تعرَّضُوا لأحدٍ فلا أمانَ لهم، فأرسلوا إليه إنهم يكفُّون عنهم.

ومضى مرْوانُ فجعلوا يُغِيرون على منْ يتْبعُهُ، فاشتدَّ غَيْظُه عليهم.

قال: واجتمع إلى سليمان نَحْوٌ من سبعين ألفًا من أهل الشام والذَّكْوانيَّة وغيرهم، وعسْكَر بقَرْيةِ خُساف[٢] من أرض قِنّسرين.

وأتاه مرْوان والتَقَوْا؛ واشتدَّ القتالُ بينهم، فانهزم سليمان ومنْ معه، واتبعهم مرْوان، فاستباح عسْكَرهُ، وأمر مرْوان بقَتْل منْ يُؤْتَى به من الأسرى إلا عبْدًا مملوكًا، فأُحصي مِنْ قتلاهم يومئذ ما نيّف على ثلاثين ألف قتيل. وقُتل إبراهيم بن سُليمان أكبرُ ولده، وخالد بن هشام المخزومي خال هشام بن عبْد الملك، وادعى كَثِيرٌ من الجُنْد الأسرى أنهم عبِيد؛ فكفَّ عن قَتْلِهم، وأمر ببيْعهم فيمنْ يزيد.

ومضى سليمان إلى حِمْص، وانضمَّ إليه منْ أفْلت ممَّنْ كان معه، فعسكر بها، وبنى ما كان مرْوان هدمه من سُورِها؛ وسار مرْوانُ إلى حِصْن الكامل، فحصر من فيه، وأنزلهم على حُكْمِه، فمثَّل بهم، وأخذهم أهْلُ الرَّقّةِ فداووْا جِراحاتهم، فهلك بعْضُهم وكانت عِدَّتُهم نحو ثلاثمائة.

ثم سار إلى سليمان، فقال بعضهم لبعض: حتى متى نَنْهزِمُ من مرْوان، فتبايع تسعمائة من فُرْسانِهم على الموت، وساروا بأجمعهم مُجْمعين على أن يبيِّتُوه إنْ أصابُوا منه غِرَّةً، وبلغه خَبرُهم فتحرز منهم، فلم يمكّنْهم أن يبيِّتُوه، وزحف على احترازٍ وتعبئة، فكمنوا في زَيْتُون في طريقهِ، فخرجوا عليه وهو يسيرُ على تَعْبِئَتِهِ، فوضعوا السلاح فيمنْ معه، فنادى مرْوان خيولَه، فرجعتْ إليه، فقاتلوا مِنْ لَدُن ارتفاع النهارِ إلى بعْدِ العصر، فانهزم أصحابُ سليمان وقُتِل منهم نحو ستةِ آلاف.

---

(١) قنسرين: مدينة قرب حمص قيل: في جبلها قبر صالح النبي عليه السلام، وقيل: قنسرين مدينة بينها وبين حلب مرحلة من جهة حمص بقرب العواصم، وما زالت عامرة آهلة إلى أن كانت سنة ٣٥١... (معجم البلدان).

(٢) خساف: برية بين بالس وحلب، وكان بها قرى وأثر عمارة.

فلما بلغ سليمانَ هزيمتُهُمْ خَلَّف أخاه سَعِيدًا بحِمْص، ومضى هو إلى تَدْمُر، فأقام بها، ونزل مرْوان على حِمْص، فحاصر أهْلَها عشرةَ أشهر، ونصب عليهم نَيِّفًا وثمانين مِنْجنِيقًا يرْمِي بها الليل والنهار، وهم يخرجون إليه في كل يوم فيقاتلونه.

فلما تتابع عليهم البَلاءُ طلبوا الأمانَ على أن يُمكِّنُوه من سعِيد بن هشام وابنيه: عثمان ومرْوان، ومِنْ رجُل كان يسمى السكسكي، كان يُغِير على عسْكَره، ومِنْ رجُلٍ حبشيّ كان يشتم مرْوان، فأجابهم إلى ذلك، واستوثق من سعِيد وابنيه، وقَتَل السكسكي، وسلَّم الحبشي إلى بني سليم، لأنه كان يخُصُّهم بالسّبِّ، فقطعوا ذَكَره وأنْفَه ومثَّلُوا به.

ولما فرغ مرْوان من حِمْص سار نحو الضحّاك الخارجي.

وقيل: إن سليمان لما انهزم بخُساف أقبل هاربًا حتى التحق بعبْد الله بن عُمر بن عبد العزيز بالعراق، فخرج معه إلى الضحاك، فقال بعض شعرائهم: [من الطويل]

ألـم تـر أنَّ الله أظْـهـر دِيـنَـهُ وصلَّتْ قريشٌ خَلْف بكْر بن وائلِ

ذكر خروج الضحاك محكمًا وما كان من أمره إلى أن قُتِل

وفي سنة سبع وعشرين ومائة خرج الضحَّاك بن قَيْس الشيباني مُحْكمًا ودخل الكوفة.

وكان سببُ ذلك أنَّ الوليد لما قُتِل خرج بالجزيرة حَرُورِيّ يقال له سعيد بن بَهْدل الشيباني في مائتين من أهل الجزيرة، فاغتنم سعيد قَتْل الوليد واشتغال مرْوان بالشام فخرج بأرض كَفَر تُوثَا[١]، وخرج بِسْطام البيْهسيّ، وهو مخالِفٌ لرأْيِه في مثل عُدَّتهم من ربِيعة، فسار كلُّ واحدٍ منهما إلى صاحبِه.

فلما تقاربا أرسل سعِيدٌ أحد قوَّاده في مائة وخمسين، فقتلوا بسطامًا ومنْ معه إلا أربعة عشر رجلًا. ثم مضى سعِيد نَحْو العراق فمات في الطريق، واستخلف الضحّاك بن قَيْس، فأتى أرْضَ الموصل ثم شَهْرزُور[٢]، فاجتمعت عليه الصُّفْرِيَّة حتى صار في أربعة آلاف، وهلك يزِيدُ بْنُ الوليد وعامله على العراق عبْد الله بن عُمر بن

---

(١) كفر توثا: قرية كبيرة من أعمال الجزيرة، وقيل: كفرتوثا: من قرى فلسطين.

(٢) شهرزور: هي كورة واسعة في الجبال بين إربل وهمذان أحدثها زور بن الضحاك.. وأهل هذه النواحي كلهم أكراد.

عبد العزيز ومرْوان بالجزيرة. فكتب مرْوان إلى النَّضْر بن سعيد الحَرَشيّ ـ وهو أحد قوّاد ابْن عمر بولاية العراق ـ فلم يسلِّم ابْنُ عُمر إليه العمل، فشخص النَّضْرُ إلى الكوفةِ وبقي عبْدُ الله بالحيرة، وتحاربا أربعةَ أشهر.

فلما سمع الضحَّاكُ باختلافهم أقْبل نحْوهم، وقَصد العِراق سنة سبع وعشرين ومائة؛ فأرسل ابْنُ عُمر إلى النَّضْر في الاجتماع عليه، فتعاقدا واجتمعا بالكوفة؛ وكان كلٌّ منهما يُصلِّي بأصحابه.

وأقبل الضحاكُ فنزل بالنُّخَيْلَة[1] في شهر رجب سنة سبع وعشرين ومائة، والتقوا، واقْتَتَلُوا قِتَالاً شديدًا، فكشفوا ابْنَ عُمر، وقتلوا أخاه عاصمًا وجعْفَر بن العباس الكِنْدِيّ، ودخل ابْنُ عمر خَنْدقَه، وبقي الخوارج عليهم إلى الليل ثم انصرفوا؛ وذلك في يوم الخميس ثم اقتتلوا يوْم الجمعة، فانهزم أصحابُ ابْن عمر.

فلما كان يوم السبت تَسلَّلُوا إلى واسِط، فلحق بها وجوهُ الناسِ، فرحل عند ذلك ابْنُ عمر إليها، فلم يأمنه عُبيْدِ الله بن العبَّاس الكندي على نَفْسه، فسار مع الضحاك وبايعهُ.

ولما نزل ابْنُ عُمر إلى واسِط نزل بدارِ الحجَّاج بن يوسف، وعادت الحرْبُ بينه وبين النَّضْر إلى ما كانت عليه، وسار الضحَّاكُ من الكوفَةِ إلى واسط، ونزل باب المضمار، فترك ابْنُ عمر والنَّضْرُ الحرْبَ بينهما، واتَّفَقَا على قِتَال الضحاك، فلم يزَالُوا على ذلك شعبان ورمضَان وشَوَّال، والقِتَالُ بينهم مُتواصِلٌ. ثم صالحه عبْدُ الله بْنُ عُمر بن عبْد العزيز وسليمان بن هشام، وبايعاهُ، ودفَعاهُ إلى مرْوان.

قال: وكاتب أهْلُ الموصل الضحَّاكَ في القدُومِ ليمكِّنُوه من البلَد، فسار إلى الموصل ففتح أهْلُها لَهُ أبْوابها، فدخلها، واسْتَوْلَى عليها وعلى كُورها، وذلك في سنة ثمان وعشرين ومائة، فبلغ مرْوان خَبرُه وهو يُحاصِر حِمْص، فكتب إلى ابنِهِ عبْدِ الله ـ وهو خليفتُه بالجزيرة ـ أنْ يسير إلى نَصِيبين، ويمْنَع الضحاك من تَوسُّط الجزيرة؛ فسار إليها في سبْعةِ آلاف أو ثمانية آلاف، وسار إليه الضحاكُ، فحصر عبْد الله بن مرْوان بِنَصيبين، وكان مع الضحّاك ما يزيد على مائة ألف.

ثم سار مرْوان إليه، والتَقوْا بنواحي كَفَرْ تُوثَا من أعمال مارِدِين[2]، فقاتله يوْمَه

---

(١) النخيلة: موضع قرب الكوفة.

(٢) ماردين: قلعة مشهورة على قنة جبل الجزيرة مشرفة على دنيسر ودارا ونصيبين وذلك الفضاء الواسع وقدامها ربض عظيم فيه أسواق كثيرة وخانات ومدارس وربط وخانقاهات... (معجم البلدان لياقوت).

أجْمع، فقُتِل الضحاك ولم يَعْلمْ به مرْوان ولا أصحابُه؛ ثم بلغ مرْوان قَتْلُه، فاستخرجه من بين القتلى وفي وجْهِهِ ورأْسِه أكثَرُ من عشرين ضَرْبة.

وبعث مرْوانُ رأْسه إلى مدائن الجزيرة.

وقيل: إنَّ قَتْلَه كان في سنة تسع وعشرين ومائة والله أعلم.

وحيث ذكرنا أخبار الضحاك فلنذكر أخبار من خرج بعْدهُ في أيام مروان:

ذكر خبر الخيبري (الخارجي) وقَتْله وقيام شيبان

قال: ولما قُتل الضحّاكُ أصبح أهْلُ عسكرِه فبايعُوا الخَيْبرِيّ؛ وكان سليمان بن هشام معه، وأصبحوا واقتتلوا، فحمل الخَيبرِيُّ على مرْوان في نحو أربعمائة فارس من أهل الشُّراة، فهُزِم مرْوان وهو في القَلْب، وخرج من العسكر مُنْهزِمًا، ودخل الخَيْبري ومنْ معه عسْكَر مرْوان يُنَادُون بشعارهم ويقتلون منْ أدْركُوه، حتى انتهوا إلى خيم مرْوان، فدخلها الخَيْبري وجلس على فرش مرْوان، هذا ومَيْمنَةُ مرْوانَ ثابتة، وعليها ابْنُه عبد الله؛ وميسرته ثابتة وعليها إسحاق بنُ مُسْلِم العقيلي.

فلما رأى أهْلُ العسْكَرِ قِلَّةَ منْ مع الخَيْبري ثار إليه عبيدُهم بعمد الخيم، فقتلوا الخَيْبرِيّ وأصحابه جميعًا في خيم مروان وحوْلَها، وبلغ مرْوان الخَبرُ، وقد صار بينه وبين العسكر خَمْسةُ أميال أو ستة منهزمًا، فانصرف إلى عسْكَرِه، وبات ليلته تلك، وانصرف الخوارج فولَّوْا عليه شيبان.

ذكر أخبار شيبان الحروري وما كان من أمرِه إلى أنْ قُتل

هو شَيْبان بن عبد العزيز أبو الدَّلْفَاء اليشْكُري.

قال: ولما بايعوه بعد قَتْلِ الخَيْبرِيّ أقام يُقَاتِلُ مرْوان، وتَفَرَّقَ عنه كثير مِنْ أصحابِهِ، فبقي في نحو أربعين ألفًا، فأشار عليهم سليمانُ بن هشام أنْ ينْصرِفُوا إلى الموصل فيجعلوها ظَهْرهم.

فارتحلوا وتَبِعهُم مرْوان حتى انتهوا إلى الموصل فعسْكَرُوا شَرْقيّ دِجْلَة، وعقَدُوا عليها جسرًا، وخَنْدق مرْوان بإزائهم، وأهلُ الموصل يقاتلون مع الخوارج، فأقام مرْوان ستةَ أشْهرِ يقاتلهم، وقيل تسعة أشهر.

وكتب مروان إلى يزيد بن عُمر بن هُبيْرة يأمُرُه بالمسير من قَرقِيْسِيا، بجميع مَنْ معه إلى العراق وعلى الكوفة المُثَنَّى بن عمران العائذي، وهو خليفةُ الخوارج بالعراق، فلقي ابْنَ هُبيرة بعيْن التَّمْر، فاقتتلوا قتالاً شديدًا، فانهزمت الخوارِجُ، ثم تجمَّعُوا بالكوفةِ بالنُّخَيْلة فهزمهم ابن هُبيْرة، ثم اجتمعوا بالصَّراة، فأرسل إليهم شيبان عُبيد بن سوَّار في خَيْلٍ عظيمةٍ، فالتقوا بالصَّراة، فانهزمت الخوارجُ، وقُتل عُبيدة، ولم يبْق لهم بقيةٌ بالعراق، واستولى ابْنُ هُبيْرة على العراق، وسار إلى واسط، وأخذ عبْد الله بن عُمر بن عبْد العزيز وحبسه، ووجّه نُباتَة بن حنْظلة إلى سليمان بن حبيب وهو على كُور الأهواز، فأرسل سليمان إلى نُباتة داود بن حاتم، فالتقوا على شاطىء دُجيل؛ فانهزم الناس، وقُتِل داودُ بن حاتم.

وكتب مرْوان إلى ابْنِ هُبيْرة لما استولى على العراق يأمُره بإرسالِ عامر بن ضُبارة المُرِّي إليه، فسيَّرهُ في سبعة آلاف أو ثمانية، فبلغ شَيْبان خَبرُه، فأرسل الجوْنَ بن كِلاَب الخارجي في جمْع، فالتقوا فهُزم عامِرٌ؛ فأمدَّه مرْوان بالجنود، فقاتل الخوارجَ فهزمهم؛ وقتل الجوْنَ، وسار إلى الموصل، فلما بلغ شيبان قَتْلُ الجوْن ومسيرُ عامر نحوه كرِه أنْ يُقِيم بين العسكرين، فارتحل بمنْ معه، وقدم عامر على مرْوان بالموصل فسيَّره في جمعٍ كثير في أثر شيبان، وأمره ألاَّ يبْدأه بقتَالٍ، فإنْ قَاتَله شَيْبانُ قَاتَلَهُ، وإنْ أمسكَ عنه أمسك، فكان كذلك، حتى مرَّ على الجبل، وخرج على بيضاء[1] فارس، وبها عبْدُ الله بن معاوية بن جعفر، وسار إلى نَحْو كَرمان، فأدركه عامِرٌ، فالتقوا واقتتلوا، وانهزم شَيْبان إلى سجستان فهلك بها، وذلك في سنة ثلاثين ومائة.

وقيل: بل كان قِتَال شيبان ومرْوان على الموصل نحو شهر، ثم انهزم شَيْبان حتى لحق بفارس، وعامرٌ يتْبعه، وسار إلى جزيرةِ ابن كاوَان، ثم إلى عمان فقتله جُلَنْدى بن مسعود بن جَيْفَر بن جُلَنْدى الأزْدِي سنة أربع وثلاثين ومائة، وسنذكره إنْ شاء اللّهُ في أخبار الدولة العباسية.

فلنرجع إلى تتمة حوادث سنة سبع وعشرين ومائة وما بعدها.

فيها كان من أخبار الأندلس وشيعة بني العباس ما نذكرُه إن شاء الله في مواضعه.

---

(١) بيضاء فارس: أكبر مدينة في كورة إصطخر، وإنما سميت البيضاء لأن لها قلعة تبين من بعد ويرى بياضها، وكان معسكرًا للمسلمين يقصدونها في فتح إصطخر. . . (معجم البلدان).

وحجّ بالناس عبد العزيز بن عُمر بن عبد العزيز وهو عاملُ مرْوان على مكة والمدينة والطائف، وكان العامِلُ على العراق النَّضْر بن سعِيد الحَرَشي، وكان من أمره وأمْرِ ابْنِ عمر والضحاك ما قدَّمْنا ذكره. وكان بخراسان نَصْر بن سيّار والكرماني، والحارث بن سُريْج يُنَازِعانه.

وفيها مات سُويد بن غَفَلَة. وقيل سنة إحدى وثلاثين. وقيل سنة اثنتين وثلاثين، وعُمْرُه مائة وعشرون سنة. والله تعالى أعلم.

سنة ثمان وعشرين ومائة:

ذكر مقتل الحارث بن سريج وغَلَبة الكِرْماني على مرْو

وفي هذه السنة كان مقْتَل الحارث بن سُرَيْج وغَلَبة الكرماني على مرْو.

وكان سبب ذلك أنَّ ابْن هُبيْرة لما ولّي العراقَ كتب إلى نَصْر بن سيَّار بعهْدِ خراسان، فبايع لمرْوان بن محمد، فقال الحارث: إنما أمَّنني يزيد ولم يؤمّني مرْوان، ولا يُجيز مرْوانُ أمان يزيد، فلا آمنه. فخالف نصرًا فأرسل إليه نر يدْعُوه إلى الجماعة وينْهاه عن الفُرْقَة، فلم يُجبْهُ إلى ذلك، وخرج فعسْكَر وأرسل إلى نَصْر: أن اجعل الأمْر شُورى، فأبى نصر، وأمر الحارث جَهْم بن صفْوان رأس الجهْمِيّة، وهو مولى راسِب، أن يقرأ سيرته وما يدْعُو إليه على الناس، ففعل، فلما سمعوا ذلك كثروا وكَثُر جمْعه.

وكان الحارث يُظْهِرُ أنه صاحبُ الرايات السود، فأرسل إليه نَصْر إنْ كنْت كما تزعم وإنكم تهدمون سُور دمشق، وتزيلون مُلك بني أُمية فخذ مني خمسمائة رأْس ومائتي بَعِير، واحتمِلْ من الأموال ما شِئْتَ وآلة الحرب، وسِر، فلعمري إنْ كنْتَ صاحب ما ذكرت إني لفي يدِك، وإنْ كنْتَ لَسْتَ ذاك فقد أهلكْتَ عشيرتك؛ ثم عرض عليه نصر أن يوليه ما وراء النهر ويعطيه ثلاثمائة ألف، فلم يقبل. فقال له نصر: فابدأْ بالكَرْماني فإنْ قتَلْتَه فأنا في طاعتِكَ، فلم يقبل.

وأمر الحارث أن تُقْرأ سيرتُه في الأسواق والمسجد وعلى بابِ نَصْر، فقُرئت، فأتاه خَلْق كثير، وقرأها رجلٌ على باب نَصر، فضربه غِلْمان نَصْر، فنابذهم الحارثُ وتجهَّزَ للحرْب، ودلَّه رجلٌ من أهل مرْو على نَقْب في سورها، فمضى إليه الحارث فنقبه، ودخل المدينة من ناحية بابِ بالِين. فقاتله جَهْم بْنُ مسعود الناجي، فقُتِل

جهْم، وانتهبوا منْزلَ سلم بن أحْوز، وقُتل من كان بحرس باب بالِين وذلك لليلتين بقيتا من جُمادى الآخرة يوم الاثنين.

وركب الحارث في سكة السغد(١)، فرأى أعْين مولى حيَّان فقاتله، فقُتِل أعْين، وركب سلْم حين أصبح، وأمر مناديًا فنادى: منْ جاء برأْسٍ فله ثلاثمائة. فلم تطلع الشمس حتى انهزم الحارث بعد أنْ قاتلهم الليل كلَّه.

وأتى سلْم عسْكَر الحارثِ فقُتل كاتِبُهُ يزيد بن داود، وقُتِل الرجلُ الذي دلَّ الحارثَ على النقب، وأرسل نَصْر إلى الكَرْماني فأتاه على عهد، وعنده جماعةٌ، فوقع بين سلْم بن أحْوز والمِقْدام بن نُعيم كلامٌ، فأغلظ كلُّ واحدٍ منهما لصاحبه، وأعان كلُّ واحدٍ منهما نَفَرٌ من الحاضرين؛ فخاف الكَرماني أن يكونَ مكْرًا مِنْ نَصْر، فقام وتعلَّقُوا به، فلم يجلس، وركب فرسه، ورجع، وقال: أراد نَصْرٌ الغَدْر بي.

وأسر يومئذ جَهْم بن صفْوان وكان مع الكَرْماني فقُتِل، وأرسل الحارثُ ابْنَه حاتمًا إلى الكَرْمانيّ، فقال له محمد بن المثنى: هما عدُوَّاك، دعْهُما يضْطربان.

فلما كان الغَد ركِب الكَرمانيّ فقاتل أصحابَ نَصْرٍ، ووجَّه أصحابه يوم الأربعاء إلى نَصْر، فتراموا ثم تحاجزُوا ولم يكن بينهم يوم الخميس قتالٌ. والتَقَوا يوْم الجمعة فانهزمت الأزْد حتى وصلُوا إلى الكَرْمانيّ، فأخذ اللواءَ بِيدِهِ، فقاتل به فانهزم أصحابُ نَصْر، وأخذوا لهم ثمانين فرسًا، وصُرع تميم بن نَصْر، وسقط سلْم بن أحوز فحُمِل إلى عسكر نَصْر.

فلما كان الليل خرج نَصْرٌ من مرْو، وقَتَل عِصْمة بن عبْد الله الأسدي، وكان يحمي أصحاب نَصْر، واقتتلوا ثلاثةَ أيام، فانهزم أصحابُ الكَرْمانيّ في آخر يوم، وهم الأزْد وربيعة، فنادى الخَليل بن غَزْوان: يا معشر ربيعة واليمن! فدخل الحارث السوقَ ففتَّ في أعضاد المُضَريّة، وهم أصحابُ نَصْر، فانهزموا وتَرجَّل تميم بن نصر فقاتل. فلما هزَمت اليمانيّة مُضَر أرسل الحارث إلى نَصْر: إن اليمانية يُعيِّرُونني بانهزامكم، وأنا كافٌّ. فاجعل حُماة أصحابِك بإزاء الكَرْمانيّ. فأخذ عليه نَصْرٌ العهود بذلك، وقدم على نَصْر عبد الحكم بن سعيد العَوْذي وأبو جعفر عيسى بن جرز مِن مكة: والعَوْذ: بطْنٌ من الأزْد، فقال أبو جعفر لنَصْرٍ: أيها الأمير، حسْبك من الولاية وهذه

---

(١) السغد: ناحية كثيرة المياه نضرة الأشجار متجاوبة الأطيار مؤنقة الرياض والأزهار ملتفة الأغصان خضرة الجنان... فيها قرى كثيرة بين بخارى وسمرقند، وقصبتها سمرقند... (معجم البلدان).

الأُمور، فقد أظلَّك أمْرٌ عظيم، سيقوم رجلٌ مجهول النَّسبِ يُظْهِرُ السَّواد، ويدْعُو إلى دولة تكون فيغلب علَى الأمْرِ، وأنتم تنظرون.

فقال نصر: ما أشْبهَ أن يكونَ كما تقول لقلَّةِ الوفَاءِ وسوءِ ذات البيْن.

فقال: إنَّ الحارثَ مقتولٌ مصلوب، وما الكَرْماني من ذلك ببعيد.

قال: ولما خرج نَصْر مِنْ مرْو وغلب عليها الكَرْماني خطب الناس فأمّنهم ثم هدم الدُّور ونهب الأموال، فأنكر الحارث عليه ذلك، فهمَّ الكَرْمانيّ به، ثم تركه، واعتزل بشر بن جُرْمُوز الضبيّ في خمسة آلاف، وقال الحارث: إنما قاتلْتُ معكَ طلبًا للعدْلِ، فأما إذْ تَتْبع الكرماني فما تقاتِلُ إلا ليُقَال غَلَب الحارث، وهؤلاء يقاتِلُونَ عصبيّة؛ فلستُ مقاتلاً معك، فنحن الفئةُ العادِلةُ، لا نقاتل إلاَّ منْ قاتلَنَا، وأتى الحارثُ مسجد عِياض، وأرسل إلى الكَرْماني يدْعُوه إلى أنْ يكونَ الأمْرُ شُورى، فأبى الكَرْماني، فانتقل الحارثُ عنه، وأقاموا أيامًا.

ثم إنَّ الحارث أتى السُّور فثلَم فيه ثُلْمة، ودخل البلد، وأتى الكرماني، فاقتتلوا، فانهزم أصحابُ الحارث وقُتِلوا ما بين الثلمة وعسكرهم، والحارث على بغل، فنزل عنه وركب فرسًا، وبقي في مائة، فقُتِل عند شجرة زيتون أو غُبيْراء[1]، وقتل أخوه سوادة وغيرهما.

وقيل: كان سبب قَتْله أنَّ الكَرْمانيّ خرج إلى بِشْر بن جُرْمُوز عند اعتزاله، ومعه الحارِثُ، فأقام أيامًا بينه وبين عسكر بِشْر فرسخان، ثم قرب منه ليُقَاتِلَهُ، فندم الحارث على اتِّباع الكَرْمانيّ وقال: لا تَعْجلْ إلى قتالهم فأنا أرُدُّهم عليك.

فخرج في عشرة فوارِس فأتى عسْكَر بِشْر، فأقام معهم، وخرج المُضَريَّةُ أصحابُ الحارث إليه، فلم يبْقَ مع الكَرْمانيّ مُضَريّ غير سلمة بن أبي عبْد الله، فإنه قال: لم أرَ الحارثَ إلاَّ غادرًا، وغير المهلَّب بن إياس، فقاتلهم الكَرماني مرارًا يقتتلون ثم يرجعون إلى خَنَادِقهم مرّةً لهؤلاء ومرةً لهؤلاء.

ثم ارتحل الحارثُ بعد أيام، فنقب سُور مرْو ودخلها، وتَبعهُ الكَرْماني، فدخلها أيضًا، فقالت المضريَّة للحارث: قد فَررْتَ غير مرَّةٍ، فترجّل، فقال: أنا لكم فارسًا خَيْرٌ مني لكم راجِلاً. فقالوا: لا نَرْضَى إلا أنْ تَترجَّل، فترجَّل، فاقتتلوا هم والكِرْماني، فقُتل الحارث وأخواه وبِشْر بن جُرْموز، وعِدّةٌ من فُرْسان تميم، وانهزم

(١) الغبيراء: جنس نبات شجيري من الفصيلة الوردية، فيه أنواع حرجية، وأخرى تزرع للتزيين أو لثمارها.

الباقون، وصفَتْ مرْو للْكَرْماني واليمن، فهدموا دُور المضريّة، فقال نصر بن سيَّار للحارث حين قُتِل: [من السريع]

يـا مُـدْخِـل الـذُّلّ عـلـى قَـوْمِـه بُـعْـدًا وسُـحْـقًـا لـك مِـنْ هـالِـكِ
شُـؤْمُـكَ أرْدى مُـضَـرًا كُـلَّـهـا وعـضَّ مِـنْ قَـوْمِـكَ بـالْـحـارِكِ[1]
مـا كـانـت الأزْدُ وأشْـيـاعُـهـا تَـطْـمـعُ فـي عـمْـرٍو ولا مـالـكِ[2]
ولا بـنِـي سـعْـدٍ إذ ألْـجَـمُـوا كـلَّ طِـمِـرٍّ لَـوْنُـهُ حـالِـك

وفي هذه السنة كان اجتماع أبي حمْزَة الخارجي وعبْد الله بن يحيى المعروف بطالب الحقّ، واتَّفَقَا على الخروج على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

وحجَّ بالناس عبْد العزيز بن عُمر بن عبْد العزيز وهو عامل مَكَّةَ والمدينة، وكان بالعراق عمال الضحاك الخارجي وعبْد الله بن عمر بن عبد العزيز، وبخراسان نصر بن سيار والفتنةُ قائمةٌ.

سنة تسع وعشرين ومائة:

ذكر مقتل الكرماني
وهو جُديع بن علي الأزْدي

قال: ولما خلصت مرْو للكَرْماني وتنحّى نَصْرٌ عنها أرسل نَصْرٌ أصحابه لقتالِهِ مرارًا، كلُّ ذلك والظَفَرُ لأصحابِ الكَرْماني، ثم خرجوا جميعًا واقتتلوا قِتَالاً شديدًا، وذلك بعد ظُهور أمْرِ أبي مسلم الخُراساني ودعوته لبني العباس، فكتب أبو مسلم إلى نَصْر والكرماني: إن الإمام أوصاني بكما. ثم أقبل بمنْ معه حتى نزل خَنْدقَيْهما، فهابه الفريقان. وبعث إلى الكَرْماني: إني معك. فقَبِل ذلك، وانضمَّ أبو مسلم إليه، فاشتدَّ ذلك على نَصْر، وأرسل إلى الكَرْماني يخوِّفُه مِنْ أبي مُسْلم، ويقول له: ادْخُل إلى مرْو، واكتب بيننا كتابًا بالصُّلْح، وهو يريدُ أنْ يفرِّقَ بينهما، فدخل الكَرْماني منْزِلَه، وأقام أبو مسلم في العسْكَر، وخرج الكَرْماني حتى وقف في الرَّحْبَةِ[3] في مائة فارس وأرسل إلى نَصْر أن اخرج لنكتب الكتاب.

(١) الحارك: أعلى الكاهل.
(٢) سعد وعمرو ومالك: من رجالات تميم.
(٣) الرحبة: الساحة المتسعة، أو الأرض الواسعة.

فلما نظر نَصْرٌ إلى غِرَّة الكَرْماني أرسل إليه ثلاثمائة فارس، فاقتتلوا قتالاً شديدًا فطُعِنَ الكَرْماني في خاصرته، فخَرّ عن دابَّتِهِ، وحماه أصحابه حتى جاءهم ما لا قِبل لهم به. فقتل نَصْر الكرماني وصلَبه، وصلَب معه سمكة.

فأقبل ابْنُه عليٌّ وقد جمع جمْعًا كثيرًا، وانضمَّ إلى أبي مسلم، وقاتلوا نَصْر بن سيّار حتى أخرجوه من دارِ الإمارة. ودخل أبو مسلم مرْو على ما نذكر ذلك إن شاء الله في أخبار الدولة العباسية.

قال: ولما رأى نَصْرٌ قوةَ أبي مُسْلم كتب إلى مرْوان بن محمد يُعْلِمُه حال أبي مسلم وخُروجه وكثرةَ منْ معه، وأنه يدعو إلى إبراهيم بن محمد، وكتب إليه بأبياتِ شِعْرٍ، وهي: [من الوافر]

أرى بيْنَ الرَّمادِ ومِيضَ نارٍ ... فأوشك أنْ يكونَ له ضِرامُ
فإنَّ النار بالعُوديْنِ تُذْكَى ... وإنَّ الحرْب مبدؤُها كَلامُ
فقلْتُ من التَعجُّب ليْتَ شِعْرِي ... أأيقاظٌ أُميَّةُ أم نِيامُ

فكتب إليه مرْوان: إن الشاهد يرى ما لا يرى الغائب، فاحسم الثُّؤْلُول[1] قِبلَك.

فقال نصر: أمّا صاحِبُكم فقد أعْلَمكُم أنَّهُ لا نَصْر عِنده.

وكتب نصر إلى يزيد بن هبيرة بالعراق يستمدُّه. فلما قرأ كتابه قال: لا تكثر، فليس له عندي رجل. ثم قبض مرْوان على إبراهيم الإمام وحبسه، وكان من أمره ما نذكره إن شاء الله في أخبارهم.

ذكر خبر أبي حمزة المختار ابن عوف الأزدي البصري مع طالب الحقّ عبْد الله بن محمد بن يحيى الحضرمي

كان المختار من الخوارج الأباضِيّة[2]، وكان يُوافِي مكة في كل سنة يدْعُو الناس إلى خِلافِ مرْوان بن محمد، فلم يزل كذلك حتى وافَى عبْد الله بن محمد بن يحيى الحضرمي المعروف بطالب الحقّ في آخر سنة ثمان وعشرين ومائة، فقال له: يا

---

(١) الثؤلول: البثر الصغير.
(٢) الإباضية: فرقة من الخوارج، تنسب إلى عبد الله بن إباض التميمي.

رجُل، أسْمعُ كلامًا حسنًا، وأراك تدعو إلى حقّ، فانْطَلقْ معي، فإني رجُلٌ مُطَاعٌ في قومي، فخرج حتى ورد حضْرموت، فبايعه أبو حمزة على الخِلافَةِ، ودعا إلى خِلاف مرْوانَ، وقد كان أبو حمزة اجتاز مرَّة بمعْدِن بني سُلَيم[١]، والعامِلُ عليه كثير بن عبْد الله، فسمع كلام أبي حمزة فجلده أرْبعين سوطًا، فلما ملك أبو حمْزَةَ المدينةَ على ما نذكره تغيَّب كثير.

وفي هذه السنة قدم أبو حمزة إلى الحجّ من قِبل عبْد الله بن محمد طالب الحقِّ، فبينما الناس بعرفة ما شعروا إلاَّ وقد طلعتْ عليه أعلامٌ وعمائمُ سُود على رؤوس الرماح، وهم سبْعمائة، ففزِع الناس، وسألوهم عن حالهم، فأخبروهم بخلافِه مرْوان وآله، فراسلَهُمْ عبْدُ الواحد بنُ سليمان بن عبْد الملك، وهو يومئذ على مكَّةَ والمدينة، وطلب منهم الهُدْنَةَ أيام الحج، فقالوا: نحن بحجِّنَا أضَنُّ وعليه أشحّ، فصالحهم على أنهم جميعًا آمِنُون بعضهم من بعض حتى تَنْفر الناسُ النفر الأخير، فوقفوا بعرفة على حِدة، ودفع بالناس عبْدُ الواحد ونزل بمنزل السلطان بِمنى، ونزل أبو حمزة بقُرين الثَّعالب. فلما كان النفر الأول نَفر عبْد الواحد وأخلى مكَّة فدخلها أبو حمزة بغير قتالٍ، فقال بعضهم في عبد الواحد: [من الكامل]

زار الحجيجَ عِصابةٌ قد خالفوا ... دِيْنَ الإلٰه ففَرَّ عبْدُ الواحد

تركَ الحلائِل والإمارةَ هارِبًا ... ومضى يُخَبِّطُ كالبعِير الشارِدِ

ومضى عبْد الواحد حتى دخل المدينة، وزاد أهلَها في العطاء عشرة عشرة، واستعمل عبْد العزيز بن عبْد الله بن عمرو بن عثمان، فخرجوا حتى وصلُوا العقِيق، وأتَتْهم رسلُ أبي حمزة يقولون: إنَّنا واللهِ ما لنا بقِتَالِكم مِنْ حاجة، دعُونا نمضي إلى عدُوِّنا.

فأتى أهْلُ المدينة وساروا حتى نزلوا قُديْدًا[٢]، وكانوا مُتْرفين ليسوا بأصحابِ حرْب، فلم يشعروا إلاَّ وقد خرج عليهم أصحاب أبي حمْزَة من الغِياض فقتلوهم. وكانت المقْتَلَةُ في قريش، فأُصِيب منهم عددٌ كثير، وقدم المنهزمون المدينة، فكانت المرأةُ تُقيم النوائح على حمِيمها، ومعها النساءُ فتأتيهم الأخبارُ عن رِجالهم، فيخرجن امرأةً امرأةً كلُّ واحدة تذهب لقَتْل رجُلِها فلا يبقى عندها امرأة، وذلك لكثْرةِ منْ قتل.

---

(١) معدن بني سليم: من أعمال المدينة على طريق نجد.

(٢) قديد: موضع قرب مكة.

قيل: كان عدد القتلى سبعمائة، وكانت هذه الوقعة لسبع مضَين من صفر سنة ثلاثين ومائة. والله أعلم.

ذكر دخول أبي حمزة المدينة
على ساكنها أفضل الصلاة والسلام

قال: ودخل أبو حمْزَة المدينة في ثالث عشر صفر، ومضى عبْد الواحد إلى الشام.

ولما دخل أبو حمْزَة رقي المنبر فخطب، وقال: يا أهْل المدينة، مررت زمانَ الأحول ـ يعني هشام بن عبد الملك ـ وقد أصاب ثِمارَكم عاهةٌ، فكتبْتُم إليه تسألونه أنْ يضَع عنكم خَرْصكم[1]. ففعل فزاد الغَنِيُّ غِنًى والفَقِيرُ فقرًا، فقلتم له: جزَاكَ اللّهُ خَيْرًا، فلا جزاكم اللّهُ خيرًا، ولا جزَاه. واعلموا يا أهْل المدينة أنَّا لم نَخْرُجْ من ديارنا أشَرًا ولا بطَرًا، ولا عبثًا ولا لدولة ملك نُرِيد أن نخوضَ فيه ولا لثَأر قديم نِيْل منا، ولكنا لمَّا رأيْنَا مصابيح الحقِّ قد عُطِّلَت، وعُنِّف القائل بالحق، وقُتِل القائمُ بالقِسْط ـ ضاقَتْ علينا الأرْضُ بما رحُبتْ، وسمعْنَا داعِيًا يدْعُو إلى طاعةِ الرحمٰن وحُكْم القرآنِ، فأجبْنَا داعِي الله، ومنْ لا يُجِبْ داعِي الله فليس بمُعْجزٍ في الأرضِ؛ فأقبلناَ من قبائل شتّى، ونحن قليلون مستَضْعفُون في الأرض، فآوانَا وأيَّدنَا بِنَصْرِه، فأصبحنا بنعمته إخوانًا.

ثم لَقِينا رجالَكمُ فدعوْناهم إلى طَاعةِ الرحمٰن، وحُكْم القرآن، فدعوْنَا إلى طاعة الشيطان وحُكْم بني مرْوان، فشتَّانَ ـ لعمْرُ اللّهِ ـ ما بيْنَ الغيّ والرُّشْدِ. ثم أقبلوا يُهْرعُون قد ضَرب الشيطانُ فيهم بجِرانِه[2]، وغلَتْ بدمائِهم مراجِلُه، وصدق عليهم ظَنُّه، وأقبل أنصار الله تعالى كتائب بكلّ مُهَنَّدٍ ذي روْنَق، فدارت رحانَا، واستدارت رحاهُمْ بضَرْب يرتابُ منه المُبْطِلُونَ.

وأنتم يا أهْل المدينة إنْ تَنْصُروا مرْوان وآل مرْوانَ يُسْحِتكم[3] اللّهُ بعذاب من عنده أو بأيدينا، ويشْفِ صدور قَوْم مؤمنين.

يا أهل المدينة؛ أوَّلُكم خَيْرُ أول، وآخركم شرٌّ آخر، يا أهل المدينة، أخبروني عن ثمانية أسهم فَرضَها اللّهُ تعالى في كتابه على القويِّ والضعيف، فجاء تاسعٌ ليس له فيها سهْمٌ، فأخذها لنفسه مُكَابِرًا محاربًا ربَّه.

---

(١) الخرص: الحزر والتقدير.
(٢) جران الشيطان: ثقله.
(٣) يسحتكم الله: يستأصلكم.

يا أهلَ المدينة، بلغني أنكُم تنتقصون أصْحابي، قلتم: شبابٌ أحداث، وأعرابٌ جُفاة، ويْحكُم وهل كان أصحابُ رسولِ الله ﷺ إلا شبابًا أحْداثًا، شباب والله، إنهم مُكْتَهِلُون في شبابهم، غَضَّةٌ عن الشرِّ أعْيُنُهم، ثقيلة عن الحقّ أقدامُهم.

قال: وأحسنَ السيرةَ مع أهل المدينة، واستمال الناس حتى سمعوه يقولُ: من زَنَى فهو كافر، من سرق فهو كافر، ومن شَكَّ في كُفْرِهما فهو كافر.

وأقام أبو حمْزَة بالمدينة ثلاثة أشهر، ثم ودَّعهم، وقال: يا أهل المدينة؛ إنَّا خارجون إلى مرْوان، فإنْ نظفَرْ نعدِلْ في أحكامكم ونحملكم على سنَّةِ نبيكم، وإن يكن ما تتمنَّوْن فسيعْلَمُ الذين ظلموا أيَّ مُنْقَلَب ينْقَلِبُون.

ذكر مقتل أبي حمزة

قال: ثم سار أبو حمْزَةَ نحو الشام، وكان مرْوان قد انتخب من عسكره أربعة آلافِ فارس، واستعمل عليهم عبْد الملك بن محمد بن عطية السعدي - سعْد هوازنَ - وأمره أن يجِدَّ السير ويُقَاتِل الخوارج، فإن ظفر فيسير حتى يبلغَ اليمن ويقاتل عبْد الله بن يحيى طالب الحق، فسار ابْنُ عطية، فلقي أبا حمْزَة بوادِي القُرى[1]، فقال أبو حمزة لأصحابه: لا تقاتلوهم حتى تختبروهم. فصاحوا بهم: ما تقولون في القرآن والعمل به؟ فقال ابْنُ عطية: نَضَعُه في جوف الجُوالق[2]. قال: فما تقولون في مالِ اليتيم؟ قال ابن عطية: نأْكل مالَه ونَفْجُر بأُمِّه - في أشياء سألوه عنها.

فلما سمعوا كلامه قاتلوه حتى أمْسَوْا فصاحوا: ويحك يا بْنَ عطية! إنَّ الله قد جعل الليل سكَنًا، فاسْكُنْ.

فأبى وقاتلهم، فانهزم الخوارجُ، وأتوا المدينةَ فقتلهم أهلُها، وسار ابْنُ عطية إلى المدينة، فأقام بها شهرًا وسار إلى اليمن، واستخلف على المدينة الوليد بن عُروة بن محمد بن عطية، وعلى مكة رجل من أهل الشام.

ذكر مقتل عبد الله بن يحيى المنعوت بطالب الحقّ وقَتْل ابن عطية

قال: وأقبل ابْنُ عطية إلى اليمن، فبلغ عبْد الله خَبرُهُ وهو بصنْعاء، فأقبل إليه

(١) وادي القرى: هو واد بين المدينة والشام من أعمال المدينة كثير القرى.

(٢) الجوالق: وعاء من صوف أو شعر أو غيرهما.

بمنْ معه، والتَقَوْا واقتَتَلُوا، فَقُتِل طالبُ الحق، وحُمل رأسه إلى مرْوان بالشام، ومضى ابْنُ عطية إلى صنْعاء، فدخلها وأقام بها، فكتب إليه مرْوانُ يأْمُرُه أنْ يُسْرِع السيْرَ ليحجَّ بالناس؛ فسار في اثني عشر رجلاً ومعه أربعونَ ألْف دينار، وخلَّف عسكَرهُ وخَيْلَه بصنْعاء؛ فبينا هو يسير أتاهُ ابنا جُمانة المراديّان في جمْعٍ كثير، فقالوا له ولأصحابه: أنتم لصوص، فأخرج ابْنُ عطيّة عهْده على الحج، وقال: هذا عهْدُ أمير المؤمنين، وأنا ابْنُ عطية. فقالوا: هذا باطل، وأنتم لصوص، فقاتلهم ابْنُ عطية حتى قُتِل في سنة ثلاثين ومائة.

ـ نعود إلى تتمة حوادث سنة تسع وعشرين ومائة:

في هذه السنة كان ظهورُ الدولةِ العباسية بخُراسان على ما نذكره في أخبار الدولةِ العباسية.

وفيها غلب عبْد الله بن معاوية على فارس على ما نذكر ذلك في أخبار آلِ أبي طالب.

وحجّ بالناس في هذه السنة عبد الواحد، وكان هو العامل على مكّةَ والمدينة والطائف وعلى العراق ابن هُبيْرة، وعلى خراسان نَصْرُ بن سيَّار، والفتنة قائمة.

سنة ثلاثين ومائة:

في هذه السنة دخل أبو مسلم الخُراساني مَرْو، وبايع الناس لبني العباس على ما نذكر ذلك إنْ شاء الله تعالى.

وفيها هرب نَصْر بن سيَّار عن خراسان.

وفيها كان من أخبارِ الدولة العباسية ما نذكره إن شاء الله تعالى.

وفيها غَزَا الوليد بن هشام الصائفة، فنزل العَمْق[1] وبنى حِصْنَ مرْعش.

وحجّ بالناس في هذه السنة محمدُ بن عبْد الملك بن مروان، وهو أمِيرُ مكَّةَ والمدينة والطائف.

سنة إحدى وثلاثين ومائة:

في هذه السنة مات نَصْر بن سيّار، ودخل قَحْطَبة الرَّيّ من قِبل أبي مسلم الخراساني، ثم دخل أصفهان، وفتحت شَهْرزور لبني العباس، وسار قَحْطَبةُ إلى العراق لقتال ابْنِ هُبيْرة.

---

(١) العمق: علم مرتجل على جادة الطريق إلى مكة بين معدن بني سليم وذات عرق.

وحجَّ بالناس في هذه السنة الوليدُ بن عُرْوة بن محمد بن عطية السعدي، وهو ابْنُ أخِي عبْد الملك بن محمد، وكان على الحجاز؛ ولما بلغه قتلُ عمه عبد الملك توجّهَ إلى الذين قتلوه، فقتل منهم مقْتَلةً عظيمة؛ وبقَر بطونَ نسائهم، وقتل الصِّبْيان، وحرق بالنار منْ قَدر عليه منهم، وكان على العراق يزيد بن هبيْرة.

سنة اثنتين وثلاثين ومائة:

في هذه السنة كانت هزيمة يزيد بن هُبيرة عامل العراق.

وفيها خرج محمد بن خالد بن عبْد الله القَسْرِي مُسوّدًا بالكوفة، وأخرج عامل ابْن هُبيرة منها على ما نذكر ذلك إن شاء الله تعالى.

وفيها كان انقضاءُ الدّوْلَةِ الأُموية، وابتداء الدولة العباسية، وبيْعةُ أبي العباس السفَّاح بالخلافة.

وسار عبْدُ الله بن عليّ بن عبْد الله بن عباس إلى مرْوان بن محمد بأمْر السفاح، فلقيه بِزَابِ الموْصِل، واقتتلوا، فانهزم مرْوانُ إلى مِصْر، فلحقه صالحُ بن علي أخو عبْد الله بِبُوصِير[1]، فقتله ليلةَ الأحد لثلاث بقين من ذي الحجة على ما نذكر ذلك إن شاء الله مبيّنًا في أخبار الدولة العباسية، جرْيًا في ذلك على القاعدةِ التي قدَّمْناها.

ولما قُتل مروانُ بن محمد كان له من العُمْر تسعٌ وخمسون سنة. وقيل: أقلّ من ذلك.

وكانت ولايته إلى أن بُويع للسفاح خمس سنين وشَهْرًا، وإلى أنْ قُتل خمس سنين وعشرة أشهر.

وكان نقش خاتمه: اذكر الموتَ يا غافلُ.

وكان له من الأولاد: عبْدُ الله، وعُبيد الله؛ هربا بعد قَتْله. فأما عبْد الله فقتله الحبشةُ، وعُبيد الله أعقب.

وقيل: إنه أُخذ وحُبس إلى أيام الرشيد، فمات ببغداد، بعد أنْ أضر.

كاتبه: عبد الحميد بن يحيى موْلَى بني عامر.

قاضيه: عثمان التيمي.

حاجبه: مقلار مولاه.

---

(١) بوصير: اسم لأربع قرى بمصر... (معجم ياقوت).

الأُمراء بمصر: منهم حسّان بن عتاهية، أقام ستة عشر يومًا ثم وليها حفْص بن الوليد، ثم عزله مرْوان وولّى جوهر بن سهل العجلاني، ثم بعثه مددًا إلى ابن هُبيرة، وولاّها المغيرة بن عُبيد الله، ثم توفي فولاّها عبْدُ الملك بن مروان بن موسى بن نصير.

القاضي بها: عبْدُ الرحمٰن بن سالم بعد أنْ صرف حسين بن نُعيم، ولم يزل بها قاضيًا إلى إمارة عبْد الملك بن يزيد.

جامع أخبار بني أمية

كانت مدةُ ولايتهم منذ خلص الأمْرُ لمعاوية بن أبي سفيان وإلى أنْ قُتل مروان بن محمد إحدى وتسعين سنة وتسعة أشهر وخمسة أيام، منها مدةُ عبْدِ الله بن الزُّبير تسع سنين واثنان وعشرون يومًا.

وعدة من ولّي منهم أربعة عشر رجلاً، وهم: معاوية بن أبي سفيان، يزيد بن معاوية، الوليد بن يزيد بن عبد الملك، معاوية بن يزيد بن معاوية، مرْوان بن الحكم، عبد الملك بن مروان، هشام بن عبد الملك، سليمان بن عبد الملك، عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى، يزيد بن عبد الملك، مروان بن محمد بن مروان، الوليد بن يزيد، يزيد بن الوليد بن عبد الملك، إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك، يزيد بن معاوية بن عبْد الملك، هذا وعليه انقرضت دولتهم بالمشرق، ثم قامت لهم دولة بالأندلس، سنذكرها إن شاء الله تعالى بعد ذِكْرِنا الدولة العباسية، وإنما فصلنا ما بين دولتهم بالمشرق ودولتهم بالمغرب وجعلنا الدولة العباسية بينهما لتكونَ أخبارُ الدولتين سياقةً، ولأن بعض أخبار الدولة العباسيّة متعلّقٌ بأخبار الدولة الأُموية، فإذا ذكرناها بعد لا ينقطع سِياق الأخبار، لأن دولتهم بالأندلس لم تكن تِلْو دولتهم هذه، بل كانت بعد سنين من قيام الدولةِ العباسية.

فصاروا إذًا كالخوارج عليهم، والله تعالى الموفق للصواب والهادي له بمنّه وكرمه.

تم الجزء الحادي والعشرون
ويليه الجزء الثاني والعشرون
وأوله: أخبار الدولة العباسية

فهرس المحتويات